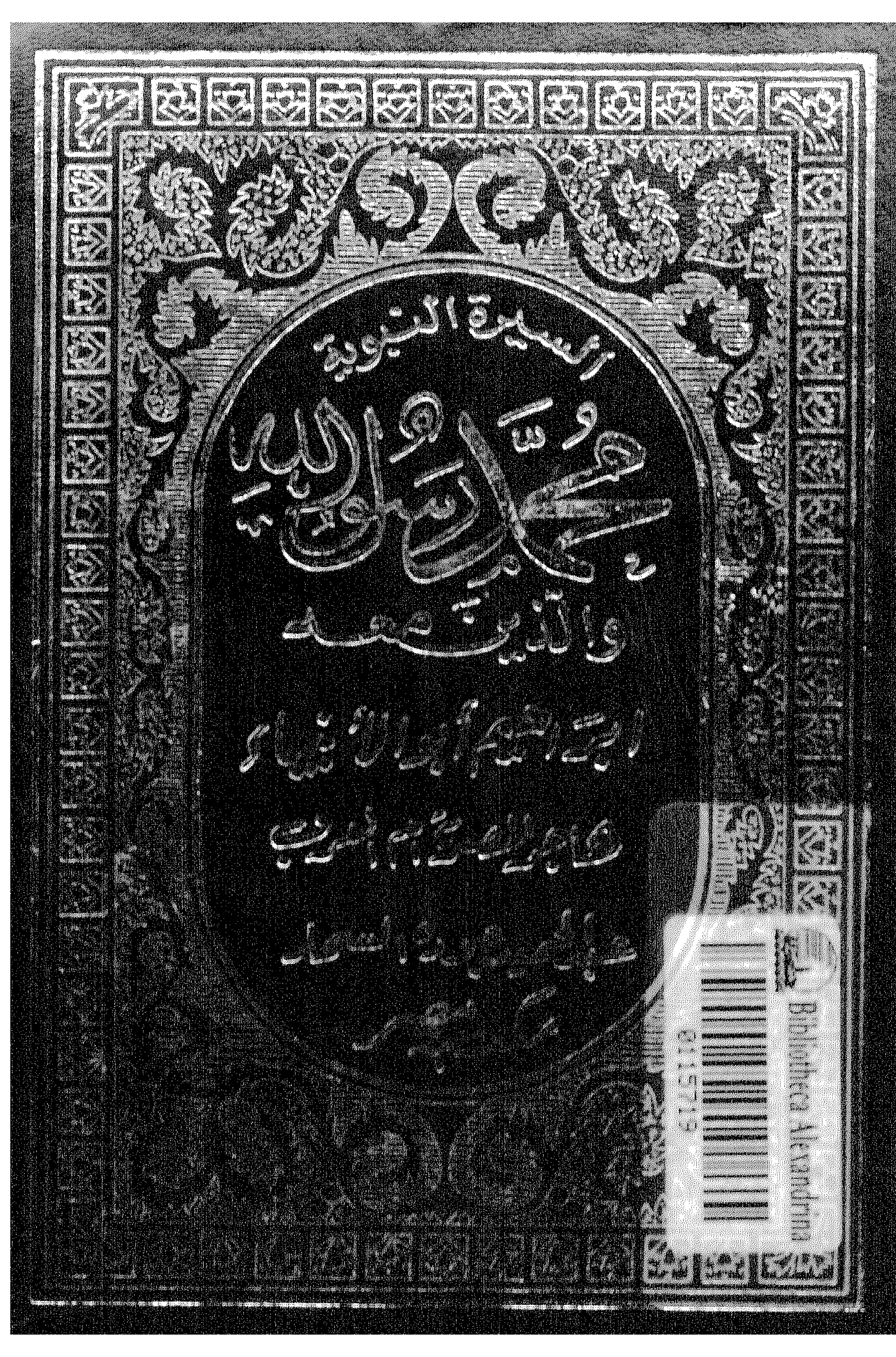

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
Bibliotheca Alexandrina

السيرة النبوية



ابراهيم أبو الأنبياء

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وجاهِدوا فى اللهِ حقَّ جهادِهِ هو اجتباكم وما جَعل عليكم فى الدّينِ من حَرجٍ ملةَ أبيكم إبراهيمَ هو سمّاكمُ المسلمين من قبلُ وفى هذا ليكونَ الرسولُ شهيدًا عليكم وتكونوا شهداءَ على الناسِ فأقيموا الصّلاةَ وآتوا الزكاةَ واعتصِموا باللهِ هو مولاكم فنعمَ المولى ونعمَ النّصير ﴾ .

« قرآن كريم »

١

نهض jjT SAI oi JjU: Sfrl^P ولبس AjtUp t C-aSsto إليه Jj جته JLcl
وكانت شابة وضيئة وقالت له :

— /\ ^ J Js• J oi* ipUl cr* Jill jjTl f

فابتسم أزر وقال لها :

— ولن أعود قبل أن يشرق علينا ربنا شماش إلٰه النور فى أفقه الشرق .

^ j ^ jji ^ Ojjjjor WrUoyL• iic ^ y ^ uju

J J*j :

— lrfuyi ^ JU oi كبير الكهنة J Jjl — SJ^ — jjC. <A — بعث إلى

لأصنع vi±c UJJV وخ V j ui * i ^ oVu JUJI rV > * jlj jtii c jl

il ناحور JaJ j il f j* i JJ ^ L Jjailj cJj i~i! ^ c Uj Afijjt U

. jJLSil

f w* l J[A jtj y LfLi :

— i' i~ y £> ' i' ^ J (^ il j ، Jjl J لا أظن أن فى بابل *— Lfr

dr i —* 1 J ^ *A .

فتشبث ب cJlij J JVi ;

— خذنى معك إلى بابل ، فأنا فى شوق إلى الركوع فى معبد مولانا مردوخ

. fiW

i^-Ui آ jj وهو يصوب a J0 J} Ifloj j:J-il Jlij :

— j iuJl dL£Jt 4» V T J L- جو ألا يكون J diiaj ^ dU U dJjiiX O*

الركوع .

وذهبت إلى تمثال للإلـٰه كان زوجها قد فرغ من صنعه قبل أن يقوم ليتناول عشاءه ، وحملته بين يديها وعادت فوضعته أمامها فى توقير ، وجاهدت لتركع ، إلا أنها أحست ألما ارتسمت آثاره على محياها ، فخف إليها آزر ولف ذراعه حولها فى حنان وقال :

ــ لا جدوى من تعذيب نفسك فقد دنت أيام وضعك . ولن أستطيع أن آخذك معى .

فقالت فى أسى :

ــ كنت أرجو أن أقدم قربانا لرب الأرباب وإلـٰه الآلهة أجمعين .

ــ غدا إن شئت نذهب إلى المعبد ونقدم إلى إلـٰهنا نانَّا ، إلـٰه القمر العظيم ، قربانا نتقرب به إليه .

ــ كنت أتمنى أن أقدم القربان إلى رب الأرباب مردوخ .

كان يؤمن فى قرارة نفسه أن مردوخ هو سيد الآلهة جميعا ، وأن نانا هو إلـٰه مدينتهم أور وهو نفسه الإلـٰه سين إلـٰه القمر ، وأن ولديه شماش القاضى الأعظم إلـه الشمس ، وعشتار العطوف إلـٰهة اللذة ، إن هى إلا آلهة فقدت كثيرا من سلطانها بعد أن انتصر عليها جميعا مردوخ ، إلا أنه رأى أن يطيب نفسها فقال لها مواسيا :

ــ إن نانا يمثل مردوخ هنا فى بلادنا ، فإن قدمت إليه قربانا فكأنما قدمت قربانا إلى مردوخ العظيم .

فقالت فى نبرات تنم على أنها غلبت على أمرها :

ــ سأفعل ، بيد أنى أرجو إذا ما وصلت إلى بابل أن تقدم إلى رب الأرباب قربانا عنى ، لعله يغفر لى سيئاتى ويبارك فى عمرى .

ــ أنا واثق أن حياتك كلها حسنات لا تشوبها شائبة من خطايا . أنت

بركة يا إيمتالى ، ولتطيلن الآلهة أيامك على الأرض .

وقادها فى رفق إلى حيث كان فراشها وعاونها على أن تتمدد فيه ، ثم طفق يلثمها هنا وهناك فى هيام ، فرنت إليه بعينيها الواسعتين يشع منهما حب ورضا واستسلام وقالت :

ـــ ظلمك أبوك إذ سماك آزر ، كيف يدعوك « النار » وأنت رقيق أرق من النسيم ؟! لعل نجومه خانته يوم نظر فيها ليختار لك اسما .

فرفت بسمة عذبة على شفتى آزر وقال :

ـــ ما خابت أبدا نظرة أبى فى النجوم . أنا وديع يا حبيبتى ما دمت إلى جوارك لأنك لا تحركين غضبى ؛ أما إذا ثرت فإنى أضطرم كالنار وألتهم كل ما يعترض سبيلى .

وانتصب قائما وقال لها :

ـــ نامى يا حبيبتى فى رعاية البعول السادة الكرام آلهتنا العظام .

ودار على عقبيه وانطلق إلى الباب وفتحه ثم أغلقه فى رفق وراءه . كانت الليلة حالكة السواد ، اختفت فيها جبال أور فى الظلام ، وبدت السفن الراسية فى الميناء كأنها أشباح ، وعكست صفحة الماء خيوطا واهنة من الضوء . وملأ السكون نفس آزر خشوعا فراحْ ينزل فى الدرج الموصل إلى الطريق فى تؤدة ، فقد بنيت بيوت أور فوق الروابى لتأمن من غوائل الفيضان ، إذ تقع المدينة عند مصب النهرين العظيمين دجلة والفرات اللذين يجريان بالخيرات .

وأحس آزر أن روحه تتصل بروح الكون العظيم ـــ وبرغبة جامحة فى إقام الصلاة ، فرفع بصره إلى السماء ونظر فى النجوم فألفى كوكب المشترى بازغا فاستشعر أمنا ، فإلٰهه مردوخ رب الأرباب يرعاه ، فراح يتلو فى حرارة وابتهال وعيناه لا تحيدان عن المشترى سيد الآلهة جميعا :

ــ أى مردوخ العظيم ، أى ربى ورب الآلهة جميعا ، لقد قضت حكمتك ألا تغمض عينك أبدا عن عبيدك ورعاياك ؛ فى النهار يكون عبيدك فى كنف شماش إلـٰه النور ، وفى الليل يرعاهم نانا إلـٰهنا القمر العظيم ، وإذا غاب نانا ففى السماء الزهرة عشتار العطوف . إنها جميعا بأمرك تأتمر ، فإذا اختفت فى رحلتها الدائمة عن عيوننا ، وإذا ما عجزت بصائرنا عن أن تدركها ، تجليت علينا بنورك لأنك أرأف بنا من أن تترك دنيانا دون أن تتردد فى جنباتها الأنفاس الطاهرة ، أنفاس الآلهة الرحيمة بعبادها .

أى ربى مردوخ ، إنى ذاهب إلى ناحور ، إلى من أسديت إليه النعمة الكبرى ، ورفعت عن عينيه الغطاء ليرى قبسا من أسرارك ويقرأ المسطور فى لوح قدرك ، لأستشيره فى أمر خروجى إلى معبدك المطهر فى بابل ؛ فأطلعه يا إلـٰهى على ما خبأته لى فإنى تارك إيمتالى زوجتى العزيزة فى وقت هى فى أشد الحاجة إلىّ إكراما لوجهك . أى ربى مردوخ ، تقبل دعائى وسدد خطاى واهدنى سواء السبيل ، ووفقنى لأن أصنع لك تمثالا يليق بعظمتك يوم عيدك الكبير ، ترضى عنه ويرضى عنه ملكنا وإلـٰهنا النمروذ ، ويرضى عنه الـ « أوريجاللو » كبير كهنتك ، ويرضى عنه الناس أجمعون .

وسار وهو لا يرفع عينيه عن كوكب المشترى رب الأرباب مردوخ ، وفى القلب إيمان وفى المقلتين دموع وعلى الشفتين تسبيح ، حتى إذ بلغ بيت أبيه راح يرقى فى الدرج ثم طرق الباب فى رفق . ومرت لحظات قبل أن ينفرج الباب عن جارية فى عينيها آثار النوم ، وتملأ أنفه رائحة البخور ، فقال للجارية :

ــ أبى فى غرفته ؟

فهزت رأسها أن نعم دون أن تنطق حرفا ، وأخذت تفرك عينيها بيديها ثم تثاءبت وأغلقت الباب خلفه ، وانطلق إلى حيث كان البخور يتصاعد فوقعت

عيناه على أبيه فقال :

ـــ عم مساء يا أبى .

ـــ آزر ؟!! مرحبا بك يا بنى . ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟

قال آزر ويده فى يد أبيه :

ـــ أرسل إلىّ الـ « أوريجاللو » كبير كهنة إلـٰهنا مردوخ ؛ لأصنع تمثالا للإلـٰه فى احتفالات العيد الكبير ، فجئت لتشير علىّ بما أفعله .

فراح ناحور يقلب كف ابنه فى يده ويقول :

ـــ أصابع صانع ماهر ، علمتك كيف تصنع تماثيل الآلهة فتفوقت علىّ وصرت أمهر صانع فى البلاد ، حتى إن الـ « أوريجاللو » يبعث فى طلبك ليكون لك هذا الشرف العظيم ، شرف صنع تمثال إلـٰهنا مردوخ فى عيده الكبير ، العيد الذى تفد فيه الآلهة كلها إلى معبده المعظم لتقدم له الطاعة والولاء والخضوع .

فقال آزر وقد غض من بصره حياء :

ـــ إنما الفضل لك يا أبت .

ـــ أنا فخور بك يا بنى .. أنت نعمة عظمى .. أنت مبارك يا آزر .. سيكون لك شأن عظيم يا بنى .. رأيت فى المنام أن نورا أضاء السماء قد خرج من صلبك . اسمع نصيحتى يا بنى : قدم الخضوع لإلـٰهنا كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور . ليكن قلبك نقيا أمام ربك ، فهذا ما يرضى به المعبود من العبد . إن أنت قدمت له التوسل والدعاء والصلاة والسجود فى كل صباح ، فسيمنحك كل الكنوز ، وستزدهر أيامك بفضل منه . ثم عليك بالخوف فإن الخوف يولد الرفق ويرقق العاطفة . وإياك أن تنسى التضحية ، فإن التضحية تطيل العمر . والصلاة الصلاة فإن الصلاة تخلص من الإثم .

ـــ إنى يا أبت عبد مطيع .

ـــ اقترب يا بنى لأرقيك .

واقترب آزر من أبيه ، وراح ناحور يلقى البخور فى النار ويرتل بصوت أقرب إلى الهمس :

السيد العظيم الإلـٰه مردوخ أرسلنى .
لقد أحل رقيته المقدسة مكان رقيتى ،
ووضع فمه المقدس مكان فمى ،
ووضع لعابه المقدس مكان لعابى ،
ووضع صلاته المقدسة مكان صلاتى .
يأيتها الأرواح الشريرة ارجعى عن آزر .

ثم ألقى ناحور فى النار بصورة ترمز إلى الشرور ، وراح يرقبها والنار تأكلها وهو باسر الوجه ، حتى إذا ما أتت عليها تهللت أساريره ، والتفت إلى ابنه وهو يبتسم وقال :

ـــ اذهب ونم ، وفى الفجر نخرج إلى المعبد لنرى ماذا سطر لك فى لوح القدر .

ونهض آزر ونام حيث اعتاد أن ينام قبل أن يتزوج،وقبيل الفجر أحس يدا تهزه فى رفق ففتح عينيه ، فرأى أباه قائما عند رأسه يقول له :

ـــ قم فتطهر لنذهب إلى المعبد .

وقام آزر واغتسل ، ولما انتهى من تطهره ألفى أباه قد ارتدى ثوبا أبيض وتأهب للخروج ، فانطلقا فى عماية الصبح إلى المعبد وفى يد آزر شاة .

وقال ناحور لابنه وهو ينظر إلى الشاة :

ـــ ما أرأف الآلهة بنا ، كان أجدادنا يتقربون إليها بذبح أبنائهم ، ولكنها شفقة منها علينا أعلنت بقبولها أن نضحى لها بحيوان برىء من العيوب ؛ ألا ما أرحم الآلهة !

ـــ رأيت يا أبي رجلا يذبح ابنه فى مذبح شماش قربانا وزلفى .

ـــ إنه نذر نذرا للإلـٰه وكان عليه أن يفى بنذره .

ـــ نذرت إن وضعت إيمتالى أنثى أن أهبها للمعبد .

ـــ أتطمح أن تصبح كاهنة ؟

ـــ لتكن مشيئة الآلهة سواء عندى أكاهنة كانت أم كانت مغنية أم فتاة من فتيات الهوى ما دامت هذه مشيئة الآلهة .

ـــ لتفعل الآلهة بنا ما تشاء .

ودخل إلى المعبد ، ووضع ناحور موقدا أمام نانا وشماش ومردوخ ، ووضع أربع أوان من نبيذ السمسم على مائدة خلف كل موقد ، ووضع أرغفة ومزيجا من الزبد والعسل وبعض الملح . وراح ناحور ينفخ الموقد أمام نانا إلـٰه القمر وحارس مدينة أور ، ثم أخذ آزر فى يده وشخص ببصره إلى تمثال الإلـٰه وراح يتلو فى خشوع :

ـــ آزر خادمك . ألا فاسمح له يا إلـٰهى أن يقدم التضحية لجلالك ، ألا وارض عنه يا إلـٰهى بحق وجهك الكريم .

وتناول ناحور الشاة وذبحها فى المذبح وهو يتلو :

ـــ الحمل فداء لآزر ؛ لقد قدم حملا فداء عن حياته .. قدم رأس الحمل فداء عن رأسه .. قدم عنق الحمل فداء عن عنقه .. قدم صدر الحمل فداء عن صدره ، فتقبل منه تضحيته وبح له بسرك .

وشق بطن الشاة وأخرج منها الكبد مقر الحياة ، وأخذ ينعم النظر فيها ليرى نوايا الإلـٰه ، ليقرأ ما سطره لصاحب القربان فى لوح قدره . ولاح فى وجه ناحور الاهتمام ، ودنا آزر منه وهو يحبس أنفاسه ، ومرت لحظات قلقة ثم قال ناحور :

ـــ إيمتالى .. إيمتالى ..

فقال آزر فى فزع :

ــ ما بالها ؟

ــ تلد .. لا ، إنها لا تلد أنثى بل تضع غلاما .. غلاما يقترن اسمه بالسماء .. غلاما له شأن عظيم ..

فقال آزر فى لهفة :

ــ وماذا ترى أيضا يا أبى ؟

ــ الطريق إلى بابل آمن .. اخرج مع القافلة التى ترحل بعد غد .

وقطب ناحور وجهه ولاح فيه خوف ، فأحس آزر رهبة وقال :

ــ ماذا ترى أيضا يا أبى ؟. قل .. قل كل شىء .. لا تخف عنى شيئا ..

فقال ناحور فى صوت فيه رنة أسى :

ــ سحب داكنة تحجب وجه القمر .. وجه نانا ، وكسوف يغشى وجه شماش ، وأصنام الآلهة تخر على وجوهها .. خطب نازل .. شر مستطير .. آلهتنا تختفى .. تختفى إلى حين .. أنت .. أنت تحجبها .

وصمت ناحور وقال آزر فى لهفة :

ــ ثم ماذا ؟

فقال ناحور فى يأس :

ــ لم أعد أرى شيئا .. بردت الكبد و لم تعد فيها حياة .

ولاح فى وجهى الأب والابن وجوم ، والتفتا إلى حيث كان تمثال الإلـٰه مردوخ رب الأرباب وكبير الآلهة وفى قلبيهما رهبة ، وفى صدريهما ضيق ، ضيق من أتى فى حق الأرباب أمرا إدا .

كان تمثال مردوخ قائما فى مكانه بأذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى فهمه العميق الذى لا يحد ، يحمل سلاحه المقدس الذى قهر به تيامات إلـٰـة الفضاء ، فمنحه سائر الآلهة حق تقرير المصائر مكافأة له ، وربض تحت قدميه الوحش

الذى أخضعه ، كان ذلك منذ بدء الخليقة .

وتقدم ناحور نحو كبير الآلهة فى خشوع ، خافض الرأس خافق القلب ، يحاول أن يستجمع ذهنه الذى ذهب شعاعا من هول ما رأى فى كبد شاة التضحية ، قبل أن تختفى كل رؤية ، وراح يتلو من أعماقه فى حرارة وإيمان وابتهال :

ـــ يا خالق البشر ، يا ساحر الآلهة وإلٰه الكهنوت ، اغفر لى خطيئتى إن كنت أخطأت فى حق الأرباب ؛ لم تنطق شفتاى إلا بما رأت عيناى فى كبد الأضحية ، وقد رأتا ما أوحيت إلىّ وكشفت لى عن أسراره ، فإن كان ما رأت عيناى وحى شيطان ، فاعف عنى فقد جئت أستوحيك وقلبى عامر بالإخلاص .

وسالت العبرات على خدى ناحور فأحس كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره ، والتفت إلى آزر والدموع تملأ عينيه ، ثم سار وسار ابنه فى أثره وهو صامت حائر لا يدرى تأويل ما تنبأ به أبوه ، وقد عجز عن أن يربط بين النور الذى رآه أبوه فى منامه يخرج من صلبه ليضىء السماء ، وبين أصنام الآلهة التى انكفأت على وجوهها يجللها الخزى والعار .

٢

ودع آزر إيمتالى وتركها فى رعاية تمثالين كبيرين رائعين أحدهما لكبير الآلهة مردوخ والآخر لنانا ، وتماثيل كثيرة للآلهة جميعا ، ثم خف ليلحق بالقافلة الخارجة من أور والمنطلقة إلى بابل لتبلغها قبل أول نيسان ، حتى يتمكن رجالها ونساؤها وشبانها وشاباتها من الاشتراك فى عيد رأس السنة ، عيد مردوخ الرائع الذى تفد فيه الآلهة من مدنها لتشترك فى عيد كبيرهم العظيم .

امتطى آزر حماره وسار فى طريق منحدر على جانبيه بيوت من الآجر شيدت على الروابى لتأمن خطر الفيضان ، ورأى على مرمى بصره ميناء أور وقد رست فيها السفن تحمل الذرة والسمسم والقمح وقام حولها الصناع يشيدون السفن أو يصلحونها . سار والسور الذى ضرب حول المدينة ليحميها من غضب النهرين إذا فاضت مياههما ، ودار مع الطريق فصارت الميناء خلفه ، ولاح على البعد الحرم المقدس وقد قامت فيه معابد الآلهة ، طبقات من الآجر مدرجة فى ارتفاعها . كان بصره لا يرى إلا جدرانها أما بصيرته فكانت ترى ممراتها وحجراتها وتماثيل الآلهة التى صنع أغلبها بيديه وكساها الذهب والفضة .

وخلف وراءه الشوارع الضيقة وانساب فى سهل شنغار المترامى على مدى البصر ، بين حقول القمح المتموج كالذهب، وقطعان الغنم والبقر وأشجار النخيل السامقة تكاد تسد الأفق .

ولاحت القافلة لعينيه فلكز حماره يحثه على الإسراع ، ويرجو أن يجد بين الخارجين إلى بابل بعض أصحابه ، فما أقسى السفر الطويل بلا رفيق . وراح

يطوى الأرض وفى قلبه حرارة وشوق وفى رأسه أفكار ، فما استطاع أن ينسى نبوءة أبيه . كان يسترجع كل ما كان بينهما بعد أن غادر المعبد . « هل تطهرت يا آزر ؟ ألم ترتكب شيئا يغضب الآلهة يا بنى ؟!.. أنا عبد مؤمن مطيع يا أبى .. ما الذى كسف الشمس وخسف القمر ؟!.. وما هذا الضوء الذى خرج من صلبك لينير السماء ؟!.. لعله وحى شيطان .. إذا قدمت يا بنى على مردوخ العظيم فابتهل إليه أن يرضى، وصل له فى خشوع وقدم له عجلا سمينا ليغفر لنا ذنوبنا ويغمرنا برحمته » .

وعادت إلى ذهنه صورة مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب وقد انكفأ على وجهه ، فارتجف رعبا وراح يطرد ذلك الخاطر من رأسه ، ويهرع ليلحق بالقافلة التى صارت على مرمى حجر منه .

كانت القافلة تموج بالناس والدواب موجا ، شيوخ وعجائز ورجال ونساء من كل الطبقات ؛ من « العاميلو » الأحرار رجال الدين وموظفى الدولة ، و « المسكينو » أبناء الطبقة الوسطى ، والعبيد الذين كانوا يوقدون النيران بنوى البلح أو يسحقونه ليطعموا به البقر والحمير والبغال ، أو يغدون ويروحون بالأحمال على ظهور الرواحل تأهبا للمسير .

وراح آزر يجوس بين الناس يتلفت يمينا ويسارا يتفرس فى الوجوه بحثا عن صديق . ووقعت عيناه على سحن يألفها ، وألقى السلام على كثيرين وابتسم لكثيرين ، بيد أنه لم يجد بينهم من تبتهج روحه بصحبته طوال الطريق ، وسمع صوتا يناديه :

— آزر !.. آزر !

فراح يتلفت فى فرح فصاحب الصوت صديق حميم ، والتقت عيناه بعينى الصديق فى ابتهاج :

— لوجال أيها العزيز ، أذاهب أنت إلى بابل ؟!

وأشرق وجه لوجال بابتسامة عذبة وقال :

ــ الحق أنى ترددت كثيرا قبل الخروج ، قلت فى نفسى : « إن الاحتفال بعيد رأس السنة فى أور كالاحتفال به فى بابل ، لا فرق بينهما إلا أن الملك يحضر احتفالات بابل بنفسه ، أما احتفالات أور فهو لا يشرفها بحضوره بل يرسل ملابسه لتحل مكانه فى المراسيم .

فقال آزر فى إيمان :

ــ بابل أرض مردوخ الطاهرة ، إنها مباركة .

فضحك لوجال وقال :

ــ أقول رأيى ولا تغضب ؟.

ــ قل ولا تقدح فى آلهتنا ، فأنا أعرفك سومرى متعصب .

ــ الصلاة فى معبد شماش كالصلاة فى معبد نانا . كالصلاة فى معبد عشتار ، كالصلاة فى معبد مردوخ .

ــ لا ، لا يا لوجال ، من قال إن الصلاة فى معبد كبير الآلهة ورب الأرباب كالصلاة فى معبد الأتباع والأبناء ؟

ــ ألم يكن إنليل كبير الآلهة وربَّ الأرباب ؟

ــ كان ذلك قبل أن تنفيه الآلهة الأخرى فى مدينة « نفر » .

ــ أنا لا أدرى لماذا نفته الآلهة .

ــ فى الوقت الذى لم يكن الإنسان قد خلق بعد ، يوم كانت مدينة « نفر » لا يسكنها إلا الآلهة ، كان إنليل إلـٰه الهواء هو رب الأرباب ، وكانت ننليل عذراء المدينة ، وكانت أمنية أمها العجوز أن تزوج ابنتها من فتى مدينة الآلهة ورب الأرباب .

وذات يوم دعت الأم ابنتها وقالت لها :

ــ تمشى يا ابنتى العزيزة على شاطئ النهر ، وفى المجرى الصافى اغتسلى

يا حبيبتى ، فإن ذا العينين المشرقتين ، إنليل العظيم ، الرعى الذى بيده المصائر سيراك وسيشغف بك حبا .

فاتبعت ننليل نصائح أمها مغتبطة مسرورة ، وبينا هى تمشى على الشاطئ بعد أن اغتسلت فى المجرى الصافى ، رآها الأب إنليل وفتن بجمالها ، وراودها عن نفسها فأبت ، فحملها إلى قارب فى النهر واغتصبها ، فحملت سين إلـٰه القمر .

وفزعت الآلهة لما ارتكبه « إنليل » ، وقبضت عليه وقالت له : أيها الفاسق اخرج من المدينة .

وذهب إنليل إلى العالم السفلى ، إلى العالم الذى لا رجعة منه .

ـــ أيعقل أن يرتكب أنليل مثل هذه الحماقة ؟

ـــ لقد ارتكبها .

وراح لوجال يرتل فى حماسة :

ـــ إنليل ذو الأمر ، إنليل الذى كلمته مقدسة ، الرب الذى لا يبدل كلامه ، الذى يقدر المصائر إلى الأبد ، الذى تبصر عيناه المتفرستان جميع الأقاليم ، الذى يتغلغل نوره المتعالى فى ضمائر البلدان جميعا ، يرتكب هذا الإثم ؟

ـــ أجل ، ليلقى مصيره المحتوم ، ليعيش فى العالم الأسفل ، العالم الذى لا رجعة منه ، ليكون عبرة للبشر .

ـــ إنليل الذى يقدر المصائر يلقى مصيره ؟! إنليل الذى بحكم إرادات القوة والسيادة والإمارة يخضع للقوة ؟! إنليل الذى تسجد له آلهة الأرض خشية ورهبة ، وتتذلل أمامه آلهة السماء يخضع للآلهة الأخرى ؟! إنليل الذى شعائره ومناسكه المطهرة مثل الأرض ثابتة لا يمكن محوها يرتكب مثل هذا الإثم ؟! إنليل الذى رهبته وخشيته تضاهيان السماء ، وظله منتشر على جميع

الأقاليم ، وتساميه يبلغ قلب السماء يتردى فى المعصية ؟ إنليل الذى لا يجسر إلـٰه أن ينظر إليه تلقى به الآلهة فى العالم السفلى ؟! هذه أسطورة ابتدعها ملوككم أيها الساميون لتنصبوا مردوخ إلـٰهكم كبيرا للآلهة وربا للأرباب .

ـــ صه يا لوجال ، كفى أيها السومرى ، إن كان هذا رأيك فلماذا تحج إلى مردوخ ؟ ولماذا تقدم له القرابين ؟

ـــ إنى أحج لرب الأرباب ، وأقدم القرابين للإلـٰه الساكن فى السماء الذى بيده لوح القدر ، سواء أكان اسمه إنليل أم مردوخ ، أم شماش أم سين أم نانا أم أنكى ، أم تيامات إلهة الفضاء التى زعمتم أن مردوخ هزمها قبل أن تصبح له السيادة المطلقة ، أم أى من الأسماء التى يطلقها البشر على من بيده مصائر الكون والحياة .

وتذكر آزر ما أوحى مردوخ إلى أبيه لما نظر فى كبد الشاة من أن الآلهة انكفأت على وجوهها ، وها هو ذا لوجال ينال من الآلهة جميعا ؛ ترى أهذا هو تفسير ما رأى ناحور ؟ وكاد يستريح إلى ما خامره من رأى إلا أن صوتا همس فى أعماقه بأن ما يقوله صديقه لايحط من شأن الآلهة ولا يجعلها تنكفئ على وجوهها،إنه وإن كان ينكر أسماءها فهو يقر بقدرتها ويعبدها ويذبح فى مذابحها القرابين ويهريق من أجل رضاها دم الأضحيات .

وتحركت القافلة وانطلقت مخلفة وراءها أور الكلدانيين ، وآزر ولوجال يتجاذبان أطراف الحديث ، قال لوجال :

ـــ لماذا جعلتم إنليل يرتكب هذه الفاحشة ؟

ـــ إنه ارتكبها ونال جزاءه .

ـــ لا ، أنا لا أستطيع أن أتصور أن إلـٰها يضعف ويرتكب الخطايا .

ـــ لا بد أن تنفذ النواميس الإلـٰهية .

ـــ وهل ترضى النواميس الإلـٰهية بالفاحشة ؟

ـــ لقد أقرت نواميسكم يا آل سومر ارتكاب الآلهة للفاحشة ، إن ملوكنا لم يتدعوا قصة أنانا البغى المقدسة ، أنانا إلـٰهتكم التى كانت تعبر السماء وتعبر الأرض .

ـــ أنا لا أعرف قصتها .

ـــ أما أنا فأحفظها عن ظهر قلب ، كان أبى يقصها علىّ . إن البستانى الذى نام معها يقول :

« وذات يوم ، بعد أن عبرت « مليكتى » السماء وعبرت الأرض ، بعد أن قطعت بلاد « عيلام » وبلاد « شوبير » اقتربت البغى المقدسة « أنانا » من البستان ، ومن أثر وعثاء السفر غطت فى النوم ، فرأيتها عند حافة بستانى وجامعتها وقبلتها وعدت إلى مكانى . وطلع الفجـر وأشرقت الشمس . فاستيقظت أنانا وفطنت إلى ما وقع لها ، فجعلت تتلفت فزعة وجلة ، وهبت لتنتقم لما نالها ، فملأت جميع آبار البلاد بالدم ، فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدماء . لقد صار العبيد يذهبون للاحتطاب لا يشربون إلا الدم ، والإماء إذا ما جئن للتزود بالماء لا يملأن قربهن إلا بالدم ، لقد قالت : لأجدن من جامعنى فى جميع أرجاء البلاد ، ولكنها لم تجد الذى جامعها » .

فقال لوجال وهو يهز رأسه نفيا :

ـــ لا يستطيع عقلى أن يتصور أن إلـٰها يغتصب إلـٰهة ، أو أن بشرا يضطجع مع إلـٰهة رأت أن تستريح فى ظل شجرة فى بستان .

ـــ النواميس الإلـٰهية لا بد أن تنفذ . إذ وقفت بين يدى مردوخ فادعه أن يغسل الشك من قلبك .

ـــ سأفعل .

وقرأ آزر فى عينى صديقه الشك فقال له فى صدق :

— جاهد نفسك يا لوجال لتنجو من العالم السفلى عالم الأشرار ، العالم الذى لا رجعة منه .

وأغذت القافلة فى سيرها حتى لاح فى الأفق البعيد برج، فقال قائل :

— برج عشتار قد ظهر .

وقال آخر فى انشراح .

— مدينة أوروك ندخلها قبل المساء .

والتفت آزر إلى لوجال وقال :

— عشتار العطوف إلـٰهة اللذة ، بنت إلهنا سين وأخت شماش إلـٰه النور ، إنها إلـٰه ذكر فى الصباح وإلـٰهة أنثى فى المساء .

فقال لوجال وهو يلوى شفته السفلى استهزاء :

— إنها أنثى فى المساء لتمنح الجميع اللذة ، سأكون هذه الليلة من عباد عشتار المخلصين .

قرأ آزر فى عينى صديقه استخفافا فقال له :

— كفى سخرية . أخاف أن تنزل الآلهة غضبها علينا بسببك . اسمع نصيحتى يا لوجال وعد إلى أور ، حرام عليك أن تجشم نفسك متاعب السفر وقلبك خاو من الإيمان .

— إنى ذاهب إلى الآلهة لأصلى لها وأبتهل لتسكن الإيمان قلبى ، اعلم يا آزر أنه شقى من لا يعمر الإيمان قلبه .

وتدفقت القافلة من باب عشتار وانسابت فى طرقات مدينة أوروك ، واتخذت طريقها إلى المعبد الذى بنى على قمة جبل وارتفع مزاره حتى كاد يبلغ السماء . وحطت القافلة فى فناء المعبد ، وهرع البعض لتقديم القمح والذرة والسمسم والتين والبلح لمخازن الآلهة . وصعد آخرون للصلاة لعشتار وتقديم القرابين لها ، وأخذ الرجال ينظرون إلى عاهرات المعبد المقدسات اللاتى

تمنطقن بالحبال وجلسن فى الطرقات يحرقن نوى الزيتون للآلهة .

والتفت لوجال إلى آزر وقال :

ـــ هؤلاء الحريماتو اللائى من أجلهن أبقت عشتار على الرجل وسلمته إلى أيديهن .

ولم يسمع آزر شيئا مما قال .. كان مشغولا بأفكاره ؛ إنه ترك إيمتالى فى شهورها الأخيرة وقد نذر إن وضعت أنثى أن يهبها للمعبد . ستكون ابنته يوما إحدى هؤلاء البغايا المقدسات . لا .. إن العاهرات المقدسات ثلاث طبقات . الكزريت والسانهات والحريمات ، وهو يرجو يوم نذر ما فى بطن زوجه للمعبد أن تكون من طبقة الكزريت ، من العاهرات المقدسات اللائى يهبن أنفسهن مرة واحدة لمن يطلبهن من الرجال . ثم يمتنعن عن الرجال ليصبحن كاهنات ككاهنة أور ابنه الكاهن العظيم ، فقد كانت على الدوام فى خياله كلما فكر فى أن يهب فلذة كبده للإلـٰه ، وما دار بخاطره يوما أن تكون من الحريماتو .

إن البغايا المقدسات جميعا يسكن فى المعبد ويعشن فى « الباجوم » . كلهن بنات الهوى . ولكن ما أعظم البون بين أن تكون العاهرة المقدسة من الكرزيت أو السانهات أو الحريماتو !

وقضيت الصلاة والمراسيم وهبط الرجال والنساء من المعبد . وعاد الرجال يطيلون النظر إلى العاهرات المقدسات اللاتى كن يحرقن نوى الزيتون للآلهة . وأخذوا يمرون أمامهن وينفرسون فى وجوههن ، ثم يلقى كل من شاء من الرجال بقطعة من النقود فى حجر من يستهويه جمالها ، فتقوم وتتبعه وهى تعير جارتها أن التوفيق قد خانها لأن عشتار إلـٰهة اللذة لم ترض عنها فى يومها ذاك .

وألقى لوجال قطعة من النقود فى حجر فتاة كانت ترنو إليه بعينين فيهما

نداء ، فقامت منبسطة الأسارير خلفه وانطلقت وأسرع آزر مبتعدا إلى حيث يربط حماره ، وانصرف بعض الوقت ثم أقبل لوجال على صاحبه وقال :

ـــ بوركت آلهة اللذة ، ولكن لو كانت لى بنت ما وهبتها لعشتار ألبتة .

فقال آزر فى حماس :

ـــ امرأتى حامل ، وقد نذرت إن وضعت أنثى أن أهبها للمعبد .

فقال لوجال ساخرا :

ـــ حتى يعجزك أن تحصى عدد أزواجها .

فقال آزر مدافعا :

ـــ إن من تهب نفسها للمعبد إنما تضحى بجسدها قربانا للآلهة ، فتضحيتها أسمى من تضحية من ينحر كبشا أو جديا أو ثورا . إن غايتها أسمى من إشباع شهوة جنسية . إن المرأة المؤمنة عندما تقدم جسدها إلى رجل غريب إنما تقدمه على مذبح الآلهة ، وبعد أن تفرغ من هذه التضحية يصبح من العسير إغراؤها ولو بمثل وزنها ذهبا .

ـــ إنها تجارة ، بل أربح تجارة يمارسها الأغنياء ليزدادوا غنى ، هم يكنزون الأموال من دعارة جواريهم .

ـــ إنها شعيرة من شعائر الدين ، وما كان كهان المعابد ليقبلوا هذا الدنس إن لم يكن يرضى عنه الآلهة .

ـــ كهان المعابد ورجال الدين أغنى الناس ، إنهم راضون عن هذه التجارة ؛ لأنها تملأ خزائنهم ذهبا وفضة .

فقال آزر فى غضب :

ـــ أنت فاسق يا لوجال لا تعرف شيئا .

فقال لوجال وهو يبتسم :

ـــ ولكننى أعرف الحريماتو أكثر منك .

ثم راح يرتل فى نبرة أقرب إلى الغناء :

لا تتزوج من حريماتو لا يحصى عدد أزواجها ؛
لأنها فى مصابك لن تشد أزرك ،
وستفترى عليك فى قضيتك .
ليس الاحترام أو الخضوع من صفاتها .
إنها ولا شك تقوض الدار ، أخرجها منها ،
تلك المرأة التى تطيل النظر فى أثر كل رجل غريب .
إن كل بيت تدخله ينهار ، ولا يفلح من يتزوجها .

* * *

وفى عماية الصبح تحرك الركب وانطلقت القافلة عبر السهول الخضراء المترامية على مد البصر . مروا فى طريقهم بأناس يقومون بتحديد أراضى الملاك وتأكيد الحماية الإلـٰهية عليها ، وبفلاحين يطهرون الترع التى تقع على جوانبها أراضيهم ، ومروا بأراضى الأمراء التى يعمل فيها السجناء والأهالى سخرة : يشقون الترع ويشيدون الخزانات ويجهزون العجلات ويقومون بأعمال الحرث والزرع والحصاد .

ومروا بأرض بور فألفوا الفلاحين يعملون فيها بهمة ونشاط والعرق يتصبب من جباههم ، فقد كانت الأرض البور حقا لمن يشغلها وملكا لم يفلحها .

ورأوا المراكب الصغيرة تسير فى القنوات تنقل مواد البناء من أخشاب وأحجار ومعادن ، وترسو على الأرصفة بالقرب من بوابات المدن تنزل ما تحمل ، ثم تشحن بالغلات لتنقلها إلى منطقة أخرى أو تأخذ طريقها إلى موانى التصدير .

وبلغت القافلة مدينة شورباك مدينة نوح ، المدينة التى ضل أهلها فغضب

الإلـٰه عليهم وأوحى إلى نوح أن اصنع الفلك واحمل فيه من اتبعك ، ثم جاء الطوفان فأغرق الكافرين .

وحطت القافلة فى فناء المعبد ، ودار بين الناس حديث الطوفان الذى غمر البلاد من تسعة قرون ، كان الطوفان حقيقة نسجت حولها الأساطير .

ــ قررت الآلهة فى مجتمعها هلاك ذرية البشر المفسدين ، وحمل الصالحين منهم فى سفينة كبيرة ليبنوا بيوتهم فى أماكن مطهرة ، وليشيدوا المعابد لإقامة الشرائع الإلـٰهية.

استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال واكتسح البلاد وكانت السفينة الضخمة تتقاذفها الأعاصير فى المياه الجارفة ، وظهر إلـٰه الشمس الذى نشر ضوءه على السماء والأرض ، وفتح زيو سدرا (**نوح**) شباكا فى الفلك العظيم ، وأنفذ البطل إلـٰه الشمس أشعته فى الفلك العظيم ، فسجد زيو سدرا للإلـٰه ، وذبح ثورا وكبشا .

ــ ألم تكن الملكية قد نزلت من السماء قبل الطوفان ؟

ــ نعم . أنزل التاج والعرش رمز الملكية من السماء ، واكتملت العبادات والنواميس الإلـٰهية المقدسة .

ــ لماذا غضبت الآلهة على البشر ، ما دامت هى التى أنزلت الملكية من السماء ، ورسمت للملوك النواميس والعبادات ؟

ــ لأن الملوك انحرفوا عن طريق السماء ، وأغرقوا شعوبهم فى الضلالات ، فكان على السماء أن تتدخل لتطهر الأرض من المفسدين ، حتى يرثها العباد الصالحون .

فالتفت لوجال إلى آزر وقال :

ــ لقد ارتكبت الآلهة فى مجتمعها شرورا تفوق كل شرور الناس ، سفكت الدماء ، وهتكت الأعراض ، واضطجعت الإلاهات مع البشر .

وما أكثر الآلهة التى جاءت من سفاح ، فلماذا تؤاخذ الناس وتنسى أنفسها ؟

فهب آزر مفزوعا وقال لصديقه :

ـــ هذا فراق بينى وبينك يا لوجال.

وابتعد عنه مرعوبا ، وصوت أبيه ناحور يرن فى أذنيه بالنبوءة التى رآها فى كبد الشاة ، نبوءة انكفاء أصنام الآلهة على وجوهها ، فخفق قلبه واضطرب نفسه وجعل يتلفت فى خوف ، خشية أن تصب عليهم الآلهة غضبها من السماء .

٣

ـــ بابل .. باب الله .. الإيساجيل .. معبد مردوخ .

وارتفعت الأصوات بالابتهال إلى مردوخ رب الأرباب فقد وصلت القافلة إلى أرض بابل ، ولاحت للعيون الأبراج الضخمة الرابضة فوق أسوارها ، وبرج بابل المتسامى فى كبرياء يعلن للملأ أنه مزار مردوخ العظيم كبير آلهة البلاد .

وتقدم الرجال والنساء والعبيد والإماء على ضفة النهر فى خشوع وقلوبهم عامرة باليقين ، حتى لوجال طافت به موجة من إيمان هزته وجعلته يشخص ببصره إلى البرج الذى يعرج إلى السماء وهو خافق القلب يستشعر رهبة من المجهول ، من الغيب الذى يخفى فى جوفه أقدار الناس .

والتفت آزر إلى لوجال وقال :

ـــ أريد أن أشترى أضحية قبل أن نذهب إلى الإيساجيل .

ـــ إنى شحنت أضحيتى من أور فى قارب ، وقد فعل كثيرون مثل ما فعلت .

ـــ ستتكلف فى نقلها مثل ثمنها .

ـــ اتفقنا على أن ندفع ثلاثة شواقل من فضة ، لقاء نقل ثلاثة ثيران وستين رأسا من الغنم .

ـــ ثلاثة شواقل لرحلة واحدة ؟!

ـــ استأجرنا قاربا كبيرا حمولته ٦٠ جورا .

ـــ مثل هذا القارب لا يزيد ثمنه على عشرين شاقلا من فضة .

ــ لا تنس أننا فى الموسم يا آزر ، سعر النقل كسعر الشعير غير ثابت على مدار السنة . قد يصل ثمن الشعير فى موسم الحصاد إلى شاقل وثلثى شاقل للجور ، أما فى نهاية الموسم فيرتفع ثمنه إلى أكثر من ثلاثة شواقل ؛ وكذلك النقل يرتفع سعره فى المواسم ، وعيد رأس السنة أهم موسم للنقل ، فما أكثر الوافدين إلى بابل فى هذا العيد .

وقال آزر وهو يستخرج من جيبه سبيكة من الذهب :

ــ أريد أن أستبدل هذه بفضة .

ــ شاقل الذهب اليوم بعشرة شواقل من الفضة .

فقال آزر فى استياء :

ــ كان شاقل الذهب فى أور بأحد عشر شاقلا من الفضة ؛ فما أدراك أنه هنا بعشرة ؟

فقال لوجال وهو يبتسم فى خبث :

ــ إننا فى الموسم يا عزيزى آزر ، وما قيمة شاقل من الفضة فى سبيل الإلٰه العظيم . سبائك الذهب التى تملكها كلها من فضله ومن فضل تماثيله التى تصنعها .

ــ حقا لقد باركت الآلهة فى أصابعى وشرفتنى بأن أصنع تمثال رب الأرباب فى عيده الكبير .

ــ إنى ذاهب إلى المرفأ لتسلم أضحيتى وبضائعى .

ــ بضائعك ؟

ــ شحنت بعض الشعير .. الشعير فى سائر الأيام كالفضة فى الأسواق ، أما فى العيد فهو أفضل من الفضة ، سأبيعه وأشترى بشواقل الفضة جارية .

وصمت لوجال قليلا ثم قال :

ــ ما أجمل الجوارى اللائى يعرضن فى سوق بابل فى إدبار العيد الكبير !

وهم بأن يذهب إلى حيث ترسو القوارب بالمرفأ ليتسلم أضحيته وشعيره ، بيد أنه التفت إلى آزر وقال :

ـــ أين ألقاك ؟

ـــ سأذهب بعد أن أقدم قرباني إلى الـ « أوريجاللو » .

ـــ آسف ، نسيت أنك ستكون فى ضيافة الـ « أو ريجاللو » ، هنيئا لك ، فضيوف كبير الكهنة ينزلون المعبد على الرحب والسعة .

فقال آزر فى كبرياء :

ـــ ما دمت فى بابل فأنا فى ضيافة رب الأرباب .

وانطلق لوجال وبعض من كانوا فى القافلة إلى المرفأ لتسلم الأنعام التى حملوها فى السفينة ، وتقدم آخرون ليدخلوا المدينة المقدسة مدينة الإله مردوخ العظيم ، وراح أحد رجال الدين يرتل قصيدة الخليقة ويروى كيف انتصر مردوخ على تيامات إلـٰهة الفضاء :

اختلطت مياه « تيامات » البحر بمياه « أبسو » المحيط ،

ومن ذلك الاختلاط ولدت الآلهة جميعا .

و لم يرضيا عما أنجبا .. فقررا أن يحطماها جميعا ..

حملت تيامات الأم الكراهية لأبنائها .

أم الجميع خالقة الأشياء كلها ،

جمعت أسلحتها التى لا تبارى ، وولدت أفاعى ضخمة ، حادة الأنياب لا قلب لها .

استبدلت الدم بالسم فى أجسادها ،

وألبست التنانين المخيفة ثوب الرعب ،

وأمرت بتدفق الأفاعى والزواحف الوحشية ،

والوحوش الضارية والكلاب المزمجرة والرجال العقارب ،

وانخلع قلب الآلهة لما رأت تيامات وجيشها .
وجاء مردوخ العظيم وقال : « أنا المنتقم » ،
لأقيدنَّ تيامات فى الأغلال لتبقى الحياة لكم » .
ودارت المعركة ، وانتصر مردوخ على تيامات .
وفى مجمع الآلهة توج مردوخ ربا للأرباب ، ملكا على جميع الآلهة .
وأعلن مردوخ المنتصر عزمه على أن يعجن الطين بدمه ليخلق الإنسان .
واجتمعت الآلهة مرة أخرى ، وأعلنت أسماءة الخمسين .

ومر الركب بالقلعة منطلقا إلى الطريق المقدس ، ووقعت أعين الناس على بوابة عشتار وكانت رائعة غاية الروعة ، فأخذوا يرمقونها فى إعجاب ؛ كانت مبنيين هائلين من الآجر ، لكل مبنى باب من الأمام وآخر من الخلف وبينهما بهو ، وقد زينت البوابة بصور حيوانات فى صفوف أفقية ، بلغ عددها قرابة خمسمائة وسبعين ، لونت بألوانها الطبيعية فجاءت البوابة آية تخلب ألباب الناس .

وانساب الركب فى الطريق المقدس وكان من بلاطات مربعة من الحجر الجيرى .

وكان على كل من جانبيه جدار يبلغ سمكه سبعة أمتار ، تعلوه أبراج نحتت عليها صور سباع بارزة ، تبدو كأنما تتهيأ للوثوب على من يقتحم الحرم .

وبلغ الركب الفناء الخارجى وكانت حوائطه مقسمة — على مسافات متساوية — بأعمدة مربعة حفرت فيها قنوات بالقرب من قواعدها وقممها ، وانساب الناس إلى الفناء الأوسط من إحدى البوابات الكثيرة المكفتة بالبرونز ، وكان الفناء يزدان كذلك بأعمدة مربعة ، وفى نهاية البهو إلى الغرب كان هيكل مردوخ ؛ فما إن وقعت أعين الناس عليه حتى ضجوا بالدعاء والابتهال .

وهمس الناس فى خشوع :

ـــ قدس الأقداس .

كانوا يتوقون إلى الدخول للمثول بين يدى الإلـٰه العظيم ، ولكن لم يكن مسموحا بالدخول إلا للكهنة والأمير . وراح آزر يتلفت فرأى خارج قدس الأقداس مذبحا ذهبيا ، ورأى بجانبه مذبحا آخر كبيرا لذبح الماشية ، فتذكر زوجته إيمتالى وذلك الذى فى بطنها لم ير النور بعد ، فذهب واشترى كبشا قدمه للكاهن ليذبحه قربانا للآلهة لتبارك له فى زوجه وفى ذلك الذى فى بطنها .

وعاد آزر إلى الطريق المقدس واتجه شمالا إلى حيث تقع « الزفوة » ، وهى مبنى مكون من مصاطب مبنى بعضها فوق بعض ، تدفق كلما علت . كانت أشبه بهرم مدرج قاعدته مربع طول ضلعه ٣٧٠ مترا ، يقوم فى وسطه مصطبة ضخمة طول ضلعها ١٧٠ مترا ، وفوقها مصطبة ثالثة ، فرابعة فخامسة. حتى تبلغ المصاطب ثمان .

وعزم آزر أن يصعد إلى قمة « الزفوة » ، فاتجه إلى طريق يدور صاعدا حول طبقات البرج ، وراح يرقى فيه حتى إذا بلغ منتصفة وجد غرفة بها مقاعد يستريح عليها من يريدون أن يلتقطوا أنفاسهم قبل أن يستأنفوا الصعود إلى القمة ، إلى حيث المزار . جلس آزر يستريح ، وسرعان ما طاف بذهنه قول أبيه له : « أنت مبارك يا آزر ، سيكون لك شأن عظيم يا بنى ، رأيت فى المنام أن نورا أضاء السماء قد خرج من صلبك .. اسمع نصيحتى يا بنى ، قدم الخضوع لإلـٰهك كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور .. » . فلم يطق التريث حتى يسترد أنفاسه ، فهو فى شوق ليصل إلى المزار ليقدم صلاته إلى رب الأرباب ويحرق بين يديه البخور ، إن الآلهة هناك فى السماء ، وكلما عرج فى صعوده اقترب منها .

ونهض آزر واستأنف عروجه حتى إذا بلغ آخر طبقة وجد هيكلا كبيرا به

سرير مزخرف ، تقوم إلى جانبه مائدة من الذهب كان يعلم أن هذا المزار لا يمضى الليل فيه إلا امرأة قروية يختارها الإلـٰه من بين صويحباتها القادمات من الريف . فعزم على أن يتم صلاته قبل أن يسدل الليل أستاره ، فتلفت فرأى تمثالا لمردوخ موضوعا فى كوة ، فاتجه إليه وسجد له فى خشوع ، وراح يبتهل إليه والدموع تسيل على خديه :

— يا إلـٰهى ، يا من أنت أبى الذى ولدنى ، ساعدنى على الخروج من الظلام إلى النور ، واغفر لى خطاياى فقد صدق الحكماء حين قالوا :

لم يولد لأم طفل بلا خطيئة .

فالطفل الطاهر البرىء لم يشهد الوجود منذ القدم .

إلـٰهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

بارك لى فى إيمتالى ، فهى حاضرى ومستقبلى ،

وتقبل منى ما فى بطنها ، فإن هى وضعتها أنثى ،

فإن فى ابنتى خلاصى .

إلـٰهى ! يا من أنت الذى ولدنى ،

أمّا إن جاء ما فى بطن إيمتالى ذكرا ،

فاجعله يا إلـٰهى مباركا ، واقبله خادما من خدامك ،

كاهنا من كهانك ، مصداقا لرؤيا أبى ، فقد رأى نورا يخرج من صلبى ينير السماء .

وتذكر ما رآه أبوه من انكفاء الآلهة على وجوهها ، فقال وهو ينشج بالبكاء :

— إلـٰهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

إن كان بك علينا غضب فارفع غضبك عنا ، وأوح إلينا بما يرضيك فإننا مطيعون ، ولو أمرتنا أن نذبح أنفسنا قربانا لك .

إلٰهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،
بارك لنا فى أعمالنا فهى قرة أعيننا ،
وتقبل منا وطهر قلوبنا واهدنا واشرح صدورنا وزودنا بملائكة ذوى سيماء لطيفة خيرة .

واستشعر آزر راحة ، فنهض وراح يهبط فى الطريق المنحدر منشرح الصدر ، وانطلق إلى الـ « أوريجاللو » كبير الكهنة ، وقدم له نفسه ، فأمر الـ « أوريجاللو » أن يؤخذ آزر إلى حجرته ليبقى بها حتى يستدعى للاحتفال بعيد رب الأرباب الكبير .

واعتكف آزر فى حجرته يتطهر ويصلى ويدعو كبير الآلهة أن يوفقه لأن يصنع له تمثالا يرضاه .

وجاء أول نيسان وغص الطريق المقدس بالناس ، وبمواكب الآلهة التى جاءت من أنحاء بابل لتشترك فى عيد مردوخ رب الأرباب ولتقدم له الولاء والخضوع ، وارتفعت أصوات الناس بالابتهالات :

إلٰهى ! قلعتى ! اغفر لى . كن رحيما يا إلٰهى واعف عنى ..
إلٰهى استمع إلى تضرعىٰ فأنت حقا يا إلٰهى أبى ، من مثلك يا إلٰهى يعفو عن سيئاتى ؟

وترتفع التوسلات ، ويضج المعبد بالدعاء ، وتنهمر الدموع من العيون ، ويقف الناس بالباب ينتظرون أن يأذن لهم الـ « أوريجاللو » بالدخول .

وانقضى أول نيسان ، وفى اليوم الثانى فى عماية الصبح استيقظ الـ « أوريجاللو » كبير الكهنة وطهر نفسه بماء النهر وارتدى ثوبا من الكتان ، وانطلق إلى قدس الأقداس وحده . اتجه إلى الكوة المبطنة بالذهب التى وضع فيها تمثال مردوخ العظيم وتلا دعاء حارا ، ثم خرج وفتح الأبواب فتدفق السحرة والمغنون إلى المعبد . وأطلق البخور وارتفعت الأصوات العذبة

بالترتيلات ، وقام السحرة بالطقوس والمراسيم وتقديم القرابين والشراب إلى الآلهة .

وانقضى اليوم ، وفى اليوم التالى فعل الـ « أوريجاللو » ما فعله فى اليوم الأول . وعقب غروب الشمس بثلاث ساعات أرسل فى طلب ثلاثة صناع ونساج ليصنعوا تماثيل للإلٰه ، فجاء آزر وزملاؤه ، وعكف آزر على صنع تمثال ارتفاعه سبع أصابع ، وراح يعمل وهو قلق متوتر الأعصاب يرجو من كل قلبه أن يرضى الإلٰه عما يفعل .

وحان وقت الغداء فقدم لآزر صدر نعجة راح يلتهمه فى سرعة ، ليستأنف عمله فى همة ونشاط .

راح آزر يصنع الأذنين الكبيرتين اللتين ترمزان إلى حكمة مردوخ ، وصوت فى أغواره يردد قول إلٰه الحكمة يوم نصب فى مجمع الآلهة إلٰها للآلهة : « أى بنى ! ما الذى لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت » .

وراح آزر يبتهل إلى مردوخ ويصنع تمثاله :

ـــ أى خالقى ، بارك لى فى عملى وتقبله منى ففيه قرة عينى.

وعكف على صنع الثعبان الذى يمسكه مردوخ فى يسراه .

وراح الوقت يمر وآزر غارق فى عمله لا يحس شيئا مما حوله ، حتى إذا ما أتم صنع التمثال دفعه إلى الصائغ ليزينه بالذهب والأحجار الكريمة ، ثم ليلبسه ثوبه الأحمر ويلف حول وسطه حزاما من سعف النخل .

وجاء اليوم الرابع يوم الاحتفال السرى ، فدخل الـ « أوريجاللو » قدس الأقداس وبقى به ، كان ذلك قبل أن يتنفس الصبح بأربع ساعات ، وراح أحد السحرة يطهر المعبد ويرشه بماء جلب من بئر الفرات ومن خزان دجلة .

ومر الوقت وأشرقت الشمس وانقضى على إشراقها ساعتان ، فجاء

ساحر آخر وأخذ يطهر المعبد مرة أخرى ويمسح بزيت الأرز مصاريع الأبواب ، ويمسح الحوائط بجسم شاة قطع السياف رأسها لتوه ، وخرج الرجلان إلى الخلاء يحمل أحدهما جسم الشاة ويحمل الآخر رأسها ، وانطلقا فألقيا بالجسم والرأس فى الفرات . وبقيا خارج أسوار المدينة المقدسة حتى ينقضى العيد . فقد دنستهما الذبيحة .

وبقى كبير الكهنة فى قدس الأقداس حتى لا يتدنس بمشاهدة المعبد فى أثناء تطهيره ، وبعد أن تمت مراسيم التطهير خرج الـ « أوريجاللو » بُعيد الساعة الثالثة ، واستدعى الموظفين التابعين له ، ثم انطلقوا فى خشوع إلى الخزانة لاستحضار « السماء الذهبية » .

وارتفعت أصوات فى الطريق المقدس ، وترددت فى أرجاء المدينة المقدسة العتيقة همسات :

ـــ الملك .. الملك .

كان الملك يتقدم فى الطريق المقدس فى موكب فخم وقد حمل الكهنة أمامه تمثال إلـٰه منطقته المحلى . ووصل الموكب الفخم إلى فناء المعبد الرئيسى ، فبقى الملك وأخذ سائر الناس ينسحبون ، حتى إذا بقى الملك وحده ، خرج إليه الـ « أوريجاللو » من قدس الأقداس ، وخلع عنه شارات الملك والصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان والتاج ، ووضعت جميعا على مقعد أمام تمثال مردوخ ، ثم عاد إلى حيث كان الملك فضربه على خده ، ثم قاده إلى حضرة الإلـٰه فى قدس الأقداس ، وشد أذنيه وجعله يركع ، فأطرق الملك رأسه فى خشوع ثم راح يتلو :

أنا لم أرتكب إثما يا سيد الأراضى ، أنا لم أهمل فى شأن ألوهيتك .

أنا لم أحطم بابل و لم آمر بتفرقتها .

أنا لم أزعزع أركان « الإيساجيل » و لم أنس طقوسه .

أنا لم أضرب زوارك على خدودهم ، ولم أسبب لهم مذلة .
لقد فاضت عنايتى على بابل ولم أهدم حوائطها .
فقال الـ « أوريجاللو » للملك :
— لا تخف . سيباركك بعل إلى الأبد ، وسيحطم أعداءك ويدحر خصومك .

وغادر الملك الهيكل ، وسار الـ « أوريجاللو » بخطا ثقيلة ووجه باسر إلى حيث وضع شارات الملك فعاد بها ، وألبس الملك التاج وأعاد إليه الصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وضربه مرة أخرى على خده . ولم تتساقط دموع الملك لا وهو يبتهل إلى الإلـٰه ولا بعد أن ضربه الـ « أوريجاللو » على خده ، فساد المكان وجوم فذلك فأل سيئ علامة على أن الإلـٰه لم يتقبل الصلاة ولا ما نحر له من قرابين ، وأنه غاضب ، وأن السنة ستكون سنة وبال على الملك والمملكة .

وبعد الغروب ربط الأوريجاللو حزمة من أربعين قصبة بسعفة نخيل ، ووضعها فى حفرة وسط الفناء الرئيسى للمعبد ، وسقاها بالعسل والقشدة والزيت ، وجىء بعجل سمين وذبح ، وأشعل الملك غصنا قربه من حزمة القصب فتأججت فيها النيران . مر اليوم السابع من أيام العيد فى إلباس مردوخ ثيابه بين ترتيل المغنين وإطلاق البخور وصلوات الرهبان .

وفى اليوم الثامن أقبل الملك تحف به حاشيته ، ودخل والأوريجاللو معه إلى قدس الأقداس ، وحمل الملك تمثال الإلـٰه ، وكان هو صاحب الحق فى وضعه على المحفة ، وسار الموكب المقدس حتى إذا بلغ الفناء الرئيسى للمعبد توقف مردوخ بين الأستار ، فى مذبح مقام فى وسط الفناء الرئيسى .

وسمعت ضجة فى الطريق المقدس ؛ كانت مواكب آلهة مدن بابل كلها قادمة .. إنها فى طريقها لتقديم ولائها لمردوخ العظيم : الإلـٰه سين ، والإلـٰه

والإله شماش ، والإلهة عشتار ، والإلـٰه ننجرسو ، وعشرات الآلهة الأخرى فى المحفات ، والكهنة يرتلون الصلوات ، والناس يبتهلون فى حرارة ورجاء ، فقد فتحت أبواب السموات لاستقبال الدعوات . كانت اللحظة من أخطر لحظات الحياة ، ففى هذا اليوم المبارك تتقرر أقدار السنة ، وكل ما يجرى فيها من أحداث إلى أن يأتى اليوم الثامن من نيسان من العام القابل .

وصلت الآلهة جميعا إلى الفناء الرئيسى للمعبد ، وارتفعت الابتهالات والدعوات وغنى المغنون وأطلق البخور ، وسالت العبرات وارتفع النحيب والنشيج .

وسار مردوخ وسار خلفه الآلهة جميعا ، حتى إذا بلغوا هيكل الأقدار ، الهيكل الذى يخط فيه مردوخ مصائر الناس ، وضع مردوخ وأطلق البخور وقام الكهنة بالطقوس والمراسيم ، ثم أخذ الملك بيد إلـٰهه وحمله وسار ، وانطلقت الآلهة خلفه صفا صفا .

ترك الموكب أبهاء المعبد وسار فى الطريق المقدس وقد غص بالناس . فلما رأوا رب الأرباب والآلهة جميعا خلفه ، اضطربت قلوبهم رهبة وخـروا ساجدين ، واستأنف الموكب المقدس طريقه ، فاتجه شمالا واجتاز بوابة عشتار حتى أوفى على الفرات .

كان ينتظر مقدم كبير الآلهة قارب مقدس ، وكانت قوارب أخرى تنتظر سائر الآلهة. ودخل مردوخ إله الآلهة وخالق البشر فى قاربه ، وراحت القوارب التى تحمل بعول بابل تتهادى على صفحة الفرات ، بين تراتيل المنشدين وغناء المغنين وصلوات الكهنة وابتهالات الناس .

ووصلت القوارب إلى الشاطئ الآخر حيث يقوم الـ « إيزور » ، معبد الصلوات . وأخذ الملك بيد مردوخ فحمله وخرج من قاربه ، وخرجت الآلهة الأخرى من قواربها لتسير خلفه صفا صفا .

وانطلق الركب المقدس إلى معبد الصلوات حيث وضع رب الأرباب ، ودخل عليه الآلهة إلٰه فى إثر إلٰه ، وكان كلما دخل عليه إلٰه حياه فى رهبة وركع أمامه ؛ كانت التحية تنطلق من أفواه الكهنة مضطربة مرتجفه ، وكانوا يركعون فى خشوع وقد حبسوا الأنفاس !

وترك كبير الآلهة مع الآلهة الذين يمثلونه فى البلدان ويستمدون منه سلطانهم ، وأغلقت الأبواب ، وجاء الناس من كل فج يحجون إلى الـ « إيزور » معبد الصلوات ، حيث اجتمع الآلهة جميعا فى صعيد واحد يستمعون إلى نداءات البشر .

وراح الكهنة يعدون الصحاف الرئيسية التى تقدم للآلهة ، إن الناموس يقضى بتقديم واحد وعشرين خروفا عمر كل منها سنتان ، وأربع نعاج غذيت باللبن ، وخمس وعشرين نعجة من المرتبة الثانية ، وثورين سمينين ، وعجل رضيع ، وثمانية حملان ، وستين طيرا من نوعين مختلفين ، وثلاث دجاجات ، وسبع بطات ، وأربعة خنازير من المستنقعات ، وثلاث من بيض الدجاج ، وثلاث من بيض البط .

وأخذ كهنة آخرون يعدون الشراب فى أوانى الذهب ، إن لعشتار وحدها اثنى عشر إناء من النبيذ المعصور ، ولسين أو نانا إلٰه القمر عشرة ، وللآلهة الأخرى أوانى تختلف فى العدد وإن كان شرابها جميعا من النبيذ، ذلك فى الغداء والعشاء ، أما فى الصباح فلا تشرب الآلهة إلا اللبن المصفى ، ويقدم لها فى أوانى من المرمر .

وركب آزر فى قارب مع القاصدين إلى الـ « إيزور » ، وراح القارب يتمايل فوق مياه الفرات يكاد ينوء بالناس والناس ذاهلون عن الخطر المحدق بهم ، فقد كانوا مشغولين بآلهتهم . وبلغ القارب شاطئ معبد الصلاة وكان غاصا بالناس ، فقفز إليه آزر وجعل يشق طريقه ويدفع الناس بمنكبيه حتى

وقف أمام تمثال لمردوخ قائم فى مشكاة فى الحائط ، فركع له وقال فى حرارة :

مولاى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

إلٰهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

إلٰهى ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

إيها الإلٰه الذى أعرفه أو الذى لست أعرفه ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

أيتها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها ! إن آثامى كثيرة وذنوبى عظيمة .

ألا فليخف الغضب فى قلب مولاى .

ليهدأ الإلٰه الذى أعرفه أو الذى لا أعرفه .

لتهدأ الآلـهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها .

أيها الإلٰه اغفر ذنوبى ، فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيتها الآلـهة اغفرى ذنوبى فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيتها الآلهة التى أعرفها أو التى لست أعرفها ،

اغفرى ذنوبى فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

مرت أيام العيد والناس يحجون إلى الـ « إيزور » معبد الصلوات ، وبدأ الهمس يسرى بين الناس فيرتسم الهلع على الوجوه وترتفع حرارة الابتهالات وينبعث الدعاء من أعماق القلوب .

وجاء اليوم الحادى عشر من شهر نيسان آخر أيام العيد الكبير ، فوفد الملك تحف به حاشيته والـ « أوريجاللو » والكهنة والمغنون ، ودخل الملك وأخذ بيد مردوخ وسار ومن خلفه الآلهة جميعا صفا صفا ..

وانطلق الركب المقدس إلى نهر الفرات ، وتهادت القوارب المقدسة على صفحة مائه ، واجتاز الركب بوابة عشتار ، وراح الناس يتطلعون إلى وجه

الملك فى إشفاق ويتهامسون فيعلو وجوههم الرعب ، ويتلفتون فى خوف كأنما ستنقض السماء عليهم أو سيخطفهم المجهول .

وسار الركب فى الطريق المقدس ، ولاح برج بابل شامخا كأنما يتطاول لينطح السماء . وعاد الموكب إلى المعبد من حيث بدأ ، ودخل الملك والـ « أوريجاللو » إلى قدس الأقداس ، ووضع مردوخ فى مشكاته المذهبة وركع الملك وأدى الصلاة ، ثم خرج وكبير الكهنة فى أثره .

وخرجت الآلهة لتتفرق فى البلاد بعد أن اجتمعت برب الأرباب وقدمت له الخضوع والولاء ، وعرفت ما كتبه للناس فى لوح قدره .

وذهب لوجال إلى السوق وباع شعيره بشواقل كثيرة واشترى جارية ، وتسلم من البائع ضمانا بعدم وجود عيوب بها ، ثم انطلق لينضم إلى القافلة العائدة إلى أور .

والتقى لوجال وآزر ، ولما رأى آزر الجارية قال له لوجال :

ـــ اشتريتها بعشرة شواقل .

ثم ضحك وقال :

ـــ وقد بعت جحشى بعشرين شاقلا .

قال آزر وهو يبتسم :

ـــ أى أنك بثمن الجحش تشترى جاريتين .

وفهمها لوجال فقال :

ـــ ولكننى لم أشتر إلا جارية واحدة .

وظهر فى وجه لوجال أنه تذكر شيئا ، ورأى آزر شرود نظرته فقال له :

ـــ فيم تفكر ؟

ـــ أسمعت ما همس به الناس ؟

قال آزر فى اهتمام :

— وبم همسوا ؟

— قالوا إن الملك لم يبك وهو يصلي لمردوخ ، ولم تنهمر دموعه لما ضربه الأوريجاللو على خده .

— وكيف عرف الناس ذلك ، إذا كان الملك والأوريجاللو وحدهما فى حضرة الإلٰه ؟

— نزل بقلب كبير الكهنة رعب شديد ، خاف من غضب الآلهة فأفضى إلى الكهنة المقربين بمخاوفه .

— ولم يحفظ الكهنة المقربون السر فباحوا به للمقربين منهم ؟

— هذا ما حدث ، وقد أفضى هؤلاء بالسر إلى المقربين منهم فذاع النبأ بين الناس .

— ولكنى لم أسمع همس الناس .

— كنت مشغولا فى صلاتك .

وشرد آزر وتذكر ما رآه أبوه فى كبد الأضحية . لقد رأى أن الآلهة جميعا انكفأت على وجوهها فنزل بقلبه هم ثقيل ، وانتشرت فى صدره رهبة وغمغم :

— خطب نازل .

ولم يسمع لوجال ما يقوله فسأله :

— ماذا تقول ؟

— خطب نازل .. لقد غضبت الآلهة علينا .. جمدت الدموع فى عينى الملك . لم يذرف الدموع .. فسنذرفها نحن .. سنئن .. سنتألم .

٤

ارتفع صراخ مولود فى بيت آزر ، فقد وضعت إيمتالى ما فى بطنها وجاء ذكرا . كان الليل حالك السواد ، وكان الضوء المنبعث من المسرجة خافتا ، فالفتيلة الصغيرة الطافية فوق سطح الزيت فى الإناء الفخارى لا ترسل إلا نورا يجاهد أن يبدد فحمه الليل الجاثمة على أنفاسه ، بيد أن إيمتالى أحست نورا يغمر المكان بعد أن خرج منها ما كان فى أحشائها .

وكانت قبل أن تضع حملها خائفة قلقة ، تخشى آلام الوضع التى كان النسوة يسهبن فى وصفها ، ولكنها عندما وضعت حملها لم تستشعر ألما ؛ فقد طاف بها نعاس لذيذ واستيقظت منه على بكاء وليدها ، فمس أذنيها مسا رقيقا كأعذب الألحان ، وخفق قلبها بالحنان ، وتفتحت نفسها للحياة . لقد صار للحياة معنى آخر وطعم آخر بعد أن نام وليدها إلى جوارها : معنى أعمق من المعنى الذى كانت تفهمه يوم كانت حياتها كلها لآزر ، وطعم ألذ من طعم الحياة يوم كانت تعيش فى كنف زوجها بلا ولد .

ونامت فى البيت الكبير مع وليدها وحدهما بعد أن انطلقت الجارية إلى بيت ناحور لتخبره أن إيمتالى وضعت ذكرا ، وليقوم الجد بالصلاة شكرا للآلهة على ما أنعمت ، فلم تحس وحشة بل استشعرت أنسا وأمنا .

وطرقت الجارية باب ناحور ، وانفرج الباب عن جارية تفرك عينيها فقالت جارية آزر :

ــ أين السيد الكبير ؟

ــ نائم فى غرفته . ما الذى جاء بك الساعة ؟

و لم تحر الجارية جوابا ، وانطلقت فى الدهليز القصير إلى فناء الدار الرئيسى حيث قامت حوله غرف الطبقة السفلى ، ثم اتجهت إلى السلم مارة بالأعمدة السامقة التى ترتكز عليها الشرفة الخشبية التى تدور حول البيت من الداخل ، وراحت ترقى فى الدرج حتى بلغت الشرفة التى تؤدى إلى غرف الطبقة الثانية .

واتجهت إلى غرفة السيد الكبير وطرقت الباب فى رفق ، ومرت لحظات ثم فتح الباب عن ناحور . كان حليق الرأس واللحية لكأنما كان كاهنا من كهنة الآلهة ، وقد خلفت يد السنين آثارها فى وجهه وحول عينيه ، فما إن وقعت عيناه على الجارية حتى قال :

ــ وضعت إيمتالى !

فهزت الجارية رأسها أن نعم .

ــ وضعت ذكرا !

وقالت الجارية فى فرح :

ــ لكأنه القمر .

ورفع ناحور عينيه إلى السماء ، كانت ليلة بلا قمر ولا نجوم فأحس انقباضا . كان يرجو أن يولد حفيده فى ليلة من الليالى التى يتجلى فيها الإلٰه نانا ، فى ليلة يكتمل فيها بدرا ، ليكون لحفيده نصيب من الخير العميم الذى يصيب المحظوظين ممن يولدون تحت عين إلٰه القمر .

وأعاد عينية إلى وجه الجارية وقال :

ــ عودى لسيدتك وقولى لها إنى قادم .

وانصرفت الجارية ، ودخل الجد ليتطهر قبل أن ينطلق ليصلى لحفيده ويدعو الآلهة أن تباركه ، وأن يبالغ فى الدعاء ليعوضه عن سوء الطالع الذى جعله يفد إلى الدنيا فى يوم اختفت فيه الآلهة فى القبة الزرقاء .

وانساب ناحور فى سواد الليل إلى بيت ابنه وهو يفكر فى اسم يطلقه عليه ، خطر بباله أن يسميه ناحور تخليدا لاسمه ، واستراح للفكرة فراح يوسع من خطوه ليعلن بذلك الاسم أمام الآلهة ، ويتوسل إليها أن يكون مباركا .

وبلغ ناحور بيت ابنه ، ولم يصعد إلى الطبقة العليا حيث ترقد إيمتالى وحفيده بل عرج إلى معبد الدار الخاص ، كان غرفة مستطيلة ضيقة يتوسطها مصلى ومحراب ، وتحت بلاطها قبو يدفن فيه موتى الأسرة .

ركع ناحور أمام تمثال إلٰه القمر وراح يصلى فى خشوع ويدعو ويبتهل :

ـــ أيها الأب نانا ، إنى أذرف الدموع لعظمتك .

حتى يرق لنا قلبك وتقف إلى جانبنا .

إن ابنى آزر أيها الإلٰه العظيم قد أنجب ولدا ،

وإنى أسميه ناحور وأهبه لك ،

فاجعل سيد الحكمة يهبه قبسا من حكمته ، ويطعمه من « طعام الحياة » ،

ويسقيه يا إلٰهى من « ماء الحياة » .

أيها الأب نانا بسرّه لما يرضيك ، واحفظه من أن يتردى فى العالم السفلى ، ولا تكتب عليه أن يذهب إلى « الأرض التى لا رجعة منها ». أنت عادل أيها الأب العظيم ، وقد وهبته لك فتقبله خادما للسماء المقدسة ، خادما للآلهة ، وامنحه يا إلٰهى اللمسة المقدسة التى منحتها لأبيه ، حتى يصنع لعظمة ولعظمتك البعول الكرام تماثيل ترضى عنها ، ويرضى عنها السادة الآلهة فى السماء .

واستغرق ناحور فى الركوع وإطلاق البخور حتى بعث إلٰه الشمس شماس أشعته فغمرت المعبد ، وتعلق البخور بها فبدت كستائر شفافة من الفضة ، فنهض وانطلق إلى الطبقة العليا حيث ترقد إيمتالى ووليدها .

وألقى على إيمتالى تحية رقيقة ، ثم مال وحمل حفيده ورفعه وقبله ، ثم عاد

يتفرس فى وجهه ويقول :

ـــ سميته ناحور ، وصليت للآلهة عسى أن تتقبله بقبول حسن .

فقالت إيمتالى وهى تتحامى أن تلتقى بعينيه :

ـــ ناحور اسم عزيز علينا . حبيب إلى قلوبنا ؛ ولكن ..

ـــ ولكن ماذا ؟

فقالت فى ارتباك :

ـــ كنا اتفقنا أنا وآزر أن نطلق اسم ناحور على أول أولادنا الذكور .

ـــ وما الذى حدث ؟

ـــ جاءنى هاتف فى المنام وقال لى سميه « إبراهيم » .

وساد الصمت بينهما برهة وقالت إيمتالى :

ـــ هذه مشيئة الآلهة . سأسميه « إبراهيم » ، وسأسمى أول مولود ذكر أضعه بعده « ناحور » . فناحور اسم غال عندنا ، وسأسمى الذى بعده « هاران » تبركا باسم عمه الحبيب .

وشرد ناحور يفكر ، فمعنى « إبراهيم » أبو القبائل .. أبو الأمم . وقد رأى فى منامه أن نورا خرج من صلب ابنه أضاء السماء ، وها هى ذى إيمتالى تسمع فى منامها هاتفا يدعوها أن تسمى ولدها « إبراهيم » ، أن تسميه أبا الأمم ، فتهللت أساريره وانقشعت من صدره موجة الأسى التى طافت به لما أعرضت إيمتالى عن اسمه . إنه رأى رؤيا ورأت إيمتالى رؤيا . فقال فى ابتهال :

ـــ « إبراهيم » اسم عظيم .

ونظر إلى حفيده الذى كان لا يزال بين يديه نظرة طويلة ثم قال :

ـــ سيكون لك شأن عظيم مع الآلهة ، سيقترن اسمك بالسماء ، سيتألق نجمك فى القبة الزرقاء .

وخرج ناحور منشرح الصدر ليقدم للآلهة قربانا اعترافا بفضلها ،

وشكرا على النعمة التى أنعمت بها على آله ، وفداء للوليد الذى رأى أول ما رأى فى يومه الأول نور شماش إلـٰه النور .

ومرت على إيمتالى أيام وهى سعيدة بإبراهيم ، متلهفة على عودة آزر ليرى ابنه الحبيب .

وذات ليلة دخلت الجارية على سيدتها فرحة وقالت :

ـــ وصلت القافلة القادمة من بابل ، وعما قليل سيكون سيدى هنا .

ونهضت إيمتالى تتزين وتتأهب لاستقبال الزوج الغائب ، فمشطت شعرها وجعدته من أمام ليتموج على كتفيها ، وارتدت قميصا طويلا ، وزينت معصمها بأسورة ، ثم استبقت إلى الباب ترقب مجىء زوجها .

وصعد آزر فى الدرج الداخلى وهو ينظر إلى أعلى ؛ كان الظلام دامسا فقد كان نور المسرجة التى تضىء داخل الدار خافتا واهنا ، وعلى الرغم من الظلام فقد رأى زوجته بعين بصيرته ، فراح يهرول فى الدرج حتى بلغها واحتواها بين ذراعيه ، ودخلا معا لتقص إيمتالى على زوجها كيف وضعت وليدها ، وكيف جاءها هاتف فى المنام يأمرها أن تدعوه إبراهيم .

وعاد آزر إلى صنع تماثيل الآلهة وبيعها فى الأسواق ، وكان وحيدا ، وكان يجد مشقة فى الجمع بين صنع تماثيله والخروج لعرضها على الناس أمام معبد الإلـٰه نانا ، فراح يتعجل مرور الزمن ليشب إبراهيم ويعاونه فى بيع تماثيل الآلهة التى يخلقها بيديه .

وجاء لوجال يزور صديقه ويهنئه بالمولود ، فاجتمعا فى غرفة الاستقبال المقابلة لمدخل الدار ، ودار الحديث بينهما فقال لوجال وهو يدنو برأسه من آزر :

ـــ تذكر أنى عرضت عليك ونحن فى الطريق أن نكوّن شركة معا ، وأن يكون لكل منا نصيب على الشيوع فى الفضة والتجارة والعبيد والإماء ، وأن

تتسع معاملاتنا فتشمل الخارج والداخل .

ـــ تعلم يا لوجال أنى لا أمتلك مالا .

ـــ سيكون رأس مال الشركة مينا واحدا من الفضة (٥٠٥ جم) .

ـــ أنا لا أستطيع أن أدفع نصف هذا القدر .

فقال لوجال لصاحبه وهو يبتسم :

ـــ أنت تملك هذا البيت ، أليس كذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ يمكنك أن تقترض المبلغ من معبد الإلـه نانا بضمان هذا البيت .

ـــ وفائدة المبلغ ؟

ـــ تسدد من الأرباح .

ـــ وما الذى يضطرنى إلى هذا ؟ أنا رجل قانع .. أنا سعيد بحياتى هذه .

ـــ أنت فى حاجة إلى مال كثير يا آزر ..

ـــ ماذا أفعل به ؟

فرمقه لوجال بنظرة خبيثة وقال :

ـــ لماذا لم تعين كاهنا فى معبد إلـه القمر يا آزر ؟

ـــ لأننى لست من أبناء الأمراء ، ولأن الفأل لم يرشحنى لأن أكون كاهنا .

وضحك لوجال ضحكة ممدودة وقال :

ـــ الفأل ؟! أتصدق هذا يا آزر ؟ إنك لم تصبح كاهنا لأنك لا تملك المال الذى يرفعك إلى مرتبة الكهانة .

فقال آزر فى فزع :

ـــ اسكت يا لوجال .. أنت كافر .. كافر .

ولم يمسك لوجال لسانه واستمر يقول :

ــ لو أنك دفعت للأوريجاللو فى بابل مالا وفيرا لكان الفأل اختارك ، ولكنت اليوم كاهنا أو كاهنا أكبر للإلـه نانا .

فقال آزر وهو يضع سبابتيه فى أذنيه حتى لا يسمع ما يقوله صديقه فى حق الآلهة :

ــ اسكت يا كافر .. لو لم تكن صديقى لوشيت بك ..

ــ هذه هى الحقيقة يا آزر ، ولكنك لا تحب أن ترى الحقيقة . إنها تجارة .. بل أروج تجارة فى بابل . لو عرف عنى الصلاح الذى عرف عنك لوضعت كل ما أملك ، بل لا ستدنت من الأصدقاء ومن المعابد لأضع مبلغا ضخما فى يد الأوريجاللو ليجعل الآلهة فى مجمعها تختارنى لأكون كاهنا من كبار كهنة الهياكل ، لأصبح شخصية هامة تتدفق شواقل الذهب والفضة إلى خزانتى ؛ ولكنى فاسق يا آزر ، وإنى أدفع الآن ثمن ذلك الفسوق ، وأبحث عن مورد آخر لأكسب مالا يرفع قدرى ، ويجعلنى أهلا لأن أدعى لحفلات الملك واحتفالات رجال الدين .

ــ لن أشاركك أبدا يا لوجال .

ــ لماذا ؟

ــ لأن تجارتك ستبور ، لن تباركها الآلهة .

ــ أنت واهم يا آزر ، الآلهة لا تبارك إلا تجارة الفاسقين لأن الدنيا لهم ، تلفت يا عزيزى فى أور وقل لى : مَن مِن الصالحين يملك مالا ؟

فقال آزر فى حماس :

ــ الملك ورجال الدين .

فجز لوجال على نواجذه وقال :

ــ يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، لو قلت رأيى فيهم فلن تقوم لشركتنا التى أرجوها قائمة أبدا .

ـــ ولماذا تصر على أن تكون بيننا شركة ؟

ـــ تعودت أن أصارحك يا آزر ، أنا لا أملك بيتا ولا أرضا ولا شيئا يمكن أن يضمن الدين الذى أقترضه ،ولكننى أملك الموهبة والتجارب والمهارة، مالك مع موهبتى .. هذه هى الشركة .

ـــ ألم تقل لى إن رأس مال الشركة مين من الفضة ؟

ـــ ستدفع أنت نصف مين وتقدر جهدى بنصف مين .

ـــ لا بد من وجود صك مكتوب يعين الواجبات المفروضة عليك يا لوجال .

ـــ هات لوحا نكتب فيه الشروط .

وأحضر آزر لوحا من طين لم يجف بعد ، وأحضر قلما سنه مثلث الشكل ، وقدمهما إلى لوجال ، فشرد لوجال قليلا ثم بدأ يكتب وهو يردد ما يكتبه :

ـــ رأس مال الشركة مين من الفضة ، يقدم آزر نصف مين ، ويقدر جهد لوجال بنصف مين ، وعلى لوجال عند عودته من رحلته أن يقدم لآزر ما دفعه فى رأس المال مقابل إيصال بذلك ، وأن يقدم له كذلك نصف الأرباح ، وأن يحتجز لنفسه النصف الآخر ، ويتحمل آزر مصاريف الرحلة .

فقاطعه آزر :

ـــ نتحمل مصاريف الرحلة مناصفة .

ـــ ولو أن هذا يخالف العرف التجارى فى بابل ، فإنى أقبل ذلك لأنك صديقى ...

ـــ وإن قمت بصفقات غير مربحة ؟

ـــ تتحمل وحدك الخسارة .

ـــ حتى ولو كان ذلك بسبب إهمالك أو سوء تصرفك ؟

ـــ إن جاءت الخسارة نتيجة إهمالى أو سوء تصرفى كان علىّ أن أعيد إليك ما دفعته مضاعفا . هذا هو العرف التجارى ، أما إذا ضاع المال بسبب سوء الأمن فى الطرق أو لأسباب قهرية أخرى فإنى لا أدفع شيئا .

ـــ وما أدرانى أن المال قد فقد بأسباب قهرية ؟

ـــ سأقسم بذلك أمام الآلهة .

فابتسم آزر ابتسامة هازئة وقال :

ـــ لكأنك مؤمن بها . ما أيسر القسم الكاذب على من كان كافرا مثلك .

ـــ ألا تثق بى يا آزر ؟

ـــ إنى أثق بك يا لوجال ، وإن كان غريبا أن يثق مؤمن بكافر . أفضل أن تكون الشركة بيننا بالتضامن ، أنت تدفع نصف رأس المال وأنا أدفع النصف الآخر .

ـــ ومن أين لى نصف مين من الفضة ؟

ـــ تستطيع أن تقترضه يا لوجال .

ـــ ومصاريف الرحلة ؟

ـــ من العدل أن أتحملها وحدى ونقتسم الأرباح والخسائر بالتساوى ، وإذا صفيت الشركة فإنها تصفى تصفية عامة من قش التبن إلى الذهب .

فقال لوجال فى حماسة :

ـــ اتفقنا .

ـــ وإن رأيت أن أرسل عبدا من عبيدى معك ؟

ـــ تتكفل بطعامه وشرابه وملبسه .

ـــ ولكنه ليس فى خدمتى ، إنه فى خدمة الشركة ، فعلى الشركة أن تتكفل بطعامه وملبسه .

فضحك لوجال وقال :

ــ دم التجارة يجرى فى عروقك يا آزر وإن كنت صانع تماثيل الآلهة .

ــ الدم الذى يجرى فى عروق دم مردوخ العظيم ، منذ أن خلط دمه بالطين وخلقنا ودماؤه تجرى فى عروقنا ، إنى أعجب يا لوجال كيف أن دم الإلـٰه يجرى فيك وترتكب كل هذه المعاصى والآثام .

فقال لوجال ساخرا :

ــ إنى لا أرتكب المعاصى بدمى ، بل أرتكبها بنصيب الطين الذى فىّ .

وشرد آزر برهة ، وظل لوجال يرمقه ويحترم صمته ، حتى بان فى وجه آزر الانفعال وقال :

ــ طافت برأسى أمنية .

ــ ما هى ؟

ــ أن تستمر الشركة بيننا وتزدهر حتى يشب إبراهيم ويذهب معك إلى بلاد المعادن وأخشاب الأرز والأحجار الكريمة . لم أر من بلاد الدنيا غير أور وبابل وما بينهما ؛ ولكنى أرجو أن يرى ابنى العالم ، أن يذهب جنوبا وشمالا وشرقا وغربا .

ــ وما الذى يربطك بالأرض يا آزر ؟ تعال معى ما دمت تتوق إلى زيارة الدنيا .

ــ لا أطيق البعد عن أرض الآلهة أبدا . لو انقضى يوم دون أن أصلى فى المعبد فإنى لا أحسبه من عمرى .

ــ هيا نحرر العقد ونوقعه ، ونبتهل إلى الآلهة أن تمد فى عمره حتى يرثه إبراهيم وإخوته ، وابنى نور شماش وإخوته .

ورمقه آزر فى دهش وقال :

ــ أنت محيِّرٌ يا لوجال ، تسخر من الآلهة وتسمى ابنك نور شماش ، ثم لا تفتأ تذكر الابتهال إلى الآلهة .

ــ أنا مؤمن يا آزر ، وإن كان إيماني يختلف عن إيمان الكثيرين ، أنا مؤمن متحرر .

ــ ما دمت مؤمنا يا صديقى فهيا إلى المعبد نقسم بمردوخ وشماش ونانا أننا سنخلص لهذه الشركة ونوقع العقد أمام السبعة عشر شاهدا من الكهنة الأطهار .

ــ هيا يا آزر ، وإن كنت لا أثق أن الكهنة الشهود من الأطهار .

ورمقة آزر فى عتاب ، ثم انطلقا إلى معبد نانا ليؤسسا شركة للتجارة فى الشعير والعبيد والإماء ، تعمل فى داخل البلاد وخارجها .

٥

ومرت الأيام ووضعت إيمتالى ولدين ذكرين ، فأوفت بوعدها للسيد الكبير وسمت أكبرهما « ناحور » وسمت الآخر « هاران » تيمنا باسم عمه الحبيب ، وشب إبراهيم وراح يتجول فى البيت ، يمرح فى الشرفة التى تفتح عليها أبواب غرف الطبقة العليا ، ويهبط فى الدرج إلى فناء الدار الداخلى الذى تطل عليه نوافذ البيت ويذهب إلى حيث يجلس أبوه يصنع تماثيل الآلهة .

كان يمضى أغلب وقته يرصد أباه وهو ينشر الخشب ويشكله فى مهارة عجيبة . كان يصنع فى الغالب تمثالا على هيئة إنسان إلا أن أذنيه كبيرتان ، وكان ذلك الإنسان يحمل السلاح المقدس ويربض تحت قدميه وحش ، وكان بعد أن ينتهى من صنعه يضع على رأس التمثال تاجا ، ويلبسه رداء كاهن أكبر تصنعه أمه ، وكان يلف حول وسطه حزاما من سعف النخل .

إنه يذكر أنه قال لأبيه مرة :

ــ إن أذنيه كبيرتان يا أبى ، أكبر من آذاننا ؟

ــ إنه مردوخ رب الأرباب يا بنى ، وهاتان الأذنان الكبيرتان ترمزان إلى فهمه العميق .

ونظر إلى التمثال الذى بين يدى أبيه ورنت فى أذنيه مقالته: « فهمه العميق .. فهمه العميق » ولم يفهم إبراهيم شيئا فقد كان لا يزال حدثا ، وكان غاية ما يفهمه أن أباه يصنع دمى للعب والعبث !

ورأى أباه يصنع تماثيل لأناس يجلسون على كراسى ، وأناس يحملون

حرابا ، ورآه مرة يصنع تمثالا لسيدة فقال له :

ــ من هذه يا أبى ؟

ــ هذه عشتار ، عشتار الغضوب ، عشتار العطوف .

ولم يقل عشتار إلـٰهة اللذة ، فما كان يدرى بعد ما اللذة وما الألم . وفى ذات يوم رآه يصنع عرشا وتاجا فقال :

ــ ومن هذا يا أبى ؟

ــ هذا الإلـٰه إنليل هذا الذى أحدث الطوفان الذى رويت لك قصته .

ــ لم أفهم يا أبى لماذا أغرق البلاد وأهلك الناس ؟

ــ لأن الناس ضلوا ، أفسدوا فى الأرض .. عصوا الآلهة .

ولم يفهم الصلة بين الآلهة وتلك التماثيل التى يصنعها أبوه بيديه ويشكلها كيف يشاء ، يدق على رءوسها بقدومه ، وقد يشق أحدها شقا ، أو يدق عنقه إذا لم تعجبه صنعته .

ودخل معبد الدار فرأى محرابا فى وسطه ، ورأى التماثيل التى صنعها أبوه بيديه . وقد ثارت دهشته لما رأى أباه يركع للتماثيل التى ابتدعها فنه ، وزادت دهشته لما رأى جده يفعل ما يفعله أبوه ، وبلغ عجبه منتهاه لما رأى أمه تفعل ما يفعله أبوه وجده .

وذات يوم لم يستطع أن يكتم ما يدور برأسه ، فدنا من أبيه بعد أن أتم صلاته وقال له :

ــ لماذا تركع يا أبى لهذه التماثيل ؟

ــ لأنها الآلهة التى خلقتنا ؟

ــ أنت الذى صنعتها يا أبى بيدك . أنت الذى تخلقها كل يوم !

ــ لا يا إبراهيم ، أنا أصنع رمزا للآلهة أجسمها لأعين الناس . أما الآلهة فهى فى السماء جالسة على عروشها .

ودنا آزر من إبراهيم وضمه إلى صدره فى حنان وقال له :

ــ أتذكر كوكب المشترى الذى كان فى السماء ، ليلة كنا جالسين فوق سطح الدار ؟

ــ أذكره يا أبتاه .

ــ هذا هو كبير الآلهة ، مردوخ العظيم رب الأرباب .

وأشار الأب إلى تمثال مردوخ وقال :

ــ هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز لكبير الآلهة .

ولاح فى وجه إبراهيم أنه لا يفهم ما يقوله أبوه . واستمر آزر فى حديثه :

ــ أرأيت القمر يا إبراهيم ؟

ــ نعم يا أبت .

ــ إنه إلٰه أور .. إلٰه مدينتنا يا إبراهيم . إنه الإلٰه نانا ، وفى بعض البلاد الأخرى الإلٰه سين .

وأشار إلى تمثال من التماثيل التى صنعها وقال :

ــ هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز له .

ثم قال فى هدوء :

ــ أرأيت الشمس يا إبراهيم ؟

ولم يدعه إبراهيم يتم مقالته . وسأله :

ــ ولماذا تعبد يا أبى كل هذه الآلهة ؟

ــ لأنها هى التى خلقتنا ورزقتنا وأسبلت حمايتها علينا .

فشرد إبراهيم قليلا وقال :

ــ ومن الذى خلق هذه الآلهة يا أبتاه ؟

فراح آزر يرتل فى إيمان :

حين لم تكن السماء العلا قد سمِّيت بعد ،

ولم يكن للأرض من تحتها اسم بعد .

اختلطت المياه من أبسو الأزلى أبيهم ،
ومن تيامات الصاخبة أم الجميع ، فاتحدا .
وحين لم تكن الأجام قد نبتت بعد ، و لم تكن غياض القصب قد عرفت طريقها إلى الوجود ،
وحين لم يكن هناك إلـٰه له اسم ،
وحين لم يكن هناك قدر مرسوم ،
خلقت الآلهة .

نظر إبراهيم إلى أبيه طويلا ، و لم تقبل فطرته السليمة ذلك التفسير ، كانت بذور الشك قد ألقيت فى أغوار نفسه بيد أنه لم يكن يدرى بعد ما يقول . قال له أبوه :

ــ عندما تكبر يا بنى وتتسع مداركك ، ويمنحك الإلـٰه مردوخ نعمة الفهم ، فستدرك أسرار الآلهة .

وصمت الأب قليلا ثم قال :

ــ غدا آخذك معى إلى المعبد ، وبعد غد نذهب إلى جدك ناحور ليعلمك الحساب والنظر فى النجوم .

فلما كان الغد خرج آزر وإبراهيم وانطلقا إلى معبد الإلـٰه نانا إلـٰه القمر ، فلما بلغا حرم المدينة ــ البقعة المقدسة بها ــ راح إبراهيم يتلفت . كان الحرم المقدس فسيحا ، طوله أربعمائه ذراع وعرضه مائتا ذراع ، وقام على قاعدة مرتفعة فى الزواية الغربية منه الزقوة ، البرج المدرج ، أعظم مبانى المدينة ارتفاعا .

رفع إبراهيم بصره ينظر إلى البرج الشاهق ، فرأى عند قمته شيئا لم يستطع أن يتبينه فقال لأبيه :

ــ ما هذا الذى عند البرج يا أبت ؟

فقال آزر فى زهو :

ـــ هذا مزار الإلـٰه نانا .

ـــ ولماذا بنى على هذا الارتفاع الشاهق ؟

ـــ إننا فى الأصل من الجبال يا إبراهيم ، وكان آلهتنا يعيشون على قمم الجبال . فلما جئنا إلى هذه السهول لم نجد مرتفعات ، فبنينا هذه الأبراج وجعلنا مزارات الآلهة عند قممها . إن هذا برج عظيم يا بنى ، ولكن إذا كبرت وصرت رجلا وقدرت لك الآلهة الذهاب إلى بابل ، فسترى برجا يليق بمقام رب الأرباب .

ورأى إبراهيم عند قاعدة الزقوة ساحة واسعة تحيط بها غرف كثيرة . فقال لأبيه :

ـــ وما هذه الغرف يا أبتاه ؟

ـــ هذه مخازن المعبد يا بنى .

ورأى عندها بعض الفلاحين يجلبون على ظهور الحمير الحبوب والزيت والسمن والجبن والجلود والصوف والكتان ، ورأى أناسا من المدينة يجلبون الأقمشة والملابس . إنها النذور التى نذروها للإلـٰه نانا ! راحوا يقدمون النذور إلى كهنة المعبد ، فكان الكهنة يأخذونها منهم فيزنونها ويدونونها فى سجل قبل أن تنقل إلى المخازن ، ثم يحررون بها إيصالا على لوحة طينية ، تحفظ منه نسخة فى سجلات المعبد ، وتسلم نسخة للذين يوفون بنذورهم .

سار إبراهيم بخطى وئيدة يمد بصره إلى كل شىء ، فوقعت عيناه على رصيف قريب من المعبد يقع على رأس قناة ، وقد رست على الرصيف سفن محملة بالأخشاب والذهب والنحاس والأحجار الكريمة والبخور .

ولفت إبراهيم نظر أبيه إلى تلك السفن ، فقال آزر وهو يبتسم ابتسامة رضا :

ـــ هذه يا بنى هدايا المعبد ونذور الناس .

وارتفعت ضوضاء الناس وهم يتصايحون ويتدافعون ويتزاحمون لتقديم الهدايا للإلٰه نانا .

ورأى إبراهيم فوق مدخل الفناء الذى يضم مخازن المعبد بناء ذا طبقتين ، وفطن آزر إلى أن ابنه يقلب وجهه فى ذلك البناء فقال له :

ـــ هذه مساكن موظفى المعبد .

ـــ كل هذه الغرف لموظفى المعبد ؟

ـــ إنهم يمارسون فيها أعمالهم .

ـــ أعمالهم ؟!

ـــ أعمالهم أجل شأنا من أعمال الدولة ، فالدولة تخدم الناس أما موظفو المعبد فيخدمون الآلهة . الملك نفسه خادم من خدام المعبد ، فهو يوم بناء المعبد يحمل على رأسه وعاء الملاط ، ويقدم القرابين للآلهة ويرجو مخلصا أن تتقبلها منه .

ـــ إنها غرف كثيرة .

ـــ إنها غرف كبير الكهنة ، والكهنة ، ومدير أملاك المعبد ، ورئيس الحرم ، والكتبة .

وشرد آزر قليلا ؛ كانت أمنيته أن يكون كاهنا من هؤلاء الكهنة الذين أسعدهم الحظ أن يكرسوا حياتهم لخدمة الآلهة ، ولكن الفأل لم يحقق له أغلى أمنية راودت خياله . ورن فى ضميره صوت صديقه لوجال وهو يقول له : « لو دفعت للأوريجاللو الثمن لكنت الآن كاهنا أو كبيرا للكهنة » . وضايقه أن تطوف بذهنه مثل هذه الأقوال الفاجرة ، فراح يجاهد أن يمحو من ذهنه هذه الخواطر التى تقلقه وتجعله يتلفت مرعوبا خشية أن تبطش به الآلهة .

ورأى إبراهيم العاهرات المقدسات جالسات فى الطريق المقدس يغزلن

الصوف وينسجنه ، فقال لأبيه وهو ينظر إليهن :

ــ من هؤلاء يا أبت ؟

ــ هؤلاء اللاتى وهبن أنفسهن لخدمة الآلهة .

وسار إلى الفناء الداخلى فإذا بمعبد نانا أمامهما . كان أشبه بالقلعة بجدرانه السميكة وأبراجه المحصنة ، وبقابله معبد زوجته ننكال ، ثم يقوم بعد ذلك المزار المشترك والطريق المقدس الذى يفضى إلى قدس الأقداس .

وملأت خياشيم إبراهيم روائح لحم يطهى ، فراح يتلفت فوقعت عيناه على مطبخ المعبد حيث تطهى الضحايا ، وعلى المخابز ومحال تسخين المياه والمناضد الحجرية التى تقطع عليها الذبائح .

ودخل نعبد إلـٰه القمر خلف أبيه ، فألفى نفسه فى ساحة واسعة زينت جدرانها بنقوش من الفسيفساء محلاة بالذهب والفضة والزمرد والفيروز والمرجان ، ووقعت عيناه على كوة كسيبت بالذهب وقام فيها تمثال لا يكاد يفترق عن التماثيل التى يصنعها أبوه . كان لرجل جالس على عرشه يحمل فى يده الفأس وسلسلة القياس .

وبين الدهشة والعجب رأى الناس يركعون للتمثال فى خشوع، وازداد عجبه لما رأى أباه يتقدم من التمثال فى إيمان ويهمس فى صوت متهدج :

ــ الإلـٰه نانا إلـٰه القمر ، اركع يا إبراهيم .

وركع آزر ووقف إبراهيم منتصبا يتلفت . رأى أباه يذرف الدموع وهو يبتهل ويتوسل ، ورأى رجالا ونساء يبكون وعبراتهم تخنقهم ، وعجب من أن يجرى كل ذلك أمام تمثال من التماثيل التى كان أبوه هذا الصباح يصنع مثلها ، ويدق رءوسها بقدمه ، ويلبسها من الأثواب التى تصنعها أمه .

وخطر بذهنه الصافى أن الفلاحين الذين وفدوا من كل فج من البلاد يحملون الخيرات إلى مخازن المعبد إنما وفدوا من أجل هذا الصنم ، وأن أهل

المدينة الذين جاءوا بالملابس وشواقل الفضة إنما جاءوا بهذه الهدايا لهذا الصنم ، وأن السفن الكبيرة الراسية على رصيف المعبد والتى تحمل الحبوب والأخشاب والأنعام وكل ما تنبته الأرض من خيرات،ما وفدت بالنذور إلا تقربا من هذا الصنم . وبذرت فى نفسه الطاهرة بذرة سوف تتعهدها الأيام بالرعاية والسقيا حتى تزدهر وتثمر .

اجتمع فى ساحة المعبد « العاميلو » الأحرار و « والمسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة والعبيد ، الرجال والنساء .. الشيوخ والعجائز والشبان والولدان ؛ كانوا جميعا يركعون أمام تمثال نانا ، إلا إبراهيم فقد وقف شامخ الرأس يرنو إلى كل ما يجرى حوله بعينين مفتوحتين وقلب سليم وذهن لمَّاح .

وبلغ أذنيه صلاة أبيه فأرهف السمع . كان يبتهل إلى صنم مردوخ :

إلـٰهى ! مثلما قدرت مصائر ما صنعت يداك .

ورزقتها الخبز لتأكل ، وباركتها وقبلت منها قرابينها ؛

فبارك لى يا إلـٰهى فيما صنعت يداى،

وتقبله منى قرابين لعظمة ألوهيتك .

أدار عينيه فى التماثيل الكثيرة القائمة فى المعبد ، وولدت فى ذهنه فكرة لم تكن واضحة ، كانت بعد مغلفة بضباب كثيف ، كانت بعد خيطا رفيعا مضيئا سوف يتضح رويدا رويدا حتى يتألق النور ويبهر ذهنه : أى هذه الأصنام قادر على أن يستجيب لدعاء أبيه ؟

وأتم آزر صلاته ودعاءه وتوسلاته وابتهالاته ، وجفف ما بقى فى عينيه من دموع ، ثم ذهب إلى حيث وقف إبراهيم وقال له يشير إلى تمثال مردوخ :

ـــ اذهب يا بنى واركع لكبير الآلهة « رب الأرباب » ملك الملوك .

فدار إبراهيم على عقبيه وغادر المعبد مهرولا،وانطلق أبوه فى أثرة حتى لحق به فى فناء الحرم المقدس بالقرب من الزقوة برج نانا الصرح المدرج ، وقال له :

ـــ لماذا لم تركع لكبير الآلهة يا إبراهيم ؟

نظر إبراهيم إلى أبيه نظرة طويلة و لم يحر جوابا ، فقال له آزر :

ـــ لا تزال صغيرا يا بنى ، إنى عندما ركعت أمام رب الأرباب وابتهلت إليه فى حرارة سالت دموعى وألقى فى روعى أن سيكون لك يا إبراهيم شأن عظيم مع الآلهة ، ومع مردوخ كبيرهم العظيم .

وانطلقا حتى إذا بلغا الفناء الخارجى ولاحت لهما البوابة التى تقود إلى الحرم المقدس ، قال آزر وقد شرد ببصرة كأنما يحلم ، أو كأنما يحاول أن يرى المستقبل :

ـــ أترى هذه البوابة يا إبراهيم ؟

فهز إبراهيم رأسه أن نعم ، فقال آزر فى نبرات حالمة :

ـــ عندما تكبر يا إبراهيم ستقف عند هذه البوابة ، وتبيع للناس تماثيل الآلهة التى أصنعها .. وستباركك الآلهة يا بنى .

وارتسمت على وجه آزر إشراقة أمل وتفاؤل ، و لم يبد على وجه إبراهيم الاقتناع .

٦

خرج إبراهيم إلى شوارع أور ؛ كان فى طريقه إلى بيت جده ليتعلم النحو واللغة والحساب والفلك والنظر فى النجوم . لقد خلف وراءه المعبد والبرج والحرم المقدس وسار بين الحقول والحدائق يحدق فى الغادين والرائحين .

رأى التلاميذ فى طريقهم إلى مدارسهم وكانوا من أبناء « العاميلو » أبناء الحكام والوجهاء والسفراء والمشرفين على المعابد وضباط الجيش والبحرية وموظفى الضرائب والكهنة .. أبناء الأغنياء القادرين على دفع تكاليف التعليم . وهم يلتحقون بعد أن يتخرجوا فى مدارسهم بخدمة المعبد والقصر وخدمه الأغنياء . لم يشعر إبراهيم نحوهم بحسد ، فقد كان يحس فى قرارة نفسه على الرغم من أنه ما يزال صبيا أنه قادر على أن يكون شيئا وإن لم يلتحق بمدرسة من المدارس الكثيرة المنتشرة فى أور .

ورأى بعض رجال الجيش فى طريقهم إلى معسكراتهم ، وكانت وظائف الجيش الكبيرة وقفا على « أبناء العاميلو » ، أبناء الطبقة الأرستقراطية .. كانوا يؤلفون كتائب الأسلحة الثقيلة ، أما أبناء « المسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة فقد كانوا يقومون بالخدمة فى المعسكرات ، وقد يؤلفون بعض الكتائب التى تزود بالأسلحة الخفيفة ، أما العبيد فلم يكن لهم شرف الخدمة العسكرية .

نظر إلى ضباط الجيش المنطلقين إلى معسكراتهم مرفوعى الرءوس يخطرون فى زهو فى ملابسهم الرسمية ، و لم يحلم أن يكون واحدا منهم بل خطر بذهنه

أن يتولى قيادتهم ، على الرغم من أنه سمع من أبيه أكثر من مرة أن الملك هو الذى يتولى القيادة بنفسه ؛ لأنه ظلّ إلـٰه الحرب فى الأرض ، بل لأنه إلـٰه الحرب نفسه .

وسار فى طريقه يتلفت يرقب التجار وهم فى طريقهم إلى الأسواق والموانى ، والفلاحين وهم يعملون فى الحقول ، ويتأمل الزرع والأشجار والدواب والأنعام والطيور ، ويقلب وجهه فى السماء ويمد بصره إلى الأفق البعيد ؛ كان شغوفا بأن يتعرف على الكون العجيب الذى يعيش فيه .

وبلغ بيت جده وصعد فى الدرج إلى الطبقة الثانية حيث يعيش ناحور . ودخل عليه فألفاه يمس عينيه بمرهم هو مزيج من خلاصة النحاس الخام والجعة .

قال ناحور لحفيده :

ـــ عيناى اليوم متعبتان يا إبراهيم ، فلن أستطيع أن أكتب لك لوحا لتكتب مثله ، ولكنى سأقص عليك ما أعرفه عن النجوم ، وسأعلمك كيف تنظر فيها .

وراح ناحور يروى لإبراهيم أن عدد النجوم يبلغ واحدا وسبعين نجما ، وأن هذه النجوم مقسمة إلى ثلاث مجاميع يحكم كل مجموعة أحد الآلهة العظام ؛ فثم ثلاثة وثلاثون نجما لإنليل ، وثلاثة وعشرون لأونو ،وخمسة عشر لـ « أيا » .

وراح يعلمه أسماء الشهور والعلاقة بين الشهور ومولد القمر واختفائه ، ومتى تكون السنة ثلاثة عشر شهرا ، ومتى تكون أربعة عشر ، وكيف يحدد أول يوم من نيسان الشهر المقدس ، شهر العيد الكبير عيد مردوخ العظيم.

تعلم إبراهيم على جده الكتابة بأقلام القصب على ألواح الطين ، وتعلم المقاييس والموازين ، والعلاقة بين الذراع ، والقدم ذى العشرين إصبعا ،

واليد المفتوحة ذات الخمس عشرة إصبعا ، ويد البناء ذات العشر الأصابع .

عرف إبراهيم أن « يد البناء » عشر أصابع ، وأن اليد المفتوحة خمس عشرة إصبعا ، وأن القدم عشرون إصبعا ، وأن الذراع ثلاثون إصبعا ، وأن القصبة ست أذرع ، وعرف وحدات قياس المساحة والمكاييل من « الحور » الملكى إلى الـ « قا » . وعرف الموازين من القمحة والشاقل الصغير إلى المين والوزنة .

وكان أكثر ما يسمعه من جده عن التنجيم واللاهوت ، فعرف من جده ومن أبيه أن السعيد من رضيت عنه الآلهة . وأن الشقى من غضبت عليه ، وأن لكل مؤمن إلها حارسا يسكن جسده ، فإذا ارتكب العبد ما يغضب الإلٰه تخلى عنه الإلٰه وترك جسده لتسكنه الأرواح الشريرة ، التى تجر معها المصائب والنكبات والشقاء المقيم .

وعلمه جده أن السحر هو الذى يطرد الأرواح الشريرة . وأن رضا الآلهة يكتسب من جديد بالصلاة والتضحيات والتطهر ، وأن الآلهة حين خلقت البشر جعلت الموت نهاية حياة الإنسان . وأن الفرق بين الآلهة والبشر أن البشر يموتون أما الآلهة فلهم وحدهم الخلود ، وأن البشر يذهبون عقب الموت إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ، وأن الهدف من الصلاة هو إطالة عمر الإنسان ليسعد بطيبات الحياة قبل أن يذوق الموت ، وكم سمع أباه وجده يبتهلان إلى نانا إلٰه القمر : « خلصنى يا إلٰهى من الإثم ، وامنحنى الحياة أياما طويلة » .

وعلمه جده أن ظل الميت يغادر جسده عقب الموت ويتحول إلى روح شريرة تنضم إلى طبقة الأشرار ، وهى لا تستريح إلا إذا دفنت الجثة ، وأن على أهل الميت أن يقدموا له طعام القربان مرة كل شهر اتقاء لأذاه .

وعلمه جده أن الميت إذا مات دفن وحده ، أما إذا مات الملك فيتعين أن يدفن معه جميع أفراد حاشيته من زوجات وضباط وجنود وخدام وموسيقيين ، يهبطون جميعا إلى قبر الملك حيث يقيمون الطقوس والمراسيم الدينية ، ثم يتناولون السم ، وبعد ذلك يهال التراب عليهم وعلى أوانيهم وأسلحتهم ، وقيثاراتهم ومزاميرهم ، وخناجرهم المطعمة بالذهب ، وأدوات زينتهم ، وكل نادر ونفيس مما كانوا يستخدمونه قبل أن يكتب عليهم الموت بموت ملكهم الإلٰه .

تعلم إبراهيم من جده ناحور ومن أبيه آزر ومن أمه إيمتالى ومن عمه هاران معتقدات قومه ، ورشف من حضاراتهم ، بيد أنه لم يأخذ ما تعلم على أنه حقيقة لا تقبل المناقشة ، بل كان يمحص ما يسمع وما يرى بعقله الذى كان يتفتح على مر الأيام .

وقد استطاع إبراهيم بتأملاته أن يربط بين نفسه وبين الكون الذى يعيش فيه ، وأن يستريح إلى التعاطف والصداقة والمحبة التى بدأت أواصرها تربط بينه وبين كل ما ينبض حوله بالحياة .

وعاد إبراهيم ذات يوم إلى الدار قبل الموعد الذى اعتاد أن يعود فيه منذ أصبح يتردد على بيت جده ، فألفى أباه عاكفا على صنع تمثال لعشتار ، يصورها وهى تقف على أسدين وتلبس جعبة السهام ، وفى إحدى يديها سلاح مقوس ، وفى الأخرى صولجان يتكون من عصا يتفرع منها سلاحان مقوسان ، فى قمة كل منهما رأس أسد . كان التمثال لا يرمز إلى الإلٰهة المتقلبة التى تغرى البشر بعب كئوس اللذة ، بل يرمز إلى عشتار إلٰهة الحرب . لوى إبراهيم شفته السفلى زراية ، فما كان عقله يسيغ أن تكون امرأة ذكرا فى الصباح وأنثى فى المساء ، وأن تكون إلٰهة للذة وفى نفس الوقت إلٰهة

للحرب . وعجب إبراهيم لأن هذا التمثال الذى يمثل المرأة التى لا هم لها إلا غواية البشر هو أكثر التماثيل رواجا بين الناس ، فمحبوها لا يحصيهم العد .

رفع آزر رأسه عن التمثال وقال :

ــ جئت مبكرا اليوم يا بنى .

ــ جدى مريض يا أبت .

وذهبت إيمتالى وآزر وإبراهيم لعيادة ناحور،فوجدوا عنده هاران وزوجه،وقد جاء له بكاهن يرتل للآلهة أن يكون بها غضب عليه وارتفع صوت الكاهن يتلو:

حين خلق أنو وإنليل وأيا السماء والأرض ..

وغلب إبراهيم النعاس فنام ، و لم يستيقظ إلا على صوت أمه تناديه :

ــ إبراهيم إبراهيم ! قم .. إنا ذاهبون .

ونهض إبراهيم وسار مع أمه ، وما ابتعدا خطوات حتى هرعت الجارية إلى إيمتالى وقالت لها وهى تتلفت :

ــ لقد كثرت الصراصير فى البيت منذ أن مرض سيدى .

ولاح الخوف فى وجه إيمتالى ، ونظر إبراهيم إلى أمه وإلى الجارية وهو مدهوش لا يفهم شيئا ، ثم قال :

ــ ماذا تعنى يا أماه ؟

فقالت إيمتالى فى صوت خافت متهدج :

ــ إن كثرة الصراصير فى البيت فأل سيئ يا بنى

ولحق آزر بزوجه وابنه وقال :

ــ لقد اتفقنا مع الكاهن على أن يقدم فى الفجر ثلاث أضحيات للبعول الكبار أنو وإنليل وأيا .

فقالت إيمتالى : ــ حسنا فعلتم .

و لم ينبس إبراهيم بكلمة وقال آزر :

ـــ بعد أن تقدم الأضحيات ويرضى الآلهة ، يصبح أبى بارئا .

وقدمت الأضحيات إلى البعول الكبار ، وضرب الكاهن على الطبول المقدسة وغنى تمجيدا لإنليل ، وصلى وابتهل وحرق البخور استعطافا للآلهة ، وراح يدعوها أن تطيل أيام ناحور الصالح ليقدم إليها القرابين والأعمال الصالحة .

وأصبح الصباح ، وخف آزر وإيمتالى وإبراهيم لعيادة المريض .

كان آزر متفائلا بعد ما أجرى من طقوس لاسترضاء الآلهة ، وكانت إيمتالى شاردة تفكر فى الصراصير الكثيرة التى ملأت بيت الشيخ ناحور ؛ وكان إبراهيم يجاهد ليستبين سبب الحيرة التى تملكته ، فثم سؤال يفرض نفسه عليه : لماذا يولد الإنسان ولماذا يموت ؟

وراح الثلاثة يصعدون فى الدرج ليبلغوا غرفة المريض وقـد لاح فى وجوههم القلق ، كان آزر ـــ على الرغم من تفاؤله الذى أبداه فى الصباح ـــ مشفقا على أبيه أن يذوق الموت الذى ينقله إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ؛ وكانت إيمتالى تخشى أن يتحقق الفأل السيىء الذى أعلن عنه تكاثر الصراصير فى جنبات الدار ، وكان إبراهيم حزينا واجما فقد توطدت الصداقة بينه وبين جده ، حتى لتغمره السعادة ما كان معه ، وإن كان عقله يرفض كثيرا من الأساطير التى يقصها عليه .

ودخلوا على ناحور فألفوه مسجى فى فراشه وقد أطبق جفنيه وعلت الصفرة وجهه . فوقف آزر عند رأسه ووقف إبراهيم عن كثب يرنو إليه وهو باسر الوجه .

وفتح ناحور عينيه فرأى إبراهيم فأشار إليه أن يقترب ، فتقدم إبراهيم منه ، فرفع ناحور ذراعه ووضع يده على رأس حفيده ، وتذكر الرؤيا التى رآها ،

رؤيا آزر وقد خرج من صلبه عمود نور أضاء السماء . أحس فى تلك اللحظة أن إبراهيم هو النور الذى سيبهر القبة الزرقاء . واستشعر ناحور جهدا فأعاد ذراعه إلى جواره ، وهو مبهور النفس لا يقوى أن يفتح عينيه .

وعلى الرغم من أن طقوس الكاهن وأضحياته لم يظهر لها أثر ، فقد جاءوا بكاهن آخر قال بعد أن رأى المريض :

ـــ أريد خنزيرا من المستنقعات ، وسبعة أرغفة سويِّت تحت الرماد .

وانطلق آزر ليحضر الخنزير ، وذهبت إيمتالى والجارية وزوجة هاران ليسوِّين الأرغفة تحت الرماد ، وبقى هاران مع الكاهن ، أما إبراهيم فذهب بعيدا يقلب وجهه فى السماء .

وعاد آزر بالخنزير ، وجاءت الجارية تحمل الأرغفة السبعة ، وقال الكاهن :

ـــ علىّ بالموقد والمشعل .

وجئ بالموقد والمشعل ، وذبح الكاهن الخنزير وقسمه إلى ستة أجزاء وضعها على ناحور ، وجاء بقلب الخنزير ووضعه إلى جنب فراشه ، ثم غسل ناحور بالماء المقدس .

وجىء بتمثال لمردوخ رب الأرباب ، وألقى البخور فى الموقد ، وراح الكاهن يتلو فى صوت أقرب إلى الغناء :

الخنزير فداء لناحور .
اللحم عوض عن لحمه ،
والدم عوض عن دمه ،
اجعل الشياطين تتقبل ،
القلب الذى وضعته إلى جنب فراشه ،
وامنحه إياه عوضا عن قلبه ، ولتتقبله .

وذهب الكاهن إلى الباب فأغلقه مرتين كأنما يغلقه فى وجه الشياطين التى تقبلت الفداء ، ووضع السبعة الأرغفة التى سويت تحت الرماد بالقرب من الباب المغلق ، وأمر أن ترفع فى الفجر عندما يبدأ الإلـٰه نانا رحلته اليومية .

وانقضت أيام و لم يبرأ ناحور من مرضه ، فجىء بعراف ليستقرئ الأوانى ويرى إن كان سيشفى أو سيذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وجاء العراف وكان حليق الشعر واللحية يرتدى إزارا أبيض ، وكانت عيناه واسعتين يشع منهما بريق ، وطلب إناء به ماء وآخر بعض الزيت .

وجىء بالإناءين ، وراح العراف يقرأ على إناء الماء ، ثم سكب فيه نقطة من الزيت . وأخذ يحدق فى نقطة الزيت وفى حركتها وتشكلها على سطح الماء ، كأنما تركزت قواه كلها فى عينيه .

وتعلقت العيون بوجه العراف تحاول أن تقرأ الانفعالات التى ترتسم عليه ، وأن تستشف ما يرى قبل أن تنطق به شفتاه . الجارية تقف فى الشرفة التى تطل على فناء الدار الداخلى ترصد وجه العراف فى اهتمام وقد حبست أنفاسها ، وإيمتالى أمامها ، وزوجة العم هاران بالقرب من زوجها ؛ أما آزر فقد جلس على حافة فراش أبيه المسجى ، الذى لا يدرى مما حوله شيئا .

ومس أذنى الجارية خفق جناحين فالتفتت نحو الصوت ، فإذا صقر يحوم فى فناء الدار ثم يرتفع وينطلق بعيدا . وخفق قلبها فى خوف ، فدخول طائر جارح البيت ثم خروجه منه نذير بموت صاحبه .

وقطب العراف جبينه ونهض ، ثم قال وهو يهز رأسه أسفا :

ــ سيموت .

وساد المكان سكون رهيب ، ولاحت الدموع فى أعين النسوة ، وظهر القهر فى وجه آزر ، وتملك اليأس هاران ، فقد عجز الطبيب وأخفق الكاهن فى إرضاء الآلهة فلم تقبل القرابين والأضحيات التى أريق دمها ، وأكد

المنجمون والعرافون أن أيام ناحور على الأرض قليلة ، وأنه قد آن أوان نزوله إلى العالم السفلى، إلى الأرض التى لا رجعة منها.

وجلس إبراهيم وحده فى غرفة الاستقبال المواجهة لباب الدار يفكر فى الحياة والموت ، وفى الطقوس التى جرت فى بيت جده منذ أول يوم مرض فيه الشيخ ، وفى الآلهة الكثيرة التى توسل إليها الكهنة أن تطيل أيام ناحور على الأرض ، وفى الموت والعالم السفلى الذى لا رجعة منه .

ومات ناحور .

وخف أبناؤه لتجهيزه والإسراع بدفنه ، لا تكريما له بل خشية منه فإنه إن تركت جثته فى الدار مدة فإن ظله الذى غادر جسده يتحول إلى روح شريرة « اديمُّو » تنضم إلى الأشرار ، ولا تستقر ولا تستريح طالما أن الجثة لم تدفن .

وكثر الحديث عن بيت الظلام ، البيت الذى لا يخرج منه من يدخله ، إنه مكان مسور بسبعة حوائط فى كل حائط بوابة عظيمة ، والمكان غارق فى الظلام كأنه ليل سرمد ، والموتى فيه يرتدون ثيابا من ريش الطيور ، ويأكلون التراب ويتغذون بالطين .

وفى بيت الظلام يسكن الحكام الذين لم يرتفعوا إلى مرتبه الآلهة ، والكهان والسحرة والأنبياء والبشر جميعا ؛ فريق تأكلهم الديدان كما تأكل الثياب الخلقة ، وفريق يملأ التراب آنافهم وأعينهم وبطونهم ، بيد أن ثم فريقا يتكئون على السرر ويسقون شرابا طهورا .

وقبر ناحور ، وعاد أهل بيته يحيون حياتهم اليومية ، إلا إبراهيم فإنه ظل يفكر فى الآلهة ، وفى الأصنام التى يصنعها أبوه بيديه ويركع لها الكهنة والسحرة والمنجمون وملوك الأرض وعامة الناس ، وفى بيت الظلام ، وفى الحياة المهينة التى يحياها الموتى حتى الصالحون منهم ، وإن كانوا يتكئون على السرر ويشربون الماء طهورا .

٧

راح إبراهيم يفكر فى موت جده ناحور ، وفى الكاهن الذى تقاضى سبع أوان من الخمر ، وأربعمائة وعشرين رغيفا ، ومائة وعشرين قا من الحبوب ، ورداء وجديا وسريرا ، ثمنا لمواراة جثته فى التراب .

واشتغل فكره بالكهنة الآخرين الذين قربوا القرابين إلى الأصنام استعطافا للآلهة لتطيل أيام ناحور ، وأولئك الذين استخاروا الأوانى . لقد تقاضوا لقاء أعمالهم شواقل كثيرة من الفضة ، وجورا كثيرة من الشعير ، ورءوسا كثيرة من الماعز والغنم . وثار فى نفسه سؤال : أيمكن أن يكون هؤلاء عبادا مخلصين لآلهة عظام ، أم أنهم إنما يتخذون من الدين تجارة ؟

وبذرت فى نفسه بذور الشك ، ولم يستطع البقاء فى الدار فانطلق إلى معبد نانا يرقب أعمال رجال الدين عن كثب بعينين مفتوحتين ، فما كان يجب أن يقطع برأى قبل أن يتثبت ويتحقق .

سار فى شوارع أور ، فى شوارع المدينة التى تتنفس الدين والطقوس ، وتتردد فى جنباتها التسابيح للآلهة العظام الذين يلتقون فى مجمعهم ويقررون ما يشاءون .

وراح يفكر فى عشرات الآلهة التى تسيطر على الكون والحياة شأنها أن تبرم أمرا وتقضى قضاء أو تحكم حكما ينفذ فى عبادها من البشر .

ولاح له معبد نانا وبرجه العالى ، فسار والشاطئ فرأى جمعا من الناس فيهم بعض الكهنة ، فوسع من خطوه حتى بلغ الزحام فإذا بالكهنة يوثقون

رجلا وامرأة بالحبال ليلقوا بهما فى النهر ، فقد ضبطا متلبسين بالزنا .

وألفى نفسه يتفرس فى وجوه الكهنة أصحاب الرءوس الحليقة ، وتطوف برأسه أسئلة : أهؤلاء الكهنة الذين يدفعون بالزانى والزانية إلى الماء أطهار بررة ؟ ألم يرتكب أحدهم مثل هذه المعصية ؟ أهم أهل حقا لأن يُدينوا الناس؟

ولم يقتنع بما رأى فدار على عقبيه وانطلق ، فإذا به يرى العاهرات المقدسات يجلسن على جانبى الطريق المقدس ، ورجالا تشع الشهوة من أعينهم يلقون فى حجورهن شواقل الفضة فما يكون منهن إلا أن ينهضن ويتبعنهم !

واشتد عجب إبراهيم لهذه المفارقات : فتيات يرتكبن الفواحش باسم الآلهة فيصبحن مقدسات ، وفتيات يضبطن متلبسات بالزنا فيلقى بهن فى الماء ، وهمس فى نفسه هامس : ولكن من يلقى بهن فى الماء متزوجات . وإذا بصوت يرن فى نفسه : إن من يثور على الزنا ينبغى أن يثور عليه ، سواء أكانت مرتكبته متزوجة أم عاهرة .. أم مخدوعة باسم الآلهة . الفاحشة هى الفاحشة ، فلا ينبغى أن تقدس إذا ارتكبت باسم عشتار . وأن تلطخ بالعار إذا ارتكبت باسم الشيطان .

عشتار ! عشتار ! كيف يمكن أن ترتفع إلى مرتبة الآلهة ؟ إن لها فى كل يوم عشيقا : تموز إلـٰه الإنبات عشيقها ، جلجامش البطل الإنسان عشيقها . إنها وهى الإلٰهة اضطجعت مع رجال من البشر .. لماذا لا يثور الآلهة لكرامتهم التى تهدرها عشتار كل يوم ، فيوثقونها هى وعشاقها بالحبال ويلقون بهم فى النهر ؟ ألم يشرع الآلهة هذا العقاب لمن يضبط متلبسا بالزنا ؟ فلماذا إذن لا يوقع على عشتار وعشاقها وهى ترتكب الفواحش تحت نظر الآلهة جميعا ؟

وبلغ الفناء المقدس حيث مخازن الآلهة فوجد حركة نشيطة ، كان فى الفناء

المقدس جمع من رجال القصر ورجال المعبد ، فاقترب ليشهد ويسمع .

كانت إيرادات المعبد توزع بين رجال القصر ورجال الدين ؛وضعت الأسلاب من الشعير والفواكه والملابس على ظهر الحمير ، وراح كل يقبض نصيبه من الأنعام والأغنام والخنازير ، حتى الملك والإيشاكو الكاهن الأعظم والأوريجاللو كان لهم نصيب من الهدايا التى يهبها المخدوعون فى الآلهة للمعبد .

ولكى تخرس ألسنة رجال الملك ورجال الإيشاكو ورجال الأمن ؛ راح الكهنة يوزعون عليهم الشعير والملابس والقماش والمعز والطيور . كان الكهنة يبذلون لهؤلاء عن طيب خاطر ويعطونهم عن رضا ، فذلك ييسر لهم الظلم ، ويضمن لهم السلامة إذا فرضوا الجور على الشعب .

رأى إبراهيم بعينيه ما رفض أن يراه أبوه آزر ، وسمع أمورا تدين الكهنة تفوق فى قسوتها ما قاله لوجال فى رجال الدين فأثار غضب آزر حتى قال لصديقه : لولا ما بيننا من صداقة لوشيت بك !. وهز إبراهيم رأسه سخرية : هؤلاء هم الذين يقطعون يد السارق ، ويقوم عليهم الدين !

ودخل المعبد فإذا بتماثيل ضخمة من الحجارة لمردوخ ونانا وشماش وعشتار وعشرات الآلهة الأخرى . وإذا بتماثيل للملك فى مشكاة تقدم لها فروض التمجيد الإلـٰهى ، فقد رفع الملك نفسه إلى مصاف الآلهة ، وقال إنه إلـٰه الملوك جميعا .

وراح يقلب وجهه فى التماثيل ؛ إن أباه يصنع مثلها ، وهذه التماثيل جميعا من صنع أناس مثل أبيه ، فمن أين لهم أن يقرروا أنها تمثل الآلهة حقا ما دام أن أحدا من البشر لم ير هؤلاء الآلهة ؟!

وأحس فى قرارة نفسه أنه ينكر هذه الأصنام . ووقعت عيناه على الأغذية والأشربة المكدسة أمام التماثيل : عشتار لها ثمانية عشر إناء للشرب ، ومردوخ

له اثنا عشر ، وتشرب الآلهة جميعا لبنا فى الصباح . أتستطيع هذه الأحجار حقا أن تأكل وتشرب ؟ إذا كان الملك يتناول طعامه فى كل معبد من المعابد ؛ فكيف يستطيع أن يأكل فى قصره مع وزرائه وحاشيته وندمائه ؟ هذه الآلهة نهمة لا تشبع ، تأكل فى بابل ، وتأكل فى أور . وتأكل فى كار شماش (قلعة شماش) ، وسيبار ، وفى كل معبد من المعابد الكثيرة المنتشرة فى أنحاء المملكة ، أم أن هذه دعوى ادعاها الملوك والكهان ؟!

وملأت خياشيمه رائحة البخور ورأى دخانه المتصاعد . وطالما رأى ذلك الدخان ، ولكنه يراه اليوم سحبا تتكاثف على عقول الناس ، وأستار تنسدل على أعينهم .

عجب لهؤلاء الرجال والنساء الذين يتقدمون من التماثيل فى خشوع ، ويذرفون بين أيديها الدموع السخينة ، ويلتمسون الرضا من الأحجار والأوثان ؟! كيف آمن أبوه آزر وعمه هاران وجده ناحور ، وآباؤهم من قبلهم ، بهذه التماثيل التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟!

وخرج من المعبد إلى الطريق المقدس الذى جلست على جانبيه العاهرات ، واجتاز الباب الذى يلفظ إلى الطريق العام وهو يتلفت ، يحاول أن ينفذ إلى سر ذلك الكون العجيب .

ومد بصره ناحية الجنوب الغربى وهو لا يدرى ما يجثم وراء ما يصل إليه بصره . لقد قال له أبوه وجده وأمه ، وقال له كل من سأله إن هناك صحراء جرداء مليئة بالشياطين والأشباح ، وقد أكد له الجميع تلك الحقيقة بيد أن عقله أبى أن يقتنع بها ، فقد اهتدى عقله إلى أن كثيرا مما يقولون أساطير وأوهام .

وهفتت نفسه إلى تلك الصحراء ، وتمنى أن يضرب فيها ، أن يكشف عن

وجهها اللثام ، أن يعرف أسرارها ؛ فقد كان تواقا إلى استكناه حقائق الأشياء .

ورأى قافلة تتأهب للمسير بحذاء ساحل البحر الأعلى ، بحر الشمس الغاربة العظيم متجهة إلى دلتا النيل ، فعزم فى نفسه أن يخرج يوما — عندما يشتد عوده ويصبح رجلا يستطيع أن يجوب الأرض — مع قافلة من تلك القوافل ، كما يجوبها الآن شريك أبيه لوجال .

وراح يقلب وجهه فى السماء . ويمد بصره إلى البحار والأنهار والسهول والجبال ، والحدائق التى اكتست ثوب الربيع والحقول التى اخضرت بالزرع ، والطيور التى حومت فى الفضاء ، وقطعان الماشية والأنعام ، والناس من شيوخ وعجائز وشبان وشابات وبنين وبنات ، فهمس فى نفسه هامس : هذا الكون لا بد له من خالق ، من إله واحد قوى قادر ، فلو كان له أكثر من إله لذهب كل إله بما خلق، وفسد هذا النظام البديع الذى يسود الكون.

هذه الشمس تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب ، وهذا القمر يظهر فى السماء هلالا صغيرا لا يزال يكبر حتى يكتمل بدرا ثم يبدأ فى الصغر حتى يختفى فيتم بذلك شهر، وهذه الفصول تتتابع لا الصيف يسبق الخريف ولا الشتاء يأتى فى أوان الصيف . نظام دقيق دبره صانع حكيم لا يمكن أن يكون واحدا من تلك التماثيل العاجزة . إن لهذا الكون ربا قادرا ، ولكن من يكون ذلك الرب ؟

وانطلق وهو فى رفقة ذاته يفكر ويمعن الفكر حتى وصل إلى حقل منحه الملك للإيشاكو الكاهن الأعظم ، فرأى ثيران الآلهة تستخدم فى رى الأرض ، والكهنة يقطفون الفاكهة من أشجار جيرانهم ويستولون عليها ، فإذا ما ظهر الغضب فى أعين أصحاب الأرض قيل لهم إن ما يؤخذ منهم إنما

يؤخذ للآلهة لتبارك لهم فى أرضهم ومحاصيلهم وذريتهم ، فيزول الغضب عنهم وتتهلل وجوههم بالبشر والحبور.

وطاف بذهنه خاطر : لا بد أن تحرر عقول هؤلاء الضحايا من عبودية الكهنة ، أن تفتح أعينهم على حقيقة ضلالهم وفسادهم ، أن يثوروا على الأصنام التى لا تنفعهم ولكن تضرهم ، فباسمها تسلب منهم أشياؤهم لتمتلئ خزائن الملك والإيشاكو والكهنة ، وتفيض مخازنهم بالخيرات التى تقدم إلى مخازن المعابد عن طيب خاطر ؛ فقد أدخل رجال الدين فى روع ضحاياهم أن الآلهة قادرة على أن تطيل أيامهم على الأرض قبل أن تبعث بهم إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها !

ورجع إبراهيم إلى البيت فوجد أخويه ناحور وهاران يلعبان فى فناء الدار ؛ فلما رأياه أقبلا عليه وقال له ناحور :

— أين كنت ؟ إن أبى يبحث عنك .

— أين أبى ؟

— يصلى فى محرابه.

وذهب إبراهيم إلى معبد آزر فوجده قائما يصلى وأمامه تمثال لإلٰه القمر ، وهو يبتهل إليه فى حرارة وإيمان :

يارب !. يا من تمتد قدرته الوهابة بين السماء والأرض ، يا من يجلب الغيوث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء .

يا من يعظم فى السماء عالية وصيته .

ويعظم فى الأرض عالية وصيته.

يا من تسبِّح له الأروح السماوية والأرواح الأرضية ؛

مشيئتك أنت فى السماء مشرقة .
نسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض؛
فإن مشيئتك تطيل الحياة وتبسط الرجاء .
وتشمل كل كائن .
وأنت تقضى بالعدل فى أقدار الناس ،
وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .
أنت رب الأرباب تجلّ عن الشبيه والنظير .

وراح إبراهيم يتأمل فى هذه الصلاة ، أهذه صفات التمثال الذى صنعه أبوه بيديه ؟! إنه لأعجز من أن تكون له قدرة ، أعجز من أن يجلب غيثا ، أعجز من أن تكون له إرادة ، إن كان له فى الأرض صيت فما له فى السماء قرار ولا برهان ولا مشيئة .

وانتبه إبراهيم على صوت أبيه يناديه بعد أن فرغ من صلاته :

ـــ إبراهيم ؟ أين كنت ؟

ـــ فى المعبد .

وتهللت أسارير الأب فقد حسب أن إبراهيم إنما ذهب إلى المعبد ليؤدى للأرباب صلاة تطيل أيامه على الأرض ، وما دار بخلده أن الذى قاده إلى المعبد إنما هو الشك فى الآلهة وفى الملك الإلـٰه وفى الإيشاكو والأوريجاللو والكهنة ورجال الدين . .

قال الأب وهو فى طريقه إلى حيث يصنع تماثيل الآلهة :

ـــ لقد انتهيت من صنع بعض تماثيل الآلهة ، فخذها وبعها .

فحمل إبراهيم تماثيل مردوخ ونانا وعشتار وانطلق إلى المعبد يقلب التماثيل بين يديه فى هزء وسخرية ، ويعجب فى نفسه : كيف يركع إنسان عاقل لهذه

التماثيل التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ كيف يعقل أن تطيل مشيئتها الحياة وتبسط لها الرجاء ، وأن تكون لها أسرار لا ينفذ إليها أحد ؟

وقف أمام المعبد يحمل تماثيل الآلهة بين يديه ويقول :

ــ من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟. من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟

وبلغ نداؤه آذان الناس فراحوا يرمقونه فى غيظ وعيونهم يتطاير منها الشرر ، إنه يسفه أحلامهم على الملأ دون أن يخشى بطشهم ، وهمّ رجل بأن يضربه وإذا بآخر يقول له :

ــ دعه لانتقام الآلهة فإنها ستثأر منه ، وسيكون العقاب الذى تنزله به رهيبا .

ــ لو تركناه فلتنزلن الآلهة علينا خسفا من السماء ، إذا تركنا من ينال منها يمشى على الأرض .

ــ إنه فتى لما يدخل الإيمان قلبه ، فلعل الآلهة أن تهديه .

ــ لا بد من تأديبه .

ــ إن أردت أن تكرم الآلهة فلا تدعها بين يديه ، ادفع ثمنها وخذها .

ــ أنا لا أشتريها ممن يسخر منها ومنا .

ودار الرجل على عقبيه وانصرف وهو يرمى إبراهيم بنظرات يتطاير منها الشرر ، وعاد إبراهيم يقول وهو ثابت الجنان وقد هان الناس فى عينيه :

ــ من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟

وضاقت إحدى العاهرات المقدسات بهذه السخرية ، فقامت إليه واشترت منه تمثال عشتار لتنقذها من المهانة . فقد عز عليها أن ينال فتى من كبرياء عشتار المتألقة دون أن يخشى أن تذله ، وقد أذلت من هو أرفع منه شأنا ؛ أذلت الآلهة فجعلت تموز إله الإنبات يركع تحت قدميها ، وأذلت

صناديد البشر وأحرقتهم بنار الوجد .

وقبل أن تنصرف قالت له :

ــ لولا أنها عطوف لأنزلت بك غضبها ، ولكن لا تطمع فى عطفها كثيرا فإنها متقلبة ، فحاذر يا فتى من تقلباتها .

وابتسم إبراهيم فى هزء فقالت له :

ــ إن فيك غرور الشباب وتمرده ، غدا عندما تكبر تعلم ما لذة الخضوع اللآلهة ، وما لذة التضحية .

وشردت ببصرها قليلا وغمغمت :

ــ ما ألذ التضحية !

ثم مدت إليه يدها وقالت :

ــ تعال معى أعلمك كيف تضحى ، كيف تتذوق حلاوة الإيمان .

فأشاح إبراهيم بوجهه عنها ، ثم دار على عقبيه وانصرف يحمل بين يديه تماثيل الآلهة ويحس فى قلبه رضا ، فقد نفس عن بعض ما يحسه نحو هذه الأصنام التى لا تبصر ولا تسمع .

وسار على الشاطئ ، وإذا به يرى الفرات يجرى عذبا ليصب فى بحر الشمس المشرقة العظيم ، فخطر له أن يسخر من الأصنام التى يحملها ، فهبط إلى حيث الماء العذب وغمس رءوس التماثيل فى الماء وقال :

ــ ألا تشربون !.

وكان لوجال عائدا من رحلته فى طريقه إلى البيت فوقعت عيناه على ما يفعله إبراهيم بآلهة قومه ، فوقف يرقبه من بعيد فى إكبار .

كان لوجال يسخر فى بعض الأحيان من معتقدات قومه ولكنه لم يفكر فى أن يعلن رأيه على الملأ ، و لم يخطر له على قلب أن ينال منها أو يفعل بها ما يفعله

ذلك الفتى .

إن إبراهيم لشجاع ، فهو ينال من الآلهة على أعين الناس ، ويحقر الأصنام وإن كان أبوه يصنعها ويعول أسرته من أثمان بيعها . ترى أدار ذلك بخلد إبراهيم ؟ إنه ولا ريب يعى كل ما يفعل .

وظل لوجال يرقب إبراهيم فى إعجاب وصوت يهمس فى أغواره :

ــ ليكونن لك شأن مع أبيك .. وقومك والآلهة جميعا !

٨

جن الليل على إبراهيم فدخل لينام ، بيد أن الوسن لم يطف بعينيه . كانت الأفكار تتوافد على رأسه توافد الموج ، كان يفكر فى الكون وفى القدرة التى تسيره . إن لهذا الكون إلـها ، إلـها واحدا لا شريك له ، وإن روحه لتهفو إلى معرفة هذا الإلـه العظيم والأنس به .

كان السكون مخيما على أور ، لا همسة ولا نأمة ، وكانت الليلة حالكة الظلام فلم يكن يتسلل إلى الغرفة بصيص نور ؛ ولكن النور الذى بدأ يضىء فى قلب إبراهيم كان يمكّنة من رؤية ما يدور فى ذهنه من أفكار فى وضوح .

وتأبَّى النوم على إبراهيم فقام وخرج إلى الشرفة المطلة على فناء الدار ، وهب النسيم رخاء يداعب وجهه وينعش روحه ويغذى الأفكار التى تشغل عقله . إن هذا الهواء يرق تارة حتى لكأن الكون يتنفس أنفاسا نديَّة ، ويثور أخرى حتى لكأن الكون ينفث نارا ودخانا .

ورفع إبراهيم بصره إلى السماء فرآها زرقاء صافية ، سافرة بلا حجاب ، لا توشى صفحتها رقع السحاب . إن السماء الليلة رقيقة مشرقة ، فلو دامت لها هذه الرقة وهذا الإشراق لما نزل منها الماء ، ولجفت الأرض وماتت وحل بالناس الدمار .

إن هذا الكون حى .. إن الروح التى تسرى فيه هى روح الإلـه .. وإن الأنفاس التى تتردد بين جنباته هى أنفاس الرب . وأحس إبراهيم بروحه تهفو إلى روح الرب ، وبرغبة طاغية فى أن يذوب بكل وجدانه فى هذا السكون .

وعلى الرغم من السكون الشامل أحس بأن كل شيء حوله ينبض بالحياة ، وأن ذلك النبض لا بد ينبع من حياة خالدة ..حياة عميقة ، حياة يتغلغل سرها فى كل شيء . ولكن أين هى هذه الحياة الخالدة ؟ أين هى هذه الحياة العميقة ؟ أين هو هذا السر .. سر الحياة ؟

وراح يهبط فى الدرج كالمسحور تتلى بين جنبيه صلاة وإن لم تتحرك بها شفتاه : « إنك فى كل شيء ، فى الماء الذى يتغلغل فى أحشاء الكون ، فى عبير الأزهار ، فى نضارة الثمار ، فى اخضرار الأشجار ، فى السماء .. وفوق السماء .. قلبى يعرفك .. روحى تشعر بك ؛ ولكنى أريد أن أراك .. أريد أن أهتدى إليك .. فكيف الوصول إليك ؟ »

وانساب فى فناء الدار وهو خاشع لا يسمع إلا الأصوات التى تنبعث من أعماق ضميره ، وإذا بصرير متصل يعكر سكون الليل ؛ فالتفت فوجده ينبعث من غرفة آزر التى يصنع فيها تماثيل الآلهة ، فسار إليها وفتح بابها ولكنه لم ير فى أول الأمر شيئا ، فقد كان الظلام ثقيلا .

وبدأت عيناه تألفان الظلام ، فرأى الجنادب تسعى على وجوه الآلهة وتلحس أعينها وتدخل فى آذانها .

فقال :

ـــ أفواه لا تنطق ، وأعين لا تبصر ، وآذان لا تسمع ، وأقدام لا تسعى ، وتماثيل عاجزة لا تنفع نفسها ولا تغنى عن غيرها شيئا .

وسار حتى خرج إلى الطريق فألفى نفسه أمام الكون العريض وجهها لوجه . فضاء لا يحد .. لا حواجز زائفة بينه وبين الدنيا التى يثوى بين أحضانها .

أحس الوجود كله يسرى إلى روحه ، وفرحا عظيما يغمره . فقد أخذ

ظلام نفسه ينقشع ليحل مكانه نور جليل ، نور تدركه بصيرته قبل أن يراه بصره .

وراح يقلب وجهه فى السماء ليدرك الحقيقة العميقة التى تتلهف عليها نفسه ، ليكشف حقيقة الإلـه الذى يحس به يسرى فيه مسرى الدم ، وأخذ يبتهل :

ـــ يا رب ! أنا محب .. قلبى يعرفك .. روحى تشعر بك .. أريد وجهك .. أريد أن أراك ..

وصفت نفسه وأرهفت روحه حتى لكادت أن ترى روح الحقيقة التى حوله ، بيد أنه ما يزال يبحث عن وجه إلـهه ، فراح يعاود الابتهال فى حرارة :

ـــ أريد وجهك .. يارب أرنى وجهك .. أريد أن أراك .

وكانت الليلة بلا قمر ولا نجوم ، ليلة من ليالى آخر الشهر ، وكان كوكب المشترى بازغا يتلألأ فراح ينظر إليه ويفكر فيه ، فإذا بوجد فياض يملأ وجدانه ويغمر روحه ، وإذا بطمأنينة عجيبة تغشاه فقال فى فرح :

ـــ هذا ربى !

وخيل إليه أنه اهتدى إلى مفتاح الأسرار المغلقة ، أسرار الحياة الخالدة ، الحياة العميقة ، ألم يسفر له الإلـه عن وجهه !

ورفع عينيه إلى السماء وبين جنبيه فرح فياض ، وكادت الحكمة تستقر فى قلبه فقد اهتدى إلى الإلـه وعرف طريق الوصول إليه . بيد أن نبع سروره غاض فجأة ، ونضبت الحكمة قبل أن تستقر فى سويداء قلبه ، فقد اختفى الإلـه من رقعة السماء ، وتركه فى بيداء الحياة وحده بلا سند ولا معين .

أفل الإلـه . أيكون إلـها ذلك الذى يأفل ؟ لا .. إنى لا أحب الآفلين .

ودار إبراهيم على عقبيه وكر راجعا إلى الدار وما تسرب اليأس إلى قلبه ، فقد غشيه الإشراق وانسل نور الإلـٰه إلى وجدانه ، فإن كانت عيناه عجزتا عن إدراك كنهه ، فإن إلـٰهه الذى يحبه والذى تعلق به فؤاده لن يتركه فى حيرته يبحث عنه دون أن يجده ، فإن الحب لا يكتمل إلا فى فناء المحب فى المحبوب .

ودخل إلى فراشه ونام ، ولكن نفسه كانت متيقظة تجاهد أن ترى وجه إلـٰه الكون فى وضوح ، فإن كان سنا الكوكب قد بهر عينيه عن الحقيقة الخالدة زمنا حتى أفل فكفر به ، فالحقيقة العميقة لا تزال تخفق بين جنبات الكون وإن لم يهتد إليها . إنها موجودة وإن لم يضع يده عليها ، كل ما فى الحياة يعلن عن بديع صنعها ، عن قدرتها ، عن مشيئتها .. فإن خدع بنور الكوكب الليلة فإنه سيعاود البحث حتى يجد رب الأرباب .

واستيقظ من نومه وخرج إلى الشرفة المطلة على فناء الدار والتى يستطيع منها أن يمد عينيه إلى السماء ، السماء التى انجذب إليها فراح يتأمل فيها كما يتأمل فى كل ما تصل إليه عيناه ، فأحس تناسقا مع كل ما حوله ، وتعاطفا مع الكون العظيم . إنه ينهب الوجود بروحه ويستشعر رحابة الحب التى تملأ جوانحه ، بيد أن البذرة التى بذرت فى وجدانه لم تتحول بعد إلى نبتة روحية تسمو إلى ما فوق الطبيعة والجثمان ، وإن زيت نفسه الذى يغذى أفكاره لم يتحول بعد إلى نور إلـٰهى فياض .

إنه لا يزال مقيدا بأغلال الطبيعة التى يثوى فى أحضانها ، مشدود بذاته المحصورة بين السماء والأرض ، وإن روحه لا تزال فى طريق التحول إلى نور طاهر يستطيع أن يبدد الظلام عن الحقيقة الخالدة .

وأخذت يقلب وجهه فى كل ما حوله : السماء .. السحاب .. الشجر .. الطير .. عبير الحقول .. ماء النهر الرقراق .. إن هذه كلها رسل

الخالق إلى ضميره ، إنها تملؤه بالحنين إليه ، إنه على وشك أن يصل إلى غاية الوجود ، بيد أنه ما يزال سجين فكرة .. فكرة رؤيته وجه الإلـٰه .

وهبط فى الدرج وكل ما حوله يجذبه إليه ويملأ نفسه بالفرح ، وما كان يعكر اكتمال نشوته إلا اللهفة على أن يهتدى إلى الإلـٰه الذى يبحث عنه . وانساب فى فناء الدار خفيفا كالطيف . يحس أنه ولد من جديد ميلادا أعظم من ميلاده يوم وضعته إيمتالى منذ سنين .

ووصل إلى معبد البيت الخاص ، وبلغ سمعه صلوات أبيه وأخويه ناحور وهاران ، وعجب فى نفسه كيف يركع أبوه وأمه وناحور وهاران لتمثال صنعه آزر بيديه كانت الصراصير منذ قليل تسعى على وجهه وهو عاجز أن يبعدها عنه .

لقد هزمت نفوسهم أرواحهم وطمست عقولهم . إنهم ضحايا زيف حجب عنهم لب الحقيقة وحطم التناسق بينهم وبين الكون . لقد استبدت بهم تقاليد الأجداد فأطفأت النور الباطنى الذى ترى به البصائر رسل الخالق فى زفيف الهواء ورفيف أوراق الشجر ، فى السحر ، فى الشرق والغروب .

لقد اهتدى إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين ، وأن لهذا الكون العريض ربا ينشرح صدره كلما استشعر وجوده فى أعماقه ، ويتهلل بالفرح كلما امتزجت روحه بروح الحياة التى تضمه فى حنان إلى صدرها ، فإن كان لم ير وجه الله بعد فإنه فى الطريق إليه .

وتحرك حبه الفياض لأمه وأبيه وأخويه فساءه أن يتركهم فى ضلالتهم يعمهون ، ودفعه ذلك الحب إلى أن يقتحم المخاطر لينقذ أحب الناس إلى قلبه ، ليخرجهم من الباطل إلى الحق ، وهل هناك خطر أعظم من تسفيه العقائد ورفع معول الهدم فى وجه الدين ؟

وكانت الشمس تغمر المعبد كله إلا أن إبراهيم كان يراه غارقا فى الظلمات ، وكان آزر وأهل بيته يحسبون أنهم أقرب ما يكونون إلى الحقيقة الخالدة .. إلى رب الأرباب مردوخ ، بيد أن إبراهيم كان يراهم يخبطون فى مستنقعات الباطل . لقد طهروا أنفسهم بالماء قبل أن يقفوا بين يدى أصنامهم ، غسلوا أجسامهم به ولكنه لم يمس أرواحهم ولن ينطفها من أدرانها . ألا ما أجمل الاغتسال إن أحس المغتسل أنه بالماء الطاهر إنما يغسل روحه .

ودخل إبراهيم المعبد وتقدم إلى التمثال الإلـٰه وهو يستشعر ألما ، و لم يجعله الألم ينكص على عقبيه فقد عرف أن السعادة ليست فى اجتناب الألم بل فى تحمله من أجل من فاض قلبه بحبهم .

وانتزع الإلـٰه من مكانه وألقى به بعيدا ، فإذا بصيحات إنكار تنبعث من كل الأفواه ، وإذا بالفزع يرتسم على الوجوه ، وإذا بوجه إيمتالى يمتقع وقلبها يخفق فى رعب وهلع . كانت فى فزع من أن يحل غضب الآلهة جميعا على ابنها الآبق من حظيرة الإيمان !

وهرع آزر إلى التمثال والغضب يكاد يفجر صدره ويكتم أنفاسه ، وراح يمسح التمثال فى خوف ويقول لإبراهيم :

ـــ أجننت ؟ ماذا فعلت أيها الشقى ! لتنزلن الآلهة غضبها عليك .. إنى برىء مما فعلت ..

وذهب آزر ليعيد تمثال مردوخ إلى مكانه ، إلا أن إبراهيم ألقى بتمثال نانا على الأرض وهو يقول :

ـــ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

فقال ناحور فى غضب :

ـــ إنها آلهتنا يا إبراهيم !

فالتفت إبراهيم إلى أبيه الغاضب وقال :

ـــ يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟!

فقال آزر فى غضب :

ـــ وجدنا آباءنا لها عابدين ، أراغب أنت عن آلهتنا يا إبراهيم ؟

ـــ أنا برىء مما تعبدون .

فدنت إيمتالى من ابنها وقالت :

ـــ يا بنى هذه آلهتنا التى نضرع إليها كل يوم لتعطينا الخبز الذى نأكله ، ولولاها ما نصب ملك ولا ولد كاهن أعظم .

ورأى آزر أن ينضم إلى زوجه فى نصح ابنه الذى أتى أمرا إدًّا ، وأهان الآلهة دون أن يخشى بطشها فقال :

ـــ ولولاها ما جادت السحب ولا هطلت الأمطار من السماء ، ولا خرجت النباتات من الأرض ولا فاضت الأنهار بالماء .

ـــ إنها يا أبت من صنع يديك ، أنت ربها ، فكيف صارت يا أبت أربابا لك ؟

فقال آزر فى هدوء لينزع من رأس ابنه الفكرة الخاطئة التى استقرت فيه ، ويمحو من قلبه ظلال الشك التى رانت عليه :

ـــ إنها يا بنى رمز لمن رهبته وخشيته تضاهيان السماء ، وظله منتشر على جميع الأقاليم ، وتساميه يبلغ عنان السماء . إنها رمز لمن يحمل إليه السادة والأمراء الهدايا والقرابين المقدسة ، ويقيمون له الصلوات ، ويتلون له الدعوات والتضرعات .

وتناول إبراهيم تمثالا من تماثيل الآلهة وحطمه بين يديه وقال :

ـــ ألا ترى يا أبى أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا يدرأ عن نفسه الهوان ؟ ألا ما

أحقر ذلك الإلـٰه الذى أدق عنقه بيدى .

فقالت إيمتالى فى رعب :

— صه ، صه يا إبراهيم حتى لا تسمعك الآلهة فتبعث بك إلى العالم السفلى ، للدود وعذاب الهون .

فقال إبراهيم ساخرا :

— أوَ لم تسمعنى بعد ؟

وأشار إلى أذنى مردوخ الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة :

— وما فائدة هاتين الأذنين الكبيرتين إن كان لا يسمع ؟ وهاتين العينين الواسعتين إن كان لا يرى ؟ وهاتين الشفتين إن كان لا ينطق ؟ وهذا الأنف إن كان لا يشم ؟..

والتفت إلى أمه وقال :

— لا تراعى يا أماه فآلهتكم أهون من أن تنالنى بسوء .

فصاح ناحور ليرضى أباه وأمه :

— كفى يا إبراهيم ، فآلهتنا قادرة على أن تحيلك حجارة .

فقال إبراهيم فى مرارة :

— عجبت لمن يرى النور ويصر على أن يغمض عينيه على الظلام خشية أن يبهره النور ، ليست آلهتكم على شىء . فإن كانت لها قدرة ومشيئة لكنت أول الراكعين لقدرتها الساجدين لمشيئتها ، ولكنها أعجز من أن يكون لها شىء ..

فقال آزر وإيمتالى وأخواه :

— إنها آلهة آبائنا وسنعبدها يا إبراهيم ! وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال وهو ينظر إليهم فى أشفاق :

— لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

٩

هجعت الكائنات وراح الكون فى سبات ، إلا إبراهيم كان شاردا يفكر فى ملكوت السماء .

ودخلت عليه أمه وقالت :

ــ ألا تأكل يا إبراهيم ؟

فقال فى اقتضاب :

ــ شكرا لك يا أماه .

إنه لم يذق شيئا منذ الصباح فقد عزفت نفسه عن الطعام والشراب . إنه إنما يريد غذاء لروحه ، وريا لظمئه إلى الحقيقة . إنه يطمع أن يتجلى له الإلٰه .

ووضعت أمه المسرجة عن كثب منه ، وكانت آنية من فخار تسبح فى وسطها فتيلة طافية على الزيت ، فراح نورها يتراقص على الجدران .

و لم يحفل إبراهيم بالنور الذى غمر المكان ، وإنما كان يرقب شروق النور فى قلبه ، كان يبحث عن النور الإلٰهى فى كل ما حوله ، كان يفتح عينيه وفؤاده وذاته ليرى جمال الذات الإلٰهية ، ليرى أنوار التجليات .

إنه يتحرق شوقا إلى معرفة كنه الإلٰه .. إلى الوصول إلى جوهر الحقيقة ، إلى الوصول إلى الاستقرار والطمأنينة والسلام . إنه لا يطيق البقاء داخل البيت ممددا فى فراشه بغير عمل ؛ إنه يتلهف إلى الخروج إلى الدنيا الواسعة ليغترف من كنز الوجود فيزيد ثروة روحه ، ليبحث عن المفتاح المقدس الذى

يفتح له أسرار السماء فتتبدى لعينيه الحقيقية سافرة ناصعة .

وهب من فراشه وهو مفعم بـإحساسات زاخـرة بـالإيمان ، إلا أنها إحساسات يشوبها قلق ، قلق من لم يقبض بيديه بعد على مفتاح الأسرار الذى يفتح به عالم النور . وملكوت السماء .

وذهب يغتسل ليطهر بدنه ويطهر روحه ، فقد كان من فرط إيمانه يحس أن الماء يغسل وجدانه . وأسبغ الاغتسال فخرج نقى السريرة سليم القلب ، يعاود البحث عن الله .

وثوى فى أحضان الكون وألقى إليه السمع ومد إليه البصر وفتح لـه الفؤاد ، فإذا به يحس أن كل شيء حوله حى تخفق بين جنبيه روح ، حتى الأرض التى يطأ أديمها تنبض بالحياة ، حتى الجبال الشامخة المجللة بالسحر من حوله تعكس اللمسة الإلٰهية كما تعكسها كل الكائنات . إن الروح التى تسرى فيه لكالروح التى تسرى فى كل ما حوله : فى الشجر والماء ، فى النسيم والسماء ، وخشع يصغى إلى الكون ويتلقى فى فرح كل ما يوحى به إليه .

وفاضت نفسه بالنشوة وهز وجدانه ما فى الكون من جمال ، وأصبح لكل ما يفتح عليه عيناه معنى جديد ، معنى روحى لم يكن يدرك سره قبل أن ينظر فى نفسه وفى كل ما حوله . وتهلل بالفرح لهذا التناسق العجيب بين روحه وروح العالم الذى يحتوبه فى أحضانه .

وشعر كأنما صيغ من رقة ، كأنما أصبح روحا هفافة شفافة انطلقت من سجن النفس تهيم في السموات ، وتملأ البصيرة بجمال ذات الله .

وراح يتلفت مبهورا وكل خلجة من خلجات نفسه الزكية تقول فى تسبيح :

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا .

وكاد أن يضع يده على كنز الوجود ، أن يرفع الأستار المسدلة على بصيرته فيرى وجه الحقيقة العميقة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة الأزلية ؛ بيد أنه عاد للفكرة التى استولت عليه فقال فى ابتهال :

ـــ يا رب أين أنت ؟ أريد وجهك .. أريد أن أراك .. يارب تجلّ علىَّ .

ورفع بصره إلى السماء ، وكان القمر فى تمامه يرسل ضياءه فيغمر الدنيا بنور عذب ساحر ، ويبعث فى كل ما يلمسه روحا تفيض بالصفاء ، راح ينظر إلى القمر وهو مأخوذ . إنه نفس القمر الذى رآه منذ أن رفع عينيه إلى السماء ، ولكنه الليلة يرى فيه شيئا جديدا لم تكن تدركه بديهة قلبه من قبل . إن ما كان يبحث عنه لهو هذا السناء .. وهذا التألق .. وهذا النور .. وهذا السمو ، ها هى ذى الحقيقة الأزلية تتجلى لعينيه ، لقد عثر على سر الوجود الحقيق بأن يغنى روحه بكنوز من الفيض الإلـٰهى ! وتهلل بالفرح فقد حسب أنه اكتشف كل بهاء العالم ، وأنه اهتدى إلى الإلـٰه الحق ، وأن السلام عرف طريقه أخيرا إلى قلبه .

وراح يرنو إلى القمر فى خشوع كأنما هو فى صلاة، وكل خلجة من خلجات نفسه ، وكل خفقة من خفقات قلبه ، وكل زفرة من زفرات روحه ، وكل نبضة من نبضات عقله تقول : « عرفت الإلـٰه ! عرفت الحقيقة الأبدية التى يبدد نورها ظلمات النفس ، وتمد الأرواح بالنور الإلـٰهى الفياض » .

وراح يبتهل فى حرارة :

ـــ يارب ارض عنى .. إنى أحبك فامنحنى يارب حبك . إنى أريد أن

أرى بك ، وأن أسمع بك ، وأن أنطق بك ، وألا أسعى إلا فى طريقك ، وألا أحب إلا فيك ، وألا أبغض إلا من أجلك .

يا رب إنك قديم جديد ، إنك الليلة شاب ، ومن قلبك ينبثق الشباب الخالد ، فأمدنى يا إلٰهى بالقوة ، وأيدنى بروح من عندك ، ما دمت يا إلٰهى قد رفعت الحجاب عن عينى ، وفرشت طريقى بالنور .

لقد بذرت فى روح إبراهيم بذرة الإيمان ، بذرة الحقيقة العميقة ، بذرة الحقيقة الخالدة ، بذرة الحقيقة الأبدية .. فإن كان اتجه إلى القمر فإن البذرة لا تنم عن نوع الشجرة ولا طعم الشجرة ، إلا بعد أن تنمو وتترعرع وينضج الثمر .

إن بذرة الإيمان الحق ، بذرة معرفة الله القادر بذرت فى ضمير إبراهيم ، ولن تكشف عن حقيقة جوهرها وكنوز معدنها إلا بعد أن تتغلغل جذورها فى أعماق روحه ، وتنمو وتتفرع فى السماء ، وترتفع إلى ما فوق الطبيعة والجثمان .

— يارب أيقظ روحى ، وابعث شعاعك المقدس ينير ظلام نفسى ، ويسرنى يا إلٰهى لأن أعكس نورك ، وأن أنفذ فى الأرض مشيئتك .

واختفى نور القمر فجأة فخفق قلب إبراهيم فزعا ، ورفع عينيه إلى السماء ليرى ما غشى وجه الإلٰه ، فإذا بسحابة داكنة تحول بين القمر وبين أن يبعث نوره إلى الأرض .

واستولى القلق على إبراهيم ، وعرف طريقه إلى قلبه مرة أخرى بعد أن حسب أن السلام قد استقر فيه ، وراح يقاوم ظلال الشك التى رانت عليه . أخذ يقنع نفسه أن نقاب السحاب لا يضير الإلٰه ، فهو وإن كان حجبه عن

الأرض فإنه ما يزال يتألق فوق السحاب بنوره وجلاله وسناه .

ومر بعض الوقت وإبراهيم يرنو إلى السماء فى قلق ورجاء ، حتى إذا انقشعت السحب ورأى القمر بازغا قال :

ـــ هذا ربى .

وانقلب إلى أهله مسرورا ، فقد حسب أنه اهتدى إلى نبع النور ، إلى نور النور ، إلى القديم الجديد ، إلى الحقيقة الأزلية .

* * *

وخرج ناحور وهاران يحملان تماثيل الآلهة التى صنعها آزر يبيعانها أمام معبد نانا ، وكانا سعيدين بعملهما ، فقد كانا ينسلان بين الفينة والفينة إلى حجرات المعبد المنعزلة يصغيان إلى الموسيقى التى تتلقاها فتيات المعبد على أيدى الكاهنات ، ويسعدان بالأنغام الشجية المنبعثة من المزامير والأبواق ، والدفوف والعيدان ، والطبول والصنوج . وكانا غالبا ما يمزحان مع العاهرات المقدسات ، بيد أنهما لم يستنكرا عملهن كما فعل أخوهما إبراهيم ، فقد غرس فى قلبيهما حب فتيات المعبد والنظر إلى ما يفعلن نظرة إجلال ، فهن إنما يضحين بأجسادهن فى سبيل الآلهة ، فى سبيل هدف سام !

وخرج إبراهيم يرعى الغنم ليأكل من جهده ، فقد أدرك ببديهة قلبه أن المال الذى يكسبه أبوه من بيع تماثيل الآلهة مال حرام ، وقد عزم ألا يدخل جوفه مأكل من حرام ، بعد أن اهتدى إلى نور الحقيقة الخالدة .

وترك إبراهيم الغنم ترعى فى المروج الخضر وراح يتلفت فى الكون وهو مفعم بالفرح ؛ كان كل ما حوله يسبح بجمال ذات الإلـٰه . لكأنما الزنابق البيض خلقت من نوره ، وكأنما النوار الأصفر الذى يمتد حتى الأفق يمنح

النفس إشراقه ، وكأنما تلك الخضرة الزاهية التى تكسو الأرض وبينها البنفسج الأزرق والورد الأحمر حلة سندسية موشاة بيواقيت وزبرجد ومرجان . كل هذا التناسق فى الألوان إنما يسبح للفنان المبدع الذى ينفخ فى كل ما يبدع من روحه وجماله .

واتسعت نظرة إبراهيم ونما إدراكه ورحب أفقه ، فكان يرى الجمال فى كل ما تقع عليه عيناه ؛ لم تصبح الألوان المتناسقة هى كل ما يحرك سروره ، بل صار كل ما فى الدنيا حبيبا إلى قلبه : الأرض الجرداء .. الجبال الصماء .. الريح الصرصر .. الإعصار الجبار .. قيظ الصيف وقر الشتاء .. موج البحر وسيول السحاب .. حتى الموت لم يعد يخشاه ، فقد أحب إلٰهه من كل قلبه ، فأحب كل ما جرت به مشيئته وكل ما خلق من كائنات فى الأرض أو فى السماء .

تحررت روحه وانطلقت من سجن النفس فاتسقت آفاق رؤيتها ،أحست أن الكون ليس فى ذلك الجزء الضيق من الدنيا الذى تراه عيناه ، وتسمع ترددات أنفاسه أذناه ، وتطويه قدماه ؛ إنما الكون رحيب واسع زاخر بقدرة الإلٰه ، فإن عجز عن أن يراه وعن أن يحتويه فى فؤاده ، فإنه لم يعجز عن أن يحبه وأن يتناغم معه ، وأن ينعم بالسرور لذلك النبض الحى السارى فى كل ما حوله

وبصر بشاة صغيرة ، بيضاء جميلة ، تثب فى فرح بين القطيع ، وتمرح فى الخلاء ، وتسرى فى الكون سريان الروح . كانت فى وثوبها آية ، وفى مرحها آية ، وكان بريق الفرح الذى يشع من عينيها آية ، وانفعال القطيع بمرحها ومشاركته إياها فى حبورها آية .

وهب النسيم ينفخ فى مزامير الطبيعة ويداعب أوتار عيدانها وينقر فى رقة دفوفها ، فبدا كأنما الكون جميعه يعزف لحنا علويا ، فتهللت نفس إبراهيم بالفرح وأفعم بالنشوة ، فالحياة ترقص من حوله .

وراح يرقب اللوحات التى يبتدعها الفنان الأعظم على صفحة السماء ؛ إنها لوحات رائعة لا تعرف الجمود ولا يدب فيها الفناء . إنها حية متجددة نابضة بروح الإلٰه .

إنه يرعاها منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ويرعاها فى فحمة الليل وتألق النجوم وبزوغ القمر ، ويرعاها فى الصيف والشتاء والربيع والخريف ، ويرعاها والسماء صافية الأديم ثم وهى ملبدة بالغيوم ، ويرعاها والهواء يهب رخاء ثم والرياح تعصف ، ويرعاها والطبيعة تتنفس أنفاسا رقيقة عطرة ، ثم وهى غاضبة ثائرة . إن هذه اللوحات فى هدوئها وثورتها ، فى إشراقها وتجهمها ، فى نورها وظلمتها ، إنما تسبح على الدوام بمجد الإلٰه !

وخشع إبراهيم وحنى رأسه لعظمة الخالق ، وراحت مشاعره تردد صلاة عميقة حارة ، صلاة لم تجر على لسانه فقد كانت الألفاظ أعجز من أن تعبر عنها أو ترتفع إلى نبضها .

كان نور الإيمان يتسامى من قلب إبراهيم إلى السماء ، وكان نور الإلٰه ينسكب من فوق الكون كله فى قلبه لينير له طريق الوصول إليه .

أحس إبراهيم رحابة واتساعا فى بصره وبصيرته ، فى قلبه ووجدانه ، وانطلقت روحه حرة ترفرف فى كل مكان ، وتسمو وتتسامى حتى لتكاد تجاوز المكان وتمحو الزمان من حسابها ، حطمت روحه كل القيود التى تشدها إلى الأشياء والكائنات إلا ذلك القيد الحديدى الذى ربطها بروح

الكون ، بالحقيقة الخالدة ، بالحقيقة الأزلية ، قيد المحبة الذى تتهلل له نفسه بالفرح .

وغمرته أنوار التجليات وإن كان المساء قد أظل دون أن يحس بالظلام الذى تلفع به الكون ، وأشرق النور فى قلبه وإن غابت الشمس وذاب الشفق فى سواد الرداء ، واستمر فى السجدة الطويلة التى سجدتها روحه إلى أن أحس حركة الغنم من حوله ، فأفاق من وجده وعاد إلى الأرض من رحلته الروحية التى حلقت به فوق السماء ، عاد لينعم بالأنس وغذاء الروح ، ويرى الحقيقة التى تبلجت لعينى بصيرته كفلق الصبح أو كرائعة النهار .

وتلفت حواليه فإذا الليل البهيم قد جثم على صدر دنياه التى تحدها جبال مغير وأرض أور وبحر الشمس المشرقة العظيم . ونظر إلى غنمه فألفاها تحن إلى الأرض ويداعب أعينها النعاس ، فتحركت شفقته وود لو يمرر يد الحنان على ظهورها وأن يضمها إلى صدره ، فقد أحب فيها اللمسة الإلـٰهية التى وهبتها الحياة .

وسرى هو والغنم الوديع فى ملكوت الله ! كان الغموض قد انجلى عن روحه ورفعت الأسجاف عن عينى بصيرته ، بيد أن عقله كان ما يزال يلح فى رؤية وجه الإلـٰه . فإن بذرة الإيمان التى بذرت فى أعماقه قد بدأت تنمو وتمتد جذورها ، وتتفرع غصونها ، وتترعرع أوراقها ليتفيأ ظلالها الضمير والبصيرة والوجدان ، أما عقله فقد كان ما يزال يحجب جوهره كلف من غموض ، لا يلبث أن يتبدد يوم يكتمل نمو شجرة الإيمان .

ورفع عينيه إلى السماء يبحث عن القمر ، لقد رأى الحقيقة الأزلية ببصيرته ، وكادت روحه أن تتحد مع روح العالم فى صلواته وابتهالاته

وسجود وجدانه لخالق الكون والجمال . ورأت عيناه جمال ذات الإلٰه فى الورود ، وفى الزنابق ، وفى الأشجار ، وفى سريان النسيم ، وفى هبوب الرياح ، وفى نفسه ، وفى كل ما حوله ؛ بيد أن عينيه كانتا ما تزالان تتطلعان إلى القمر استجابة لنداء العقل الذى لم يغتسل بعد كاغتسال الروح فى فيض النور .

لم يكن القمر فى تمامه بل كان ينحدر نحو النقصان ليعود إلى المحاق وقد فقد كثيرا من سحره ورونقه . وإن تأثيره الذى ملأه بالفرح ليلة اكتماله بدأ يضعف . إنه متقلب لا يستقر على حال ، أيمكن أن يزدهر الإلٰه ويذبل كما يزدهر النوار ويذبل ؟ أيمكن أن يموت الالٰه ويولد كما يموت الزرع ويولد ؟ أيمكن أن يكون إلٰها ذلك الذى لا يتحكم فى إرادته بل يخضع لإرادة أخرى تكتب عليه الاختفاء والظهور ؟!

وخيل إليه أن القمر هرم فسرى فى نفسه الكدر ، لقد اطمأن إليه وحسبه الشباب الدائم وكنز الوجود ، فإذا الشباب تعبث به الليالى ، وإذا كنز الوجود يغيض .

وعكرت الحقيقة التى تبدت لعينيه صفو السلام الذى عاش فيه . إنها حقيقة مرة ، ولكن على الرغم من مرارتها فإن فيها طعم الحقيقة .

وعاوده القلق ولكن لم يدب إلى قلبه اليأس ، إذ كيف يعيش اليأس مع النور الإلٰهى الذى تجلى لروحه وراح يزحف ليغمر حسه ويبهر عقله بسناه !

ظل يرنو إلى القمر ، إلى من هلل له عقله ليلة زعم وهمه أنه اهتدى إلى الحقيقة الخالدة : « عرفت الإلٰه ! عرفت الحقيقة الأبدية التى تبدد ظلام النفوس وتهدى الأرواح إلى النور الإلٰهى الفياض » فأحس تضاؤلا ، فمن

حسب أن نوره يبدد ظلام النفوس لا يقوى على أن يبدد ظلام الليل من حوله ، فكيف يقوى وهذا حاله على أن يهدى الأرواح إلى النور الفياض .

لقد ركن إلى عقله يسأله ويستخبره ويطلب عنده النصح وإن لم يفطن بعد إلى حقيقة كامنة فى نفسه ، حقيقة أن بديهة القلب أصدق من بديهة الذهن ، وأن بصيرة القلب أحدُّ من بصر العقل الذى تعوق انطلاقه الحواجز والسدود .

وما انفك يرصد القمر وفى عقله إنكار ، وإن يكن فى قلبه نور يبهر الهلال الذى كان يذبل ويذبل . فلما أفل القمر قلب إبراهيم وجهه فى الكون وقال :

— لئن لم يهدنى ربى لأكونَنَّ من القوم الضالين .

١٠

جلست سارة تتزين وتتأهب لأهم حدث فى حياة كل فتاة ، فالليلة يقدم إبراهيم ابن عمها آزر لخطبتها . كانت سعيدة يترقرق فى عينيها الجميلتين الآسرتين الفرح ، وتتراقص على شفتيها إشراقة تعكس إشراقة روحها . وكانت جاريتها عن كثب ترقبها فى غدوها ورواحها مبهورة بجمالها الفتان ، فما كانت تمتد عينان إلى سارة إلا وتسحران بجمالها الذى تخشع لجلاله القلوب .

لقد شغف سارة ابنُ عمها الفتى حبا ؛ كان رقيق القلب وديعا ، راجح العقل مستقل الرأى ، عزوفا عن اللهو الذى ينغمس فيه شباب أور ؛ فما كان يؤم الحانات التى تنتشر فى أحياء المدينة ويتصاعد منها صياح السكارى ، وصراخ صاحبة الحان وهى تصر أن يكون ثمن خمورها شواقل من الفضة لا أجوارا من الشعير ؛ وما عرف عنه التردد على فتيات المعبد المقدسات فما كان من المؤمنين بعشتار وفسقها.

انطبعت صورة إبراهيم فى قلب سارة واستولت على خيالها ، فقد كان إبراهيم ربعة فى الرجال ، ناصع الجبين أدعج العينن ، مسترسل الشعر تزين وجهه لحية . كانت العين ترتاح إلى صورته ، أما ما كان يجذب العيون والقلوب إليه جميعا فجمال روحه وحسن منطقه ورجاحة عقله . وطاف بذهن سارة ما كان بينه وبين أبيها هارن من مساجلات فتهللت بالفرح . كان

قوى الحجة يميل إلى السخرية وإن كان لا يقول إلا الصدق ، وكان لا يخرج من نقاش إلا وقد بهر السامعين بقوة بيانة وسلامة حججه .

وأحست فى أعماقها أنه سيكون لها ولإبراهيم شأن وأن زواجهما سيكون مباركا ، فهو زواج لم تسعد بمثله أور : زواج الجمال الساحر الأخاذ ، بالعقل الراجح والروح القوية والعزيمة .

وراحت أم سارة تجعد شعر سارة من أمام ليتموج فوق جبينها ، وترسل ذوائبه لتتدلى على صدرها ، وكانت تتطلع إلى ابنتها مزهوة ترقص النشوة بين جوانحها ، ولم تستطع أن تكتم إعجابها بجمالها فقالت :

ــ كان مباركا اليوم الذى أطلقنا عليك فيه اسم سارة .

أتعرفين يا حبيبتى ما معنى سارة ؟

فقالت سارة وهى تبتسم :

ــ معناها أميرة ..

فقالت الأم وانعكست فرحتها على وجهها :

ــ أنت أجمل من أية أميرة فى قصر أى ملك .

فقالت سارة وابتسمت عن لؤلؤ نضيد :

ــ ولكنهن نبيلات يا أماه !

فقالت أمها فى حماسة :

ــ لأنت أنبل منهن جميعا .

وراحت الجارية تعد ثوب سارة ؛ كان لباسا كاملا ذا أكمام طويلة وتنورة فصفاضة ذات حواشى مزركشة ، وراحت تستخرج الحلى من صناديقها ؛ كانت قلائد وأطواقا وأساور وخلاخيل . وأخذت الجارية تغنى فى غدوها

ورواحها بصوت جميل :

أيها العروس الحبيب إلى قلبى .

جمالك الباهر حلو كالشهد .

أيها الأسد الحبيب إلى فؤادى .

أسرت مهجتى ، فدعنى أقف بين يديك وأنا أرتجف من الخوف ، أملأ عيني بجمالك الفتان ،

وأمد إليك أناملى ، فمسك أشهى من الشهد .

إن قلبك متعطش إلى الحب ، وأنا أعرف كيف أدخل إليه السرور ،

وروحك تنشد البهجة ، وأنا أعرف كيف أبهجها .

أنت مولاى ! أنت إلٰهى ! أنت سيدى !

نم فى بيتنا يا حبيبى حتى انبلاج الفجر .

وسيطر السكون وامتلأت القلوب بالنشوة ، وهامت الأرواح فى عالم السحر ،حتى انبعثت دموع الرقة من عينى الأم ونظرت إلى الجارية فى إعجاب وقالت :

ـــ صوتك رائع ينفذ إلى القلب ويستقر فى الأعماق .

فقالت الجارية وقد شردت ببصرها :

ـــ كانت أمنيتى أن أغنى لإلٰهنا نانا العظيم ، سيدنا وحامينا .

ـــ وما الذى حال بينك وبين تحقيق أمنيتك ؟

فقالت الجارية فى أسى :

ـــ دَيْن كان على أبى ، فقد عجز عن أن يسدد دينا اقترضه فتنازل لدائنه عنى فباعنى فى السوق .

وسمعت فى فناء الدار جلبة ، فقالت سارة فى اضطراب :

ـــ جاءوا .. جاءوا يا أماه !

فهرعت الجارية إلى الشرفة تنظر وقالت :

ـــ هؤلاء مزارعون جاءوا لمقابلة سيدى .

واتجه المزارعون إلى الغرفة الواسعة القائمة فى مواجهة باب الدار ، ودخلوا على هاران وحيوه باسم مردوخ والآلهة جميعا ؛ كانوا سعداء فقد كان الحصاد مباركا والمحصول وفيرا .

وبدأ الذى شاركه هاران على مزارعة أرضه يتحدث ، قال :

ـــ لقد زاد نصيبك هذا العام الثلث عن نصيبك فى العام الماضى .

فقال هاران وهو مسرور :

ـــ هذا ببركة الآلهة ثم ببركة جهودك .

ـــ الواقع أننا أنفقنا على الأرض ولم نبخل ، فقد أجرنا خمسة رعاة ليرعوا أغنامنا ومواشينا وأعطينا كلا منهم ثمانية أجوار من الشعير ، وأجرنا بعض الثيران لدرس القمح ، وإن القانون حدد أجر الثور بعشرين قا فى اليوم إلا أننا لوفرة محصول هذا العام دفعنا عن الثور واحدا وعشرين قا .

فقال هاران وهو جذلان ، فاليوم يوم مبارك جاءه فيه شريكه يدفع له نصيبه فى الزراعة ، وسيأتى ابن أخيه ليخطب سارة :

ـــ لا بأس .. لا بأس أن تزيد فى الإنفاق ما دام أن الإيراد يزيد .

فقال الشريك منشرحا :

ـــ وأجرنا عربات تجرها الثيران ، ودفعنا فى العربة والثور وسائقهما مائة وثمانين قا فى اليوم .

ـــ أليس هذا كثيرا ؟

ـــ هذا ما حدده القانون يا عزيزى هاران .

والتفت الرجل إلى أحد الرجال الذين جاءوا معه وقال :

ـــ مع صاحبى هذا كل الحساب ، فقد دونا فى الألواح ما غلته الأرض وما أنفقناه وما بعناه وقبضنا ثمنه ولم نهمل قا واحدا ، وتشهد الآلهة على ذلك ، وكتب مردوخ الخراب على من خان أو دلس .

وساد الصمت برهة ثم قال شريك هاران :

ـــ إن الضرائب التى ندفعها باهظة والعشور كثيرة ، فلو استطعت أن تحصل من الملك على لوحة إعفاء من الضرائب والعشور ومن نصيب الملك فى المراعى وباكورة المحصول والهشيم وتسخير الرجال والحيوان والعجلات ، فستزيد أرباحنا كثيرا .

ـــ أرباحنا لا بأس بها ، فلماذا نطمع فى المزيد ؟

ـــ إننا لو اقتصرنا على إقراض أموالنا بفائدة عشرين فى المائة كما يحدد القانون ، لحصلنا على ما حصلنا عليه الآن، ولوفرنا ما نبذله من جهد وعرق ومخاطرة .. إن لوحة الإعفاء من الضرائب والسخرة تحقق غاية أمانينا .

ـــ ولكننى لا أعرف أحدا فى القصر .

ـــ مين من الفضة يفتح لك أبواب القصر .

ـــ والإيشاكو ؟

ـــ يكفى نصف مين من الشعير ليرضى الإيشاكو والكهنة .

فشرد هاران قليلا وقال :

ـــ سأحاول .

— لوحة الإعفاء من الضريبة تستحق أكثر من المحاولة .

وظهر على الرجل أنه تذكر شيئا فقال :

— و لم أحدثك عن الأرض البور ، فسينتهى إصلاحها هذا العام ويتم تنظيم الرى وإقامة الخزان بها ، وسنضع عليها أحجار الحدود لتخفق فوقها حماية الآلهة وتصبح ملكا لنا بحكم القانون .

فقال هاران :

— هذا صحيح ، فالأرض البور حق لمن يستغلها أولا .

— وسنسجلها هذا العام فى لوحات الملكية وتضع اللوحات فى المعبد .

— معبد نانا .

— كما تشاء ، وإن كنت أنا من عباد عشتار .

فابتسم هاران وقال :

— كيف حال الأمن فى المنطقة ؟

— لم تقطع إلا يد واحدة ، فقد سرق بعضهم شيئا من الحنطة وضبط فحكمت عليه المحكمة بقطع يده ، وسرق آخر بقرة فحكمت عليه المحكمة بدفع عشرة أمثال ثمنها ، فلما عجز عن السداد حكمت المحكمة عليه أن يظل مربوطا بالأرض كالماشية .

وما قام الفلاحون وانصرفوا حتى سمعت جلبة فى فناء الدار ، فخرج هاران من حجرته ينظر ، وأطلت سارة وأمها والجوارى من الشرفة فرأوا رجالا يسوقون بقرتين وثلاث خراف ويحملون سلالا بها دواجن وأسماك وبلح وتين وفطائر وجمار نخيل .

وسرى الهمس بين الجوارى : إنها هدية إبراهيم لسارة .. هدية تليق

بأميرة .

وسمعت الأم الهمس فقالت :

ـــ وأين من سارة الأميرات ؟

ودخل فناء الدار إبراهيم وآزر وإيمتالى وناحور وهاران ، فقالت إحدى الجوارى وهى تمد عينيها إلى إبراهيم :

ـــ إنه فتى يأخذ بمجامع القلوب ، ما رأيته إلا وتفتحت له نفسى .

ولحظتها الأم بنظرة زجر قاسية ، فقد سرى الهمس بأن جاريتها لم تولد لأبوين من الرقيق ، بل ضبطها زوجها متلبسة بالزنا فباعها بيع الإماء بعد أن سلب حريتها عوضا عن روحها .

وهرع هاران لاستقبال أسرة أخيه وصافحهم ، حتى إذا بلغ هاران الصغير قال له :

ـــ وأنت يا سميِّى العزيز متى تتزوج ؟

فقال هاران الصغير وهو يبتسم :

ـــ الآن إن شئتم ما دام أبى سيدفع لى « الترهاتو » ، إذ أعمل مع أبى وأستحق أن يدفع المهر عنى ، ولن أقول كما قال إبراهيم : إنى أريد أن أتزوج بجهدى وعرق جبينى فلن أقبل أن يدفع مهرى من حرام .

فقال هاران فى صوت خافت :

ـــ حرام !

فقال ناحور ليوضح الأمر :

ـــ إن إبراهيم يعتقد أن الأموال التى نكسبها من بيع تماثيل الآلهة حرام .. فلا يدخل جوفه طعام اشترى بمال حصلنا عليه من بيعها .

وقال هاران الصغير دون أن يأبه للنظرات التى تصوبها أمه إليه :

ــ لم يدخل فى « الترهاتو » الذى سيدفعه شاقل واحد حصلنا عليه من بيع تماثيل الآلهة .

وصعدوا فى الدرج إلى الطبقة العليا حيث كانت سارة وأمها والجوارى ، وكان إبراهيم صامتا وإن كان فى قرارة نفسه راضيا عما ثرثر به ناحور وهاران الصغير ، فقد كان يجب أن يعرف عمه أنه كفر بالأصنام جميعا ، وما كان يجب أن يكتم عنه مثل هذا الأمر الخطير وهو يتقدم لخطبة ابنته .

وبلغوا الشرفة فخفت إليهم الأم تستقبلهم بالترحيب والقبلات ، وقادتهم إلى حيث كانت سارة تتألق كالبدر . ونظرت إليها إيمتالى طويلا فأحست كأن روحها ترشف كل ما فى الكون من جمال ، فالتفتت إلى إبراهيم وقالت :

ــ أنت سعيد الطالع يا بنى ترعاك الآلهة .

فقال هاران وهو يبتسم :

ــ قال لى أبى مرة : « إن ابن أخيك هذا مبارك يا هاران » ، ومنذ ذلك اليوم تفتح قلبى لإبراهيم.. لقد كان أبى يعرف كثيرا من الأسرار .

وتذكر آزر قول أبيه بيد أنه عجب فى نفسه كيف يكون مباركا ذلك الذى يسفه الآلهة جميعا ولم يركع لها أبدا ، وشخص ببصره إلى السماء وهمس فى حرارة وابتهال :

ــ إلٰهى مردوخ ! إلٰهى نانا ! أيتها الآلهة جميعا ! ارفعى مقتك وغضبك عن إبراهيم ، واجعليه مباركا مصداقا لما رآه أبى فى المنام وفى النجوم وفى أكباد الضحايا .

ولم ينشرح صدر آزر لذلك الابتهال فقد تذكر أن الآلهة خرت على

وجوهها يوم نظر أبوه فى كبد الشاة ، وتذكر أن إبراهيم طوح بتمثال مردوخ وتمثال نانا وتماثيل الآلهة الأخرى مرات ومرغها فى التراب ، ولن يكون هذا إلا نذير سوء .

وبدأت مراسيم الخطبة فوضع إبراهيم اثنى عشر شاقلا من الفضة فى صفحة وقدمها لعمه ، فتناول هاران « ترهاتو » ابنته وهو سعيد ، وما كان يهمه إن كان إبراهيم وضع شاقلا واحدا أو عشرين شاقلا ، وما كان الأمر يختلف إن لم يدفع إبراهيم صداقا على الإطلاق ، فقد كان فرحان لأن سارة ستتزوج إبراهيم وما كان يدرى سر ذلك الفرح .

وتأهب الكاتب ليسجل واجبات الزوجة وحقوقها ؛ فسأل إبراهيم :

ــ ماذا تريد أن تذكر فى واجبات الزوجة ؟

فقالت إيمتالى :

ــ إن سارة تعرف واجباتها جيدا ، فليس ثم ضرورة لتسجيل واجباتها .

فقال الكاتب :

ــ كل عقد لا يحدد فيه الزوج واجبات زوجه باطل .

فقال آزر :

ــ اكتب فى العقد ما يكتب فى مثل هذه المناسبات : أن على الزوجة أن تصون العرض ، وترعى البيت ، وتطيع الزوج.

أخذ الكاتب يكتب وقد تعلقت بقلم القصب العيون ، كان يكتب على ألواح من طين طرى تجفف فى الشمس ثم تحفظ فى سجلات المعبد ، وكان إبراهيم ينظر وقد عزم على أن يحفظ العقد فى أى مكان إلا فى معابد الأصنام التى لا تملك لنفسها نفعا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

وانتهى الكاتب من كتابة واجبات الزوجة فالتفت إلى هاران وسأله :

ـــ هل نثبت فى العقد الـ « شريقتو » الذى تدفعه لسارة؟

فقالت أم سارة :

ـــ نثبت البائنة بالتفصيل ونؤكد حقوق الزوجة .

والتفتت الأم إلى هاران وقالت :

ـــ أمل عليه تفصيلات الـ « ترهاتو » يا هاران .

فاعتدل هاران وأخذ يملى :

ـــ مين من الفضة ، وعبدان ، وسرير أكادى ، وطست من نحاس ..

وقالت أم سارة :

ـــ واكتب أن للزوجة أن تتصرف فى أملاكها دون موافقة زوجها ، ولها أن تبيع عبيدها .

فالتفت هاران إلى آزر وقال :

ـــ إنها مجرد إجراءات وإلا بطل عقد الزواج .

فقال آزر وهو يبتسم :

ـــ أعرف يا عزيزى هاران ، وقد كتب مثل هذا العقد يوم خطبت إيمتالى وهو محفوظ فى سجلات معبد نانا .

وقال إبراهيم فى هدوء :

ـــ أما عقد زواجى فلن يحفظ فى المعبد .

ولاحت الدهشة على الوجوه ، وقال إبراهيم :

ـــ فليحفظه عمى مع وثائقه .

وذهب روع أم سارة فقد خشيت أن يطلب إبراهيم أن يحتفظ بالعقد

عنده ، فتضطر أن تعترض عليه مما قد يعكر صفو الليلة ، ولم تشغل سارة رأسها بهذه التفاصيل فقد كانت سعيدة فرحى لأنها ستصبح زوجة لابن عمها الذى شغفها حبا واطمأنت روحها إلى روحه .

وانتهت مراسيم الخطبة ، وقفل آزر وإيمتالى وأبناؤهما عائدين إلى دارهم وصدى غناء الجارية يتردد فى الفضاء وفى جوف سارة :

أنت مولاى ! أنت إلٰهى ! أنت سيدى !

نم فى بيتنا يا حبيبى حتى انبلاج الفجر .

ولم ينم إبراهيم فى بيت عمه حتى انبلاج الفجر بل سار بجنب أبيه صامتا يفكر فيما قالته امرأة عمه : « أريدك يا إبراهيم أن تبنى بيدك بيتا لسارة ، فإن البيت الذى نبنيه بأيدينا ، ونرفع قوائمه بعرقنا ، وانبهار أنفاسنا ، مثل هذا البيت نحبه وتهفو إليه قلوبنا : إن سارة هى أعز ما نملك يا إبراهيم ، وهى وديعة غالية أحب أن تضعها فى بيت تحبه ويتعلق به فؤادك » .

ورن فى أذنيه صوت أخيه هاران وهو يقول لها : « اطمئنى يا امرأة عمى فإن إبراهيم بناء ماهر ، وسيبنى لها البيت الذى تشتهيه نفسك » .

وابتسم إبراهيم وابتسم آزر فقد حسب أن زواج ابنه من ابنة أخيه الجميلة الآسرة سيصرفه عن العيب فى الآلهة وعن تسفيه أحلامهم .

وبلغوا الدار فإذا نار متببوبة ؛ فاستبقوا ينظرون فوجدوا النار تلتهم أصنام الآلٰهة التى صنعها آزر ، فهرع آزر وإيمتالى وناحور وهاران إلى الماء يطفئون النار ، ووقف إبراهيم ينظر وعلى شفتيه ابتسامة زارية . فلما أخمدوا النار وأفرخ روعهم دنا إبراهيم من أبيه وقال :

— يا أبت ! إن النار أحق من أصنامك بعبادتك لأنها تحرقها .

فاربد وجه أبيه وقال له فى حنق :

— ولماذا لا تعبدها أنت ؟

فقال إبراهيم فى هدوء :

— لأن الماء يخمدها .

ووضحت الحقيقة الأليمة لآزر ، فقد أوهمه قلبه أن زواج إبراهيم من ابنة عمه الجميلة سيشغله عن العيب فى أصنامه ، وإذا الأحداث تؤكد له أن ابنه لن يرعوى عما هو فيه ، بل إن سخريته من الآلهة ستزداد ضراوة على مر الأيام .

ووسع آزر من خطوه وانطلق لا يلوى على شيء ، وإن كان يحس فى فيه طعم المرارة التى سرت فى روحه .

١١

جلس إبراهيم وسارة يتناولان فطورهما ، وكان يرنو إليها وهو مفعم بالنشوة فجمالها الآسر يدغدغ الحواس ويملأ الجوارح بهجة ، بيد أن روحه كانت ظمأى إلى جمال آخر لا يسمو إليه كل ما فى الكون من جمال ، كانت روحه تهفو إلى جمال ذات الله .

وتناول إبراهيم لقيمات يقمن صلبه ثم كف عن الأكل ، فقالت له سارة :

ــــ أنت لا تأكل !

فابتسم و لم يقل شيئا ، فقد اهتدى بتجاربه إلى أن من أكل بشهوة نفس أعمى الإلـٰه عين قلبه عن رؤية تجليات حقيقة الوجود ..

إنه أحب سارة بكل خلجة من خلجات نفسه ، بكل جارحة من جوارحه ، بكل رفرفة من رفرفات روحه ، إلا أن الحب الذى يكنه للإلـٰه يفوق كل حب خفق به قلبه ، إنه يبعث فى روحه سرورا فياضا يملأ أقطار نفسه بالبهجة والإشراق ، بالفرح الصافى الذى يفوق كل ما فى الوجود من أفراح .

وقام يغتسل لينطلق فى ملكوت السماء قاصدا الله ، ساريا فى طريقه ، مبتهلا إليه أن يسفر عن وجهه ، حتى يطمئن قلبه بمعرفة السلام . وأسبغ الاغتسال كأنما يريد أن يذيب جسده وأن يفنى بشريته ، لتنطلق روحه حرة تسبح فى بحر النور حتى تلتقى بالجوهر المنير ، بنور السموات والأرض .

وودع سارة وغادر البيت المتواضع الذى بناه لها بيديه ؛ خرج إلى الكون العريض يسوق غنمه وثيرانه وأنعام زوجه ، وقد شغل عنها بكنوز قلبه وغنى نفسه ، والصلة التى بدأ يحسها بين روحه وروح الوجود .

ورأى أشجار النخيل باسقة يعبث الهواء بسعفها وتتدلى منها أعذاق البلح كعناقيد اليواقيت . لقد رأى أشجار النخيل مذ فتح عينيه للنور ، أما فى هذه اللحظة التى تفتحت فيها عيون قلبه فإنه يراها أنوارا إلـٰهية تبهر الروح . وراح يتلفت حواليه وهو مشدوه ، فقد تحول الكون جميعه إلى ألواح يخط فيها الإلـٰه بقلمه آيات إبداعه وحسن خَلقه .

وولى وجه قبل المشرق ، فرأى الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى الكون فتغمر الأرض والسماء بالنور . وحاول أن يطيل إليها النظر فغشيت عيناه . إن الشمس عظيمة جليلة لا يقوى على ضوئها بشر . إن الشمس ترنو من عليائها فى كبرياء إلى الأرض ، وإلى الناس ، وإلى كل الوجود . إن الشمس سر الوجود ، كنه الحياة ، ذات الذوات ، روح الأرواح ، بأمرها تدب الروح فى كل ما يخفق بالحياة . فلما رأى الشمس بازغة قال :

ــ هذا ربى ! هذا أكبر .

وسار حتى بلغ سفح الجبل وهو يفكر فى روحه التى تسرى بين جنبيه ، إنها ظل نور السر الذى يبحث عنه . أيمكن أن تكون هذه الروح من جوهر الشمس ؟ إنه يحس أن قلبه يتفيأ ظل حقيقة أزلية ، أحقا أن الشمس هى هذه الحقيقة ؟ إنه اهتدى إلى أن لهذا الكون ربا ، أتكون الشمس هى ذلك الرب ؟

وراح يصعد فى الجبل ، إن الصعود والهبوط لا يقربانه من الإله الذى عرفه قلبه ورأته روحه . إنه يحس أن ذلك الإلـٰه قريب منه أقرب من الشمس ، وأن

محبته لطيفة ألطف من محبة الشمس ، وأنه فى ارتفاعه يرتفع فوق الشمس ، وأن شروق نوره فى القلب يفوق كل أنوار الكواكب والأقمار والشموس .

وظل يرقب الشمس من فوق الجبل وهى تنحدر نحو الأفق ، إن الشمس تغرب ولكن نور الإلٰه الذى رآه قلبه لا يعرف الغروب . إن الشمس تغوص فى الأفق البعيد ، ولكن نور الإلٰه الذى تجلى لبصيرته ينبثق بالرحمات . إن الشمس تختنق وتموت ولكن الإلٰه الذى تجلى لروحه حى لا يموت .

وراح قلبه يحيا بنور الكشف عن سر الحق . إن الله الذى يبحث عنه ليس هو الكواكب ولا القمر ولا الشمس . إنه لا يمكن أن يكون مردوخ أو نانا أو شماش أو أية ظاهرة من ظواهر الكون . إنه فوق الكون جميعه ، ومشيئته فوق كل مشيئة . فالكواكب والقمر والشمس لا تملك مشيئتها ، إن الله هو خالقها وهو الذى فرض عليها مشيئته وسخرها وقدر منازلها .

وراح ينظر من فوق الجبل فرأى الكون لأول مرة يخفق بالروح الحق ، بالروح الأزلية ، بالروح التى خلقت من سواطع جمالها وأنوار جلالها كل شيء .

إن رب هذا الكون واحد لا إلٰه سواه ، عظيم له ما فى السموات وما فى الأرض ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، هو روح الحياة وسر الأسرار ، فإن كانت أسرار الأزل احتجبت عن العقول فسبحات الجلال سترت عنه الأبصار . إنه يدرك كل شيء ولا تدركه العيون .

وجاشت نفس إبراهيم بالرضا وانشرح صدره للإيمان وتألق نور الله على رياض قلبه .. فإذا الكون جميعه ، الكون الذى كان غائبا عنه بالانسجام مع روح الوجود ، يصبح فى لحظة ألسنة ناطقة بوحدانية الله .

كان إبراهيم فوق الجبل لا يكاد يُرى ، إلا أنه كان كإنسان العين صغيرا وجوده كبيرا شهوده ، كان ذرة فى الكون إلا أن اللمسة الإلـٰهية التى مست روحه جعلت الوجود كله يثوى بين جبينه ويخفق به فؤاده .

ولف الظلاف مدينة أور ، وسكنت الوحشة جبال مغير ، وجثم على المكان سكون أشبه بسكون الرموس يجعل الخوف ينزع الأفئدة من الصدور ، إلا أن إبراهيم كان ممتلئا أنسا ، فقد تناسق مع كل ما حوله وأصبح يرى كل شيء بوضوح بعد أن أنار الله له السبيل وهداه إلى الرشد .

وخشع إبراهيمُ وراح يناجى ربه وينفث زفرات قلبه . ثم سجد وعبراته تجرى على خديه وراح يبتهل ويسأل الله أن يرى وجهه ليطمئن قلبه .

غمر المكان نور ، وهبت نسائم رقيقة تحمل الرحمة ، وسرى فى الوجود همس شجى يشرح الصدور كأنه تسبيح الملائكة ، وبدا أن الأرض تتأهب لاستقبال وحى السماء . وألقى فى روع إبراهيم أن سيلقى ربه ، ففاضت عيناه بالدمع وثبت فؤاده وأرهف حسه وشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .

وانجابت عن قلبه الغشاوة وجاءته البينة من ربه فرأى فى وضوح مبين أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، وأنه لو تجلى الله للجبل لجعله دكا ، فخر ساجدا.

وشعر بوحى السماء يصب فى صدره والحكمة تملأ جوانحه وأنه يسمع فى وضوح ما يوحى إليه : إننى أنا الله لا إلـه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى .. إنه أنا الله العزيز الحكيم .. إنى أنا الله رب العالمين .. ومن يقترف حسنه نزد له فيها حسنا ، إن الله غفور شكور .. إن الله يعلم غيب السموات

والأرض وهو الرزاق ذو القوة المتين .

قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله .. قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا .. قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون .

قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . قل فأنى تسحرون ؟

وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين .

وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين .

قل إنما أنا نذير وما من إلـه لا الله الواحد القهار .

قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم .

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إلـه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلـه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .. وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا .. جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء .. الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا .. لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه .. ليذكروا اسم الله على ما رزقهم . الحمد لله رب العالمين .

له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون .. وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .. له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير .. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين .. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود .

واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار .. ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى .. وتوكل على الحى الذى لا يموت .

إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم .

وراح إبراهيم يقلب وجهه فى ملكوت الله وهو مفعم بالفرح وقد ذهب عنه الحزن ، وظل ينظر وهو مسحور بكنوز الحكمة التى أريقت فى فؤاده ، وهو مبهور بالنور الإلٰهى الذى تجلى عليه ونفذ إلى قلبه وسكن فيه ليشرق دائما بالنور ، فقد هداه الله سواء السبيل .

ومرت لحظات مفعمة بالبركات فأحس كأن كل حلاوة الوجود سرت فى وجدانه ، وأن سلاما أفرغ عليه ، وأن سكينة أنزلت على قلبه فازداد إيمانا وتسليما .

ولما أفاق رفع وجهه إلى السماء وقال :

ـــ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين .

دخل الإيمان قلب إبراهيم وحببه الله إليه وزينه فى فؤاده ، فإذا كل شىء مشرق غارق فى النور وإن كانت الليلة حالكة السواد لم يبزغ فى سمائها نجم .

وهم بأن يهبط فى الجبل مطمئن النفس قرير العين مفعما بالسرور ، فقد أوحى إليه ما أوحى خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، من له ما فى السموات وما فى الأرض الواحد القهار ، بيد أنه رأى شيئا هائلا معلقا بين السماء والأرض ، فرجف قلبه واستولى عليه خوف شديد ، وزاغ بصره وأحس أنه سينهار .

وفر لا يلوى على شىء وراح يعدو ويلهث ، بيد أنه كان يرى ذلك الشىء أينما يولى وجهه معلقا بين السماء والأرض . ولم يدر أين المفر وذهل عن نفسه بذلك الفزع الذى سلك إلى وجدانه واستبد بكل جوارحه وكل خلجة من خلجات نفسه .

ووضح لعينيه ذلك الشىء الذى كان يراه أمام عينيه أينما يوجه بصره ، وسمعه يقول له فى وضوح :

ـــ أنا جبريل رسول رب العالمين إليك ، وأنت إبراهيم رسول الله .

وزاد فزع إبراهيم حتى كان يموت من الخوف ، وإذا جبريل يقول له :

ـــ أنا رسول ربك إليك ، وأنت خليل الرحمن .

وحاول إبراهيم أن يصرخ ، أن ينفس عن ذلك الخوف الذى استبد به وكاد يكتم أنفاسه ، بيد أنه لم يجد صوته فأخذ يجرى هنا وهناك وهو حائر لا يدرى ماذا يفعل .

ورن صوت جبريل مدويا فى الفضاء :

ـــ أسلم .

فخر إبراهيم ساجدا وقال :

ـــ أسلمت لله رب العالمين .

واستمر فى سجوده ، ثم رفع رأسه ونظر فلم ير إلا السماء وجبال مغير وأور الخاشعة فى الظلام ، أور التى لم يبلغها بعد النبأ العظيم . واستشعر قوة عظيمة تسرى فى روحه ، فإن الله يؤيده بنصره ومن ينصره الله فلا غالب له ، إنه سيبلغ رسالات ربه ولو كره الكافرون .

واندفع من فوق الجبل وهو يقول :

ـــ يا قوم ! إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

١٢

السحر يتنفس فى هدوء ، والناس نيام ، والأحلام تطوف بالدور ، وكل كائنات الوجود تسبح بحمد الله إلا البشر ، فما كان من البشر أحد فى تلك اللحظة يسبح باسم ربه العظيم خلا إبراهيم ، كان يصلى لله فى حرارة وقد انهمرت من مآقيه الدموع .

وطفق إبراهيم يبتهل وينوح ويتأوه حتى بلغت أصواته مسامع سارة، فنهضت من فراشها وذهبت إليه ووقفت ترقبه فى دهش ، إنه يركع ويسجد ويصلى صلاة لم تسمع بها من قبل . إنه يصلى دون أن يكون أمامه تمثال من تماثيل آلهة القوم ، ويدعو إلـٰها واحدا دون أن يذكر معه سائر الأرباب ، يفعل ذلك وقد غاب عن كل ما حوله وبدا عليه أن وجوده كله ذاب فى ذلك الإلـٰه .

ووقفت لا تبدى حراكا فقد أخذت بذلك الخشوع الذى ران على المكان ، وذلك الصفاء الذى ما كان لها به عهد من قبل . لكم ذهبت إلى المعابد ، وصعدت أبراج الآلهة ، وقدمت القرابين ، وألقت سمعها إلى الإيشاكو والكهان ، وتلقت الصلوات ، بيد أنها فى كل ما كان بينها وبين الآلهة والكهان لم تحس مثل ذلك الصفاء ولا ذلك النور الذى غمر المحراب ، قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فلما قضيت الصلاة وأتم إبراهيم تسبيحه دنت منه وقالت :

ـــ ماذا تفعل ؟

فقال فى هدوء وأثر الدموع فى عينيه .

ـــ أصلى لله .

ـــ إلٰه غير مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا العظام ؟

ـــ إلٰه لا شريك له فى ملكه ، سخر لنا ما فى السماء وما فى الأرض جميعا .

فقالت فى إنكار :

ـــ ومردوخ ونانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ؟

ـــ سخر الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربنا .

ـــ من علمك هذا يا إبراهيم ؟

ـــ هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما .

ـــ ومن أدراك أن ربك هداك إلى هذا الدين؟ فقال فى إيمان عميق:

ـــ إنما أتبع ما يوحى إلّى من ربى ، وقد بعثنى رسولا لأدعو الناس لعبادته وحده ، وإنى أدعوك إلى الله الذى لا إلٰه إلا هو ..

ـــ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

ـــ إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لما جاءتنى البينات من ربى .

ـــ أإلٰه واحد لكل هذا الكون؟ وقد كان لنا إلٰه للقمر، وإلٰه للشمس، وإلٰه للمشترى ، وإلٰهة للقضاء ، وإلٰهة للعطف والمحبة والحرب ، وآلهة كثيرة تطيل أيامنا فى الأرض ؟!

ـــ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار !

ـــ كيف يكون فى السماء وفى الأرض إلـٰه واحد ؟

ـــ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله .

ـــ إلـٰه فوق الشمس وفوق القمر وفوق الكون ؟

ـــ إنه خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، ومنه الأمر والنهى ، وإليه المرجع والمآب ، رب السموات والأرض ، الإلـٰه الأحد الذى لا إلـٰه غيره .

ـــ أيدبر كل شىء وحده ؟

ـــ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

ـــ أوَ سنلقى ربك يا إبراهيم ؟

ـــ بعد أن نذوق الموت .

ـــ بعد أن نذوق الموت ننزل إلى الهاوية ، إلى الأرض التى لا رجعة منها .

ـــ الموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون .

ـــ أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟

ـــ وربى لتبعثن ولتنبؤن بما عملتم ، فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون.

ـــ وما جزاء من يؤمن بربك ؟

ـــ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار .

ـــ وما جزاء من يكفر بربك ؟

ــ مأواهم جهنم كلما خبت زادهم الله سعيرا .

ونظرت إليه فى دهش ، فإن ما يقوله يختلف عن كل ما سمعته من الكهان ورجال الدين . إنه شيء جديد ، شيء يسمو فوق الكون ، يجعل الإنسان أعظم من الكون ، إنه فتح مبين وإن كان يسفه أحلام الآباء والأجداد .

وقالت :

ــ من علمك هذا يا إبراهيم ؟

ــ هذا ما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله .

ودنت منه وقالت وهى تجهد أن تنهل من فيض النور الذى يشع من عينيه ووجهه :

ــ أحق هو ؟

فقال إبراهيم فى حماس :

ــ إى وربى إنه الحق .

وطمع فى أن تؤمن بالله ورسالته فقال لها :

ــ استغفرى ربى وتوبى إليه ، إن ربى قريب مجيب .

ــ أيسمعنى إذا دعوته ؟

ــ ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ،وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ــ لا أدرى ماذا أفعل يا أبراهيم ؟

ــ اشهدى بالحق يا سارة ، شهد الله أنه لا إلـه إلا هو .

ـــ أتريد أن أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ؟

ـــ وأن إبراهيم عبده ورسوله ، أريد أن يطهر الله قلبك ، وأن يهديك الله ويشرح صدرك للإسلام .

ـــ أرنى الله قبل أن أشهد ، كيف أشهد بالحق و لم يقع بصرى عليه ؟

ـــ ربى لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

ـــ لن أشهد قبل أن أرى وجهه .

ـــ فلله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، لا إلـٰه إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه . اشهدى يا سارة بالحق أفغير دين الله تبغين ؟ أسلمى يا سارة فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

وما زال ينفث حقيقة الله فى روح سارة ليشعل الإيمان فى قلبها ، ليبهر نور الحق ظلام نفسها ، لتحس تجلى الله فى ذاتها .

و لم تلبث سارة أن أحست غشاوة الظلمات تنشق عن قلبها ، وأبواب الحياة الروحية تتفتح لها ، ونفحات إلـٰهية تهب عليها ، وأنوار التجليات تضىء ما بين جنبيها ، والنور الإلـٰهى يفيض حتى يغمر عقلها . لقد أراد الله لها الهداية فشرح صدرها للإيمان .

وشخصت ببصرها إلى السماء وكانت جميلة رائعة الحسن تبهر ملاحتها العيون ، بيد أن جمال الروح الذى سربلها أزرى بكل جمال حسى وكل حسن يفعم الجوارح بالبهجة والنشوة .

وقالت :

— رب ! إنى ظلمت نفسى .. أشهد أن لا إلٰه أنت وأن إبراهيم عبدك ورسولك .

وأسلمت مع إبراهيم لله رب العالمين .

وخرج إبراهيم لينذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب مبين ، ورأى أن ينذر عشيرته الأقربين ، وهل هناك أقرب إليه من أبيه وأمه وإخوته ؟ فانطلق إلى بيت آزر ليقول لآله : إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

وبلغ الدار واتجه إلى حيث كان أبوه يصنع آلهته فلم يجده ، وعلم أنه خرج وأن ناحور وهاران ذهبا إلى معبد نانا ليبيعا تماثيل الآلهة التى صنعها آزر .

وقصد إلى حيث كانت أمه. صعد فى الدرج الداخلى إلى الشرفة التى تطل على فناء الدار ، وسار حتى دخل على إيمتالى فحياها فى رقة وقال :

— يا أماه ، إنى أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

— وآلهتنا يا إبراهيم؟

— إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا .

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— أتعبدون ما تنحتون ؟ يا أماه اعبدوا الله واتقوه ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا .

— أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟

— يا أماه أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ، تعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا .

— ألا تخاف غضب آلهتنا يا إبراهيم ؟

— وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به

عليكم سلطانا ؟ يا أماه إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

ـــ أتنهانا يا إبراهيم أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب .

ـــ يا أماه إن هذا لهو الحق اليقين .

ـــ يا بنى إننا فى ريب مما تدعونا إليه . وجدنا آباءنا يعبدون مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا الأخرى ، وسنعبد ما وجدنا آباءنا يعبدون .

ـــ يا أماه ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .

ـــ وجدنا آباءنا لها عابدين .

ـــ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

ـــ يا بنى إنى أخاف عليك غضب الناس ، فدع ما أنت فيه وثب إلى رشدك وعد إلى دين آبائك .

ـــ يا أماه أأشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ؟ يا أماه أأخشى الناس والله أحق أن أخشاه ؟ يا أماه إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم .

ـــ يا بنى استمع إلى نصحى ، إنى أخاف أن يتخطفك الناس . أخاف أن يبطش بك النمروذ .

ـــ يا أماه إنى أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . يا أماه توبى إلى الله واستغفريه من قبل أن يأتى يوم تجادل فيه كل نفس عن نفسها وتوفى كل نفس ما علمت ، يوم تشهد عليكم ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم تعملون. يا أماه قولى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين !

ـــ يا إبراهيم لن أتبع إلا ملة آبائى ، ولن أعبد إلا ما كانوا يعبدون .

يا إبراهيم أعرض عن هذا لكى لا يكون عليك حرج ، ولكى تنجو من عذاب النمروذ وجنوده .. أفلا تتدبر ؟ يا إبراهيم إنا نخاف مما تدعو إليه . نخاف أن يضطهدنا الناس وأن يعذبنا النمروذ وأن يحل بنا غضب الآلهة ، وإنا برءاء مما تدعو إليه .

ــ وأنا برىء مما تعملون .

ودار على عقبيه وهو يقول :

ــ حسبى الله لا إلٰه إلا هو عليه توكلت وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

وهبط فى الدرج وهو حزين ، كان يريد أن يهدى من يحب وما كان فى الوجود أحب إليه من أمه ، بيد أن الله لم يشأ لها الهداية فأعرضت عن ابنها وأبت أن تصدق أن ما جاء به هو الحق من عند الله العزيز الحكيم .

وسار فى الدار ، وبلغت أذنيه أصوات من غرفة أبيه فقد عاد آزر ليصنع أصنامه ، فهرع إليه إبراهيم وقال :

ــ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .

قال :

ــ أراغب أنت عن آلهتى يا أبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا .

قال :

ــ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيًّا .

١٣

تزوج ناحور ملكة أخت سارة ، وتزوج هاران وولد له ابنه لوط . و لم يكتف ناحور بزوجته بل رأت امرأته أن تعطيه جاريتها « روما » لتكون له أمة ، فالقانون والتقاليد تقر منح الزوجة جاريتها لزوجها لتكون له محظية ، وقد كتب ناحور فى لوح الزواج أن على روما أن تغسل قدمى زوجته الأولى ، وأن تحمل لها مقعدها إلى معبد الإلـٰه .

وكان للزوجة الأولى أن ترد الجارية إلى مرتبة الإماء إن حاولت منافستها فى حب زوجها ، بل كان لها حق بيعها ما لم تصبح أمًّا ، أما إذا ولدت طفلا فإنها تحرر ، وقد أنجبت روما ذرية لناحور فاستحال على ملكة زوجته الأولى أن تردها إلى مرتبة الإماء أو أن تبيعها فى السوق بيع الرقيق . وبقى الشرط الذى نص عليه فى عقد الزواج ، فكانت روما تغسل لها رجليها وتحمل مقعدها إلى معبد الإلـٰه نانا .

ورزق ناحور ولدا وبقى إبراهيم بلا عقب ، فإن سارة لم تنجب له و لم يأت الزواج بثمرته الطبيعية . وكان إبراهيم يستطيع أن يطلق سارة ويدفع نصف مين من الفضة ، أو يتخذ زوجة من المرتبة الثانية ، زوجة يشتريها من السوق أو جارية من جوارى سارة تهبها له ، ولكن إبراهيم لم يفكر لا فى الطلاق ولا فى اتخاذ محظية وإن كان القانون يمنحه ذلك الحق وإن كانت تقاليد القوم تقره وتباركه ، فقد كان يحب سارة حبا جما وما كان

يقدم على شئ يخدش كبرياءها.

كان إبراهيم يحن إلى الولد ، وكان التبنى شائعا فى بابل فتبنى لوطا ابن أخيه هاران واتخذه ولدا ، وراح يلقنه منذ نعومة أظفاره عقيدة أن لا إلـه إلا الله الواحد القهار ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وذات يوم خرج إبراهيم إلى معبد نانا يعظ الناس ويدعوهم إلى الله كما اعتاد أن يفعل منذ أمر أن يبلغ رسالات ربه ، ولكنهم أعرضوا عنه ووضعوا أصابعهم فى آذانهم وصدوه عن دعوته مستهزئين به وبإلـهه الذى يدعوهم إليه .

فتركهم وسار فى شوارع أور بين منازل الأغنياء التى بنيت من الآجر ودكاكين الصياغ الذين حذقوا صناعة الذهب والفضة ، حتى إذا اقترب من النهر ، رأى التجار فى غدو ورواح وقد شغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، فالسفن ترسو فى المرفأ يفرغ منها ما ورد عليها من أخشاب لبنان وخيرات البلاد الأخرى ، ويحمل إليها غلات العراق من القمح والبلح فتنطلق بها إلى بلاد بعيدة ، وراء بحر الشمس المشرقة العظيم .

ورأى إبراهيم أن يذهب إلى هولاء التجار وأن يدعوهم إلى الله ، فانطلق حتى جاءهم وقال لهم :

— إنى لكم نذير مبين .. إنى أدعوكم إلى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد .

وخف إليه بعضهم يمنعونه أن يسترسل فى دعوته وقالوا :

— إنا كفرنا بما أرسلت به ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب .

— أفى الله شك فاطر السموات والأرض ؟ .. يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

— إن أنت إلا بشر مثلنا تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بسلطان مبين .

— إن أنا إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لى أن آتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

وأعرضوا عنه وتركوه قائما وحده ، فرفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب إنك غفور رحيم .

وخلف النهر وراءه وسار إلى معبد نانا وبرجه الشامخ. وكان معبد نانا ومعبد زوجته ننكال والحرم المقدس تبدو غارقة فى البخور ، وكان رجال من المدينة والريف فى طريقهم إلى المعبد لتقديم القرابين والنذور من ذهب وفضة وعجول وخراف وقمح وشعير .

وسار إبراهيم فى الطريق المقدس وقد جلست على جانبيه العاهـرات المقدسات ، وخلَّف وراءه الرجال والنساء الذين وفدوا على مخازن المعبد من المدن والريف لتقديم الهدايا والنذور ، ودخل إلى حيث تقوم أصنام الآلهة وتماثيل النمروذ بن كوش الملك الإلـٰه ، نسل الآلهة الذين هبطوا من السماء إلى الأرض بعد الطوفان ليمرضوا على الأرض حكم السماء .

وكان فى مشكاة تمثال نانا وفى مشكاة أخرى تمثال مردوخ ثم تماثيل أخرى منحوتة من الحجر ، وكان الناس يركعون ويتلون الصلوات ويقدمـون القرابين ، فتقدم إبراهيم ثابت الخطو وقال :

— ماذا تعبدون ؟ أإفكا دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟

وتقدم بقلب سليم ، وقال وهو يشير إلى تماثيل آلهتهم :

ــ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

وصوبت إليه نظرات يتطاير منها الشرر ، إنه لا يكف عن تسفيه أحلامهم وعيب آلهتهم ، وكان أكثر الناس غضبا الكهان فجاءوا إليه وقالوا :

ــ وجدنا آباءنا لها عابدين .

ــ لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

ــ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

ــ بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين .

ورماه الكهان بنظرة مغيظة ، إنه يدَّعى أن ثم إلـٰها آخر غير مردوخ خلق السموات والأرض فقالوا له :

ــ إن مردوخ هو رب الأرباب وإلـٰه الآلهة وفاطر السموات والأرض . وإن نانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى أعوانه وممثلوه ، وأمرهم شورى بينهم إن أرادوا شيئا أبرموه فى مجمع الآلهة .

ــ يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

والتف قومه حوله يحاجونه ، قالوا له :

ــ أتكفر بمردوخ ؟! فى السماء وهو أميرها الأول ، وفى الأرض هو عظيمها وكبيرها ، وبين الآلهة هو ربها العظيم ، وعندما يقدِّر المصائر وهو فى جلاله ورهبته فلا يجرؤ إلـٰه على أن ينظر إليه ، ولولاه لما بنيت المدن ولا أقيمت المواطن .

إنه قادر على أن يخسف الأرض بك أو يصب غضبه من السماء عليك أو يلقى بك إلى الهاوية ، إلى الأرض التى لا رجعة منها .

فقال إبراهيم وهو ثابت الجنان :

ـــ أتحاجونِّى فى الله !

وصاح صائح :

ـــ ما أنت إلا بشر مثلنا ؛ فأت بآية إن كنت من الصادقين .

وارتفعت الأصوات من كل جانب :

ـــ نريد آية .. نريد آية .

ـــ وحق مردوخ والآلهة جميعا لئن جئتنا بآية لنؤمنن بها .

ـــ لن نؤمن بك قبل أن يكلمنا الله أو يأتينا بآية .

ـــ أرنا ربك يا إبراهيم . نريد أن نرى الله .

ـــ ويل لك ياإبراهيم من غضب الآلهة .

ـــ ويل لك من مردوخ فلن يبارك لك فى حياتك .

ـــ وليذيقنك غصص الموت .

وجاء لوط يسعى وكان فتى ذكى الفؤاد ، فرأى عمه وقد التفت حوله قومه يخوفونه بغضب آلهتهم فخف إليه ، وصك سمعه صوت يهدد عمه :

ـــ لئن لم تنته عما أنت فيه فإن لك معيشة ضنكا ، سيكتب مردوخ عليك الخراب .

وثارت دماء لوط فى عروقه : إن عمه الحبيب بل أباه الذى تبناه وغذاه بمبادئه يتلقى من قومة التهديد والسخرية والوعيد . ليته يستطيع أن يفعل شيئا ليشد أزره ، ورأى عمه بدأ يتكلم فألقى إليه سمعه ، قال إبراهيم :

ـــ أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ؛ أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

يا قوم .. اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إت الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير .

وساد القوم سكون وراح لوط يتفرس فى وجوه الناس وهو مسرور ، كانت حجة عمه قوية أخرست ألسنتهم إلى حين ، بيد أن واحدا منهم قال فى عناد :

ـــ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين .

وعادت الأصوات ترتفع مرة أخرى قالوا :

ـــ ساحر .

ـــ مجنون .

ـــ كذاب .

فقال إبراهيم فى هدوء :

— لى عملى ولكم عملكم .

وصاح كاهن يحرض القوم عليه:

— يا قوم انصروا آلهتكم وليكن يوما عليه عسيرا .

فقال إبراهيم :

— يا قوم أتتخذون من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ؟ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ؟

وعاد الكاهن يصيح :

— مجنون . كذاب . إن هذا إلا إفك افتراه . انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وتحرك الناس ليفتكوا بإبراهيم وإذا برجل يقول :

— كفى ما ناله اليوم من خزى ، اتركوه .

وذهب الكاهن إلى إبراهيم ودفعه فى صدره وقال :

— كذاب .. كذاب يريد أن يفتنكم ، أن يضلكم عن سبيل آلهتكم .

فقال إبراهيم :

— ربكم ذو رحمة واسعة .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

واغرورقت عينا لوط بالدموع . إن إبراهيم يدعوهم إلى الرشاد وهم يستهزئون به ، يدعوهم إلى النجاة وهم يسخرون منه ، يدعوهم إلى العزيز الغفار وهم يدعونه ليكفر بالله ويشرك به ما ليس له به علم ، يدعوهم إلى

الهدى وهم لا يسمعون له ؛ فقد كبر عليهم ما يدعوهم إليه .

ولم يستطع أن يكتم المشاعر التي ما جت فى صدره فقال :

ــ إن إبراهيم لم يكذب ، إنه لكم ناصح أمين ، بل الذين كفروا يكذّبون .

فاتجهت الأبصار إلى الفتى تنطق بالهزء والسخرية ، ولم يخف لوط بل هان القوم فى عينيه وقال :

ــ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم .. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير .

فقال قائل :

ــ كذاب آخر .. كذاب صغير .

فعاد الكاهن يصيح :

ــ نصحتكم أن تنصروا آلهتكم من الكذاب الكبير قبل أن يفتن الناس فلم تستمعوا إلى نصحى . لئن سحر هذا الفتى إنه يسحركم جميعا .

وقال لوط :

ــ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟

فسأله واحد منهم :

ــ أآمنت بما يدعو إليه ؟

فقال لوط :

ــ آمنت بما أنزل على إبراهيم .

وقال إبراهيم لقومه :

ــ اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من

دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون .

وأخذ الناس ينصرفون حتى لم يبق فى المعبد إلا إبراهيم وحده ، و لم يصدقه إلا ابن أخيه الفتى الذى تبناه وأحبه من كل قلبه ، فقد أسلم ولمَّا يدخل الإيمان فى قلبه .

ورفع إبراهيم عينيه إلى السماء وقال :

ــ رب إنهم يكذِّبون .

وإذا بصوت كأنما يلقى إلى روحه فيسمعه بوجدانه يقول :

ــ (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ) .

فعاد إلى الدار ومعه لوط ، وقد عزم على أن يستمر فى تبليغ رسالات ربه ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

١٤

كانت مدينة أور تغص بالناس فقد وفد إليها عباد إلٰه القمر من كل مكان يسوقون الهدايا والنذور ، فغدا عيد « نانا » الكبير ، عيد الإلٰه العظيم الذى تنازل ورضى أن ينزل فى معبده المقدس فى مدينة أور .

كان عباد إلٰه القمر كثيرين ، أكثر من عباد إلٰه الشمس « شماش » وإلٰهة اللذة والحرب عشتار ، فقد كان شماش وعشتار ولدى نانا ، وما كان للابن أن يسمو إلى مكان أبيه وإن مارى فى ذلك كثيرون وزعموا أن مردوخ تفوق على أبيه « أيا » ونصب فى مجمع الآلهة إلٰها على الآلهة أجمعين .

وتدفقت فى شوارع المدينة الأنعام التى أهدتها المدن الأخرى وكبار دافعى الضرائب — فى طريقها إلى حظائر معبد الإلٰه ، وماجت المدينة بالكهنة والكاهنات ، والجنود والقضاة ، وأمناء مخازن الغلال والكتاب ، والأحرار والعبيد ، رجالاً ونساء ، وكانوا جميعا يستعدون للاحتفال بالعيد .

وهرع الشبان الوافدون من البلاد الأخرى إلى العاهرات المقدسات اللاتى جلسن على جانبى الطريق المقدس ، يلقون فى حجورهن قطع النقود فيتبعنهم ليقدمن أجسادهن قربانا لابنة نانا عشتار العطوف إلٰهة اللذة .

وانطلق ناحور وزوجته وأولاده ، وهاران وزوجتاه وأولاده إلى بيت آزر ، ليمضوا مساءهم يتسامرون ، ثم يتواعدون على الخروج إلى المعبد لإقامة

الصلاة وتقديم القرابين .

وتلقاهم آرر وإيمتالى بالترحاب وجلسوا جميعا يتسامرون ، ثم قاموا يصلون فى معبد البيت الخاص ويدعون الإلٰه أن يطيل فى أيامهم على الأرض .

وأتموا صلاتهم وراحت إيمتالى تبتهل :

ــ نمروذ إلٰهى ، بارك لى فيهم وأطل أعمارهم .

وجاء إبراهيم فسمع أمه وهى تدعو النمروذ الملك الذى أَلّهوه ، وحزّ فى نفسه أن تدعو أمه : نمروذ إلٰهى ! فكيف يكون النمروذ إلٰها وهو بشر مثلها ؟!

ودخل إبراهيم عليهم وقال :

ــ ما تعبدون ؟

قالوا :

ــ نعبد أصناما فنظل لها عاكفين .

وقال هاران :

ــ نعبد مردوخ رب الأرباب وإلٰه الآلهة ، من خصه أونو وإنليل بملك أبدى فى بابل ، من قال له أبوه « أيا » : « أى بنى ! ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرف أنت » . نعبد مردوخ ساحر الآلهة وإلٰه الكهنوت وخالق البشر .

وأضاف آزر :

ــ ونعبد نانا والآلهة الأخرى التى ترزقنا وتذهب عنا أسقامنا .

قال إبراهيم :

ــ هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟

قالوا :

ـــ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

قال :

ـــ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

وقال هاران لأخيه إبراهيم :

ـــ يا أخى تعال معنا غدا إلى العيد ، فسترى أن ديننا حسن ، وسترى كيف ندعو « بعلا » مردوخ السيد الكريم ونانا العظيم .

قال إبراهيم :

ـــ أتدعون بعلا وتذرون أحس الخالقين ؟!

واقتربت منه إيمتالى وقالت :

ـــ يا بنى دع ما أنت فيه ، وتعال معنا غدا إلى المعبد تحتفل مع قومك بالعيد إكراما لى .

وكان الليل جن والنجوم بزغت ، فقام إبراهيم فنظر نظرة فى النجوم ، فالتمعت فى ذهنه فكرة وقال فى نفسه : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

وعاد إلى حيث كان أهله وقال :

ـــ إنى سقيم .

ثم استأذن وانصرف وهو يرقب الصبح .

* * *

وفى الفجر دخل الأوريجاللو قدس الأقداس حيث تمثال الإلـٰه نانا إلـٰه القمر ، فأطلق البخور وركع وتلا صلواته ، وراح الكهنة ينظفون المعبد ويطهرونه للقادمين من كل فج ، ليقدموا الولاء والخضوع لحامى المدينة .

وقدم الكهان إلى الآلهة اللبن فى أوانى من المرمر ، ووضعوا لكل إلـٰه أمام عرشه الإلـٰهى اثنى عشر رغيفا ، وأمام البرج المدرج الذى ينتهى بمزار إلـٰه القمر ستة عشر رغيفا ، وجاءوا من مطبخ المعبد بالصحاف الرئيسية عليها الثيران والعجول والخراف ، والنعاج غذيت باللبن ، والطيور ، والدجاج والبط والبيض ، ووضعت جميعا أمام الآلهة .

ثم فتحت أبواب المعبد فدخل السحرة والمغنون والمغنيات يباشرون أعمالهم ، فراح السحرة يطلقون البخور ، والمغنون والمغنيات يتغنون بأمجاد الآلهة ، ويتلون الصلوات الحارة للإلـٰه القمر ، يقولون :

يا رب يا من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ،

ومن يجلب الغيوث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء ..

وراح آزر يصغى إلى الصلاة بقلب خاشع والدموع تنهمر على خديه ، فقد كان من الصناع الذين استدعوا لصنع تماثيل الإلـٰه فى عيده الكبير .

واصطف الناس فى شوارع أور ليركعوا لنمروذ العظيم الملك الإلـٰه وهو فى طريقه إلى معبد نانا ، ليحمل الإلـٰه من معبده ويعبر به النهر إلى معبد الصلوات .

وغصت الشوارع بالأميلو والموشكينو والعبيد ، برجال القضاء ورجال الدين والكتبة والموظفين ، والتجار ووكلاء الأعمال وتلاميذ المدارس ،

والعبيد والإماء . وكان الجنود بملابسهم العسكرية والحراب فى أيـديهم يحافظون على النظام ، ويمنعون تدافع الناس الواقفين خلف ظهورهم حتى لا يضيق الطريق الذى سيمر فيه النمروذ بن كوش .

وعزفت الموسيقى وراح المغنون والمغنيات ينشدون ، وأقبل النمروذ فى عربته وعلى رأسه تاج الملك ، وقد أرسل شعره على كتفيه وأطلق لحيته ، ويغطى كتفه اليسرى جلد ماعز ، وجلس على يسار ناظر القصر وأمين خزائن الملك .

وانطلقت فى أثر عربة النمروذ عربات الوزراء وقواد الجيش ، وكان الناس كلما مر عليهم الملك الإلـٰه يركعون ويدعو كل منهم من أعماق قلبه .

ـــ ألا فليطل الملك عمرى .

وأفعمت القلوب الرقيقة بالخشية ، فارتفعت زفرات الأفئدة نحيبـا ، وسالت العبرات تعلن عن الإيمان العميق .

ووقفت عربة النمروذ لدى الباب الذى يؤدى إلى حرم المدينة ، إلى الطريق المقدس ، فنزل منها ومد بصره إلى المعبد فى خشوع ، وكان البرج المدرج ينهض فى الناحية الغربية يرمز شموخه إلى علو مكانة نانا فى السماء .

وتقدم النمروذ وخلفه الوزراء ورجال الجيش وكبار موظفـى الدولـة والعاهرات المقدسات ، فارتفعت الترتيلات والابتهالات . وانطلق الموكب المقدس حتى اجتاز الباب الذى تقوم فوقه مساكن موظفى المعبد ، وتقدم فى الساحة الواسعة مارا بمخازن المعبد ، فغرف الخدم ، فغرف البخور . فالمطبخ حيث تطهى الضحايا ، فالأفران حيث يخبز الخبز للآلهة ، فغرف الكهان والمغين والمغنيات وموظفى المعبد ، ومن وهبن أنفسهن لخدمة إلـٰه القمر .

وبلغ الموكب الساحة المقدسة حيث يقوم معبد نانا وأمامه معبد زوجته ننكال وبينهما المزار المشترك الحرم المقدس . وكان معبد نانا بسيطا أما معبد ننكال فكان أشبه بالقلعة ، جدرانه سميكة وأبراجه محصنة ، زين بنقوش الفسيفساء موشاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة من زمرد وفيروز ومرجان .

ودخل الموكب إلى حيث تماثيل مردوخ وأنو وإنليل وأيا ونانا وشماش وعشتار والبعول الكرام ، فارتفعت الأصوات ترتل الصلاة :

يا رب من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ،

ومن يجلب الغيوث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء ،

ومن يعظم فى السماء عالية وصيته ،

ومن يعظم فى الأرض عاليه وصيته ،

ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ،

مشيئتك أنت فى السماء مشرقة .

نسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض ،

فإن مشيئتك تطيل الحياة ، وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيبا .

وأنت تجرى العدل على قضاء الإنسان ،

وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .

أنت رب الأرباب ، ما لك من شبيه ولا نظير .

وكان هاران يردد صلاته مع المصلين فى حرارة ، ويتمنى لو كان معهم

أخوه إبراهيم ليرى كم هو متين هذا الدين الذى آمن به الآباء !

ودخل النمروذ فناء المعبد الرئيسى وحده ، وفتح باب قدس الأقداس ، فخرج منه الأوريجاللو ، فتقدم من النمروذ وخلع عنه التاج وشارات الملك والصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وسار حتى وضعها أمام تمثال كبير الآلهة مردوخ رب الأرباب ، ثم عاد إلى النمروذ فضربه على خده ، وقرَّبه من إلـٰه القمر ، وشد أذنيه ليركع ، فركع النمروذ فى خشوع وهو يردد أنه لم يقصر فى حق ألوهيته ، لم يهن زواره ، وأنه عنى بمدينته العظيمة أور ، ولم يهدم أسوارها .

ولم يدر بخلده آنئذ أنه يتلو مثل هذه الصلاة لمردوخ فى بابل ولأونو وشماش وعشتار ، ولكل الآلهة المحليين فى المدن التى تنازلوا وأكرموها بالنزول فيها . وكان يجتهد لتطفر العبرات من عينيه حتى لا يحل الخراب بالبلاد أو يحيق به غضب الآلهة !

وأعيد إلى النمروذ التاج وشارات الملك ، ثم انطلق والأوريجاللو إلى قدس الأقداس حيث تمثال نانا ، فتقدم النمروذ وحمل تمثال الإلـٰه ، وخرج والأوريجاللو إلى حيث ينتظر الوزراء والقضاة ورجال الدولة والأعيان ، وكان هاران بينهم يشرئب بعنقه لتتبارك عيناه برؤية الإلـٰه .

خرج الملك والأوريجاللو يحملان بينهما محفة عليها تمثال نانا ، فإذا المكان يضج بالابتهالات :

— فليطل نانا العظيم فى عمرى .

يا رب الأرباب مشيئتك تطيل الحياة ، وتبسط الرجاء .

وراح هاران يبتهل :

ــ مولاى يا رب الأرباب ، يا من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ، خفف غضبك على إبراهيم واشرح صدره لمحبتك ، فإن كنت يا مولاى غاضبا عليه فلا تؤاخذنا بذنوبه ، ولا تعذبنا بآثامه . امنحنى يا مولاى الحياة أياما طويلة ، وضع الخوف من عظمة ألوهيتك فى قلب أبنائى ، واملأ نفوسهم بالحياة الكاملة .

وما خطر على قلب هاران أن ابنه لوطا كفر بآلهته جميعا ، وأنه أسلم وجهه لله رب العالمين .

وسار الملك والأوريجاللو يحملان نانا على المحفة وأصوات التهليل ترتفع من كل جانب ، وخرجا من المعبد إلى الساحة الواسعة فإذا الناس ينضمون إلى الموكب المقدس ، وألسنتهم تلهج بالحمد لإلـٰه القمر الذى يحمى مدينتهم .

وسار الموكب فى الطريق المقدس حتى وصل إلى المرفأ ، ويقع المرفأ على رأس قناة تدخل فيها السفن القادمة من البلاد البعيد تحمل إلى المعبد الذهب والفضة والأحجار الكريمة والبخور والغلال والمواشى والقرابين .

وكانت ترسو فى المرفأ السفينة المقدسة التى ستحمل الإلـٰه نانا إلى معبد الصلوات على الضفة الأخرى من نهر الفرات ، وكان ثم سفن تكاد تخفى سطح الماء ، فأهل أور جميعا وكل من وفد إليها من عباد إلـٰه القمر سيذهبون إلى معبد الصلوات ليؤدوا الطقوس المفروضة .

وبلغ الملك والأوريجاللو وبينهما الإلـٰه المرفأ ، فدخلوا السفية المقدسة والمغنون يرددون الأناشيد والناس يهتفون بالدعوات حتى لتكاد تبلغ السماء . ثم هرع الناس إلى السفن ، فما انسابت السفينة المقدسة على سطح الماء حتى انطلقت فى أثرها وهى تضج بالابتهالات .

وخلا المرفأ من الناس وبدا كأن ليس فى المدينة المقدسة أحد ، فقد ذهب الكهنة والموظفون والعاهرات المقدسات والناس جميعا إلى معبد الصلوات على الضفة الثانية من النهر المقدس .

وخرج إبراهيم من داره حذرا يترقب ، وكانت الشوارع المؤدية إلى المعبد قد خلت من الناس ، فوسع من خطوه حتى إذا بلغ الساحة الخارجية انسل إلى حيث تماثيل الآلهة وأمامها الأطعمة من خراف ونعاج وثيران ودجاج وبيض وفاكهة كثيرة .

ونظر إلى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر ، فرأى فى وسطهم كبيرهم مردوخ قائما بأذنيه الكبيرتين اللتين تدلان على الحكمة،وقد وضع أمامه طعام كثير وأوان فيها نبيذ وخمور ، وكان يحف به نانا وشماش وعشتار وأونو وإنليل وأيًا والبعول الآخرون ، ووضعت على عروشهم الإلـٰهية أرغفة الخبز ، وأمامهم أطعمة وأشربة كثيرة .

ورماهم إبراهيم بنظرة ساخرة وقال لهم :

ــ ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟

وتناول فأسا وراح يضرب الآلهة ويحطمهم رائحا عليهم باليمين حتى جعلهم جذاذا ، إلا كبيرهم مردوخ فقد علق الفأس بإحدى أذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة !

وانسل من المعبد فى هدوء وقد تهلل قلبه بالفرح ، فقد حطم أصنامهم وبر بقسمه بعد أن ولَّوا مدبرين .

١٥

وانتهت مراسيم العيد وعادت السفن تتهادى على النهر ، السفينة المقدسة وبها النمروذ والأوريجاللو وتمثال نانا المصنوع من الذهب الخالص ، وفى أثرها السفن الأخرى وقد فاضت أفئدة من فيها بالسرور وسكنتها طمأنينة عجيبة ، بعد أن أقيمت الصلوات وقدمت القرابين واحترقت الخطايا فزكت النفوس ، كما تحترق أعواد البخور فيعبق المكان بعبير يشرح الصدور .

ورست السفن عند مرفأ المعبد ، وغادر النمروذ والأوريجاللو السفينة المقدسه يحملان بينهما محفة عليها تمثال الإلـٰه ، وسار الوزراء ورجال القصر وقواد الجيش ورجال الدولة خلف الملك والإلـٰه ، وسار الكهنة على جانبى المحفة برءوسهم وذقونهم الحليقة وملابسهم البيضاء . وانسابت ألحان المزامير والأبواق والدفوف والطبول والصنوج ، وارتفعت أصوات المغنيات يرحبن بعودة الإلـٰه إلى قدس الأقداس ، إلى معبده الذى تنازل وقبل أن ينزل فيه ليحمى مدينته المقدسة أور الكدانيين .

شمل الفرح الجميع إذ حالف التوفيق كل الطقوس التى أجريت أيام العيد ، فذرف النمروذ الدموع لما ركع أمام تمثال نانا وكان هذا بشيرا برضى الآلهة عن أور وأهلها ، وغمرت الأنوار معبد الصلوات ، وتلألأ سنا الإلـٰه القمر فى كبد السماء ، وكانت السماء صافية ولم تجرؤ سحابة أن تخفى وجه الإلـٰه عن عبيده فى ليلة عيده!

وقابل آزر ابنه هاران فتهلل فرحا وضمه إلى صدره وقال له :

ـــ فليطل الإلٰه نانا فى عمرك يا بنى .

وانطلق الأب والابن إلى المعبد مع المنطلقين ، وهما يرددان الابتهالات والدعوات فى إيمان عميق وخشوع يليق بمقام الإلٰهين العظيمين : نمروذ الملك الإلٰه ، ونانا الإلٰه الأعظم الذى زين الدنيا بولديه شماش وعشتار !

وسار الركب فى الطريق المقدس ، عادت العاهرات المقدسات يتخذن أماكنهن على جانبى الطريق يمارسن تضحياتهن بتقديم أجسادهن قربانا لعشتار .

ودخل النمروذ والأوريجاللو يحملان محفة الإلٰه إلى المعبد ، وإذا بمنظر ما كان يخطر على بالهما يفاجئهما ويكاد يذهب بصوابهما ، فقد أصبحت تماثيل الآلهة كلها جذاذا إلا تمثال مردوخ فقد ظل سليما كعهدهم به ، إلا أن فأسا علقت بإحدى أذنيه اللتين ترمزان إلى الحكمة .

ورأى الناس ما حل بآلهتهم فامتلأت قلوبهم بالحنق والغيظ ، وكان أكثر الناس حنقا الأوريجاللو والكهنة والكاهنات وموظفو المعبد ، فما حل بآلهتهم إنما ينذر بزوال سلطانهم وانقطاع سيل الهدايا المتدفق على مخازن الآلهة .

وفطنوا فى مثل لمح البصر إلى أن ما حدث إنما يهددهم فى أرزاقهم ؛ ويمنع تدفق الذهب والفضة والثياب والغنم والماشية والقمح والشعير والبلح والتين وكل الطيبات إلى مخازن المعبد . كانوا أكثر الناس علما بأن الآلهة لا يأكلون شيئا مما يساق إلى معابدهم . وإنما كل هذه الخيرات توزع عليهم هم أنفسهم ، وتحمل إلى بيوتهم وضياعهم .

خافوا أن ينضب ذلك الكنز الثمين ، أن يذهب سلطانهم الذى يمكنهم من

أن يسترقوا الناس ويسرقوهم ، فكانت ثورتهم عارمة فصاحوا مزمجرين :

ـــ من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين .

ونظر آزر إلى هاران وهو يشعر بالقلق ، وإذا ما ارتسم على وجه ابنه يؤكد مخاوفه ، فاشتد وجيب قلبه وراح يتلفت ويقلب وجهه فى وجوه الغاضبين الموتورين .

وقال النمروذ فى غضب وقد أحزنه أن تمثاله تحطم مع ما تحطم من التماثيل :

ـــ لا بد أن أعرف من فعل هذا بآلهتنا .

وتقدم بعض الناس وقالوا وهم يسجدون :

ـــ أيها الملك المعظم .. سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

ونظر هاران إلى أبيه فوجده يترنح ، فلف ذراعه حوله وراح يعاونه على أن يشق طريقه بين الجموع الثائرة التى كانت تتوعد إبراهيم بالويل والثبور .

وقال النمروذ :

ـــ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

وانطلق الجنود إلى بيت إبراهيم وفى أثرهم آزر وهاران . وكان آزر يشفق على ابنه الذى ألقى بيديه إلى التهلكة لما تحدى السادة البعول ، وسخر من كبيرهم مردوخ إلـٰه الآلهة ورب الأرباب . وكان هاران يعتب على أخيه الذى لم يستمع إلى نصحه ، ولو فعل وخرج معهم لرضيت عنه الآلهة وأطالت فى عمره ، ولما كتب عليه مردوخ الخراب .

وأيقن هاران أن أخاه لا محالة هالك ، وأن ربه الذى كان يدعوهم للإيمان به لن يستطيع أن ينجيه من النمروذ وجنوده ، ومن الشعب الثائر الذى يطالب برأسه .

وقبض الجنود على إبراهيم وارتسم على وجه سارة الهلع ، ورأى لوط ما نزل بامرأة عمه الحبيب فدنا منها وقال :

ـــ أتعلمين أن إبراهيم مرسل من ربه ؟

ـــ نعم .

ـــ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، إن ربه لن يتخلى عنه .

وانطلق الجنود بإبراهيم وآزر وهاران ولوط وناحور وأهل بيتهم ، والناس من حولهم يزمجرون .

ورأى أحد الكهنة إبراهيم وهو بين الجنود فهجم عليه وهو يصيح :

ـــ انصروا آلهتكم .

وأراد الناس أن يفتكوا به إلا أن الجنود حالوا بينهم وبينه . وراح لوط يدعو الله قائلا :

ـــ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا نجنا من القوم الظالمين.

وألقى إبراهيم فى السجن حتى تحين محاكمته على أعين الناس .

* * *

وانعقدت المحكمة فى ساحة المعبد وكان يرأسها قاضيان وإحدى كاهنات معبد نانا . وجلس النمروذ يحف به وزراؤه ورجال الدين ورجال الدولة ، وعن يمين المحكمة جلس الشهود ، وعن يسارها المحكمون وكانوا من الرجال والنساء وشيوخ المدينة .

وجىء بإبراهيم من سجنه ، ونادى القاضى على الشاهد الأول فمثل أمام المحكمة ، وقال له القاضى :

ـــ أقسم أن تقول الحق ..

ـــ أقسم بمردوخ العظيم إلـٰه العدل أن أقول الحق ...

ـــ أتعلم أنه لو ثبت عليك الكذب بعد أداء اليمين لحكم عليك بالموت ؟

ـــ أعلم .

ـــ حسن . قل لنا ما تعلم عن تحطيم آلهتنا . أرأيت إبراهيم وهو يحطمها ؟

ـــ لا ، ولكن فى أحد الأيام إذ كنت فى المعبد جاء إبراهيم وقال لنا : « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ؟ قلنا له : « وجدنا آباءنا لها عابدين » قال: « لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » .

وأخذ الشهود يلقون بشهاداتهم ، وسارة ولوط وإيمتالى وآزر وناحور وهاران الكبير يصغون ، وهم جميعا وجلون ، إيمتالى وآزر فى كرب شديد ، وهاران وناحور وأزواجهما وأولادهما غلب عليهم اليأس ، أما سارة ولوط فكادا ينوءان لولا أن ربط الله على قلبيهما .

ونودى على إبراهيم فقام مهيبا وتقدم رافع الرأس ثابت الخطو ، حتى إن النمروذ اعتدل ولاح فى وجهه الاهتمام الشديد .

وقال القاضى الجالس فى الوسط :

ـــ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

فأشار إبراهيم إلى مردوخ وقال :

ـــ بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون .

ورجع المحلفون إلى أنفسهم وراحوا يتشاورون فقال أحدهم :

ـــ لقد صدق ، إن مردوخ رب الأرباب وإلـٰه الآلهة وخالق الناس كره أن يعبد معه غيره ففعل ما فعل . إن ما حدث إن هو إلا نذير منه ، آية من آياته ، دعوة إلى عبادته وحده .

وقال آخر :

ــ وهل نعبد إلا إياه ؟ ما الآلهة الأخرى إلا ظل له .

ــ إن ما يقوله إبراهيم حق .

ــ إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رءوسهم :

ــ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال :

ــ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟

وأرسل النمروذ فى طلبه فسار إليه جليلا مهيبا ، حتى إذا بلغ النمروذ وقف منتصب القامة و لم يخر ساجدا .

وسرت همهمة بين الوزراء ورجال الدولة ورجال الدين والناس أجمعين ، وانتاب آزر وإيمتالى الهلع ، وأحس هاران وناحور وأزواجهما وأولادهما الخزى ، بيد أن لوطا وسارة أحسا شيئا من الاعتزاز وإن غلف الحزن قلبيهما .

وكتم النمروذ غيظه وقال :

ــ من ربك الذى تدعو إليه ؟

ــ رب السموات والأرض وما بينهما ، فاعبده واصطبر لعبادته .

وقال كبير الوزراء فى إنكار :

ــ إله غير النمروذ ؟ إنه رب السموات والأرض وما بينهما ، إنه إلهنا العظيم .

ووجه النمروذ الخطاب إلى إبراهيم :

ـــ لماذا لا تعبد ما يعبد قومك ؟

ـــ لقد رأيت النار تلتهم آلهتكم ، فكيف أعبد ما تأكله النار ؟

ـــ فلماذا لا تعبد النار ؟

ـــ أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها .

ـــ فاعبد الماء إذن .

ـــ أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله .

ـــ إذن تعبد السحاب .

ـــ أولى من عبادة السحاب أن أعبد الريح التى تبدده وتسير به من فضاء إلى فضاء .

ـــ فما بالك لا تعبد الريح ؟

ـــ إن الإنسان يحتويها بأنفاسه ، فهو إذن أحق منها بالعبادة .

وحاج النمروذ إبراهيم فى ربه وقال :

ـــ إن كنت فى ريبة من أنى ربك ، فقل لى من ربك ؟

قال إبراهيم :

ـــ ربى الذى يحيى ويميت .

فقال النمروذ :

ـــ أنا أحيى وأميت .

فسأله إبراهيم :

ـــ كيف تحيى وتميت ؟

قال :

ـــ آخذ الرجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما فأكون قد

أمته ، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته .

قال إبراهيم :

ــ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب .

فبهت الذى كفر ، وساد الصمت ، وأخذ آزر ينظر إلى إيمتالى فى يأس فقد حكم إبراهيم على نفسه بالموت ؛ تحدى الآلهة وجعل الأصنام جذاذا وألزم الحجة الملك الإلـٰه .

والتقت عينا سارة بعينى لوط ، كان فى أعينهما أسى بيد أنها التمعت ببريق الانتصار .

إن إبراهيم وهو فى محنته ينصر ربه ، وما كان ربه ليتخلى عمن ينصره .

وعاد المحلفون يتشاورون . لقد كفر إبراهيم بآلهة آبائه وسخر منهم لما أشار إلى مردوخ وقال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . و لم يكتف بذلك بل تطاول على النمروذ الملك الإلـٰه . وقر رأيهم على أمر فقالوا :

ــ احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وانهارت إيمتالى وبكى آزر ، وخف هاران الكبير يشد أزر أخيه ويواسيه ، وعلا الإظلام وجه هاران الصغير فقد لطخ أخوه إبراهيم أسرته بالعار وأتى بما لم يأت به أحد من قومه من قبل .

وجاء الجنود فأخذوا إبراهيم وعادوا به إلى السجن ، وانصرفت سارة وهى تكاد تموت كمدا ، وسار إلى جوارها لوط وهو حزين ولكنه لم يقنط من رحمة ربه ، فكان يرفع عينيه إلى السماء ويدعو الله سرا أن أدخل رسولك فى رحمتك ، فإنك يا رب لا تضيع أجر المحسنين .

١٦

عكف النحاتون على صنع أصنام للآلهة بدل الأصنام التى جعلها إبراهيم جذاذا ، وكانوا يعملون ليل نهار خشية أن تنزل عليهم الآلهة كسفا من السماء أو يحيق بهم غضبها .

وراح السحرة والكهان يقيمون المراسيم فى معبد الإلـٰه نانا إلـٰه القمر ، ويحضون على تقديم القرابين حتى ترضى الآلهة ويذهب عنها غضبها الذى أثاره إبراهيم بما فعل .

ودأب فرق المغنين والمغنيات على ترديد الأناشيد ، ولم تنقطع الصلوات آناء الليل وأطراف النهار ، ودبت الحياة فى مطبخ المعبد ، فقد زادت القرابين على ما كان يتصور حتى بلغ نصيب كل فتاة من بنات الهوى ضلع خروف .

وتقدم الرجال والنساء إلى تمثال مردوخ فى خشوع وركعوا له ، وراح كل واحد منهم يناجيه :

إلـٰهى أنا برىء مما فعل إبراهيم .

يارب الأرباب لئن عافيتنى لأجمعن حطبا لإبراهيم .

يا إلـٰه الحكمة يا إلـٰه العدل يا خالق البشر ، أطل فى أيامى على الأرض حتى أثأر لعزتك وأنصرك وأنتقم لك ممن سخر من جلالك على أعين الناس .

وذهبوا إلى التماثيل التى راغ عليها إبراهيم باليمين وأخذوا يناجونها وقد فاضت أعينهم بالدموع :

أيها الآلهة العظام لئن نال ذلك الجاحد بكم من تماثيلكم ،
إن نجومكم عالية فى السماء تبزغ علينا بنورها وترسل إلينا رحمتها .
أيها الآلهة العظام فى السماء ، لا تحملوا فى قلوبكم
المقدسة غضبا علينا ، فقد أقسمنا لننصرنكم ولنحرقن من فعل بكم ما
أوجع قلوبنا وطعننا فى أعز مقدساتنا .
أيها الأرباب قروا عينا فساعة الانتقام دنت ، ولنجمعن له حطبا ما جمع
لأحد قبله ولن يجمع لأحد بعده .
أيها الآلهة العالية فى السماء ، إن النار لن تبرد فى
صدورنا حتى تلتهم ألسنة النار ذلك الذى اعتدى عليكم
دون أن يخشى بطشكم ،وغاب عنه أنكم ستثأرون منه بأيدينا .
شكرا لكم أيها الأرباب أن جعلتم أيدينا هى العليا و لم تمكنوه أن يفر منا .
شكرا لكم أيها الأرباب أن كشفتم لنا مشيئتكم على الأرض ، ومشيئتكم
فى السماء مشرقة .

وجاء آزر يمشى على استحياء يحمل تماثيل الآلهة التى صنعها ويتلفت فى خوف . لقد كانت خشيته من الناس أشد من خشيته من الآلهة ، وإن كان يحاول أن يقنع نفسه أن مردوخ وحده هو الذى يستطيع أن يكتب عليه الخراب .

وكان ذابلا حزينا فسيلقى بابنه فى النار بما كسبت يداه ، وهو لا يقر إبراهيم على ما فعل ولكنه ابنه ، فلذة كبده ، فلئن كان حنق عليه لتسفيه آلهتهم، إنه بضعة منه يؤذيه ما يؤذيه .

وكان ذابلا حزينا لأن نظرت الناس إليه فيها عداوة وتحقير . إنه مثلهم

يؤمن بآلهة آبائه ، وقد يكون أشد منهم تعصبا لها ، ولكن ما فعله إبراهيم جعله هدفا لسخريتهم ولزراية الناس أينما سلك فى شوارع أور . وتعرفت عليه إحدى عاهرات المعبد وكانت تشترى منه تماثيل عشتار لتبيعها لمن يعاونونها على تقديم جسدها قربانا إلى إلـٰهة اللذة العطوف ، فقامت إليه . ورآها آزر وهى تقبل نحوه فاغتصب ابتسامة ، فلو أنها اشترت منه تمثالا لقضت على المقاطعة التى فرضها عليه قومه دون ذنب جناه إلا أن يكون إنجابه لإبراهيم ذنبا لا يغتفر .

وأصبحت العاهرة أمامه وجها لوجه ، وكانت باسرة الوجه يشع من عينيها الغضب ، فنظرت إليه شزرا وبصقت على وجهه ، فأطرق آزر فى أسى وتدلت يداه بتماثيله وانسحب من المعبد وهو حزين ، يفكر فى البلاء الذى نزل به مذ جاءهم إبراهيم يدعوهم إلى إلـٰهه ، ويعيب آلهتهم ويحطم أصنامهم .

ولو اقتصر الأمر على مقاطعة الناس للتماثيل التى يصنعها لهان الأمر ، فهو يستطيع أن يعيش من الأرباح التى يحصل عليها من تجارته هو ولوجال ، أو من الفوائد التى يقدرها القانون بعشرين فى المائة على القروض التى يقرضها الناس ، ولكن الأمر أبعد من الخبز وحاجات الجسد ، إنه العداوة القاسية التى انطوت عليها قلوب الناس .

* * *

وراح البناءون يبنون بنيانا ضخما لتوقد فيه النار التى سيلقى فيها إبراهيم ، وكان الناس كلما مروا بهم باركوهم وحثوهم على العمل ليطفئوا بالنار نار الحقد التى اشتعلت فى صدورهم . ولما تم البنيان أقبل الرجال والنساء شيوخا وشبانا والكهنة والكاهنات وبنات الهوى ، أقبلوا من كل فج يحملون صلاب

الحطب من أصناف الخشب ليوفوا نذورهم التى نذورها للآلهة .

ثم أشعلوا النار فى كل ناحية من الحطب فاندلعت ألسنة اللهب إلى السماء ، حتى كان الطير من شدة وهجها وحرها يحترق إذا مر بها . وصارت النار جحيما تشوى وجوه من يدنون منها ، فأخذ الناس يتشاورون فيما يفعلون ليلقوا بإبراهيم فى ذلك الأتون دون أن يصابوا هم بسوء . فاهتدوا إلى أن يصنعوا منجنيقا يقذفونه به فى الجحيم .

وجاء الملأ ينظرون ، وجاءت سارة ولوط وآزر وإيمتالى وهاران وناحور وقومهم،وجاء النمروذ ووزراؤه وجلسوا على البعد ينظرون،وكان العرق يتفصد من وجوههم ، فإن لفح النار كان يسرى فى جنبات أور ، وكان الدخان يحجب المعبد والبرج المدرج وجبال مغير .

وجىء بإبراهيم من سجنه فضج المكان بهتافات السخط والوعيد ، وتعلقت به عيون إيمتالى وآزر وإخوته وفاضت من عيونهم الدموع ، وخفق قلب سارة وتشبثت بلوط أن تنهار .

ورفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال :

ـــ اللهم أنت الواحد فى السماء والأرض ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى . لا إلـٰه إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .

وكانت سارة قد آمنت برب إبراهيم ، وكان لوط قد تلقى عن عمه تعاليم دينه ، ولكن أحدا منهما لم يكن يعبد الله بعد عبادة إبراهيم إياه .

ووضع إبراهيم فى المنجنيق وأطلق فى الهواء فوقع فى الجحيم ، وارتفعت صيحات الفرح تشق عنان السماء ، وضاعت فيها أنات الأسى التى انطلقت

من قلوب إيمتالى وآزر وسارة ولوط .

ومرت الساعات وألسنة النار تتراقص ، ثم أخذت تخفت رويدا رويدا .

واقترب رجل من الجحيم ينظر فصاح فى فزع :

ـــ رأيت إبراهيم حيا فى النار .. رأيت إبراهيم حيا فى النار ..

وسرت الصيحة بين الناس سريان النار فى الهشيم ، وتجاوبوها فى دهشة حتى بلغت النمروذ .

وضمت سارة لوطا إلى صدرها فى فرح ، وصاح لوط وهزه السرور :

ـــ إنها آية .. آية من ربه .

وقام النمروذ فركب عربته وانطلق فى أثره رجال دولته ، كان فى طريقه إلى برج إلـٰهه نانا ليرى من فوقه حقيقة ذلك النبأ الذى انتشر بين الناس .

وبلغ النمروذ قمة البرج ونظر فإذا إبراهيم قاعدا فى النار حيا ، فذهل ، إنه لا يصدق ما يرى فإن النار التى أججت كانت تكفى لتأتى على أهل أور جميعا .

وسمع أخوه هاران ما ذاع بين الناس فلم يفرح . فإنه إن كان ما قيل حقا فهذا دليل على قدرة إلـٰه إبراهيم إذ نجاه من نار كانت تشوى الطير التى تمر بها ، وإنه لمما يثير حنقه أن يفعل إلـٰه إبراهيم ما لا يقدر آلهته على فعله .

وخرج إبراهيم من النار ولم تحرق إلا وثاقه ، وصاحت سارة من الفرح وقال لوط فى ابتهاج :

ـــ كانوا يسألونه أن يأتى بآية ليصدقوه ، وها هى ذى أعظم آية ، إنهم سيؤمنون . ليؤمنُنَّ جميعا .

وانطلقت إيمتالى نحو إبراهيم تصيح وتغسل الدموع وجهها :

ـــ ابنى .. ابنى الحبيب .

إلا أن الجنود حالوا بينها وبينه إذ كان فى طريقه إلى النمروذ .

وذهب إلى حيث كان النمروذ مرفوع الرأس ثابت الجنان يردد ما كان يقوله وهو فى النار : « حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل » وقد هانت فى عينيه قوى الأرض جميعا بعد أن رأى قدرة الله . إنه يسير وروح القدس معه أينما سار ، وتخفق بين جنبيه قوة روحية هائلة ، قوة تيسر له أن يتحدى جبارى الأرض أجمعين .

وراح النمروذ الملك الإلٰه الذى يخر الناس سجدا تحت قدميه يقلب نظره فيه وهو مشدوه ، وقد تقاصرت نفسه بعد أن هبت عليه ريح الخوف ، فذلك الخارج من النار عليه مهابة وجلال وإشراق تعنو لها الجباه .

ولم يفرخ روع النمروذ وراح يرقب إبراهيم وهو مأخوذ ثم قال :

ـــ ما أعظم ربك يا إبراهيم ؟ كيف خرجت سالما من هذا الجحيم .

ـــ أوحى إلى ربى أنه قال : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، فكانت كما أمرها ربى .

وخشى الكهان أن يؤمن النمروذ بإلٰه إبراهيم فتذهب ريحهم ويمحق سلطانهم فقالوا :

ـــ خرج منها بسحره . هذا سحر مستمر .

ولم يأبه النمروذ بما قالوا فقد رأى آية لا يستطيع أن ينكرها فقال :

ـــ نعم الرب ربك يا إبراهيم . إنى دابح له أربعة آلاف بقرة .

ـــ إذا لا يقبل الله منك ما دمت على شىء من دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى .

— يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكى ، ولكنى سوف أذبحها له .

وورمت أنوف الأوريجاللو ورجال الدين فقالوا :

— هذا سحر..سحر مستمر.. سحر مبين، مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وصاح صائح منهم :

— انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وتحركوا ليفتكوا بإبراهيم ، فأشار النمروذ بيده أن قفوا وقال :

— اتركوه .

وكفروا بآية الله وأعرضوا عنها وراحوا يؤكدون أن إبراهيم ما خرج من النار إلا بسحره المبين .

وذهب لوط إلى أبيه هاران وقال :

— أبى ! آمن بما أنزل إلى إبراهيم من ربه .

والتفت إلى آزر وإيمتالى وعمه ناحور وقال :

— قولوا آمنا بالله وما أنزل إلي إبراهيم .

فقال هاران فى كبرياء :

— لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى.

وانصرف هاران وهو يزفر نار الحقد التى تأكل صدره ، وقد استولت عليه فكرة أنه إذا كان إلـه إبراهيم قادرا على أن بنجيه من النار ، فإن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما على هاران .

وانطلق إلى المعبد وهو محموم بعد أن اغتسل وتطهر . وذهب إلى صنم مردوخ وراح يصلى فى حرارة ويبتهل إليه أن يأمر النار أن تكون بردا وسلاما

عليه كما أمرها رب إبراهيم فكانت بردا وسلاما عليه .

وظل يبتهل إلى الآلهة جميعا لا يرقأ له دمع ويقول فى حرارة :

— أيها الآلهة ، أيها السادة البعول ، امنحونى مثل ما منح إلـٰه إبراهيم أخى .. اجعلوا النار بردا وسلاما علىّ كما كانت بردا وسلاما على أخى .. أيها السادة البعول لتكن مشيئتكم فى الأرض مشرقة كما هى فى السماء مشرقة .

وخرج هاران من المعبد وقد استولت عليه الفكرة وملكت كل حواسه ، كان يريد أن يعلن فى الملأ أنه سيدخل النار ويخرج منها سالما بإذن آلهته ، ليؤكد لضعاف الإيمان أن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما عليه كما جعل رب إبراهيم النار بردا وسلاما على أخيه ، بيد أنه آثر أن يقوم بالتجربة وحده بعيدا عن العيون قبل أن يعلن على الملأ ذلك الامتحان .

وفى جنح الليل سلك طريقا قفرا ، وكان القمر يسطع فأحس راحه فإن إلـٰهه معه يبارك ما هو مقدم عليه .

وجمع هاران حطبا وأشعل فيه النار ثم ألقى بنفسه فيها . فلسعته النار فصرخ وخرج منها يعدو ويصرخ فى فزع ، ثم سقط على الأرض يتلوى ويئن حتى فاضت روحه .. ونور القمر يغمر جثته التى همدت .

١٧

جلس آزر مطرقا حزينا بعد أن أنزل به مردوخ الخراب ، جلس يزفر حسرة على ابنه هاران الذى أراد أن يؤتى ما أوتى أخوه إبراهيم فراح يمتحن قدرة آلهته ، فراح طعمة النيران .

لم تطل أيام ابنه هاران على الأرض بل ذهب إلى العالم السفلى إلى الأرض التى لا رجعة منها . ولم تحتمل إيمتالى العجوز قسوة القدر فماتت حزنا على ابنها ، وذهبت إلى العالم السفلى وتركته وحده يعيش على الذكريات ، ويقاسى مرارة الوحدة التى اشتدت وطأتها عليه لما أصر قومه على مقاطعته ولإبداء العداوة له .

لقد نبذه الناس لأن ابنه إبراهيم كفر بالآلهة وحطم أصنامها ، نبذوه لأن ابنه سخر من الآلهة جميعا على أعينهم . ولم يذكر الذين ظلموه أن ابنه الآخر هاران ضحى بنفسه ليدلل على قدرة آلهتهم ، وأنه كان أكثرهم إيمانا بالسادة البعول الكرام .

ونسى آزر ولم يخطر على باله أن كهان أور ورجال الدين فيها حقدوا على هاران حقدهم على أخيه . فقد خرج إبراهيم من النار معلنا على رءوس الأشهاد قدرة إلـهه التى ما كانت تخطر على قلب بشر ، بينا تردى هاران فى النار فجاء بدليل مبين على عجز آلهتهم وهوان أمرها .

قال الكهان إن بيت آزر حلت به اللعنات ، وأن هاران احترق بسبب هذه

اللعنات ، وأن الآلهة أبت أن تمد أيديها إلى هاران لأنه تدنس بدعوة إبراهيم فتركت النار تلتهمه و لم تأمرها أن تكون بردا وسلاما عليه .

وصدق الناس هذه الدعوى حتى آزر نفسه صدقها ، ألم يحترق هاران ؟ ألم تمت إيمتالى حزنا عليه ؟ لقد تجلت قدرة مردوخ إذ كتب عليه الخراب ! وسكن الناس إلى ما يدعيه الكهان و لم يطلبوا منهم أن يلقوا بأنفسهم فى الجحيم وأن يخرجوا منها سالمين بسلطان آلهتهم أو بسحر مستمر ، وهم الأطهار الأبرار الذين لم تحل عليهم اللعنات بسبب دعوة إبراهيم .

وبات آزر نهبا لأفكاره مذ مات هاران وحملت إيمتالى على الأعناق . كان يرتجف من غضب آلهته فإن إبراهيم ما يزال على عداوته لهم ، بل وزادت عداوته ضراوة بعد أن خرج سالما من النار التى ألقوه فيها .

وقد أعلنت سارة ابنة أخيه إيمانها برب إبراهيم وصارت تقضى نهارها وليلها فى المحراب تدعو ربها بصوتها الرخيم حتى خشى الجيران أن تفتن أبناءهم . وآمن له لوط على الرغم من أن أباه مات فى سبيل إعلاء كلمة آلهته . وآمن المستضعفون من الناس سرا بما جاء به إبراهيم ، ترى ماذا يحيق به من خراب بعد ما حل به ؟ وماذا تفعل الآلهة به أيضا لتعلن عن غضبها ؟

كان آزر كالغريق الذى يجاهد ليتشبث بأى شىء ، لم يجد أمامه إلا أن يظهر الخضوع لآلهته وأن يفعل ما يسكن غضبها . فكر أن يخرج إلى المعبد وأن يقدم القرابين للآلهة حتى ترضى ، ولكنه تذكر العداوة التى يستقبل بها كلما انطلق إلى المعبد فارتعدت فرائصه . إن تحقير الناس إياه أليم لا يطاق حتى ولو كان فى سبيل الآلهة !

فلم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى معبده الخاص يبكى وينتحب للآلهة عسى

أن ترق له وتعفو عنه . فدخل المحراب وركع خاشعا لمردوخ وبانا وشماش وعشتار وإنليل وأنو وأيا وكل من يعرف ومن لا يعرف من الآلهة ، وانبعثت الصلاة من قلبه حارة والابتهالات مجلجلة .

وعكف على صلاته وبكائه ودعواته حتى نال منه الجهد .

كان يرجو أن يدرأ غضب الآلهة بصلاته ونسكه ، أن يرفعوا عنه مقتهم وغضبهم ، أن يدعوا أيامه الباقية على الأرض تنقضى بسلام وكفاه ما قاسى من موت العزيزين هاران وإيمتالى !

وجاء إبراهيم يسعى إليه فهو مذ مات هاران وأمه لا يفارق أباه بل يؤنسه فى وحدته ويبره ويخفض له جناح الذل من الرحمة ولا يقول له إلا قولا معروفا .

وبقى إبراهيم مع أبيه إلى أن صعد إلى غرفته لينام ، فخرج إلى ملكوت الله يفكر ويتدبر آياته ، ويحس ذلك التناغم بينه وبين الكون الذى يحسه كلما خرج إلى الخلاء .

وتذكر ما كان بينه وبين جده ناحور إلى أن مات ، وما كان بينه وبين أخيه هاران حتى ذهب إلى الله ، وما كان بينه وبين أمه حتى فاضت روحها بين يديه .

مات ناحور وهاران وإيمتالى . مات جده وأخوه وأمه ، وسيلحق بهم حين يأذن الله أبوه وزوجه ، ثم يكون يوم يذهب فيه هو نفسه إلى الرفيق الأعلى ، كل الناس يذوقون الموت .

الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ البعث ! فالموتى يبعثهم الله وإليه يرجعون . سيجىء يوم يبعث الله فيه الناس جميعا فينبئهم بما عملوا ، فقد أوحى الله إليه

أن « ما خَلق الناس ولا بعثهم إلا كنفس واحدة » .

لقد آمن بما أوحى الله إليه ، آمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت وأنه قادر على أن يحيى العظام وهى رميم . وأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، فراح يسبح باسم ربه الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، فأحس أن الكون كله يسبح معه الله ويقدس له .

واتسعت الرؤية أمام بصيرته ، واجتازت روحه حدود نفسه فإذا بها تتحد فى روح الكون وتتسق مع حولها ، وترهف السمع لما يلقى فيها ، لما يوحى إليها . فذكِّر إن نفعت الذكرى ، سيذكَّر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى .

وامتلأت نفسه بالأنس إذ يناجى ربه ويتلقى منه ما يوحى إليه ، فقال :

— رب أرنى كيف تحيى الموتى .

قال :

— أو لم تؤمن ؟

قال :

— بلى ، ولكن ليطمئن قلبى .

قال :

— فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا .

وأخذ إبراهيم أربعة من الطير ، وانطلق إلى جبل مغير فذبحها وقطع كلا

منها أربعة أجزاء ، ثم جعل كل جبل من الجبال جزءا وعاد إلى الوادى ودعا الطير باسم الله ، فإذا بها تأتى إليه سعيا ترفرف بأجنحتها فى الهواء . فتهلل قلب إبراهيم بالفرح ، لم ير كيف نفخت الروح فى أشلاء الطير ، ولكنه رأى أثر القدرة ، فما كانت جبال مغير إذا تجلى لها الله لتستقر فى مكانها .

واطمأن قلب إبراهيم وزاده الله إيمانا على إيمان ، فانطلق وقد أشرق النور فى روحه يذكّر الناس إن نفعت الذكرى ويقول لهم : قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، وأن الله عزيز حكيم .

وعاد إلى من آمنوا يبصرهم فى أمر دينهم ، ويبلغهم ما أوحى إليه ويقول لهم :

ـــ على العاقل ، ما لم يكن مغلوبا على عقله ، أن يكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاده ، أو فرقة لمعاشه ، أو لذة فى غير محرم .

وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه، حافظا للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

وكان يذهب إلى المعبد وإلى الأسواق يدعو الناس إلى الله ، كانوا من قبل يقولون : لو يأتينا بآية من ربه وقد جاءتهم الآية ظاهرة باهرة ، ولكن الكهنة طمسوا عقولهم وأوهموهم أن ما حدث إن هو إلا سحر مستمر ، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟

وكان إبراهيم أواها حليما تنهمر دموعه إذا ابتهل إلى الله ، ولكنه ما كان يدعو الله قط أن يأخذ قومه بذنوبهم ، بل كان يستغفر لهم ويلتمس لهم المعاذير .

واتخذه قومه هزؤا وسخروا منه ، ولما ضاقوا به أخذوا يأتمرون به ليقتلوه أو ليخرجوه من ديارهم . وكان الكهنة ورجال الدين أشد الناس عداوة له ، وما كانت عداوتهم له غيرة على آلهتهم وما نالها من تحقير ، بل كانت خوفا على سلطانهم وأن يجف نهر الخيرات المتدفق إلى خزائنهم ومخازنهم ودورهم وضياعهم .

وجاءه وفد منهم وقالوا له :

ـــ اخرج من ديارنا .

فقال فى ثبات :

ـــ لا أفعل حتى يأمرنى ربى .

فقالوا فى غيظ شديد :

ـــ لتخرجن أو لنقتلنك .

ـــ لن أخرج إلا أن يأمرنى ربى .

وأوحى الله إليه أن اخرج من البلدة الظالم أهلها ، فراح يتأهب للهجرة ويجمع عبيده ومواشيه ، وبلغ آزر أن إبراهيم خارج من أور فذهب إليه يطلب منه أن يحمله معه ، فلم يعد يطيق الوحدة التى يحياها ولا عداوة قومه ولا نظرات الاحتقار والزراية التى تصوب إليه كلما سلك طريقا من طرقات أور .

وراح لوط يتأهب للخروج مع عمه، فتشبثت به أمه وتوسلت إليه أن يبقى معها بعد أن ذهب أبوه إلى الأرض التى لا رجعة منها ، ولكنه رفض طلبها وقال فى إيمان عميق :

— إنى مهاجر إلى ربى وهو العزيز الحكيم .

١٨

انطلقت قافلة الإيمان فى رحاب الله ، مخلفة وراءها أور الكدانيين بطرقاتها ومبانيها وبرجها العظيم الذى علا فى السماء يخلد عظمة البشر ويشدهم إلى الأرض ، ولا يحلق بهم فى رحاب السماء .

وانساب المؤمنون على ضفة الفرات ، وكانت الحقول تمتد إلى مدى البصر إلى الآفاق البعيدة المغلفة بالمجهول ، وكان النهر يتدفق بنعمة الله وصوت خريره فى أرواح المؤمنين تسبيح ، وكانت السماء صاحية والشمس ترسل أشعتها الحارة فيتفصد العرق من الجباه وتهن الأجساد من التعب ، ولكن إشراقة النور التى تعمر القلوب كانت تحوّل كل مشقة إلى رضا وحبور ، فقد كانوا جميعا منطلقين فى سبيل الله .. إلا آزر فقد خرج فرارا من الزراية والاحتقار ونظرات العداوة التى تطل من عيون الناس ..

كان إبراهيم يسرى فى ملكوت الله سريان الروح القوية المؤمنة ؛ وكانت سارة تتألق فى جمالها الذى يبهر العيون وقد أضفى عليها إيمانها جلالا يفوق كل جمال ؛ وكان لوط شابا قويا ، ولكن القوة التى أمده الله بها بعد أن أسلم له وجهه تفوق كل قوة فهى قوة الروح التى تأتى بما يعجز عنه البشر ، وكان العبيد الذين آمنوا يستشعرون من العزة والحرية بما لم ينعم به الأحرار ، فلم يعد رجاؤهم مشدودا إلى الأرض به ارتفع وسما إلى ما فوق السموات .

وأقبل الليل وخفت حرارة النهار وهبت نسائم ندية أنعشت النفوس

والقافلة تجد فى السير . وما زال الناس فى سيرهم حتى أشرقت الشمس فنزلوا عن رواحلهم ونصبوا الخيام وأسلموا أجسامهم للرقاد . ناموا ملء عيونهم وما فكر أحدهم فى الدار التى غادرها ولا فى الفراش الوثير الذى هجره ، فقد أقام كل منهم فى قلبه بيتا لله ، بيتا لا ترتفع إليه بيوت الدنيا بما فيها من رياش وزينة ومتاع .

ورقدت الأنعام والأغنام بالقرب من الخيام . إنها كل ما خرجوا به من المدينة ولكنهم كانوا يحسون أنهم أغنياء . فإن أرض الله الواسعة لهم ، ومياه النهر التى تجرى بالخيرات ملك أيمانهم ، وكواكب السماء سخِّرت لهم ، فهم مذ خرجوا من أور فى ضيافة الله .

وقاموا للصلاة واصطفوا جميعا خلف إبراهيم ، إلا آزر فقد انتبذ مكانا قصيا وراح يفكر فيما كان بينه وبين ابنه ، حتى إذا طافت بذهنه ذكرى ذلك اليوم الذى اشتعلت فيه النار فى آلهته أطرق مليا وأصاخ سمعه لما كان بينه وبين إبراهيم من حوار :

ــ يا أبت إن النار أحق بعبادتك من أصنامك لأنها تحرقها .

ــ فلماذا لا تعبد النار ؟

ــ لأنى لا أحسب النار إلـٰها ، لأن الماء يخمدها .

ــ فلماذا لا تعبد الماء ؟

ــ لأنى لا أحسب الماء إلـٰها ، لأن الأرض تبتلعه .

ــ فلماذا لا تعبد الأرض ؟

ــ لأنى لا أحسب الأرض إلـٰها ، لأن الشمس تجففها وتنشر على الكون كله أشعتها .

ــ فلماذا لا تعبد الشمس ؟

ــ لأنى لا أحسب الشمس إلـٰها ، لأن الظلام يحجبها .

ــ فلماذا لا تعبد ما نعبد ؟ لماذا لا تعبد القمر ؟ لماذا لا تعبد المشترى ؟

ــ لأنى لا أحسب القمر والنجوم والكواكب التى تظهر فى الظلام آلهة ، لأنها تحجب عند طلوع النهار ، وإنما الإلـٰه القدير على كل شىء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها وخالقى وهادىّ إلى الحق المبين .

وراح آزر ينظر إلى المصلين وهو يعجب فى نفسه كيف آمن هؤلاء بما يدعو إليه إبراهيم ؟ كيف أساغت عقولهم أن يعبدوا إلـٰها لا يرونه وليس له رمز فى السماء كمردوخ ونانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ؟ إنه عندما يناجى مردوخ يتمثل له فى خياله وهو جالس على عرشه وقد كبرت أذناه اللتان ترمزان إلى حكمته . وعندما يناجى نانا يراه أمام عينيه هلالا دائما أبدا ، ويحس فى أعماقه أنه هو الذى يقيس الزمن وهو الذى ينهى الأيام والشهور والسنين للملوك المذنبين بالدموع والتأوهات !

وعندما يناجى شماش وعشتار ولدى الإلـٰه القمر فهو يعرف من يناجى ، وهو عندما يرفع عينيه إلى شماش فإنما يرفعهما إلى القاضى الأعظم الذى أنجب إلـٰهين جليلين هما كتو وميشار : العدالة والحق ، وهل هناك أجل من العدالة والحق ! إن شماش يطأ الظلم تحت قدمه ويملى على أبنائه الملوك والآلهة قوانين العدالة .

ترى ماذا يرى الذين آمنوا بإلـٰه إبراهيم عندما يرفعون أبصارهم إلى السماء ؟ لقد قلب وجهه فى السماء فلم ير فيها إلا آلهته وآلهة قومه ، ولم ير

إلا القمر والشمس والكواكب ، كيف يريد إبراهيم منه أن يحيد عن آلهته التى يراها ويعيش فى كنفها إلى إلٰـه لا يراه .

لو أن إبراهيم دعاه إلى عبادة النار أو الماء أو الأرض أو النجوم أو الشمس أو القمر لاستجاب له ، فهذه آلهة ترى ؛ أما ذلك الذى يدعو إليه فما عرفه أحد من الآباء والأجداد .

وذكر آزر أن رجلا من المؤمنين بما يدعو إليه ابنه قال له : إن الله طهر الأرض مرتين : مرة بالطوفان ومرة بالنار التى أججت ليلقى فيها ابنه المبارك . ودعاه أن يسارع للإيمان والأرض ما تزال طاهرة قبل أن يعود الفساد فيدب فيها مرة أخرى ، مثلما استشرى بعد الطوفان .

وراح يفكر فى هذه القولة ؛ إنه يعلم أن الملوك الآلهة هبطوا إلى الأرض بعد الطوفان ليحكموا الشعوب باسم الآلهة الذين فى السماء ، ومنذ ذلك الوقت والملوك الآلهة يمارسون سلطانهم . فأين ذلك الفساد الذى يتحدث عنه ؟ وقال له الرجل إنه جاء فى صحف إبراهيم أن الله يقول للنمروذ ومن على شاكلته : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها وإن كانت من كافر .

أإلٰـه إبراهيم هو الذى بعث الملوك الآلهة ليحكموا بين الناس؟ إن كان هو الذى بعثهم فماذا فعل آلهتنا ؟ إن آلهتنا اجتمعوا فى مجمعهم بعد الطوفان وأنزلوا الملكية من السماء ، وما كان للملوك الآلهة أن يظلموا فإن كل ما يفعلونه عدل ، عدل إلٰـهى ، ووصف إبراهيم إياهم بالغرور والظلم وصف جافاه الإنصاف .

وخطر له بعد أن استراح إلى ما وصل إليه خاطر أقلقه . إن النمروذ الملك الإلٰه ذبح لإلٰه إبراهيم أربعة آلاف بقرة ، أكان يضحى بكل هذه الأبقار إن لم يكن إلٰه إبراهيم عظيما يستحق هذه التضحية ؟! ووسوست أقوال الكهان فى صدره : إن إبراهيم سحر الناس وخرج من النار بسحره ، وسحر النمروذ حتى جعله يذبح الأبقار . واستراح إلى همزات الشيطان . فأبوه تاحور كان عالما بالسحر وأسرار النجوم ، فلعل إبراهيم تعلم السحر من جده على غفله منه كما تعلم منه النظر فى النجوم !

وعاد فكره إلى القلق الذى أصبح يساوره منذ جاء إبراهيم بدعوة توحيد الآلهة جميعا ، فقد تبادر إلى ذهنه سؤال حائر لم يعرف له جوابا : إذا كان إبراهيم سحرهم حقا فلماذا لم يعاقبوه بتهمة السحر والقانون يحكم بإعدام من يمارس السحر .

لو خلى النمروذ بين الكهنة وبين إبراهيم لقتلوه ، ولكن النمروذ حال بينهم وبينه ، إن كان النمروذ قد أجاره أوَ ليس هو إلها لا يشين أفعاله خطأ ولا يجانبه الصواب؟أو يقدر إبراهيم إن كان ساحرا أن يسحر إلٰها؟إن آزر فى حيرة لا يدرى ما يفعل . أيؤمن بما يدعو إليه ابنه ويكفر بدينه ودين آبائه ، أم يظل على دينه وعبادة آلهته السادة البعول العظام ؟

واستأنفت قافلة الإيمان رحلتها وقد أسلم كل من فيها قلبه لله ، فلم يعد لأحد منهم غاية إلا رضى ربه . كانت سعادتهم غامرة فهم مهاجرون إلى الله . ولم يكن باسر الوجه إلا آزر ، فقد سار فى نفس هذه الطريق يوم استدعاه الأوريجاللو فى بابل ليصنع تمثالا للإلٰه مردوخ فى عيده الكبير ، وكان وقتئذ منشرح الصدر يعرف مواقع قدميه ، وما يكدر صفوه إلا رؤيا أبيه التى

رآها فى كبد الأضحية ، ليلة رأى أصنام الآلهة تتكفأ على وجوهها .

كان فى ذلك الحين تطوف به موجة من الرهبة ، الرهبة من المجهول ؛ أما اليوم فقد وقع ما كان يخشاه وعاش حتى رأى تأويل رؤيا أبيه ناحور ، عاش حتى رأى ابنه إبراهيم يحطم أصنام الآلهة بيمينه ، وقاسى بسبب ذلك من غضب الآلهة وكتب عليه مردوخ الخراب فاحترق هاران وماتت إيمتالى ، وها هو ذا يهيم على وجهه مع أناس آمنوا لابنه وكفروا بدينه ودين آبائه الأولين .

وتذكر أن أباه قال له إنه رأى نورا يخرج من ظهره ينير السماء، ولم يشأ أن يصدق أن ما رآه ناحور رؤيا صادقة وأن إبراهيم مبارك ، بل راح يؤكد لنفسه أن ما رآه أبوه يخرج من ظهره إن هو إلا نار خرجت لتحرق آلهة السماء .

ومرت القافلة ببابل ولاحت للعيون المدينة التى بنيت فوق الربوة ببرجها الهائل المدرج ، فصغرت نفس آزر فى عينيه وراح يبتهل إلى رب الأرباب فى حرارة أن يرفع عنه غضبه ، بينا نظر إبراهيم ومن معه إلى المدينة العظيمة فى ازدراء ، فإن بيوت الله التى شيدوها فى قلوبهم أروع وأرحب وأثمن من كل بيوت الأرض .

وضربت القافلة خيامها بأرباض مدينة سفروايم ، ولما استراح أهلها من تعب الرحلة دخلوا المدينة يتزودون من أسواقها ويملئون سقاتهم من آبارها . وراحوا يتلفتون حولهم فهذه أول مرة يرى فيها إبراهيم وسارة ولوط تلك المدينة . وانطلق آزر وهم خلفه فوجدوا أنفسهم أمام معبد من معابد القوم ارتفع برجه وغص بالناس .

وسار آزر إلى حيث قام المذبح، وإذا بخلق كثير يتعبدون وإذا المراسيم تجرى فى خشوع، وأصوات المغنين ترتفع بالتراتيل، والدموع تفيض من العيون .

ودار إبراهيم على عقبيه لينصرف وإذا بسارة تهتف به :

ــ إبراهيم ! انظر .

ونظر إبراهيم فإذا برجل يعترف بما ارتكب من المعاصى ثم يقدم ابنه البكر ليذبح قربانا للآلهة . وتقدم الكاهن فأمسك بالصبى وذبحه وهو يرتـل الدعـوات ، والموسيقيـون ينفخـون فى المزامير وينقـرون على الدفـوف والطبول ، والعرافون يطلقون البخور .

والتقت عينا إبراهيم بعينى أبيه وكان يبدو على آزر الإيمان العميق وكأنما كانت عيناه تقولان لابنه : أرأيت إيمان قومنا بآلهتهم ؟ لقد بلغ بهم الإيمان حدا جعل الأب يذبح ابنه البكر على مذابح الآلهة تكفيرا عن معصية ارتكبها . أفلو كانت سارة أنجبت لك ولدا أكنت تذبحه قربانا لإلٰهك ، لربك الواحد الذى تدعو إليه ؟

كانت نظرات آزر تنطق بالإيمان بآلهته ، فقد خامره الشك شيئـا فى أمرها بعد ما سمعه من إبراهيم وما رآه من تحطيمه لأصنامها ، أما ما يجرى الآن عند مذبح الإلٰه فى سفراويم فقد أعاد إليه إيمانه . إن آلهته ما تزال عظيمة جليلة حتى إن المرء ليتقرب إليها بذبح ابنه البكر عن طيب خاطر .

وتذكر هاران الذى احترق ليدلل على قدرة آلهته فلم يـعصر الحزن قلبه بل غمره الرضا . إن تضحية هاران لآلهتـه تفـوق تضحيـه هـذا المؤمن عميق الإيمان الذى يقدم فلذة كبده زلفى للآلهة ، فقد قدم هاران نفسه وليس شخصا سواه على مذبح الأرباب ، فتضحيته تفوق كل تضحية تخطر على البال .

وقرَّ عزم آزر أن يبقى على دين آبائه ، أن يظل مؤمنا بأربابه حتى لا تذهب تضحية هاران الحبيب هباء ، وراح يطمئن نفسه أن الآلهة سترضى عنه ، فإن كان مردوخ قد كتب عليه الخراب فما فعل ذلك إلا انتقاما لما فعله إبراهيم ، ولتجزينه الآلهة خيرا بما قدم هاران .

١٩

وامتطى المؤمنون رواحلهم واستأنفوا رحلتهم ، وأثارت الأنعام والأغنام النقع حتى كادت تحتجب الرؤية .

وكان إبراهيم هادئ النفس منشرح الصدر فقد صار الكون كله معبدا ، فأينما يولى وجهه فثم وجه الله .

ورأى فى طريقه الثيران تحرث الأرض ، والفلاحين يبذرون الحب . والمياه تترقرق فى القنوات كاللجين وتسرى سريان الروح ، وأشجار النخيل سامقه رائعة تنطق بجلال الله . إنها أروع من أبراج المعابد التى تختال أياما ثم ما تلبث أن تنهار . إن أشجار النخيل ـــ أبراج الله ـــ ستبقى فى جلالها ما دامت الأرض والسماء تسبح بحمد الله وتقدس له .

وضرب المؤمنون فى البيداء حيث الفضاء لا يحد ، الفضاء النقى الذى يغسل الأرواح . فراحوا يملئون ذواتهم بروح الكون قبل أن يملئوا صدورهم بنقاء الهواء ، فقد أمدهم إيمانهم برحابة روحية جعلتهم يتحدون مع روح الوجود ، ويتهللون بالفرح كلما وقعت أعينهم على ما فى الكون من كائنات .

ومروا بالآبار الحمر آبار النفط فى حث، ثم هبطوا إلى بساط سندسى أخضر وُشِّى بالزبرجد والياقوت والمرجان ، ودبت الحياة فى الكون وارتفع نبضها . فالأنعام والأغنام ترعى فى مراعى الله ، والعبيد والرجال يملئون سقاتهم من المياه الجارية ، والنساء يتفيأن ظلال الأشجار وينعمن برطب الهواء .

وجلس آزر يلتقط أنفاسه ويحن إلى الاستقرار . إنه فى طريقه إلى حاران مدينة القيظ والحر اللافح فلن يكون المقام فيها هينا لينا ، ولكنه مع ذلك يرجو أن يبلغها ليستريح من وعثاء الطريق .

لقد غادر أور لينجو من نظرات العداوة التى يرشقه بها قومه ، فقد كان لسع تلك النظرات أليما على روحه حتى هان عليه أن يهاجر من وطنه ، بيد أن قسوة الرحلة فاقت كل ما كان يتصوره .

كان يخفف من آلامه أن حاران مثلها مثل أور مقر لعبادة الإلـٰه القمر ، وإن كان يعبد فى حاران باسم الإلـٰه سين وفى بلده باسم الإلـٰه « نانا » . إنه هو نفسه الذى يحبه ويقدم له الخضوع والولاء ويرفع إليه الدعوات ويتزلف إليه بالقرابين . إنه يحس أنسا كلما كان فى حضرته ، وسواء عليه أعبده فى أور باسم نانا أم فى حاران باسم سين ، أم فى سيناء حيث أقيم له معبد هائل يليق بمقامه واشتق من اسمه اسمها لتتقدس أراضيها .

إن إلـٰهه القمر يعبد فى كل بقاع الأرض التى يعرفها ، فكيف يسفه ابنه أحلام كل هذه الأمم ويطعن فى معتقدات كل هذه الشعوب ؟ إن ضياء إلـٰهه لطيف ينزل الأمن بالقلوب ويشرح الصدور ، أما نور رب إبراهيم فإنه يشرق فى قلبه ، وكيف يشرق فى قلبه نور لم تر عيناه له شروقا؟!

وعاود آزر القلق ؛ أيتركه إبراهيم فى حاران يعبد إلـٰهه كما يشاء أم يحول بينه وبين عبادته كما فعل فى أور ؟ وهل يفعل إبراهيم فى حاران ما فعله فى أور فيسخر من آلهة القوم على أعين الناس ؟

ونزل بقلب آزر هم شديد : إن كل الدلائل تشير إلى أن إبراهيم لن يتوانى فى تبليغ رسالات ربه ، وقد ازداد صلابة وعزما بعد أن خرج سالما من النار

التى ألقوه فيها و لم تحرق إلا وثاقه .

إن حاران مدينة من مدن القوافل وهى مفتاح الطريق بين الشرق والغرب ، وما جاء إبراهيم إليها إلا ليدعو الغادين إليها والرائحين منها إلى دينه ، إلى عبادة إلٰهه . إنه ما جاء إليها إلا ليعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى رب العالمين .

واربد وجه آزر ، فلو أنه اهتدى إلى ما وضح لعينيه الساعة لما غادر أور وما ترك وطنه ، إنه فر من نظرات العداوة من قومه إلى نظرات قد تكون أشد ضراوة وشراسة منها . إن قومه كانوا يعرفون له أنه كرس حياته لصنع تماثيل الآلهة . أما أهل حاران فلا يعرفون عنه شيئا . إنه كا لمستجير من الرمضاء بالنار .

وارتجف فرقا فهو شيخ كبير لا يستطيع احتمال التعذيب ، إنه يريد أن يمضى ما تبقى من أيامه على الأرض فى سلام ، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن مردوخ قد كتب عليه الخراب وأن كل الآلهة ما تزال غاضبة عليه من جراء ما فعل بها إبراهيم .

وراحت القافلة ترقى جبال بادام آرام ، وكانت صخورها صلبة فكانت الرواحل تسير فى بطء شديد ، وأخذ الرجال والعبيد يدفعون الأنعام والأغنام فى شعاب الجبال دفعا . ولمح إبراهيم حملا حديث الولادة يجهد ليلحق بأمه ، فهبط من على راحلته وأخذ الحمل بين ذراعيه وضمه إلى صدره فى حنان ، ثم عاد به إلى راحلته وهو يمسح على ظهره بيده وينظر إليه بعينين يشع منهما العطف والحب . كان قلب إبراهيم كبيرا يفيض بالحنان على كل من حوله .

وانسابت القافلة فى الأرض الفضاء بين دجلة والفرات ، وظهرت على البعد مدينة حاران ، ولاح معبد الإلٰه القمر على ربوة عالية كأنه منار فى وسط الصحراء ، وارتفع برجه المدرج فى خيلاء يخلد براعة الإنسان .

وتهلل قلب آزر فقد صار الآن فى كنف إلٰه يستطيع أن يرى تمثاله وهو يناجيه ، إلٰه له مذبح يستطيع أن يذبح عليه ما يتقرب به إليه . لقد سمع من إبراهيم أن الكون كله معبد لإلٰهه، وأن الأرض مسجد وطهور ، وأن السماء آية من آياته ، وأن كل ما فيها من نجوم وكواكب وأقمار وشموس تسبح له ، وأنه فوقها جميعا وليس فى الأرض ولا فى السماء مشيئة إلا مشيئته ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور معبدا بلا جدران ولا كهنة ولا مغنين ولا مغنيات ولا مراسيم ولا تماثيل ترمز إلى الآلهة جميعا !

ستسهد عيناه عما قليل برؤية إلٰهه ، وتشرب أذناه ألحان المغنين والمغنيات ، وتشم أنفه رائحة البخور ، رائحة الخطايا التى تحترق على مذبح الإلٰه لتزكو وتنقلب إلى عبير .

سيرى عما قليل أسمى تضحية : تضحية فتيات المعبد بأجسادهن متحملات كل قسوة وامتهان فى سبيل إضاء عشتار الإلٰهة العطوف !

ودخلت القافلة مدينة حاران فى الليل ، وانطلقت إلى أقرب بئر ، فخف النسوة وقد حملن جرارهن على رءوسهن ونزلن فى الدرج الذى يقود إليها وتزاحمن حول الماء .

وجاء الرعاة يتدافعون ليملئوا أجران الماء لسقى الجمال والثيران والأغنام ، ورأى إبراهيم النساء وهن يوسوسن بأساورهن وخلاخيلهن ويشققن طريقهن بين الرجال فأمر عبيده أن يملئوا لهن جرارهن ، وأن يسقوا أغنامهن

قبل أن يملئوا سقاياتهم أو يرووا ما معهم من إبل وأبقار وأغنام .

وضرب إبراهيم خيامه بين البداوة والحضارة لينهض بالرسالة التى بعثه بها ربه ، كانت حاران غاصة بالدور والبيوت الواسعة إلا أن إبراهيم هجر المبانى التى تحد من تأملاته ، وعزم أن يعيش على حافة المدينة ليكون بعيدا عن عادات قومه وتقاليدهم التى استقرت فى ضمائرهم ، بعيدا عن عقائدهم التى أفسدها الكهان ورجال التشريع !

إن رجال الدين يعيشون بين جدران المعابد ، أما الأنبياء فيسبحون فى مملكة الله يدعون الناس إلى التحرر من قيود الناس وعبادة الناس ، يدعونهم إلى التخلص من إسار الأوامر الجامدة والشعائر الزائفة إلى حيث رحابة الإيمان .

كانت خيام إبراهيم على طريق القوافل المنطلقة بتجارة بابل إلى الشام والحجاز ومصر والعائدة إليها بخيرات تلك الأقاليم ، وكان إبراهيم إذا جن الليل يوقد نارا يدعو بها الضيفان إلى طعامه . فلم يأكل إبراهيم وحده مذ خرج من أور بل كانت موائده عامرة أبدا بالغادين والرائحين وأبناء السبيل .

وكان إبراهيم يدعو كل من نزل بخيامه إلى الله ، وكان التجار أكثر الناس فهما لرسالته فقد كفروا فى قرارة أنفسهم بآلهتهم المحليين الذين ما كانوا يرعونهم فى ترحالهم . إنهم كانوا أكثر الناس حاجة إلى إلٰه يرعاهم فى سفرهم فى الفيافى والقفار والجبال ، وإلٰه إبراهيم الذى يدعوهم إليه موجود فى كل مكان وهو أقرب إليهم من حبل الوريد . ولكن انشغالهم بجمع المال واحتكار التجارة ورفع الأسعار وخدع البسطاء وغش السلع وتطفيف الكيل والوزن ، كل أولئك صدهم عن ذلك الدين الذى يريد أن يحاسبهم على كل ما يفعلون فى الدنيا ويهددهم بالحساب بعد الموت يوم يبعثون ..

وكان آزر ينسل من خيام ابنه وهو يترقب إلى معبد الإلٰه سين ، حيث يركع أمام مردوخ وإلٰه القمر والآلهة الأخرى يردد الصلوات فى إيمان عميق والدموع تنهمر من عينه ، وكان يقدم الأضحيات فى الفجر والمساء لعل مردوخ يرضى عنه ويمحو الخراب الذى كتبه عليه فى لوح قدره .

وكان إذا سأله ابنه أين كان لا يجرؤ أن يقول له إنه كان يصلى فى معبد آلهته ، فإن إبراهيم كان يدعوه إلى دينه كلما جلسا معا ، فكان يقول كنت فى السوق أتسلى بمشاهدة حلقات بيع العبيد ، وكثيرا ما كان يعود من الأسواق وقد اشترى بعض العبيد ليستر ما يفعله فى غفلة من المؤمنين . فما كان فى خيام إبراهيم من يعبد الأصنام غيره .

وجلس إبراهيم وآزر ذات ليلة يتحاوران بعد أن انصرف الضيوف المكرمون ، قال إبراهيم :

— يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا .

يا أبت ما ظنك برب العالمين ؟

يا أبت كتب ربى على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم .

يا أبت إن ربى عظيم ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا ويعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

يا أبت سبح باسم ربك الأعلى .

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .

وكان آزر ينظر إلى ابنه وهو مشدوه ولا يدرى من علمه ذلك العلم ومن بث فى قلبه عداوته المريرة لآلهة قومه آلهة آبائه الأولين ، وانتشر فى صدره القلق ولم يشرح الله صدره للإيمان . واستمر إبراهيم يدعوه فى رقة إلى دينه إلى الإيمان برب السموات والأرض وما بينهما حتى قال آزر :

ـــ آمنت لك يا إبراهيم .

فقال إبراهيم فى فرح :

ـــ قل يا أبت أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله .

ولم يشأ آزر أن ينطق بالشهادة فقال له :

ـــ ألم تقل لى يا إبراهيم فى أور سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ؟

ـــ نعم يا أبتاه !

ـــ اذهب واستغفر لى ربك .

وقام إبراهيم إلى المحرب يصلى وهو فرح فقد كان إيمان آزر وإسلامه أحب شىء إلى نفسه ، وراح يدعو الله والدموع تفيض من عينيه :

ـــ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبى إنه كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .

٢٠

بدأ الضوء ينتشر فى الأفق الشرقى فدبت الحياة فى خيام إبراهيم ، وقامت سارة تتوضأ ، وذهب إبراهيم يوقظ آزر ويهزه فى رفق ويدعوه للصلاة .

وفتح آزر عينيه ولما رأى ابنه قال له :

ـــ إنى قائم .. استغفر لى ربك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى أبيه فى حب :

ـــ لأستغفرن لك ولا أملك لك من الله من شىء .

وأسرع إبراهيم إلى حيث كان لوط وسارة والمؤمنون وراحوا جميعا يدعون الله فى عماية الصبح :

ـــ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم .

وراحوا يصلون فى خشوع وقد غابوا عن كل ما حولهم . كانوا بين يدى الله يحاولون أن يتصلوا بروح الكون ، بذات الذوات ، برب السموات والأرض . وانتهز آزر فرصة انشغالهم عنه بالصلاة فانسل من الخيام وهو يتلفت وانطلق إلى المدينة يسعى.

وقضيت الصلاة وراح الرجال والعبيد يرعون الماشية والغنم ، ثم ذهبوا إلى المعبد يجادلون الكهان ويدعون الناس إلى دينهم ، فقد أصبحت حاران مسرحا للصراع بين الدين الجديد ودين الآباء والأجداد ، بين رجال أحرار

أسلموا وجوههم لله رب العالمين ورجال يتاجرون بالدين ويرون فى زوال سلطان مردوخ ومين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى زوالا لنفوذهم ، وانقطاع سيل الخيرات المتدفق إلى مخازن المعابد وضياع الكهنة من أراضى الأغنياء وجيوب السذج .

ودخل إبراهيم ومن معه الحرم المقدس فى معبد الإلٰه سين إلٰه القمر ، وكانت العاهرات المقدسات على جانبى الطريق ينظرن إلى إبراهيم ومن معه فى ضيق وتنطلق ألسنتهن بالهزء والسخرية. وانطلق المؤمنون فى طريقهم لا يحفلون بهن ، وكانوا على يقين أن هذه الدعارة ستنقرض يوم تذهب أيام الآلهة الذين يتقرب إليهم عبادهم بالبغاء وتدنيس الجسد .

وانسابوا إلى المعبد وكان الكهان يطلقون البخور ويتلون صلواتهم ويقدمون القرابين للآلهة ، وكان المغنون والمغنيات يرتلون الأناشيد والموسيقيون يعزفون الألحان المقدسة . ولما دخل عليهم إبراهيم ومن معه خفتت الموسيقى وزاغت العيون ولاح فى وجوه الكهان غضب وخوف وضيق ، كان المؤمنون أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

وراح الكهان ورجال الدين يجمعون أنفسهم التى ذهبت شعاعا ويتأهبون للرد على ما يقول إبراهيم ، إنه جعل الآلهة إلٰها واحدا ونزهه عن صفات آلهتهم ، ورنت فى آذانهم أقواله : هو الله الذى لا إلٰه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ونظر إبراهيم فإذا بأبيه آزر راكع أمام تمثال سين يؤدى صلاته والدموع تنهمر من عينيه . إن أباه لم ينس إلـٰهه فلا يزال يعبد إلـٰه القمر بعد أن استغفر له ربه ، إنه ما استغفر له الله إلا بعد أن وعده بأنه سيسلم وجهه لله رب العالمين ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، وقد تبين له الآن أنه عدو لله يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، إنه لا يزال على كفره ينسل من الخيام ليعكف على عبادة أصنامه التى لا تملك له نفعا ولا ضرا .

وأغلق إبراهيم قلبه دون أبيه . إنه يحبه إلا أن حبه ربه أعظم من حبه أباه . إنه يحس مرارة لأنه صدق أباه فاستغفر له ربه وما كان أبوه يستحق الاستغفار بعد أن اشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . وكان يخفف عن إبراهيم أنه قال لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء .

واشتد الجدال بين الكهان والمؤمنين ، وضاق رجال الدين والمتعصبون لآلهتهم بحجج إبراهيم وسخرية من معه بأربابهم ، فأطلت البغضاء من عيونهم وبدت العداوة من صدورهم ، وأحس إبراهيم ومن معه أن الأمر يتطور إلى قتال بينهم وبين من فى المعبد فقالوا :

— إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .

وعاد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم ، ورأى أباه يرقد فى ظل خيمة فتذكر إبراهيم ما كان يفعل كلما وقف فى المحراب مذ وعده أبوه بالإسلام ، كان يسأل ربه والدموع تفيض من عينيه أن يغفر له لأنه كان من الضالين .

كان من الضالين ؟ إنه ما يزال ضالا ، إنه ما يزال يركع لآلهته ، إنه لا يستحق الاستغفار . وذهب إبراهيم إلى محرابه يعتذر إلى الله عما كان منه

وراح يدعو :

ـــ يا رب إنى برىء من أبى .. برىء مما فعل أبى .. برىء من المشركين .

ورفع آزر عينيه وهو ممدد فى ظل خيمته فرأى إبراهيم يبتهل إلى ربه فامتلأ حزنا ، لقد نذره للمعبد يوم حملت به إيمتالى ، ونذر لآلهته إن جاء ما فى بطن زوجه أنثى أن يلحقها « بالجاجوم » لتكون عازفة على القيثار للإلـٰه سين .

إنه يمتلئ أسى كلما وقعت عيناه على بنات الهوى بالمعبد ، فقد كانت غاية أمانيه أن يهب إحدى بناته للآلهة ، إلا أنه لم يرزق إلا ذكورا ؛ إبراهيم وناحور وهاران . ومما يزيد فى أساه أن إبراهيم كفر بآلهة آبائه الأولين وجعله هزوا بين قومه يسود وجهه كلما التقت عيناه بأعين الناس ، فما أقسى نظرات التحقير التى تصوب إليه وإن كان لا يزال قائما على دين قومه .

إنه يذهب إلى المعبد ليؤكد للملأ أنه ما يزال على دينه وأنه برىء مما جاء به إبراهيم ؛ ولكن ماذا يفيد ذهابه إلى الحرم المقدس ؟ ماذا تفيد دموعه وصلواته وقرابينه إذا كان إبراهيم يأتى كل يوم إلى المعبد يقول للمصلين : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟.. ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تزيدون ؟

وماذا تفيد صلاته ودموعه وقرابينه إذا كان إبراهيم يقف فى طريق القوافل يدعو الناس إلى إلـٰهه الذى يزعم أنه واحد قهار ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وأنه رب العالمين ! مرض آزر ولزم خيمته وعجز عن أن يذهب إلى آلهته ، وراح يتلفت يبحث عن صديق ما يزال على دينه ليقرب عنه القرابين إلى مردوخ ويلتمس منه أن يطيل أيامه على الأرض ، إلا أنه لم يجد فيمن حوله من هو على دينه ، فقد جاء إبراهيم بما فرق بين الأب وبنيه وبين الزوج وزوجه وبين الصديق وصديقه . إن لوطا وسارة والعبيد والضعفاء آمنوا جميعا له .

ولكن ابنه ناحور جاء إلى حاران واعتزلهم ، ليته يستطيع أن يبعث فى طلب ناحور .

واشتد بآزر المرض ودخل عليه إبراهيم يتوسل إليه أن يؤمن قبل أن يلقى ربه ليفوز بجنات النعيم . كان إبراهيم يتمنى بكل جارحة من جوارحه أن يهتدى أبوه ، أن يموت على الإيمان ، أن يهديه الله الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم .

ولكن آزر وضع أصابعه فى أذنيه ورفض أن يصغى إلى ما يدعوه إليه ابنه ، إنه فى شك مريب من أنه سيبعث بعد أن يموت ، وأنه سيحاسب على ما اقترف من أعمال فى دنياه . وأن من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ، ومن كفر بالله إلـٰه إبراهيم فمأواه جهنم وساءت مصيرا .

كان واثقا كل الثقة أنه إذا مات فسيذهب إلى العالم السفلى . إلى الأرض التى لا رجعة منها ، وأنه قد يلقى هناك أباه ناحور ، وأن ذلك اللقاء — إن وقع — هو الذى يؤلم نفسه ويوجع قلبه ، فسيسخر منه أبوه لأن ابنه إبراهيم حطم تماثيل الآلهة وأغضب السادة البعول ، وأن سخرية ناحور ستكون أقسى على قلبه من سخريات أهل الأرض جميعا .

وراح آزر يلفظ أنفاسه بين يدى إبراهيم ووقف حولهما لوط وسارة والمؤمنون من الأحرار والعبيد ينظرون فى إشفاق ، كان إبراهيم حريصا على أن ينطق أبوه بالشهادة قبل أن يذهب إلى عالم الغيب والشهادة .. قال :

— يا أبت إن كنت تحب الله فاتبعنى يحببك الله ، يا أبت متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، يا أبت إنى لا أملك لك من الله شيئا فاشهد أن لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم ، يا أبت إن هدى الله هو الهدى ، يا أبت آمن قبل أن

يدركك الموت ليرحمك ربى ويدخلك جناته ، فالله كتب على نفسه الرحمة .

يا أبت أغير الله تبغى ربا وهو رب كل شىء ؟ يا أبت اشهد أن لا إلـٰه إلا الله يغفر لك ما قد سلف ، يا أبت قد جاءك الحق من ربك خالق كل شىء وهو الواحد القهار .

واضطربت أنفاس آزر و لم يبق له فى هذه الدنيا إلا لحظات ، إن هى إلا زفرة ثم يموت . وراح إبراهيم يحاول أن يزحزح أباه عن النار التى يصر على أن يتردى فيها ، قال والدموع تفيض من عينيه :

ــ يا أبت قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

يا أبت قل أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وفاضت روح آزر وهو بين يدى إبراهيم فوضع رأسه على فراشه وهو حزين ، كأن إبراهيم يحب أباه ويرجو أن يهديه إلى الرشاد .. أن يهديه صراطا سويا . وهل يملك إبراهيم أن يهدى من أضل الله ؟ إن إرادة الله فوق كل إرادة ، وإن إبراهيم لا يهدى من أحب ولكن الله يهدى من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم .

٢١

تقاطر الناس من القوافل القادمة إلى حاران على خيام إبراهيم ، فكان إبراهيم وعبيده يقدمون لهم الطعام والشراب . ودارت الأحاديث عن البلاد التى وفدوا منها فراح كل منهم يروى عجائب ما شاهده فى تلك البلاد ، قال أحدهم :

ـــ إنى قادم من وادى النيل ، من بلاد العجائب : الأهرام وأبى الهول والمسلات والمعابد ، إن المسلات فى وادى النيل شامخة كأبراج المعابد فى بابل .

فقال آخر :

ـــ ألها علاقة بالدين ؟

ـــ إنها تخليد لعظمة الإنسان ، أما آلهة المصريين فلهم معابد هائلة تفوق معابد مردوخ .

ـــ ماذا يعبد المصريون ؟

ـــ يعبدون آلهة كثيرة ، ويجتمع آلهتهم فى مجمعهم كما يجتمع آلهة بابل فى مجمعهم يتشاورون ويتخذون قراراتهم التى تصبح مشيئة سارية فى الأرض أو فى السماء .

ـــ أيعبدون مردوخ ونانا وشماش وآلهتنا الأخرى ؟

ـــ كلا ، بل يعبدون رع إلـه الشمس وأزريس وآلهة أخرى كثيرة .

ـــ أوَ يختلف رع عن شماش ؟

ـــ إن آلهة المصريين يحلون فى الحيوان ، لذلك يقدس المصريون البقر والتمساح والصقر ، ويرمزون إلى رع بقرص الشمس بين جناحى الصقر .

ـــ وأزريس ؟

ـــ إنه إلـٰه العالم السفلى . . إلـٰه الموتى . كان أزريس كسائر الآلهة حاكما فى الأرض قبل أن يرفع إلى مملكته فى السماء . إنه هو الذى علم سكان مصر الزراعة والكتابة وحياكة الثياب والنظر فى النجوم والحساب ، وهو الذى سن لهم القوانين .

ونظر رجل إلى المتحدثين وقال :

ـــ هذا شىء عجيب ، فقد نزلت فى أثناء مرورى بالحجاز بواد غير ذى ذرع لأستريح ، فقابلت هناك رجلا عرفت أنه من الصابئة قال لى إنه كان فى ذلك الوادى بيت مقدس بناه إدريس للعبادة ، وأن الطوفان أتى على ذلك البيت فيما أتى عليه . وسألته عمن يكون إدريس هذا فقال لى أنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب ، وأنه جاء بالقوانين من السماء ، ثم رفع إلى السماء بعد أن مات .

وقال قائل :

ـــ قد يكون أزريس هو إدريس هذا .

ـــ إنها أساطير تنسجها خيالات الناس ويستغلها الكهان .

ـــ لا يمكن أن ينسج شىء من لا شىء ، لا بد أن يكون لهذه الأساطير أصل من الأصول .

ودنا إبراهيم من القوم وكان يطمع أن يؤمنوا بالله الواحد القهار خالق كل شيء ، فهم على علم وسّعت الرحلات مداركهم ، ولابد أن تكون مملكة الله التى ساحوا فيها قد فتحت أعين بصائرهم على وحدة الخالق فقال :

ـــ إدريس كان صديقا نبيا أرسله الله لهداية الناس .

فنظر القوم إلى إبراهيم فى دهش وقال أحدهم :

ـــ أى إلٰه من الآلهة ؟

ـــ الله لا إلٰه إلا هو الحى القيوم .

ـــ أجعلت الآلهة إلٰها واحدا ؟

ـــ وما من إلٰه إلا إلٰه واحد .

ـــ أينما ذهبنا وجدنا الناس يعبدون آلهة كثيرة . الكواكب والشمس والقمر والبقر والتمساح ؛ فكيف تدعونا إلى إلٰه واحد ؟

ـــ من إلٰه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ من إلٰه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟

ـــ يقول المصريون إن رع إلٰه الشمس إذا فتح عينيه يأتينا بالضياء ، وإذا أغمض عينيه يأتينا بالليل .

ـــ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إلٰه إلا هو سخر لكم الشمس والقمر والنجوم ، الذى له ملك السموات والأرض لا إلٰه إلا هو يحيى ويميت . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره أفلا تتقون ؟

ـــ أنت رجل صالح يا إبراهيم ولكن مالك وهذا ؟

ـــ إنى لكم رسول أمين .

فقال القادم من الحجاز :

ــ كإدريس ؟

ــ يا قوم اعبدو الله قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يا قوم لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

ــ ومتى هذا اليوم ؟

ــ يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم القيامة يوم يحكم الله بينكم ليجزى كل نفس ما كسبت ، إن الله سريع الحساب .

فقال القادم من مصر :

ــ أيحاكمنا الله بعد الموت كما يحاكم أزريس الموتى على أعمالهم فى العالم السفلى ؟ ألله ميزان كميزان أزريس يزن به أعمال البشر ؟

وقال القادم من الحجاز :

ــ هل دعا إدريس قومه إلى عبادة الله وحدثهم عن يوم القيامة ؟ هل قال لهم إن الله سيحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا ؟

ــ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبّل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم .

إن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين .

وقال القادم من الحجاز :

ــ آمنت بالله رب العالمين ، آمنت برب إدريس ورب إبراهيم .

فقال القادم من مصر :

— أتؤمن كما آمن السفهاء ؟ أتصدق أن الناس يبعثون بعد أن يكونوا عظاما ؟ إن ما يقوله هذا قاله الكهنة المصريون من قبل ، فأزريس يقيم الموازين للناس ، وإلٰه إبراهيم يقيم الموازين للناس .

فقال القادم من الحجاز :

— إن ما جاء به الرسل من ربهم هو الحق ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم ونسجوا حول ذلك الحق الأساطير ، وما عقيدة أزريس إلا ما تبقى من دعوة إدريس : البعث وخلود الروح .

وقال القادم من مصر :

— إنى لا أصدق أن الله يبعث بشرا رسولا ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

— إنما يوحى إلىّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد.

فقام القادم من مصر وهو يقول :

— إنى كفرت بما تدعو إليه يا إبراهيم .

وقال القادم من الحجار :

— وإنى أسلمت وجهى لله رب العالمين .

وقام من آمن إلى إبراهيم وقال له :

— إنى ما تناولت طعاما إلا بثمن .

فقال إبراهيم وأشرق وجهه بابتسامة رقيقة :

— ثمنه أن تذكر اسم الله على أوله وأن تحمد الله فى آخره .

فقال الرجل :

ـــ الحمد لله رب العالمين .

وانتشر الناس فى الأرض وراح الرجال والعبيد والنساء يرعون الأنعام والأغنام ويجلبون الماء من بئر حاران . وانتهى إبراهيم من عمله ، فلما جن الليل وقضيت الصلاة أوقد النار ليدعو الناس وأبناء السبيل إلى طعامه .

وكانت الليلة حالكة الظلام ولم يكن فى السماء نجم يتلألأ ، وكانت الريح تصفر والبرد شديدا حتى إن إبراهيم جلس أمام باب خيمته ينظر ويخشى أن يمر الليل دون أن يفد إليه ضيف يكرم وفادته .

ولمح فى الظلام شيخا يتقدم ويتوكأ على عصا فهرع إليه يستقبله ويقوده إلى خيمته . كان الشيخ مسنا حنت الأيام ظهره وخلفت السنون فى صفحة وجهه أخاديد تنم عن أنه جاوز التسعين .

وبلغا الخيمة وعاون إبراهيم الرجل على أن يجلس ويستريح ، ثم ذهب وعاد ومعه ماء ليغسل الرجل وجهه ويديه ورجليه من وعثاء الطريق، وجاءت سارة بطعام وفير وضعته أمامهما وراحت تخدمهما بنفسها إكراما للشيخ المكدود.

ومد الشيخ يده إلى الطعام دون أن ينبس بكلمة فقال له إبراهيم :

ـــ هلا ذكرت عليه اسم الله ؟

فنظرت الشيخ إلى إبراهيم فى دهش وقال :

ـــ اسم الله ؟

فقال إبراهيم :

ـــ قل بسم الله قبل أن تأكل .

ـــ الله ؟ ومن هو الله ؟

ـــ ربى وربك ورب السموات والأرض وما بينهما .

ــ ليس لى رب اسمه الله .

ــ وما تعبد ؟

ــ أعبد النار .

ــ ولماذا لا تعبد الله رب السموات والأرض ؟

ــ لأنى لا أعرف إلـٰها غير النار

ــ أتعبد إلـٰها يطفئه الماء ؟ إن الماء أولى بعبادتك من النار .

ــ لا، إن الماء لا يحرقنى ولكن النار تحرقنى ، إنى أعبد من يقدر على إحراقى .. على تعذيبى .

ــ إن الله قادر على أن يحرقك بالنار .

ومد الشيخ يده إلى النار التى تتراقص أمام الخيمة فأحس حرارتها فقال :

ــ إنى أستطيع أن ألمس حر هذه النار ، أما الله الذى تدعونى إليه فإنى لا أستطيع أن ألمس ناره :

ومد يده خارج الخيمة فإذا الهواء بارد فقال :

ــ لا ، لا أستطيع أن أومن بنار لا أحس حرها :

ثم التفت إلى إبراهيم وقال :

ــ إلـٰهى تتأجج روحه أمام عينى . أما إلـٰهك فإنى لا أراه ، إنى لا أومن إلا بما أراه وأحسه .

قم يا سيدى لتسجد معى لإلـٰهى .

وقام الشيخ وسجد للنار فثار إبراهيم وقال :

ــ لا يسجد فى خيمتى إلا لله اخرج .. اخرج .

وقام الشيخ وخرج وسار حتى أطبق عليه الظلام ، وأطرق إبراهيم وأحس

أنه يوحى إليه وإذا بالوحى يتضح فى صدره :

ـــ ماذا فعلت بالضيف يا إبراهيم ؟

ـــ طردته لأنه أبى أن يذكر اسم الله على الطعام وأبى أن يؤمن بالله ، وراح يدعونى أن أسجد معه للنار .

ـــ حمله ربك يا إبراهيم مائة سنة وهو يعبد النار من دونه ويأبى أن يحمده أو يسبح له أو يذكره بخير ، وأنت لم تحتمله ساعة وما ضرك بشىء ولا أساء إليك !

وقام إبراهيم وقلبه يخفق من خشية الله ، وانطلق يعدو فى أثر الشيخ ينقب عنه فى ظلمة الليل وما سأل أحدا من رجاله أو عبيده أن يبحث معه عنه . إنه هو الذى طرده وهو الذى ينبغى أن يعثر عليه .

وبات إبراهيم هائما على وجهه يخشى ألا يعثر على الرجل ويظل عتاب ربه قائما ، إنه يريد أن يصلح ما كان منه فى حق الشيخ ليستريح ضميره .

ووجد الشيخ يتوكأ على عصاه فى فحمة الليل والرياح تصفر ، فهرع إليه وعاد به إلى خيمته ليكرمه ويبالغ فى إكرامه مرضاة لله .

٢٢

دبت الحياة فى خيام إبراهيم وكانت سارة فى خيمتها تشرف على شئون القبيله ؛ فقد كانت الأميرة الجميلة التى تعد طعام الضيف وطعام الرجال والعبيد . وكان لوط لا يفارق إبراهيم يصغى إليه وهو يصلى فى المحراب لرب العالمين فيمتلئ قلبه بالنقاء وتثرى نفسه بكنوز الحكمة وتشرق روحه .

وراح العبيد يغسلون الملابس برماد القصب ، ويجمعون عسل النحل من الشجر ، ويسقون المواشى والغنم ، وما كان إبراهيم يكلفهم بعمل إلا ويده مع أيديهم ، بل ويده أسبق إلى العمل من أيديهم ..

وكان مضرب خيام إبراهيم قبلة الفقراء والعبيد والمستضعفين وأولئك الذين يرجون حياة أفضل من حياة قومهم ، وأرحب من الحياة الحبيسة فى سجن النفس وسجون المعابد بأبراجها العالية وجدرانها السميكة ، المعابد التى لا سلطان لها إلا أن تجلب الخراب أو تطيل أيام الناس على الأرض .

وكان إبراهيم يبشر الناس بحياة أفضل بعد الموت ، بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وما كان يقول لهم ما يقوله الكهان من أن الحياة تنتهى بالموت ، وأن الميت يذهب إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ، بل كان يحدثهم عن الحياة الثانية ، حياة الخلود ، الحياة التى ينبغى أن يعمل الإنسان لها ليفوز بما أعده الله للمتقين .

راح إبراهيم يدعو إلى إلٰه واحد رحيم غفور ، إلٰه يـدرك كل شيء

ولا تدركه العيون ، إلٰه فوق الكواكب والقمر والشمس ، مشيئته فوق كل مشيئة إن أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

وكان ما يمس قلوب الفقراء والعبيد والمساكين والمستضعفين فى الأرض أن رب إبراهيم لا يفرق بين السادة الأحرار والفقراء والعبيد ، فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى ، لا فضل لعاميلو على مسكينو ولا فضل لمسكينو على عاميلو إلا بما فى قلبه من نور ، وقد يتكئ الفقير والعبد على الأرائك فى جنة النعيم ، بينا يلقى السادة الأحرار ورجال الدين فى الجحيم . كل بما كسبت يمينه ، كل بما قدم فى دنياه من عمل ، لا فضل لطبقة على طبقة ولا لجنس على جنس ولا شعب على شعب .

وقامت فى حاران قوتان : قوة لاذت بالمعابد تدق الطبول وتنفخ الأبواق وتعبث بأوتار القيثار والعود وتلعب بالدفوف ، وتحرق البخور وتذبح القرابين فى المذابح لتتقى غضب الآلهة وتطيل فى أعمار الناس ؛ وقوة أسلمت وجهها لله ، الكون كله معبدها والأرض لها مسجد ، ربها رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو رحمن رحيم يتقرب إليه بالحسنات ، ليست له مذابح بل تنحر له الذبائح ابتغاء مرضاته ، لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى من عباده .

ونشبت الحرب بين القوتين : بين القوة التى لا هم لها إلا الإبقاء على الجسد وإطالة أيامه السعيدة على الأرض ، والقوة التى أخذت تشحذ الروح لتسعد صاحبها فى الدارين ؛ دار الفناء ودار البقاء .

كانت دعوة إبراهيم بيضاء ناصعة يبهر سنا نورها نور الشمس والقمر ، بيد أنها تسلب أصحاب السلطان فى البلاد نفوذهم . إنها تسوى بين السادة

والعبيد أمام الله ، وتقضى على كهنة مردوخ وسين وشماش والآلهة الأخرى ، فيستطيع المؤمن أن يخاطب إلـٰه إبراهيم دون وساطة الكهان ورجال الدين وأن يتقرب إليه دون مراسيم الكهنة والسحرة والعرافين ، فهو قريب من عباده ، أقرب إليهم من حبل الوريد ! إنها دعوة صادقة ولكن ألقيت فى طريقها العوائير ، فقد قاومها أصحاب النفوذ مقاومة لا هوادة فيها .

أحس رجال الدين الخطر يحلق فوق رءوسهم ، ويهدد بانقطاع الأنعام التى تتوافد على معابدهم ، وشواقل الفضة التى تتدفق فى خزائنهم ، وأحمال القمح والشعير والبلح التى تغص بها مخازنهم ، وخدمات السذج الذين يعتقدون أن خدمة رجال الدين تجلب بركات الآلهة وتمنع نقمتهم .

وغضب رجال الدولة لرجال الدين فسلطانهم واحد ، والمنافع بينهم مشتركة ، وإن بزوغ شمس الدعوة الجديدة يغيض نفوذهم ، فتحالف رجال الدين ورجال الدولة على مقاومة هذا الخطر الداهم الذى انقاد له المستضعفون والعبيد ..

وغضبت فتيات المعبد لغضب رجال الدين ولما نال عشتار من تسفيه ، فرب إبراهيم يحرم أن تضحى امرأة بجسدها فى سبيل إرضاء الآلهة ، ويقاوم هذه التضحية ويعتبرها مهانة للبشرية ويحط من قدرها حتى يلحقها بالزنا !

الزنا ! إنه يعتبر فى بابل فاحشة ، فيربط الزانى والزانية بالحبال معا ويلقى بهما فى الماء ، هذا إذا ضبطت الزوجة متلبسة بالزنا . أما العاهرات المقدسات .. فتيات الهوى .. عاهرات المعبد فإنهن إنما يتقربن إلى الآلهة بأجسادهن قبل الزواج ، إنهن إنما يقبلن تلك المهانة مرضاة للآلهة .. مرضاة لعشتار العطوف لا لإشباع شهوة أو جلب لذة .

ولقد أهان إبراهيم ورب إبراهيم فتيات المعابد فكانت عداوتهن للدعوة الجديدة مريرة ، عداوة من طعن فى دينه وكرامته ، وحط من شأن تضحياته المقدسة حتى ألصقت بالفواحش والمنكرات .

وراحت العاهرات المقدسات وهن أشد الناس عداوة لإبراهيم ومن اتبعه من المؤمنين يقاومن الدعوة الجديدة وينفثن كراهيتها فى صدور الوافدين إليهن من حاران والبلاد البعيدة .

كما غضب لرجال الدين كذلك أولئك الذين عاشوا عبيدا لمعتقدات آبائهم ، الذين إذا دُعوا إلى النجاة .. إلى الهدى كانت قلوبهم فى أكنة مما يدعون إليه ، أولئك الذين يقولون : وجدنا آباءنا على هذا .

واجتمع رجال الدين من الكهنة والكاهنات والعاهرات المقدسات ، ورجال الدولة من الحكام ورجال القصر والموظفين الذين يقتسمون مع الكهنة خيرات المعابد ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

— ماذا أنتم فاعلون بإبراهيم ؟

ولم يقل قائل منهم :

— انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

كانوا يعرفون جميعا أنهم إنما يدافعون عن كيانهم .. عن وجودهم ، وأن غضبتهم إنما هى لأنفسهم ، فلم يستشيروا الآلهة فيما يفعلون ولم يقربوا إليها القرابين ، ولم يمسحوا حوائط المعبد بلحوم الضحايا ولم يطلقوا البخور ، راحوا يديرون قداح الرأى بينهم .

قال قائل منهم :

— أخرجوه من دياركم .

ــ لئن أخرجناه اليوم إنه يعود إلينا بعد أن يشتد ساعده ويقضى علينا ، فقد فتن سواد الناس والعبيد .

ــ فماذا ترون ؟

وصاح صائح منهم :

ــ اقتلوه يخل لكم وجه الناس .

ــ وإن ثار من آمنوا به ؟

ــ نقضى عليهم جميعا ونستريح منهم .

ــ هذا هو الرأى ، لا خير فى أن يقتل إبراهيم ويبقى لوط فقد أفسده .

ــ لنقتلن لوطا فهو يقول إن إبراهيم هداه السبيل .

ــ لنقتلن إبراهيم ولوطا وكل من آمن لإبراهيم .

وذهب إبراهيم إلى المعبد يدعو القوم إلى رب العالمين ويصدهم عن عبادة مردوخ الغارق فى البله والوجوم الذى لايفقه شيئا وإن أطالوا أذنيه ليرمزوا إلى حكمته ، وعن عبادة سين الجالس على عرشه يحمل الفأس وسلسلة القياس وإن كان لا يعقل كيف ينبت الحب وينمو الزرع وينضج الثمار ، ولا يعرف كيف تمسح الأرض وتقاس الأبعاد .

فثار الكهنة وراحوا يقولون للملأ الذين التفوا حوله يستمعون إليه ، لتثأرن الآلهة منكم ، ولتغرقنكم بالطوفان إن استمعتم إلى هذا الكافر بآلهتكم الذين اتخذهم هزوا ، فروا بأنفسكم قبل أن يحل عليكم العذاب .

وصدق الناس ما قاله الكهان وانفضوا من حوله وتركوه قائما وحده يتلفت فى أسى ، إنه يرجو لقومه الهداية بيد أنهم يفرون منه ويعرضون عن دعوته .

وانصرف إبراهيم وهو مطرق الرأس فقد انقضت سنون طوال وهو يدعو الناس إلى الإيمان بالرحمن ، ولم يؤمن بما جاء به إلا قليل من المستضعفين والعبيد . إنه لم يقصر فى دعوته فقد دعا قوافل التجار إلى الله الذى يرعاهم فى الفيافى والقفار ، إلى الله الذى لا إلـٰه إلا هو الرزاق الوهاب القريب من عباده من يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ودعا قومه إلى مغفرة ورحمة من ربهم ، دعاهم إلى ما يحييهم ، إلى ما فيه خير الدنيا وخير الآخرة ، ولكنه كلما دعاهم ليغفر لهم ربهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم .

وراح الكهان ورجال الدولة يدعون عبيدهم والمؤمنين بآلهتهم إلى عمل فيه رضا الأرباب ، إلى عمل تتهلل له الآلهة فرحا ، إلى عمل يرفع مقت الآلهة وغضبها عن حاران وأهل حاران ، هذا العمل المبارك هو قتل إبراهيم ومن معه من السفهاء .

وأعد كل شيء ، واتفق على أن يشن الهجوم على خيام إبراهيم فى عماية الصبح فيقتل الرجال وتسبى النساء وتساق الأنعام والأغنام غنيمة باردة للأرباب !

وأوحى إلى إبراهيم أن اخرج ، أن أسر بأهلك ليلا ، فأذن إبراهيم بالتأهب للرحيل ، أمره الله فكان عليه أن يطيع . لقد غادر أور من قبل وترك فيها أمه إيمتالى وها هو ذا يغادر حاران ويترك فى ترابها أباه آزر، إنه يترك أرض بابل كلها إلى حيث أمره الله ، يترك قومه وعشيرته وأرض الذكريات إلى ملك الله ، يترك أخاه ناحور وأصدقاء له كانت بينه وبينهم مودة وإن لم يؤمنوا بما جاء به ، إلى أقوام لا يدرى ما يكون بينه وبينهم أمودة أم عداوة ؟

أمره الله أن يهاجر ، أمره من أسلم له وجهه أن يخرج بأهله فراح ينفذ أمر

الله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يكن من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .

وجن الليل فركب النسوة رواحلهن وركبت سارة راحلتها . وانطلق الركب ومن حوله الأنعام والأغنام والرجال والعبيد . وسار إبراهيم منشرح الصدر فقد جعل الله له نورا يمشى به وإن كان الليل حالك الظلام .

خرج إبراهيم من حاران . وانطلقت القافلة وهى تحس أن الكون كله يرعاها ويحنو عليها ، ولا جرم فهى أول قافلة تحمل أول فوج من المؤمنين يهاجرون فى سبيل الله .

وفى عماية الصبح أقبل الكاهن الأعظم لمعبد الإلٰه سين ومعه العبيد ومن خدعهم من عباد الأرباب ، تخفى صدورهم العداوة والبغضاء ، جاءوا إلى خيام إبراهيم ليقتلوه ومن آمن له تقربا إلى مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الكثيرة المنتشرة فى أرض الآباء والأجداد .

ونظر الكاهن الأعظم إلى حيث كانت خيام إبراهيم فلم يجد إلا آثار القوم ، فجعل الله صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، وكذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

ودوت فى الفضاء صيحات الغيظ والحنق والضيق ، وقال الكاهن :

ــ ألم أقل لكم إنه ساحر فلم تصدقونى ؟ ها هو ذا قد هرب منكم بسحره ، لو استمعتم إلى نصحى لنصرتم آلهتكم ولقتلتموه فى المعبد ولحرقتموه قربانا للآلهة . إنى أخشى أن تعذبنا الآلهة بالطوفان ما لم نخرج فى طلبه .

فقال قائل منهم :

— إن آلهتنا قادرة على أن تكتب عليه الخراب فلندعه لعذابها .

وخشى الكاهن أن يمعن فى تحريض القوم على الخروج فى أثر إبراهيم فيقول قائل منهم مثلما كان يقول إبراهيم : إن كان للآلهة مشيئة حقا فلتثأر لنفسها ممن أهانها .

وعاد الكاهن ومن جاءوا معه لقتل إبراهيم والمؤمنين مطاطئى رءوسهم ، يفكرون فيمن أفضى بسرهم إلى إبراهيم ، ويقنعون أنفسهم بأن إبراهيم عرف بسحره ما بيتوه بليل ، ولم يدر بخلدهم أن رب إبراهيم نجاه ولوطا إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

٢٣

انطلقت القافلة فى ملك الله تتهادى على طريق طالما قطعته قوافل المهاجرين والتجار منذ فجر التاريخ ، إلا أن هذه القافلة كانت تتميز عن كل القوافل التى طرقت هذه السبيل بأنها أول قافلة مؤمنة تهاجر فى سبيل الله .

لكم أشرقت الشمس على القوافل الضاربة فى تلك البيداء مذ خرجت من أرض بابل إلى أرض الشام وكم غربت عنها ، وكم تألقت فى سماء الليل النجوم والكواكب والأقمار ؛ إلا أن جلال الشروق وروعة الغروب وتلألؤ النجوم فى السماء كان ذا أثر متفرد فى أرواح رجال القافلة ونسائها وعبيدها ، فقد كان جلال الشروق تسبيحا لله العظيم ، وروعة الغروب ابتهالات وتجليات ، وتلألؤ النجوم فى سواد الليل كإشراق النور الإلـٰهى فى ظلمة النفوس ، وبزوغ القمر كبزوغ الإيمان فى الذوات المؤمنة التى أسلمت وجهها لله .

كانت النفوس آمنة مطمئنة ، فالقافلة تسير فى أرض الله بأمر الله . هو الذى أمر بالخروج وهو الذى يأمر بالنزول حيث يشاء . وكانت الأعين تتقلب فى خلق الله فتنشرح الصدور وتتهلل القلوب بالفرح ، وتتصل الأرواح بروح الكون ، وتغمرها بتجليات الإلـٰه الواحد بديع السموات والأرض .

وكانت المراعى كبساط سندسى أخضر تخفق بالحياة وتنطق بقدرة الله ، النوار الأصفر ينمو فى وسط البساط الأخضر وعلى حواشيه فى روعة تملأ النفوس ، واللوحات الفنية تتشكل أشكالا مختلفة وتتعاقب على صفحة

السماء وفى الأفق البعيد فتبده العقول وتحرك النفوس والأرواح وتطلق الألسنة بتسبيح الخالق المبدع المصور .

كانت قافلة الإيمان ترى الله فى كل ما تمد إليه أبصارها ، فى الشجر والزرع والزهور والطير . فى الجبال والصحراء والرمال .. فى الشمس والقمر والنجوم .. فى رائعة النهار وفحمة الليل .. وكانت النفوس تحس الله فى أعماقها وأنه نور البصائر والأبصار .

وانقضى يومان والقافلة تسير فى المراعى والحقول بين وادى الفرات والأقاليم الجبلية المخصبة ، وأشرف إبراهيم ومن معه على نهر الفرات وتأهبوا لعبوره ، ولم يكن إبراهيم أول من يعبر الفرات لينساب فى أرض الشام فقد عبره قبله آلاف الرجال من التجار والمهاجرين والجنود الرحل أطلق عليهم قومه « العبريين » ، ولكن عبوره الفرات كان يختلف عن عبور من سبقوه ، إنه حدث عظيم يقف عنده التاريخ ، إن عبوره لهو عبور الإيمان فرارا من الكفر ، عبور التوحيد فرارا من الوثنية الطاغية ، ليمكن لدين الله فى أرض مباركة يبزغ منها نور الله ليغمر العالمين .

راح إبراهيم ومن معه من الرجال والنساء والعبيد والأنعام والأغنام يعبرون الفرات عند مخاضة كانت معبرا للعابرين ، وخلفوا وراءهم العراق وانسابوا فى بادية الشام ، ولم تنقبض نفوسهم لمغادرة الوطن ولم تمتلئ أعينهم بالدموع حسرة على الأهل والأصدقاء ، فقد كانوا يعلمون أن الله جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم .

سار إبراهيم ومن معه فى أرض الشام وكانوا إذا نزلوا لا يجدون صعوبة فى الحديث مع أهلها ، فإن اللغة السائدة بين الأقوام الذين كانوا يعيشون من اليمن

جنوبا إلى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء شمالا كانت لغة واحدة ، وما كان الاختلاف بينها إلا من قبيل اختلاف اللهجات .

كان ميلاد هذه الشعوب السامية فى شبه جزيرة العرب ، فهاجر منها بعض القبائل إلى بلاد الهلال الخصيب بين وادى الفرات والبحر الأبيض ، وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة بإفريقية .

وكانت اليمن هى مصدر العربية الأول ، وقد انتشرت القبائل السامية ولغتها العربية من أقصى الجنوب فى شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال فى العراق ، وكانت لغة أهل بابل الآرامية — العربية الشمالية — وكان إبراهيم من الساميين عرب اليمن الذين نزلوا بابل ، فكان يتحدث بالأرامية — العربية الشمالية — فلم يجد صعوبة فى أن يتحدث إلى أهل الشام ، والله يقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

تعاقب الليل والنهار وإبراهيم ومن معه يسيرون فى الكون العريض ؛ زفيف الهواء فى آذانهم أشجى من ترديد الناى فى المعبد ،وعسعسة الليل وتنفس الصبح ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والجبال جُدَد بيض وحمر وغرابيب سود ، والناس والدواب والأنعام ، كل أولئك ينزل بقلوبهم خشية وفرحا فياضا يفوقان كل فرح تبعثه أحر الصلوات فى النفوس .

ونزلت القافلة تستريح ، فجاء الرجال والنساء والأطفال من كل مكان ينظرون ، فأمر إبراهيم أن تحلب الأبقار وأن يوزع اللبن على أهل المنطقة الذين أقبلوا على أهل القافلة يموج بعضهم فى بعض .

ورأى إبراهيم أطفال القوم يلعبون مع أطفال المؤمنين ، فقد أنجب الذين

خرجوا معه من أور ومن آمنوا به فى حاران والعبيد ، أنجبوا ذرية ، أما هو وسارة فلم يرزقهما الله أولادا . إنه فى شوق أن تكون له ذرية مؤمنة ، ذرية تحمل رسالة رب العالمين وتهدى الناس إلى الصراط المستقيم .

وجاء أهل المنطقة ببضائعهم وكانوا يمنون النفس بالبيع والشراء وجنى الأرباح ، بيد أن آمالهم سرعان ما خابت فقد وجدوا أناسا زاهدين فى الدنيا لا يدير رءوسهم الدمقس والحرير ، ولا يسيل لعابهم الذهب والفضة ، ولا يمدون أعينهم إلى ما فى أيدى الناس ، فقد كانت تجارتهم مع السماء ينفقون عن سعة إنفاق من لا يخشى الفقر ، ويجودون بكل ما عندهم ويتصدقون بما يملكون ويرجون الثواب من الله .

وكان إبراهيم يجوس خلال القافلة مشرق الوجه تترقرق السماحة فى محياه ، وكان يأسر القلوب بحلمه وحكمته ويخلب الألباب بفصاحته ، وكان حديثه عن الله الواحد الأحد الفرد الصمد يزخر بالإيمان العميق فيؤثر فى القوم فينظرون إليه مدهوشين .

وكان يقول لمن ألقوا إليه سمعهم : والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وكان إبراهيم يقوم إلى الصلاة ويصطف من معه خلفه ، فيبدون كملائكة أبرار هبطوا من السماء ليملئوا الأرض نقاء وتسبيحا وحمدا لله رب العالمين .

وهزت دعوة إبراهيم من شرح الله قلوبهم للإيمان من أهل المنطقة فهرعوا إليه يشهدون أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وكانت سارة تعد الطعام فى خيمتها من لبن وعدس وبر ، وتأمر بذبح العجول للضيف ، فما كانت خيام إبراهيم تخلو من الوافدين على الرجل المبارك الذى سرعان ما ذاع نبأ كرمه فى المنطقة .

وكان إبراهيم يشرف بنفسه على حلب البقر والغنم وكان فى بعض الأحيان يحلبها بيديه ، وكان يتهلل بالفرح كلما رأى الناس يعودون إلى دورهم أو خيامهم يحملون ما أصابوا من حليب . هو من مال الله .

وبقى إبراهيم ما شاء الله له أن يبقى ، ثم شد الرحال إلى حيث يوجهه الله ؛ فسار معه من آمنو بالله من أهل المنطقة تاركين وراءهم آلهم وأوطانهم ليسيحوا فى الأرض ابتغاء وجه الله .

انطلق إبراهيم و لم ينس له أهل المنطقة فضله ، إذا أطلقوا على المكان الذى نزل به « حلب » تخليدا للحليب الذى دخل دورهم من أنعام الرجل المبارك ، الرجل الذى غمرهم بفضله وكرمه و لم يأخذ ثمن ما أعطاهم ، بل كان يقول إنما رزقى على الله .

وانساب إبراهيم ومن معه فى معبد الله ، يرون آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم فيتذكرون ويعقلون ويهتدون ويتقون ويشكرون كلما ساروا فى الأرض ورأوا ثَمَّ رأوا عظمة الله ، فزادهم ذلك إيمانا وتسليما .

وأشرفت عليهم جبال لبنان تكسوها الخضرة وتزين سفوحها أشجار الأرز والثمرات مختلفة الألوان ، ويكلل هاماتها الثلج الناصع البياض ، وتتخللها المسالك كالشرايين تحمل الحياة إلى أرجائها ، ويتدفق الماء من

الصخور وينحدر على الجبال له خرير أعذب من أروع الألحان ، موسيقا الله تتناغم مع الكون فتعزف لحنا سماويا ساحرا أبدا ، ينفث فى صدور البشر الحنان والأمن والفرح الفياض .

ونظر إبراهيم ومن معه إلى جبال لبان وقد غشيتهم رهبة وامتلأت نفوسهم روعة ، وهامت أرواحهم لتتحد مع روح الكون وتنتشى بتجليات الله . وفاضت جوانحهم بما امتلأ من صفاء وجلال ونشوة وإيمان فراحت ألسنتهم تسبح لله ، وامتزج تسبيح المؤمنين وتسبيح السموات والأرض والجبال .. إن الوجود كله ليؤدى صلاة حارة تلهج بالشكر لله .

وراحت القافلة ترقى فى مسالك الجبل فنعم أهلها بالطيبات ، وملئوا سقاتهم من الماء البارد المتدفق من الجبال ، وسعدت الدواب والأنعام بطيب المرعى . ولم تزل القافلة تسرى فى مسالك الجبال وتدور معها كلما دارت ، ثم أخذت تنحدر معها لتنساب فى البادية متجهة إلى دمشق، إلى الجنة الفيحاء .

وبلغ إبراهيم ومن معه أرباض دمشق ولاحت لأعينهم المدينة الجميلة التى تهفو إليها قلوب الناس . ولكن إبراهيم والمؤمنين لم يستخفهم الفرح لأنهم عما قليل سيتفيئون ظلالها ويتردون بمائها ، فإن مباهج الأرض كلها لا قيمة لها عندهم ، إنهم إنما ينظرون إلى السماء . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. جنة عرضها السموات والأرض تجرى من تحتها الأنهار ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أعدت للمتقين خالدين فيها أبدا .

وبلغت القافلة أبواب دمشق وكان على رأسها إبراهيم وعن يمينه لوط

وحوله الرجال ووراءهم هوادج النساء والماشية ، وكانت الثيران والأبقار والكباش والنعاج والجديان والمعز كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، وكان العبيد الأشداء ينتشرون حول القافلة الهائلة يحرسونها وفى أيديهم الهراوات والرماح . وكان على القافلة مهابة وجلال حتى إن الأبصار اتجهت إليها ، إنها قبيلة قوية لا تقل فى شوكتها عن القبائل التى كثيرا ما جاءت للرعى ثم وثبت على الملك وانتزعته من حكام البلاد .

وهرع الناس إلى القافلة يسألون من أين هذه القبيلة ؟ وإلى أين هى متجهة ؟ كان الجواب عجيبا زاد فى دهشة الناس : إنها قبيلة سامية جاءت من أرض بابل ، وما أكثر القبائل التى جاءت من تلك البلاد أو من الجزيرة العربية لترعى ثم شنت الغارة وانتزعت الملك ممن بيدهم الحكم . ولكن هذه القبيلة لم تجىء كما جاءت تلك القبائل للتجارة ، وإنما جاءت بأمر الله لتدعو إلى دين الله ، ولا تدرى أيان تسير وأنَّى ينتهى بها المطاف ، فهى تسير بأمر الله يوجهها حيث يشاء !

وحطت القافلة رحالها فى برزة شمال دمشق ، وقام رجالها ونساؤها وولدانها يصلون لله ، واجتمع الناس ينظرون إليهم . إنهم لا يصلون لصنم أو وثن أو تمثال وإن صلاتهم لتختلف عن الصلوات التى ألفوها . ولاح فى وجوه الناس العجب وحب الاستطلاع .

وقضيت الصلاة وهرع الناس إلى رجال القبيلة يسألون عن الإلٰه الذى يقدمون إليه صلواتهم ، فقالوا لهم إنه هو الله رب السموات والأرض وما بينهما . الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر

لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار .

وراح إبراهيم يتحدث إليهم عن الله العزيز الحكيم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، حديثا عامرا بالإيمان والحكمة ينفذ إلى القلوب . وكان بين القوم إليعازر الدمشقى وكان يصغى إلى دعوة إبراهيم بقلب متفتح وصدر منشرح ، وقد أحس أن شيئا قويا يشده إلى ذلك الرجل المهيب .

كان إليعازر الدمشقى يرى إبراهيم لأول مرة ، وكان يصغى إلى ما يدعو إليه لأول مرة ، بيد أنه أحس انجذابا إليه ورغبة عارمة فى أن ينطلق إليه ويعلن إيمانه بالله الذى يدعو إليه ، وإيمانه بالرسالة التى جاء بها ، فقد أحس أنه يوحى إليه أن يؤمن بالله وبرسوله .

وما انتهى إبراهيم من حديثه حتى هرع إليه إليعازر والدموع تجرى على خديه وقال :

ــ أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

٢٤

أشرف إبراهيم ولوط ومن معهما من الرجال والنساء والعبيد على دمشق ، وكان سكان المنطقة من أجناس متباينة ، إلا أن الآموريين وهم مثلهم من الساميين كانوا هم الغالبية ، وكانوا يتحدثون الآرامية مثلهم فكان التفاهم بينهم ميسورا . رأى إبراهيم ومن معه من المؤمنين نهر بردى يروى أراضى الغوطة والمروج الخضر إلى مدى البصر ، والثمرات وفيرة من أعناب وزيتون وتين وقمح وشعير وبصل وثوم وحمص وفول ، ولم تثر هـذه الخيرات انتباههم ، فلو كانت أطماعهم تنحصر فى هذه الخيرات والتمتع بها مثل بدو الجزيرة العربية أو بدو صحراء العراق أو بدو الصحراء السورية لما خرجوا من أور ، فقد كانت أور كثيرة الخيرات كالجنة الفيحاء .

إنهم إنما خرجوا لله، لا يريدون علوا فى الأرض ولكن يريدون أن يعلو اسم الله ، أن يكون الأمر كله لله الواحد القهار ، أن تسود مملكة السماء .

واتجهوا قاصدين المعبد ، وكانت الأسواق تغص بالسلع والطرقات تموج بالناس : الرجال فى ملابس زاهية ، والنساء يرتدين ثيابا تغطى إحـدى الكتفين وتترك الأخرى عارية وينتعلن أحذية حمراء . وكان الجمال والبهجة والإغراء تنبعث من كل جانب ، ولكن إبراهيم ومن معه ساروا لا يلتفتون ، فقد انقطعت الأواصر بينهم وبين اللهو والتجارة واتصلت الأسباب بينهم وبين السماء .

وأقبل رجل قوى مفتول العضلات يحمل جعبة من السهام ، أقبل على رجل من أتباع إبراهيم وقال له :

ــ إنى أتحداك .

و لم يفهم الرجل سببا لذلك التحدى فلم يكن بينهما عداء وما تقابلا قبل اليوم ، وقال الرجل المفتول العضلات :

ــ نتراشق بالسهام ومن يقتل صاحبه يستولى على ما يملك .

من قال له إن من هاجر فى سبيل الله يبغى متاعا ؟ يقتل نفسا بغير نفس فى سبيل غرض زائل ؟ لقد ألقى الدنيا كلها وراء ظهره ابتغاء مرضاة الله ، وهو لا يطمع أن يفوز بمتاع قليل بل يطمع فى الفوز العظيم ، فى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

لو أنه دعى ليحارب فى سبيل الله للبى النداء وهو منشرح الصدر فهو يدعى إلى إحدى الحسنيين : الفتح أو الاستشهاد فى سبيل الله ، أما أن يدعى إلى ما يغضب الله ويسارع إلى المعصية فهذا هو الخسران المبين .

وقال الرجل المؤمن :

ــ أنا لا أقبل تحديك .

فصاح الذين التفوا حولهما منكرين ، فالتقاليد تقضى أن يقبل التحدى وإلا كتب على نفسه العار . و لم يحفل المؤمن ولا من معه بأصوات الهزء والسخرية فهم لا يقيمون وزنا للتقاليد بل يحملون معاول الهدم ليجتثوها من جذورها حتى تكون كلمة الله هى العليا .

وصاح صائح :

ــ أنا أقبل نزالك .

والتفتت العيون فإذا شيخ جاوز الخمسين يحمل أثوابا من القماش ، وكان نحيلا لا يبدو عليه أنه مقاتل شديد .

ووضع الشيخ ما كان يحمله والتفت إلى الملأ وقال :

ــ ائتونى بقوس وجعبة سهام .

وقدم إليه أحدهم قوسه وجعبة سهامة فراح يختبر القوس اختبار خبير ، وسرعان ما تكونت حلقة واسعة من القوم وارتفعت الصيحات . ووقف الرجلان داخل الحلقة وبينهما مسافة ، ووضع كل منهما السهم فى قوسه وشدها وانتظر أن يعطى الحكم إشارة البدء فى المعركة ، المعركة التى لم يكن لها سبب إلا حب النزال وسيطرة قانون الغابة على العقول .

وأعطيت إشارة البدء فى قتال لا ينتهى إلا بموت أحد المقاتلين ، سيلفظ أحدهما روحه فى سبيل الشيطان ، فى سبيل نزوة طائشة . وأطلق الشاب المفتول العضلات سهمه فاتقاه الشيخ فى مهارة ، ثم أطلق الشيخ سهمه فطاش ، وراحت السهام تتبادل والشاب والشيخ يروغان منها فى خفة وسرعة وحرص شديد .

ودوت فى المكان صيحات متعطشة إلى الدماء وكانت الأعين تنظر فى اهتمام ، والصدور تعلو وتنخفض فى حماس ، والأصوات تنطلق تحث المتقاتلين أن يقضى أحدهما على الآخر . كانت القلوب كلها قاسية إلا قلوب إبراهيم ومن معه من المؤمنين فقد امتلأت أسى وإشفاقا ، وزاد إصرارهم على أن يخرجوا هؤلاء القوم من الظلمات التى يعيشون فيها إلى النور .

وراح المتقاتلان يدنوان أحدهما من الآخر والسهام تتطاير ، وانتهز الشيخ لفتة طائشة من الشاب المفتول العضلات المدل بقوته فسدد إليه سهما استقر

فى عنقه ، فخر الشاب صريعا يخبط فى دمه بين تهليل القوم وصخبهم .

وسار إبراهيم ومن معه من المؤمنين ، وكان إبراهيم فى نفسه يؤمن بالصراع وبأنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، كان يؤمن بالصراع فى سبيل هدف جليل ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وليس بالصراع الذى تهدر فيه كرامة الإنسان وإن أقره العرف والتقاليد .

إنه يؤمن بالسلام والمحبة . فليدعون القوَم بالتى هى أحسن ، فإن قاوموه وفرضوا عليه القتال فسيقاتلهم وهو واثق أن النصر سيكون حليفه ، فما النصر إلا من عند الله ، ولينصرن الله من ينصره إن الله قوى عزيز .

ولاحت لهم منازل دمشق على ضفتى نهر بَرَدَى ، مستطيلة الشكل أساسها كتل من الحجارة وجدرانها من اللبن وسقوفها من أعواد النباتات طليت بالطين ، كانت كمنازل أور إلا أنها ترتفع على الروابى أو على سفوح الجبال ، فينساب نهر بَرَدَى فى رفق لا تخشى غوائله .

ووصل إبراهيم وأتباعه إلى معبد الإلـه بعل وأخته عنت ، وكان مزيجا من معابد البابليين ومعابد المصريين . كانت به تماثيل لشماش وعشتار وسين ، وتماثيل لأبى الهول وآلهة المصريين . كان القوم على الطريق بين حضارتين كبيرتين : حضارة بابل وحضارة الفراعنة فاقتبسوا ما وصل إليهم من الحضارتين ، وفرضت الآلهة المختلفة سلطانها عليهم .

وراح القوم يقدمون القرابين من الخنازير البرية إلى بعل وعنت وسين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ، بين صلوات الكهان وأناشيد المغنين وموسيقى العازفين والبخور الذى عبق به المكان .

وكان فى دمشق كثير من المصريين يمارسون أعمالا مختلفة ، وكان منهم موظفون من قبل ملك مصر ، إذ كانت سورية آنئذ فى حكم المصريين ، ووقف المصريون فى المعبد أمام آلهتهم يحرقون البخور ويتلون الابتهالات التى يترنم بها المصريون عند الاحتفال بحرق البخور :

إن النار تهيًّا والنار تضىء .

إن البخور يوضع على النار والبخور يضىء .

وشذاك يأتى للملك يأيها البخور .

وشذى الملك يأتى إليك يأيها البخور .

وشذاكم يأتى للملك يأيها الآلهة .

وشذى الملك يأتى إليكم يأيها الآلهة .

إن الملك معكم يأيها الآلهة .

وأنتم مع الملك يأيها الآلهة .

والملك يعيش معكم يأيها الآلهة .

وأنتم تعيشون مع الملك يأيها الآلهة .

والملك يحبكم يأيها الآلهة.

فأحبوه يأيها الآلهة .

وراح إبراهيم ومن معه ينظرون ويسمعون ؛ إن القوم اتخذوا دين بابل ودين مصر وعكفوا على أصنامهما يعبدونها ويقدمون لها الخنازير قربانا وزلفى .

ووقف إبراهيم فى المعبد وقال:

— يا قوم . يا قوم . يا قوم .

وترك الناس صلواتهم وهبوا ليروا لماذا يدعوهم ، وسار الكهان فى أثر الناس ينظرون . قال إبراهيم :

ـــ يا قوم ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ؟ الله ربكم ورب آبائكم الأولين.

فقال قائل :

ـــ من الله الذى تدعونا إليه ؟

ـــ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لأية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكّرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

فصاح أحد الكهان :

ـــ لئن لم تنته لتكونن من المرجومين .

و لم يثر الناس بل ألقوا إليه سمعهم . كانت الآلهة التى يعبدونها آلهة أقوام آخرين وإن عكف على عبادتها آباؤهم الأولون ، وقال قائل منهم :

ـــ إإلهك أعظم من بعل وعنت وسين وشماش وعشتار وآلهتنا الأخرى ؟

ـــ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟. وإن تعدوا نعمة الله

لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحيــاء ومايشعرون أيان يبعثون . إلـٰهكم إلـٰه واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين .

وضاق صدر الكهان بذلك الواغل عليهم الذى جاء إلى معبدهم ليدعو إلى ربه وزاد فى ضيقهم أن الناس استمعوا إليه معجبين ، فقالوا :

ــ هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ إنه جسد ليأكل الطعام ويمشى فى الأسواق كما تمشون . يا قوم ضعوا أيديكم فى فمه ولا تدعوه يسب آلهتكم . يا قوم إن تصغوا إليه يحق عليكم غضب آلهتكم ويكتب عليكم الخراب المهين .

فقال إبراهيم :

ــ يا قوم إنما أنا منذر وما من إلـٰه إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وراح الكهان يدفعون الناس لينفضوا من حوله :

ــ أسرعوا يا قوم الفرار قبل أن يحيق بكم غضب الآلهة وعذاب أليم ، ضعوا أصابعكم فى آذانكم حتى لا تسمعوا ما يفتريه على الآلهة السادة البعول فرُّوا من هذا البلاء ولا تصدقوه .

ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون .

وقال إبراهيم :

ــ يا قوم .. إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم

عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

وارتفع صياح الكهان ورجال الدين وتداخل بعضه فى بعض :

ــ يا قوم لا تذرنَّ آلهتكم ، ولا تذرن بعلا وعنت وعشتـــار وسين وشماش .

يا قوم فروا من عذاب أليم . يا قوم .. يا قوم ..

وجلجلت الأصوات و لم يعد أحد يفقه ما يقال . وخرج الناس من المعبد وعاد إبراهيم ومن معه من المؤمنين إلى خيامهم ، وقد زاد إبراهيم ما لقيه اليوم إصرارا على تبليغ رسالة رب العالمين .

٢٥

حطت بالقرب من خيام إبراهيم قافلة مصرية قادمة من لبنان ، وكانت تحمل جرارا فخارية مستطيلة مملوءة بزيوت الأرز التى تحنط بها موميات الفراعين ، وبأخشاب الأرز التى تصنع منها توابيت الأشراف والحكام .

وكان فى القافلة بعض من صناع الأسلحة المصريين ، وكانوا يبيعون الناس أسلحة مصرية ويشترون منهم أسلحة آسيوية : خناجر مقابضها كالأهلة وسيوف تشبه سيقان الحيوان ، وبلط تختلف فى شكلها عن البلط المصرية .

وكانوا يشترون كذلك أوانى حورانية من الفخار الأسود : أباريق ذات مقابض مزدوجة برسوم ملونة محلاة بالطيور والأسماك ، وأوانى سوداء محززة برسوم ملئت باللون الأبيض ، فقد أصبح المصريون من سكان الدلتا يقبلون على شراء هذه الأوانى بعد أن وثبت القبائل السامية التى جاءت إلى مصر بقصد الرعى واستولت على الحكم دون قتال أو غارة .

وزار رجال القافلة المصرية خيام إبراهيم ورأوا الرجل الجليل ، وجلسوا يتحدثون معه وينصتون إلى ما يقول ، وكانوا يفقهون قوله فهو يتحدث بنفس اللغة التى يتحدث بها الرعاة الساميون الذين استولوا على دلتا النيل ، وكانت تلك اللغة لهجة من تلك اللهجات العربية ، فقد كان جنوب الجريرة دائما مخزنا هائلا من مخازن البشرية تدفقت منه هجرات استولت على العراق وسورية ، وامتد سلطانها حتى شمل مصر السفلى .

و لم تكن تلك الهجرة أول عهد الساميين بمصر ، فقد تسلل عرب الجزيزة العربية إلى وادى النيل قبل عهد الأسرات عن طريق القصير . وكانوا فى أوطانهم محرومين من الأنهار والاستقرار فهاجروا إلى الفرات والنيل والأردن حيث الماء والاستقرار .

وكان سكان الدلتا يتعلمون الآرامية من القبائل التى استأذنت فى الرعى فى شرق الدلتا حتى قبل أن تشب لانتزاع الحكم من الفراعين ، وقد زاد إقبال الناس على تعلم تلك اللغة بعد أن بدأ حكم الهكسوس « حتا خاسوت » حكام البلاد الأجنبية ، وكان التجار يتكلمونها حتى قبل أن تفد القبائل السامية إلى دلتا النيل بقصد الرعى ، فهى نفس اللغة التى يتفاهمون بها مع العموريين فى سورية ، والكنعانيين فى غزة وما عرف فيما بعد بفلسطين . فقد كان الآراميون فى العراق والعموريون فى سوريا والكنعانيون فى فلسطين من الساميين ، وكانت لغتهم واحدة وإن اختلفت لهجاتهم باختلاف المناطق التى نزلوا فيها .

وكانت التجارة فى ذلك الوقت فى أوج ازدهارها ، فكانت السفن المصرية تنقل السلع والثقافات المختلفة بين مصر وقبرص وكريت وشواطئ البحر الأبيض ، وكانت القوافل تغدو وتروح بين بابل وجبيل ودمشق ومنف واليمن والعقبة ، وكانت اللغة العربية هى لغة التفاهم و لم يكن اختلافها إلا من قبيل اختلاف اللهجات .

كان المصريون يصغون إلى إبراهيم فى خيامه ، و لم يجذب انتباههم شعره الأسود الفاحم ولا رداؤه الفضفاض المخطط بخطوط زرقاء وحمراء ، فقد رأوا مثله آلافا فى سورية ، وليس منظره غريبا حتى على من لم يغادروا البلاد

المصرية ، فإنه لا يختلف عن « هاعبرى » البدوى الذى جاء إلى مصر فى عهد سنوسرت الأول ، و « أبيشا » زعيم القبيلة السامية التى جاءت إليها فى زيارة رسمية سجلت وقائعها بالرسوم الفرعونية على جدران المعابد .

ورأوا مثله كثيرين من العبريين — الجنود المرتزقة — الذين عبروا الفرات واشتركوا فى القتال الدائر بين الملوك والطامعين فى السيادة فى منطقة الشرق الأوسط ؛ ولكنه كان عبريا من طراز آخر يختلف عن العبريين المقاتلين الذين يعيشون على سفك الدماء ، كان عبريا يدعو إلى إلـٰه واحد عظيم له ما فى السموات وما فى الأرض ، الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وهو الذى يزجى السحاب وينزل من السماء ماء ليحيى به الأرض بعد موتها ، وهو الأول والآخر ، وهو الذى أنشأ الخلق وهو القادر على بعثهم بعد أن يصبحوا عظاما وترابا ليحاسبوا على أعمالهم ؛ فمن عمل سيئة من ذكر أو أنثى فلا يجزى إلا بها ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء بغير حساب .

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور هو ما يثير دهشتهم . إنه لا يدعو إلى بعل أو عنت أو أى آلهة من آلهة القوم الذين يعيش بينهم ، ولا يدعو إلى مردوخ أو سين أو شماش أو عشتار أو أى من آلهة بابل الأرض التى جاء منها ، ولا يحقر آمون إلـٰه المصريين كما فعل الساميون الذين جاءوا إلى مصر للرعى ثم وثبوا على الملك وأسسوا حكمهم فى الدلتا ، إنه إنما يدعو إلى دين جديد تقبله الفطرة السليمة ، يدعو إلى الوحدانية المطلقة ، إلى أن يسود حكم السماء فى الأرض فالملك لله يورثه من يشاء من عباده .

وأثار دهشتهم أنه يتحدث عن البعث بعد الموت ، وعن الحساب والثواب

والعقاب ، وما كان أهل بابل يعرفون البعث فهم يعتقدون أن الإنسان بعد أن يموت يهبط إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها . وكذلك كان العموريون الذين يسكنون سورية والكنعانيون الذين يعيشون على ساحل البحر الأحمر فى غزة وما حولها لايؤمنونبالبعث . المصريون وحدهم كانوا يؤمنون بالقيامة بعد الموت ؛ فمن أين جاء ذلك البدوى « الهاعبرى » الذى عاش فى بلاد لا تعرف الحياة الأخرى بفكرة الآخرة ، وأن الآخرة خير لمن اتقى ؟

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور يثير دهشتهم ، ووصفه لليوم الآخر يحيرهم ، وما دار بخلدهم أن الذى نشر فكرة البعث بين المصريين إنما هو أخ له فى الدعوة قام فى منف يدعو المصريين إلى عبادة رب العالمين ، إلى عبادة الله الذى يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا ، ذلك هو إدريس عليه السلام ، وكان مثله صديقا نبيا .

وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويبشرهم بجنات النعيم والفوز العظيم ، ويخوفهم بنار جهنم والخزى والخسران المبين . كان آدم على علم ، فقد علمه الله الأسماء كلها ، وكان أبناء آدم على علم توارثوه بأن الله واحد له ما فى السموات وما فى الأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وفسقوا عن الدين واتخذوا من دون الله آلهة وجعلوا له شركاء ، فأرسل إليهم رسله ليعيدوهم إلى الصراط المستقيم .

أرسل الله إدريس فهدى قومه إلى الحق وإلى طريق الرشاد ، فلما طال

عليهم الأمد قست قلوبهم ونسجوا حوله الأساطير ، واتخذوا لله شركاء وعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . وكذلك أرسل الله نوحا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب شديد . فكذبوه ، قال : رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

فلما أصروا على كفرهم قال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا .

وأغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

وانتهت عبادة ودوسواع ويغوث ويعوق ونسر ، الأصنام التى عبدها قوم نوح ، وعبد من حملهم نوح فى الفلك الله وحده ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادوا لعبادة الأصنام والكواكب والنجوم : لعبادة مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الأخرى فى بابل ، وبعل وعنت فى سورية ، وأزريس وحور وآمون وست فى وادى النيل . وقد أرسل الله إبراهيم ، ذلك الرجل الجليل ، بما أرسل به الرسل من قبله ، أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا .

راح إبراهيم يخاطب المصريين الذين أقبلوا للتجارة ، والسوريين الذين ألقوا إليه سمعهم . إنه فى خيامه مهيب لا يستمد سلطانه من مراسيم المعابد أو نظام الدولة أو الكهنوت أو أى سلطان أرضى ، إنه إنما يستمد سلطانه من إلٰه قوى هو فوق الطبيعة وأقوى من كل الظواهر الكونية التى يقدسها القوم . إن ما يحدث به إن هو إلا فتح جديد فى العقيدة ولكن القوم كانوا فى شك مريب مما يدعوهم إليه ، فكذبوه كما كذبت رسل من قبل .

وغادر التجار المصريون خيام إبراهيم ودخلوا دمشق ليشتروا البرونز ومنتجاته ؛ فالبرونز معدن جديد توصل السوريون إلى سبكه ويقبل الناس فى مصر عليه إقبالا شديدا . فقد عرف المصريون النحاس واستخرجوه من سيناء ، وقطعوا الأشجار فى سيناء ليصهروه ويصنعوا منه ما يريدون ، أما البرونز فقد أصبح منذ استكشافه طابع العصر ، وأصبح الناس يزهون باقتنائه على الرغم من توافر الذهب فى مصر !

وقام إبراهيم ومن معه من المؤمنين ليدخلوا دمشق ليدعوا الناس إلى رب العالمين ،ليقولوالهم ، وما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، فقد كان اليوم يوم راحة ينطلق فيه أهل دمشق إلى المروج حيث الخضرة والماء المتدفق من الصخور .

فمروا بحصون دمشق ومبانيها ذات الشرفات ، ومعابد بعل وعنت والآلهة الأخرى الذين جلبوا من بابل وآشور ووادى النيل والجزيرة العربية ، وبلغوا الحدائق التى ازدانت بالورود والرياحين وتألقت بألوان خضراء وحمراء وبيضاء وصفراء وبنفسجية تشرح الصدور وتسر العيون . وكان الرجال يرتدون أردية كثيرة الوشى أرجوانية مخططة بخطوط زرقاء وسوداء ، ويغطون رءوسهم بشيلان متباينة الألوان ثبتت بعقال ، ويلبسون فى أرجلهم نعالا زمت بخيوط . وكان النساء يلبسن ثيابا زاهية الألوان تغطى إحدى الكتفين وتترك الأخرى عارية نهبا للعيون ، وكن يزين رءوسهن بشرائط ويلبسن فى أرجلهن الخلاخيل .

وراح رجال يضربون على آلات موسيقية ذات ثمانية أوتار ، وآخرون ينفخون فى المزامير ، وسرى الغناء فى كل مكان وجلجلت ضحكات النساء فى جنبات الرياض ، وراحت أوانى الشراب تدور فتدير الرءوس ؛ كان النبيذ كثيرا أكثر من الماء فى نهر بردى !

وألقى الرجال أرديتهم الفضفاضة على الأرض فبدوا فى ملابسهم الداخلية الصفراء ذات الأكمام الضيقة والسراويل المحبوكة ، وخلع النسوة أحذيتهن الحمراء ، ورسوست الخلاخيل وهن يضربن الأرض بأرجلهن من كثرة الضحك ، فانجذبت العيون إلى الفتنة الطاغية.

وغض المؤمنون من أبصارهم وأغلقوا نفوسهم فى وجه الأغانى الماجنة والضحكات المعربدة ، وقام إبراهيم يقول : زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآل .

وصاح صائح وهو يرفع آنية النبيذ ويعب منها :

— هذه هى الحياة ، ليس هناك خير مما نحن فيه ، خمر ونساء وما لذ وطاب .

— أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .

— إن جناتنا كجنات ربك تجرى من تحتها الأنهار ، أتريدنا أن نستبدل ما نعرف بما لا نعرف ، أن نترك ما نحن فيه لنفوز بما تعدنا به ، لقد قلت إذا شططا .

— يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، يا قوم ما

الحياة الدنيا إلا حياة الغرور .. متاع قليل ثم مأوى الكافرين جهنم وبئس المهاد. يا قوم لا تفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع، يا قوم متاع فى الدنيا ثم إلى الله مرجعكم ثم يذيقكم العذاب الشديد .

يا قوم .. وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟!

يل قوم .. اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

فخفتت الأصوات ، وتراخت الأصابع التى تلعب على الأوتار ، وحبست الأنفاس التى تنفث فى المزامير ، وماتت الضحكات على الشفاه ، وهمدت وسوسة الخلاخيل ، ووضعت أوانى النبيذ على الأرض ، وتعلقت الأعين بذلك الرجل الذى راح يخوفهم الله وعذابه ، ويصف لهم جهنم وما فيها حتى جعلهم يحسون لهيبها وإن كانوا يعيشون فى ظل ممدود .

ورأى إبراهيم الخوف على وجوه القوم فقال :

— توبوا إلى الله .. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه .. وإن الله لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

توبوا إلى الله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، فإن الله غفور رحيم .

يا قوم توبوا إلى لله عسى أن تكونوا من المفلحين .

يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود .

وضاق أحدهم بما يقول إبراهيم فسولت له نفسه أن يصيح ليخرج الناس

من ذلك الصمت الذى ران عليهم فقال :

— يا إبراهيم إنى كافر بربك ، كافر بما تدعونا إليه ، فإن لم تنته عما أنت فيه لنرجمنك .

— يا قوم إنى لكم ناصح أمين .

وصاح الرجال فى وجهه :

— اغرب عنا سواء علينا أوَعظت أم لم تكن من الواعظين .

وهم إبراهيم بأن يتكلم فصاحوا جميعا يكذبونه وصدفوا عما يقول ، وزادوا طغيانا وأبى أكثر الناس إلا كفورا .

وعاد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم و لم يتسرب اليأس إلى قلوبهم ، فإن كان الناس قد أعرضوا عن دعوة الحق فإن ذلك إلى حين ، فالله متم نوره ولو كره الكافرون .

٢٦

خرج بعض العموريين من دورهم يتلفتون ، وانطلقـوا صوب شمال دمشق إلى خيام إبراهيم رسول الله الذى آمنوا به سرا ، ليتفقهوا فى دينهم الجديد .

وبلغوا مضرب الخيام فإذا إبراهيم فى محرابه يصلى لله رب العالمين ، ووقف خلفه لوط واليعازر الدمشقى الذى اشترى آخرته بدنياه فهجر ما كان فيه من طيب العيش وآمن لإبراهيم وأسلم وجهه لله. واصطف مع لوط وإليعازر رجال هاجروا مع خليل الرحمن من أور وحاران فرارا بدينهم ، ورجال من سورية شرح الله صدورهم للإسلام . فخف الذين أخفوا إيمانهم خشية بطش ساداتهم ليركعوا مع الراكعين ويسجدوا مع الساجدين .

وقضيت الصلاة ، وجلس إبراهيم وحوله من آمنوا به يصغون إلى ما يقوله حبيب الله ، كان حديثه ينفث فيهم القوة ، ويجعلهم يحسون أنهم أقوى من كل من فى الأرض من الجبارين ، ويطلق أرواحهم لتهيم فى ملكوت الله فتستشعر أنها انطلقت من سجن النفس والجسد لتتصل بروح الكون .

وكان فيمن ألقوا سمعهم إلى إبراهيم الخليل بعض المستضعفين والعبيد ، فراح يعلمهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ويرفعهم إلى مرتبة سامية ، مرتبة الاتصال بالله والأنس به ، فإذا الخوف ينتزع من نفوسهم وإذا الأمن يغشاهم . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا

ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكن فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم .

وجاء من المدينة رجال يسعون ، كانوا من الكهان وسادات العبيد الذين آمنوا برب إبراهيم والتجار وأصحاب النفوذ ممن يخشون أن تدول دولتهم أو تبور تجارتهم إذا انتشر الدين الجديد .

ونظروا فاتسعت أعينهم من الدهشة فما دار بخلدهم أن يؤمن لإبراهيم كل هؤلاء الناس . إنهم ما جاءوا إلا ليأخذوا عبيدهم إلى ملتهم وليهددوا إبراهيم بالرجم والعذاب الأليم ، ولكن ما رأوه اليوم أنزل بقلوبهم هما ثقيلا فقد صار لإبراهيم حزب قوى لا يفلح فيه التهديد والوعيد .

وتقدم أحد الكهان حتى أشرف على الملأ وقال :

ــ يا قوم لا يفتننكم هذا عن دين آبائكم ، عودوا إلى آلهتكم ، عودوا إلى بعل وعنت وشماش وسين ، عودوا إلى الشمس والقمر والسادة البعول .

فقال إبراهيم وهو يقترب ممن جاءوا يجادلونه ويتحدون الله ورسوله :

ــ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون .

وعاد الكاهن يقول :

ــ يا قوم لا تكفروا بآلهة آبائكم، يا قوم..

وقال الذين آمنوا :

ــ آمنا بالله وبما أنزل على إبراهيم .

ــ وكفرتم بآلهة آبائكم ؟

ـــ آمنا بالله وحده .

وهم الكاهن بأن يتكلم فقال إليعازر الدمشقى لإخوانه المؤمنين :

ـــ لا تصغوا إليه إنه يريد أن يردكم بعد إيمانكم كافرين .

وقال المؤمنون :

ـــ ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين .

فقال لهم الذين جاءوا من المدينة يسعون :

ـــ إنا بالذى آمنتم به كافرون.

ـــ ياقوم .. الله خير مما تشركون ، يا قوم توبوا إلى الله إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد .

ـــ عد إلى آلهتنا وآلهة آبائك الأولين ، عد إلى من مشيئتهم نافذة فى السماء وفى الأرض ، إلى من تسبح لهم الأرواح السماوية والأرواح الأرضية .

ـــ ألله خير أما تشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإلـٰه مع الله بل أنتم قوم تعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ، أإلـٰه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون .

وتحدث الرجال إلى الرجال ، وكان أهل دمشق من كهان وتجار وأصحاب سلطان فى ثورة عارمة لأن المستضعفين والعبيد لم يكتفوا بشق عصا الطاعة وترك دين الآباء ، بل أصبحوا ينهونهم أن يعبدوا آلهتهم ويقولون إنها ليست على شىء !

وزاد فى ضيقهم الثقة التى يتحدث بها أتباع إبراهيم والطمأنينة التى تغشاهم . وإن أغيظ ما يضايقهم منهم وصفهم آلهتهم بالعجز : إن هى إلا

أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان !

تطاول المستضعفون والعبيد على السادة البعول وسخروا منهم وهزءوا بمن اتبعوهم . وزاد الأمر سوءا أن أصبح هؤلاء السفهاء على علم : ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى .

من أين لهؤلاء البسطاء والمستضعفين والعبيد مثل هذه الفصاحة ومن الذى بث فيهم هذه الروح القوية ؟ إن الأمر لأخطر من أن يسكت عليه . إن هؤلاء الأميين قد ألزموا الكهان والتجار ورجال السلطان الحجة ، وتركوهم حيارى يغطون خزيهم بالثورة والعنف . وقال قائل منهم وقد ضاق صدره بأنفاسه المحمومة :

ــ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم .

ولم يرتجف المؤمنون فهم أعزة ، هم حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . وأصاب الكافرين صغار وأحسوا بصدورهم تضيق وأطلت من أعينهم البغضاء ، وأردوا أن يستروا خزيهم فبدءوا بالعدوان وهم يرتجفون .

وبدا بين المؤمنين والكافرين العداوة والبغضاء وكادت تضطرم نار القتال ، بيد أن إبراهيم أطفأها فهو يدعو إلى السلام ولا يريد إلا السلام وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما .

وتأهب الجاهلون لينقلبوا إلى أهلهم ليثيروها حربا شعواء على إبراهيم ومن معه ، ليقضوا على الدعوة التى تكاد تقوض سلطانهم .

وقبل أن ينصرفوا قال أحدهم :

ـــ لئن لم تنته يا إبراهيم لتكونن من المخرجين .

وقال الكاهن والغضب يتطاير من عينيه :

ـــ ليخرجن الأعز منها الأذل .

وأعلن الكفار الحرب على المؤمنين .

كان إبراهيم يريد السلم ، كان يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يدعوهم إلى الهدى ، إلى صراط مستقيم ، فلم يسمعوا دعاءه ، ولو سمعوا ما استجابوا له فقد كبر عليهم ما يدعوهم إليه .

قال لهم إن ما يدعون إليه هو الباطل وأن الله هو الحق . والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . وأنهم لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون . كان يخفض لهم جناح الذل من الرحمة ويدعوهم إلى النجاة ، إلى دار السلام ، فاستكبروا .. وقالوا قلوبنا فى أكِنَّة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر .. وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب .

كان يريد السلم ، أن يقرع الحجة بالحجة ، ولكنهم ضاقوا بهذا السبيل ، فإنه كلما جادلهم ألزمهم الحجة وجعلهم يستشعرون صغارا وفتن المستضعفين والعبيد ، إنهم لو صبروا على دعوته لقضت عليهم وذهبت بنفوذهم ، فليضع السيف حدا لهذه المعركة التى كادت ترجح فيها كفة المؤمنين .

اعتدوا عليه وعلى من معه و لم يبدأ هو بالعداوان ألبتة فهو يعلم أن الله لا يحب المعتدين ، وصبر على ما أصابه إن ذلك من عزم الأمور .

وها هم اليوم جاءوا يهددونه بالرجم وبعذاب أليم ، فصبر وهو على يقين من

أن الله لا يضيع أجر المحسنين . واعتدوا على المؤمنين فقالوا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

كان إبراهيم يريد السلم ولكن القوم أبوا إلا القتال ، عادوا إلى المدينة ليأتمروا به ، ليقتلوه ويقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس . وأحس إبراهيم الخطر فقال لمن معه :

ـــ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

فنظر إليه المؤمنون وقد وجلت قلوبهم وقالوا :

ـــ قتال ؟

فقال لهم وهو كاره :

ـــ قتال .. إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

كان إبراهيم يجنح للسلم ولكن الذين ناصبوه العداء نبذوا السلم وراحوا ينفخون فى نار الحرب . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ، ليعيدوا من آمنوا إلى الظلمات إلى عبادة آلهة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فحق عليه أن يحرض المؤمنين على القتال وأن يقول لهم قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وراح المؤمنون يتأهبون للقتال ، حملوا القسى والسهام والجعاب والرماح وفئوس الحرب وعصى الرماية ، وأخذ إبراهيم يبث فيهم روحا قوية ويقول لهم .. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين .. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا

أن الله مع المتقين .. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم .. ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ووقف المؤمنون ينتظرون ، إنهم قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ولكن كان يقوى عزائمهم ما يعدهم به إبراهيم ، كان يعدهم بالفتح وبأن من يستشهد فى سبيل الله فله جنات عرضها السموات والأرض ذلك هو الفوز العظيم .

وجاء الكهان ورجال الدولة والتجار ورجال الجيش ومن ساقوا معهم من الجنود المرتزقة ، جاءوا ليدافعوا عن سلطانهم فى الأرض وفى أيديهم الفئوس والسهام والرماح وفى قلوبهم العداوة والبغضاء . جاءوا يختالون فقد كانوا واثقين أن النصر لهم وأن الدائرة ستدور على أولئك السفهاء الذين عابوا آلهتهم وسفهوا أحلامهم وعملوا على تقويض نفوذهم .

وتراءى الجمعان ، ونظر المؤمنون فأنزل الله على قلوبهم السكينة إذ أراهم أن أعداءهم فى أعينهم قليل ؛ ونظر الذين جاءوا يقاتلون الله ورسوله فوجلت قلوبهم وأوجسوا خيفة إذ أراهم الله أن أعداءهم فى أعينهم كثير . ونزلت الهزيمة بأفئدتهم قبل أن يطلق سهم أو يرمى رمح أو تبسط يد للقتال .. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين .

ومشى الرجال إلى الرجال وبدأ الصراع الذى تباركه السماء ، الصراع الذى لولاه لأسنت الحياة ونخر فى الكون فسق المترفين وساد فيه ظلمهم وطغيانهم . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .

كتب على إبراهيم والمؤمنين القتال ، فاندفع إبراهيم بين الصفوف يقاتل فى

سبيل الله ، فإذا الرجل الأواه الحليم الذى تفيض بالدموع عيناه إذا ما دعا ربه ، يقاتل فى ضراوة من أرغموه على القتال ، فقد أمر أن يقتل من جاءوا لقتاله : فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، فما كان له إلا أن يطيع أمر الله ، وأن يخوض معركة الإيمان حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو أحكم الحاكمين .

وراح إبراهيم يطلق سهامه ويهز رمحه ويطعن به أعداء الله، ويلتحم مع الرجال ويبسط إلى أعدائه يديه ليقتل أنفسا تبغى الفساد ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وسارع اليعازر الدمشقى إلى الطعن والنزال وكان يستعجل إحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله والفوز بجنات الخلود .

التحم حزب الله وحزب الشيطان واشتد القتال بين المصلحين والمفسدين ، وكانت قلوب المؤمنين عامرة بالإيمان وقلوب الفاسقين هواء ، وراح كل يستنصر وليه ، وإبراهيم ومن معه يدعون الله ، والكافرين يدعون بعلا وعنت والأصنام الأخرى ، وأطبق الحق على الباطل ليزهقه ويكتم أنفاسه .

ووقفت سارة على باب خيمتها تنظر والمعركة تدور على قيد خطوات منها وقد حمى وطيسها : سهام تتراشق ، ورماح تهز وترمى لتستقر فى الظهور والبطون ، وخناجر ترتفع وتهوى فتغوص فى الرقاب والقلوب والصدور ، وصرخات مفزوعة وأنات موجوعة .

وراحت تتبع إبراهيم بعينيها وانبهرت أنفاسها وهو يصول ويجول لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الملك لله .

وشخصت ببصرها إلى السماء وابتهلت إلى الله فى حرارة أن ينصر عباده

ويؤيدهم بنصر من عنده ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . وطفرت من مآقيها الدموع وهى تدعو الله أن ينزل على المؤمنين نصره الذى وعدهم .

وثبت إبراهيم ومن معه وأبلوا بلاء يرضى الله وأثخنوا فى الأرض . ولما رأى الكافرون جنودهم صرعى يغطون أرض المعركة زلزلوا زلزالا شديدا ، وأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ، وألقى فى قلوب المفسدين الرعب فولوا مدبرين ، وإبراهيم ومن معه فى أثرهم يقتلونهم تقتيلا .

وهام من بقى من الكهنة ورجال الدولة وأصحاب النفوذ والجنود المرتزقة على وجوههم مرعوبين ، وولوا الأدبار فى دروب دمشق لا يلوون على شىء .

وباتت دمشق فى حوزة إبراهيم ليقيم فيها الدين وليصفح عن الجاهلين ، وليقول : سلام فسوف يعلمون .

٢٧

فرح المؤمنون بما آتاهم الله من فضله فقد دانت لهم دمشق الفيحاء جنة الله فى أرضه ، وسقطت فى أيديهم بكنوزها وقصورها وقلاعها وبيوتها ذات الشرفات ، وحدائقها ورياضها وأشجارها وتينها وزيتونها وأعنابها ونخيلها وما تزخر به من خيرات .

وساء الكافرين هزيمتهم ووجلت قلوبهم وباتوا يترقبون من الخوف ، فقد ظنوا أن إبراهيم سيقتفى آثارهم ليقطع دابرهم . كانوا يسخرون من الذين آمنوا فإذا الذين كانوا يستهزئون بهم قد أصبحوا فوقهم يتحكمون فى رقابهم ، إن شاءوا عفوا وإن شاءوا يقتلون .

وقال إبراهيم : سلام ! وراح يدعو إلى السلم . كان يلتمس هدايتهم فقال لهم قولا لينا لعلهم يهتدون : من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون .

عفا إبراهيم وصفح عنهم حتى يأتى الله بأمره ، وأن تعفوا أقرب للتقوى .. إن الله يحب المتقين . وراح المشركون يرقبون ما يفعل إبراهيم بقصر الملك وقد أصبح خاليا بعد أن فر من فيه هاربين ، قال من فى قلوبهم مرض سيعتلى العرش ويكون جبارا من الجبارين ، وقال من مالت قلوبهم إلى الدين الجديد إن ما عند ربه خير من قصور دمشق وكل كنوز الأرض ، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

وعاد إبراهيم إلى خيامه يسبح بحمد ربه ويستغفره ويسجد مع الساجدين ، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدخل الناس فى الدين الجديد أفواجا ، وراح إبراهيم يبنى المحاريب لله رب العالمين .

وعرف أهل دمشق الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما ، وشرح ذلك صدر إبراهيم . ولكن هل يقنع بهذا الفتح ؟ أيرضى بالدعة والاستقرار ؟ أهذه هى كل رسالته ؟ أن يعرف حفنة من المؤمنين أن ربهم إلٰه واحد لا شريك له بينا الناس فى الدنيا كلها يتخبطون فى الجهالة ؟

إنه لا يريد علوا فى الأرض ولا يريد سلطانا يتحكم به فى الرقاب . إن كل ما يبغيه هو أن يبلغ رسالات ربه للناس كافة ، حتى يؤمنوا ويقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقهم الله سرا وعلانية من قبل أن يأتيهم يوم لا بيع فيه ولا خلال .

دانت له دمشق بقصورها وكنوزها وحصونها ومعابدها وجناتها ، ولم يدر الترف رأسه ولم يدنس الطمع قلبه ، إن ما يريده يفوق كل كنوز الدنيا وما فيها من متاع ، إنه يريد الآخرة ويسعي لها سعيها وهو مؤمن ، إنه يريد كنوز السماء وقصور السماء وجنات النعيم .

وما دمشق فى ملك الله ؟ إنها ذرة فى فلاة ، قطرة فى بحر ، وما ينبغى أن تظل دعوة التوحيد حبيسة جدران مدينته مهما عظمت هذه المدينة وارتفع شأنها . إن دين الله لابد أن ينتشر فى الأرض مشارقها ومغاربها . نجاه الله ولوطا إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين فكان عليه أن يخرج إلى تلك الأرض .

حسنت دمشق مستقرا ومقاما للمؤمنين ، ولكن ما كان للنبى الذى هجر الدعة فى أور ليعيش فى خيمة يدعو الناس إلى السميع العليم أن يستقر فى مكان واحد ، فأرض الله واسعة وقد كتب الله عليه أن يمشى فيها ويدعو الناس إليه .

إن كانت قوافل التجارة تجوب الآفاق آناء الليل وأطراف النهار ، فى الظلمات والنور ، فى الظل والحرور ، فى الفيافى والسهول ، فى الفجاج وشعاب الجبال ، فى المطر الشديد والريح الصرصر العاتبة . فى لفح الصيف وبرد الشتاء فى سبيل عرض زائل ، فأولى لقوافل الله أن تسيح فى الأرض فى سبيل الله ، ثم أولى لهم أن يدعو الناس إلى الله مالك الملك مولاهم الحق ، ليفوزوا بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

نشأ إبراهيم فى أور وهاجر إلى حاران ومنها إلى سورية ، وإن بابل لها حدود وسلطان ، وآشور لها حدود وسلطان ، وسورية لها حدود وسلطان ، وكنعان لها حدود وسلطان ، والجزيرة العربية لها حدود وسلطان ، ومصر لها حدود وسلطان ، ولكن إبراهيم لا يقر هذه الحدود ولا يدين لسلطان غير سلطان الله ، إن هذه الممالك كلها أمة واحدة وربها واحد لا إله غيره يؤتى كل ذى فضل فضله ، فأمر مؤذنه أن يؤذن فى الناس بالرحيل إلى حيث يشاء الله .

ورفعت الخيام وركبت سارة جملها وحولها جواريها ، وراح إليعازر الدمشقى يشرف على العبيد وقطعان الماشية التى أثارت النقع فحجب دمشق عن العيون ، وامتطى إبراهيم راحلته ، وامتطى لوط راحلته ، وانطلقت قافلة الإيمان فى معبد الله ، فى الكون العريض ، تسبح بحمد ربها وتستغفره إنه كان توابا .

كان رجال بيت إبراهيم ألفا أو يزيدون من المؤمنين والعبيد وكان للوط رجال ورعاة وعبيد وأنعام ، فقد أنجب كل من خرج مع إبراهيم من أور ومن حاران ومن دمشق — إلا إبراهيم كان فردا لم يرزقه الله بذرية ، ولو شاء لرزقه

من سارة ولكن شاءت حكمته أن يؤخر هبته له ، لأن الله قدر أن يكون أول الصالحين الذين يهبهم له من غيرها ، إن الله يفعل ما يريد .

كان إبراهيم يدعو ربه فى الظلمات وفى دلوك الشمس وآناء الليل وأطراف النهار : « رب هب لى من الصالحين » . ولم يستجب الله إلى دعاء خليله فلم يكن أول الوارثين من آل إبراهيم من زوجه التى خرجت معه من أور ، إنه من امرأة أخرى اختارها الله له سوف يقوده إليها . إن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا .

انطلقت قافلة الإيمان إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وكان الرعاة يرعون على سفوح الجبال وفوق قممها ، والدور مبعثرة هنا وهناك كأنها صناديق من الورق ، والفلاحون يحرثون الأرض ويجر المحراث جمل وثور ، والكلاب تنبح من بعيد .

وتصاعد من الجبال دخان إذ كان الكنعانيون يقدمون القرابين لآلهتهم ، وكان البدو ييممون صوب الدخان ليتقربوا إلى أربابهم بالصلوات فإن الناس فى حاجة أبدا إلى آلهة ترعاهم يوم ظعنهم ويوم إقامتهم .

وبلغت القافلة وادى شكيم وكانت المياه تتدفق ولها خرير وقعه فى نفس المؤمن كوقع التسبيح ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، فتلفت المؤمنون فرأوا « بلوطة مروة » وللأشجار عندها ظل ممدود ، فراحوا ينصبون خيامهم على جانبى الماء الذى يجرى بالحياة والنماء .

واستراح المؤمنون قليلا ، ولم يركنوا للدعة بل قاموا يبنون محرابا لله رب العالمين ، لمن أسلموا وجوههم له ، لمن هجروا أوطانهم وباعوا دنياهم وساحوا فى الأرض ابتغاء وجهه الكريم .

كانت أشجار البلوط منتشرة فى المنطقة وجلس تحت الأشجار المعلمون يفقهون الناس فى أمر دينهم . وكانت فرصة أن تدور المناقشات بين إبراهيم ومن معه من المؤمنين وبين المعلمين الذين جعلوا لله شركاء .

وراح المؤمنون يقولون للمعلمين إن الله واحد لا شريك له ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إلـٰه إلا هو له الأسماء الحسنى .

وطفق المعلمون يسبحون بحمد بعل وأخته عنت والآلهة الأخرى ، واشتد الجدل وقال المؤمنون : إلـٰهكم إلـٰه واحد لا إلـٰه إلا هو الرحمن الرحيم . وقال المشركون : ما نحن بتاركى آلهتنا سنظل لها عابدين . واشتد الجدل بين الفريقين ، وأحس المعلمون القوة فى حجة الرعاة الذين جاءوا يسوقون أبقارهم وجمالهم وحميرهم وأغنامهم ، وهبت ريح الهزيمة فوطدوا العزم على أن ينهوا هذه المناقشات التى كادت تزعزع عقائدهم فقالوا فى استكبار :

ـــ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

وجاء الليل ومد أبو المؤمنين الموائد لرجاله وعبيده وللضيف ، وأقبل رعاته على الطعام يأكلون باسم الله ويحمدون الله على ما رزقهم من خير ، ودار الحديث حول الله والدين حديثا صافيا رقراقا أصفى من الماء المترقرق فى جداول شكيم ، وجاشت نفوسهم بفرح فياض انعكس على وجوههم فتألقت بالنور، وملأ الإيمان قلوبهم بالقوة والبأس ، فإذا الرعاة البسطاء الذين يرعون الإبل الجالسين تحت أشجار البلوط يبدون فى جلال رعاة الشعوب .

ولم يستقر إبراهيم عند « بلوطة مروة » فهو لا يعرف الاستقرار ، إنه فى رحلة دائمة سواء عليه أفى أور كان أم كان فى حاران أم فى دمشق أم فى شكيم ، فأينما كان فهو مع الله يرجو تجارة لن تبور .

وأمر بالرحيل فانطلقت قافلة الإيمان إلى الغرب تسيح فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، تسير إلى حيث يقودها الله والله فعال لما يريد .

وكانت ترى إلى مدى البصر المروج الخضراء زخرت بجنات من نخيل وأعناب وتفجرت فيها العيون ودنت القطوف مختلفة ألوانها ، تشرح الصدور وتحرك الألسنة بالتسبيح لمن أنبت كل شيء موزون .

لقد أخذت الأرض زخرفها وازينت وبدت كالفردوس ، ولم تجش فى نفس إبراهيم رغبة أن يضع يده عليها ويستقر فيها فقد أعرض عن جنات الدنيا ، وإنه ليرجو أن يجعل الله الفردوس له نزلا .

وبعد مسيرة يوم بلغت القافلة « بيت إيل » بيت الله ، وكان الناس حيثما سار إبراهيم يعرفون الله ، فبابل : باب الله ، وبيت إيل : بيت الله . إن الناس فى كل مكان يقيمون المعابد لله ولكنهم يشركون مع الله آلهة أخرى .

وكان الجبل شرقى بيت إيل شامخا تكسوه غابات البلوط ، وكانت قمته تتألق بنور لطيف تهفو إليه قلوب المؤمنين . فهناك تطمئن الأرواح فى الصلاة وترشف من نبع الصفا الإلـٰهى وتندمج فى روح الكون ، فى الحقيقة الأزلية .

وراح إبراهيم يرقى فى الجبل وفى أثره القافلة المؤمنة ، حتى إذا بلغوا قمته راحوا ينصبون خيامهم فى ظل أشجار البلوط ، وأخذ المؤمنون يتلفتون : كانت أراضى وادى الأردن تمتد إلى مدى البصر كبساط سندسى أخضر . إنها جنة الرب تنطق بنعمته وتسبح له . ونظروا وراءهم فرأوا البحر وأمواجه

المتلاطمة كجياد شهب يجرى بعضها فى إثر بعض كأنما هى حلبة سباق فانشرحت نفوسهم : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !

وفوق أعلى قمة فى ذلك الجبل بنى إبراهيم محراباً ليذكر فيه اسم الله ، وليخر المؤمنون لله ساجدين .

وانتشرت الأنعام والأغنام فى الأرض ترعى والرجال والعبيد يحرسونها . ونظر الكنعانيون فرأوا قبيلة عظيمة بها رجال أشداء مسلحون .. قبيلة لا قبل لهم بها جاءت تزاحمهم على مراعيهم . و لم تكن هذه أول قبيلة تجيء للرعى فما أكثر القبائل العربية التى جاءت إلى هذه الأرض ثم هبطت إلى سيناء أو وادى الأردن أو وادى النيل .

وسكت الكنعانيون على مضض حتى إذا دعاهم إبراهيم إلى عبادة الله وحده ونبذ إلـٰه القمر « سين » الذى كان يعبد فى بابل وحاران وكنعان ، وفى سيناء التى تشرفت بالانتساب إليه ، ثاروا واشتد حنقهم على القبيلة التى جاءت تسب آلهتهم وتسفه أحلام آبائهم الأولين .

وفكر الكنعانيون فى دفع هذا البلاء الذى نزل بهم ، إنهم كانوا دائما فى حماية الفراعين ، وحتى بعد أن ضعفت مصر ووثب الرعاة على الحكم فيها واستولوا عليه لم يتغير الأمر عما كان ، وظل الكنعانيون فى حماية حكام البلاد الأجانب .

إنهم وجدوا ألا قبل لهم بهذه القبيلة التى جاءت من أور بدين جديد تدعو إلى إلـٰه واحد له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، فليرسلوا إلى ساداتهم فى مصر يستنجدونهم فيلتمسون منهم تخليص آلهتهم مما يتهددها من هوان وخزى .

وركب رجال من الكنعانيين إلى مصر يستصرخون الملك ويرجونه أن يرسل حملة لتأديب الواغلين الذين وثبوا على عبيده وسبوا آلهتهم ، ويخوفونه مغبة السكوت عليهم ، فإنهم أقوياء أشداء إن لم يخرج اليوم لقتالهم فسيشتد ساعدهم ويغيرون على مصر غدا ينتزعونها من يده ، ويسبون آلهته .

وتوكل الكنعانيون على ملك مصر وتوكل إبراهيم على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا .

٢٨

خرج رسل الكنعانيين من إيليا ، بيت الله ، يحملون الهدايا إلى ملك مصر ويستصرخونه ويقولون له إن المدينة المعظمة ، المدينة المباركة ، المدينة التى قدسها الصابئة لأن فيها هيكل المشترى باتت مهددة باستيلاء إبراهيم عليها كما استولى من قبل على دمشق ، وأن استيلائه عليها إن هو إلا خطوة فى سبيل الوثوب على مصر .

إن الخطر يهدد المنطقة كلها ، وإنه لخطر يختلف عن كل الأخطار التى حاقت بالناس من زحف القبائل العربية على بابل وسورية ومصر . فالزحف قديما كان يريد الأرض والمرعى والإستقرار . أما زحف إبراهيم فإنما هدفه العقائد والضمائر والنفوس . فهو يزعم أن كل الآلهة التى تعبد فى بابل وآشور وسورية وكنعان والجزيرة العربية ومصر إن هى إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وأن للعالمين ربا واحدا لا شريك له ، وأن أمم الأرض كلها أمة واحدة .

وبلغ رسل الكنعانيين غزة فاشتروا من أسواقها بعض الإماء هدايا لأمير مصر الوراثى ، وللمشرف على أواريس ، والوزير ، وحامل مروحة الملك ، ورئيس الرماة ، والمشرف على البلاد الأجنبية ، فما كان الطريق إلى الملك ليفتح لهم إلا بالهديا والجوارى والحسان .

وهبطوا إلى سيناء وكانت الأشجار تغطى الأرض وبعوث المصريين تجوب

أرجاءها للتنقيب على النحاس والمعادن النفيسة ، والناس يهرعون إلى معبد سين إلٰه القمر ، فقد كان ذلك المعبد من أهم مراكز عبادته حتى أطلق اسمه على شبه الجزيرة كله .

كان للإلٰه سين مكانة سامية عند العرب أبناء سام وقد رفعوا شأنه أينما حلوا ؛ عبدوه فى بابل ، وقدسوه فى أور وحاران ، وأقاموا له معبدا هائلا فى سيناء ، وآخر فى أسوان وكانت تسمى سين تبركا باسمه .

إن القمر أنيس البدو الذين يسرون فى الليل وقد توطدت بينهم وبينه أواصر حب وإجلال ، وربما ذلك الحب حتى صار تقديسا فعبدوه فى أور باسم نانا ، وعبدوه فى حاران وسيناء باسم تحوت وجعلوه كاتب الآلهة جميعا ، وقد جاء إبراهيم ليقول لهم إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .

ولاحت لرسل الكنعانيين مدينة بلزيوم . وسور الحاكم الذى بنى لصد البدو عن وادى النيل ، وقلعة زل ، والأرض الخضراء التى تروى من قناة خرجت من النيل لتصب فى البحر الأحمر ، فحولت البرزخ الذى يفصل بين البحرين إلى جنة فيحاء تهفو إليها أفئدة القادمين من الصحراء .

وخف حراس الحدود الشرقية إلى رسل كنعان يسألونهم من أين وإلى أين ؟ فقالوا :

ــ نحن عبيد فرعون قادمون من كنعان لمقابلة ابن رع ، له الحياة والسعادة والصحة ، لنلتمس من جلالته أن ينقذنا من قوم نزلوا بأرضنا يريدون أن يفتنونا عن ديننا ، ويطلبون منا أن نشق عصا الطاعة لمولانا العظيم له الحياة والسعادة والصحة .

وسمح لهم حراس الحدود بالمرور فانطلقوا بهداياهم وجواريهم الحسان فى

أرض جوشن وما أخذ الحراس من الهدايا إلا اليسير . انساب الكنعانيون فى أرض يلفها غموض مقدس : قطط محنطة وثيران محنطة ، والمصريون بملابسهم الكتانية البيضاء يغدون ويروحون ، وبحيرات تناثرت وغطت سطوحها أوراق البردى وزهور اللوتس ، والطيور تحوم حول الزوارق وهى تتهادى على الماء .

انساب رسل الكنعانيين فى الوادى الضيق الذى يقودهم إلى شرق الدلتا حيث اتخذ ابن رع عاصمته الجديدة . وقال الكنعاعيون إنهم ذاهبون إلى فرعون ونعتوه بابن رع ، وإن كانوا فى قرارة نفوسهم يعلمون أنهم ذاهبون إلى ملك من ملوك الرعاة ، الرعاة الذين استأذنوا أول الأمر ليرعوا فى شرق الدلتا ، فلما آنسوا ضعفا من الفراعين انتزعوا الحكم منهم .

كانوا فى طريقهم إلى قصر سنان بن الأشل بن عبيد من دان له الوجه البحرى ، ومن حاول أن يمد سلطان حكام البلاد الأجنبية « حتاو خاسوت » الهكسوس إلى الوجه القبلى .

وقد ترجم جده عبيد اسمه إلى لغة الفراعين ليتقرب إلى المصريين فأصبح الملك نحسى (العبد) وصارت له تماثيل فى أورايس لا تفترق عن تماثيل الفراعنة ، ونسب ابنه سنان نفسه إلى رع وارتدى ما كان يرتديه الفراعنة ومارس ما كانوا يمارسونه من مراسيم .

ودخل رسل الكنعانيين « منديس » وكانت تموج بالناس ، فقد كانت الليلة ليلة الاحتفال بعيد « باسنت »إلـٰهة المرح ، وكان رأسها رأس قطة وكان التقرب إليها بالخلاعة والتهتك والمجون .

فكان الرجال والنساء يعبون الجعة عبا ، والنسوة يطلقن ضحكات ناعمة

تفعم جو المدينة بالنشوة ، والخمور تلعب بالرءوس فتلتصق الصدور وتبحث الشفاه عن الشفاه .

وتهلل رسل الكنعانيين بالفرح واندمجوا فى الناس ونسوا الخطر الداهم الذى يهدد إيليا ، بيت الله إلى حين ، وأخذوا ينهلون من كئوس اللذة ، ولم ينكروا شيئا فسواء لديهم أتضحية الأجساد كانت تقوم على مذبح عشتار أم كانت تقدم على مذبح « باسنت » !

واستأنف رسل الكنعانيين رحلتهم فرأوا الفلاحين يحفرون الترع لتتدفق مياه النيل فى القنوات ، والثيران تجر المحاريث وتشق أخاديد فى الأرض السوداء (كيمى) ، والرجال والنساء والأطفال يبذرون البذور أو يجمعون المحاصيل .

وأخير دخلوا أواريس العاصمة الجديدة عاصمة الهكسوس وكانت غاصة بالجنود الأشداء وما كانت أسوارها المتينة وحصونها البيضاء قد بنيت بعد ، وكان النسوة فى الأسواق يمارسن التجارة ، والرجال يصنعون الحلى أو يصنعون الخناجر وأدوات القتال أو ينحتون التماثيل للآلهة . وكان تمثال الإلـٰه « ست » أكثر ما يقبل عليه الناس فى أورايس .

وكان مردوخ أول أمره إلـٰها محليا فى بابل ، قبل أن ينزع العرب أبناء سام ملك بلاد ما بين النهرين السومريين فرفعوه إلى مرتبة رب الأرباب وإلـٰه الآلهة .

وكان « ست » كسائر آلهة الأقاليم محليا يعبد فى شرق الدلتا ، فلما انتزع العمالقة الذين وفدوا من تهامة ملك مصر فعلوا ما فعله العمالقة الذين انتزعوا ملك بابل ، رفعوا « ست » الإلـٰه المحلى ليكون رب الأرباب وإلـٰه الآلهة .

وانطلق رسل الكنعانين إلى القصر ليقابلوا الملك الذى فرض عـليهم حمايته ، وفى الطريق رأوا تمثالا لنحسى جد الملك وكان يختلف عن الفراعنة وإن ارتدى ثيابهم ووضع على رأسه تاجهم ، وكان يمتاز ببسطة فى الجسم وتختلف ملامحه عن ملامحهم ، وقد كتب على التمثال « الملك نحسى محبوب الإلـٰه ست رب أواريس » .

وكان بقرب التمثال مسلة قدمها نحسى قربانا للإلـٰه ست رب أواريس . وكان آنذاك حديث عهد بحكم مصر وما كان الملك قد استتب له بعد ، فكان متواضعا فأقر الوضع الذى كان عليه « ست » وأنه إلـٰه أواريس وحسب ، أما خلفاؤه الذين اشتد ساعدهم فقد رفعوا رب أواريس ليكون رب الآلهة جميعا ، رب الأرباب وإن أحنق ذلك كهنة رع فى أون (هليوبوليس) وكهنة بتاح فى منف وكهنة آمون فى طيبة .

ذهب رسل الكنعانيين للقاء سنان بن الأشل بن عبيد . إنه من أبناء سام وهم أبناء سام ، إنه من تهامة وهم من عرب الجزيرة العربية ، ولكن أين هم منه الآن ؟ إنه فرعون من الفراعين ستذكره الأجيال القادمة سواء أطلقوا عليه سنان أم ابن الشمس أم أطلق عليه الإغريق اسم « سلاتيس »[1] ، أما هم فإنهم عبيد فرعون أيا كان ذلك الفرعون .

وبلغوا القصر وقابلوا رئيس الوزراء وقدموا إليه هداياهم وقالوا :

ــ جئنا نلتمس المثول بين يدى فرعون العظيم ، له الحياة والسعـادة والصحة .

ذ(١) ذكر يوسفس نقلا عن مانتيتون « أن سيلاتس أول ملوك الهكسوس » .

ولما فرغوا من مقالتهم قال رئيس الوزراء :

ــ مولانا ، له الحياة والسعادة والصحة ، فى المعبد يقدم القرابين لإلـٰهنا « ست » العظيم رب الأرباب وإلـٰه الآلهة ، له الحمد وله التقديس .

وكان الملك يركع فى المعبد أمام تمثال « ست » ويتلو صلاته ، وكان الكهنة برءوسهم الحليقة وثيابهم البيضاء يطلقون البخور ويقومون بالمراسيم ، وكان الكاهن الأول للإلـٰه بقرب الملك يصغى إلى ابتهالاته ، وكان سنان يقول فى حرارة وقد ترقرقت الدموع فى عينيه :

ــ الحمد لك يا ست يا بن « توت » ، يا صاحب القوة فى سفينة الملايين (سفينة الشمس) ، والذى طرح الثعبان المعادى لرع أرضا ، والذى على رأسه سفينة رع ، ومن صوته عظيم فى الحرب ، ليتك تمنحنى حياة جميلة لأنهض بخدمتك وأحظى برعايتك .

ثم نهض الملك وسار يحف به الكهنة ورجال القصر ، وراح يحدث الكاهن الأعظم « لست » ويعده ببناء المعابد لرب أواريس ويمنيه الأمانى ، ويلوح للكهنة بالثراء الواسع ليجذبهم إلى جانبه ويأمن مؤامراتهم .

دخل الملك القصر وراح يتأهب لاستقبال الوفود فأخذ موظفو خزانة الثياب الملكية يغدون ويروحون فى ردهات القصر مزهوين ، فهم يزينون « الحوريس » إلـٰههم الطيب ، الملك الذى بذل كهنة ست كل الجهود ليقنعوا الشعب أنه كفراعين مصر جاء من نسل الآلهة .

وراح مزين الملك يثبت على عارضيه لحية صناعية طويلة ، ويضع على رأسه شعرا مستعارا طويلا ، ووقف المستشار الخاص يحمل التاجين ويرقب مزين الملك فى خضوع ، حتى إذا انتهى من تزيين جلالته وضع المستشار الخاص على رأس جلالته تاج الوجهين البحرى والقبلى ، وزينه بالحلى

والجواهر ، ثم ناوله العصا الملكية ، فنهض الإلـٰه الطيب وسار إلى قاعة العرش فى خيلاء وعلى رأسه التاجان ، وإن كان الوجه القبلى لم يخضع بعد لحكم « الحتاخاسوت » الهكسوس .

وأذن لرسل الكنعانيين بالدخول على جلالته ، فتقدموا فى الفناء الأول وكانت تزينه أعمدة البردى وهم مأخوذون ، واستولى على قلوبهم رعب شديد إذ كانوا يقتربون من ذلك الكائن الذى يفوق البشر ، والذى كان يستطيع بكلمة تخرج من شفتيه أن ينقذهم مما هم فيه .

ورأوا الشرفة التى يشرق منها جلالته من أفقه على شعبه ، ولم يكن للمصريين عهد بمثل تلك الشرفات فهى منتشرة فى سورية وبلاد الكنعانيين ، وقد أدخلها ملوك الرعاة إلى البلاد فيما جاءوا به من حضارة وخيل وعربات وأسلحة حربية . وتقدم رسل الكنعانيين من المقصورة التى استوى الملك على عرشه فيها فخفقت قلوبهم وارتعدت فرائصهم ، وراح من سيتحدث منهم إلى جلالته يجمع شتات فكره ليتذكر ما لقنه إياه رجال القصر من مديح يثلج به صدر الإلـٰه الطيب الذى يرعى بلاده رعاية الوالد الحنون لابنه ، ويمجده رعاياه ويخشاه أعداؤه ، وتوقره الكهنة كابن حقيقى لرع إلـٰه الشمس العظيم .

ودخل رسل الكنعانيين قاعة العرش وما لاح لهم الملك حتى خروا له ساجدين ، فلما أذن لهم أن يرفعوا رءوسهم تقدم الناطق بلسانهم بين يديه ، وانحنى وقبل قدمه ، ثم وقف فى خشوع .

وكان الملك يجلس على عرش الأحياء ، وهو مقعد مكعب الشكل ظهره قليل الارتفاع وليس له مساند جانبية ، تزين قواعده زخارف تحكى ريش

الطيور ، وقد وضعت فوق المقعد وسادة ، وحف بالملك الأمير الوراثى والوزراء ، ووقف عن يمين الملك حامل المروحة ورئيس الرماة والمشرف على البلاد الأجنبية ورئيس المازوى (رئيس الشرطة فى الصحراء) والكتاب الملكى والمشرف على الخيالة والكاهن الأول للإلٰه ست .

وراح الرجل يلقى بين يدى الملك خطبة طويلة كلها تملق ورياء ، قال فيما قال :

— يا من أنت مولانا ، يا من يجرى كل شىء كما يشاء قلبك ويهوى ، أى شىء ذلك الذى لم تحط به خبرا ؟ فما من شأن أبرم دون علمك ، يا من إلٰه الذوق فى فمك ، ويا من عرش لسانه فى معبد الحق ، ويا من يستوى الإلٰه فوق شفتيه ، ويا من كلماته تطاع وتجلب السعادة والخير .

وراح الرجل يكيل المديح للملك حتى انتفخت أوداجه فقال وهو يشمخ بأنفه :

— لقد سررنا جلالتنا سرورا كبيرا بما تقول لأنك تفهم كيف تقول ، فالتمس ما تشاء لنقضى جلالتنا لك حاجتك .

وتهللت أسارير رسل الكنعانيين ونزل بقلوبهم الفرح فقد وعد ملك أواريس أن يستجيب لطلبهم ، وقال رجل كنعان :

— لقد نزل بأرض عبيد مولاى قوم من البدو أطمعهم كرمنا فينا ، فلم يكتفوا بالرعى فى مراعينا ومزاحمة مواشيهم لمواشينا بل طعنوا فى آلهتنا وسفهوا أحلامنا . وقالوا : ما بعل وعنت وآلهتنا الأخرى إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وراحوا يسخرون بنا وبمعتقداتنا وبآلهتنا .

وقال الكاهن الأول للإلٰه ست :

— وما هى دعواهم ؟

— دعواهم أن لا إلـٰه إلا الله ربهم ورب العالمين . فهم يريدون بهذه الدعوى أن يستولوا على الدنيا بأسرها ، وأن تخضع لهم الدول والممالك وشعوب الأرض طرا .

وضحك الملك ملء شدقيه وقال :

— أجعلوا الآلهة إلـٰها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب !

وقال كاهن ست :

— لن يصبر مولانا المحبوب من ست ومن الآلهة جميعا على هذا الفساد . إن إلـٰهنا ست ، من صوته عظيم فى الحرب ، ما شرع الحروب وما بارك المحاربين إلا ليصون كلمة الآلهة ويجعلها هى العليا فى الأرض وفى السماء . إن إلـٰهنا ست ابن « توت » وصاحب القوة فى سفينة الملايين . ومن طرح الثعبان المعادى لرع أرضا ، قد حمل سلاحه وخرج لقتال هؤلاء الذين عابوا الآلهة وأغضبوا أرباب السموات .

قال كاهن ست كلمته وإنها لكلمة السماء . فكان على الملك الإلـٰه الطيب أن يجيب دعوة إلـٰه أواريس ، فالتفت إلى رسل الكنعانيين وقال :

— نصرتم ، ليقومن جنودى بتأديب المفسدين .

٢٩

أوقد إبراهيم النيران فى الليل يدعو الضيف إلى طعامه ، وأمست خيامه تغص بالناس الذين يأتون ليطعموا ويلقوا سمعهم إلى الشيخ الجليل الذى يتحدث فى إيمان عميق عن الله الواحد ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .

ودار بين إبراهيم والصابئين حوار طويل يدور حول الله واليوم الآخر وملائكته ورسله ، وكان الصابئون فى إيليا ، بيت إيل : بيت الله ، قلة . وكانوا يؤمنون بالله قبل أن يدعوهم إبراهيم إليه ، فهم الذين أطلقوا على بابل اسمها باب الله ، وهم الذين أطلقوا على إيليا المدينة التى نزل بها إبراهيم ومن معه : بيت الله ، إلا أن شوائب علقت بعقائدهم ، فيجادلهم إبراهيم ليطهر دينهم مما يكاد أن يفسده .

وكانوا فى مصر مذ كان إدريس عليه السلام فى منف ، وتلقوا على يديه عقيدة التوحيد ، ثم تلقوها على أيدى الأحبار الذين كانوا يدينون بدين إدريس . فلما طال على المصريين الأمد ونسجت الأساطير حول إدريس وصورته فى صورة أزريس الإلـه الذى قتله أخوه ست ، ثم قطع أعضاءه وبعثرها فى أنحاء البلاد وراحت زوجته إزيس ، تجمع أعضاءه المبعثرة لتعيد إليه الحياة ، وما كان من أحداث حتى أصبح أزريس إلـه العالم السفلى الذى يقيم الميزان لحساب البشر على أفعالهم ـــ تحول المصريون عن الدين القويم إلى

الديانات التى ابتدعها الكهنة ليثروا ويزدادوا غنى ، فهاجر الصابئون من مصر فرارا بدينهم ، ونزل بعضهم فى سورية وحاران ، واستأنف الباقون هجرتهم حتى استقروا فى أرض بابل جنوب بلاد ما بين النهرين .

وكان الصابئون يعتقدون أن أول بيت بنى لعبادة الله بمكة ، وأن إدريس عليه السلام هو الذى بنى الكعبة ، وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة وأن الطوفان غمرها فيما غمر ، إلا أنهم كانوا يطوفون حول هياكلهم أسوة بطواف إدريس حول الكعبة . وكانوا يبنون هياكلهم من القصب كما تبنى الخيام ، وكانوا يتحرجون من ملامسة غير الصابئين ويتطهرون إذا لمسوا غريبا فى أثناء عباداتهم ، وكانوا يصومون ثلاثين يوما متفرقة فى السنة ، وكانوا يصلون لله ويتوجهون فى صلاتهم إلى القطب الشمالى لأنه ثبت فى مكانه لا يختلف له فلك باختلاف الزمان .

وكانوا يبنون مساكنهم بالقرب من الأنهار لحاجتهم الدائمة إلى التطهر بالماء ، ولذلك أطلق عليهم اسم الصابئين أى « السابحين » فإن ملامسة الغريب فى أثناء العبادة توجب عليهم الاغتسال والسبح فى الماء .

إنهم قلة ، قليل عددهم خطير شأنهم ، يكتمون كتابهم أشد الكتمان وسموه « كنزة » ، وهم يباشرون شعائرهم فى الخفاء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وأن الخلق خلقان ، فالكون الظاهر غير الكون الباطن . ولكل مخلوق فى عالم الشهادة صورة محجوبة فى عالم الغيب ، حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن ، وأهل الباطن لا يراهم من يعيشون فى الظاهر .

إنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويؤمنون بالحساب والعقاب ، وأن

الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور « آلمى دنهوروا » ، وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام « آلمى دهشوخا » ، فيلبثون فيه زمنا على حسب ذنوبهم ثم ينقلون منه إلى عالم النور .

إنهم ينزهون الله غاية التنزيه ، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية ، وأنه لا بد من مخلوق وسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس إلى الحق ، لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا دعاها بأسمائها فكانت ، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بوساطة مخلوق وسط بين النور والتراب ، ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

ووجد الصابئون فى إبراهيم ذلك المخلوق الذى يجمع بين التراب والنور ، رفعته الرياضة والهداية ونعمة الله إلى المرتبة السامية التى تؤهله إلى تبليغ رسالات الله إلى الناس .

كان إبراهيم يدعو إلى وحدانية الله وكانوا يؤمنون بالله الواحد القهار ، وكان إبراهيم يدعو إلى الصراط المستقيم وأن كل نفس تجزى بأعمالها ، وكانوا يؤمنون باليوم الآخر وبالحساب وبالجنة وبالنار ، وكان إبراهيم يدعو إلى نبذ الأصنام وقد صنعوا أوثانا للكواكب ، ومن هنا كان الاختلاف وحول أصنامهم دارت المناقشات .

قالوا : خلق الله الروحانيات ؛ خلق الملائكة ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العيان حين يشاءون صنعوا لها صورا من الأوثان .

قال إبراهيم : إن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله ، يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر ، وأن الأصنام التى

يصنعونها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ونهاهم عن عبادة ذلك الإفك .

وقالوا إنهم يتوجهون إلى القطب الشمالى وإلى الكواكب عامة ، ولكنهم لا يعبدونها بل يعدونها من مظاهر الروحانيات التى لا تبرز للعيان .

ودارت المناقشات ليالى وأياما بين إبراهيم والصابئين[١] حتى آمنوا بما يدعوهم إليه من نبذ الأصنام ، وشهدوا أن إبراهيم رسول الله ، وراحوا يدونون تعاليمه فى كتابهم « كنزة » .

وبدأ الدين الجديد يشرق بنوره على بيت إيل ، بيت الله .

وراح اسم الله يتردد فى جنبات المدينة حتى يكاد يقضى على بعل وعنت وعشتار والآلهة الأخرى ، وأحنق ذلك كهنة الآلهة فراحوا يتعجلون عودة الرسل الكنعانيين الذين فزعوا إلى ملك مصر .

وكان إبراهيم يقف فى محرابه يصلى لله ، وكان المؤمنون يصطفون خلفه ملائكة بررة ، ترق نفوسهم وتسمو أرواحهم حتى تكاد أن تتصل بنور الله ، وكانت سارة تصلى فى خيمتها لله بصوت رخيم يأخذ بمجامع القلوب ويجعل الأعين تفيض بالدموع . كان وجهها الجميل غاية الجمال يشرق بنور الإيمان ، فيضفى عليها جمال الروح جمالا فوق جمال .

وجاءتها فى سكون الليل جارية وقالت لها إن امرأة من المؤمنات تضع وليدها ، فقامت سارة وسارت خلف الجارية إلى حيث تقودها . وسارتا بين الخيام تغوصان فى الظلام . ولم يكن فى السماء نجوم تتلألأ وقد غاب القمر ، فأخذتا تتحسسان طريقهما حتى إذا بلغتا خيمة فى أقصى المعسكر غابتا فيها .

---

(١) يعجب الباحثون لتنويه القرآن بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها .

وكان فى الخيمة امرأة تتلوى من الألم ، فلما وقعت عيناها على سارة وهى تبتسم لها مشجعة انبسطت أساريرها ورفت على شفتيها بسمة والتمعت عيناها ببريق الاطمئنان . وجلست سارة ترقب أعجب انفصال ، انفصال روح من روح ، وكانت لا تفتر عن التسبيح لله .

وتلقت سارة على يديها الوليد الجديد وشنفت أذنيها صرخاته والنشوة تفيض على وجهها ، لقد شهدت ميلاد كل أطفال المؤمنين والعبيد مذ خرجوا من أور وكانت تتهلل بالبشر كلما ولد فى قافلة الإيمان مولود ، كانت تحس أن كل هؤلاء الأولاد الذين ولدوا فى حاران وفى الطريق من حاران إلى دمشق وفى دمشق وفى بيت الله ، إنما هم ذريتها .

كانت سعيدة غاية السعادة بيد أن كدرا كان يشوب تلك السعادة كلما سمعت زوجها يدعو ربه وهو واقف فى محرابه : « رب هب لى من الصالحين » . كان فى شوق إلى أن يكون له ذرية . وقد مرت السنون وعجزت عن أن تحقق له ما تهفو إليه نفسه الزكية . ليت الله يستمع لدعاء رسوله ، دعاء خليله . إنها ترجو بكل خلجة من خلجاتها ، بكل نبضة من نبضات قلبها أن يستجيب الله إلى دعاء حبيبه ، وإن كانت تلك الاستجابة تسيء إليها وتعذب روحها .

إن الله يعلم السر والنجوى ، وهو علام الغيوب ، وكان أمره قدرا مقدورا ، ولكن خلق الإنسان عجولا .

وخرجت سارة فى عماية الصبح من الخيمة إلى خيمتها ولم تكن الحياة قد دبت بعد فى مساكن إبراهيم ، وكان نور فضى يجاهد لينتشر فى الأفق الشرقى ، ومس أذنى سارة صوت آت من بعيد ، صوت حوافر خيل ووقع

أقدام، فالتفتت ناحية الصوت فإذا بأشباح تتقدم .

واستولى عليها الخوف وراحت تجاهد لتميز تلك الأشباح . إنهم يقتربون ، إنهم رجال يضع كل منهم على رأسه ريشة أو ريشتين من ريش النعام ، ويلفون أجسامهم بشرائط ضيقة ، ويحملون فى أيديهم أقواسا كبيرة وهراوات وفئوسا للقتال ، وبعضهم على ظهور الجياد .

ورأتهم سارة فى وضوح ، إنهم جنود مصر ما جاءوا إلا للغارة عليهم ، فصرخت صرخة أيقظت الرجال فهبوا من نومهم مفزوعين وخرجوا من خيامهم ينظرون .

ودبت الحياة فى المكان فجأة ، فكان إبراهيم ومن معه يجرون هنا وهناك ويتأهبون لصد ذلك العدوان الذى داهمهم دون إنذار . وفزع الرجال إلى أقواسهم وسهامهم وهراواتهم وفئوس قتالهم ، وتراءى الجمعان وراحوا يتراشقون بالسهام ، وأخذ الجنود المصريون ينتشرون فى الأرض ويحاولون أن يضربوا نطاقا حول خيام إبراهيم .

ووصلت السهام إلى حيث كانت الأنعام ، فهاجت الثيران والإبل والأغنام على وجوهها وانتشرت فى ميدان القتال تثير النقع وتشيع الفوضى وتقتلع الخيام وتجرى وتلف وتدور دون أن تلوى على شىء .

واشتبك الرجال بالرجال . وخرج النسوة يعاونّ المؤمنين على صد العدوان ، وحمى وطيس القتال ، ومال الفرسان على النساء وأخذوا يأسرون كل من تقع منهن فى أيديهم .

واحتدمت المعركة . وارتفعت الشمس فى السماء ، وتفصد العرق وسالت على الأرض الدماء ، وانتثرت الجثث أشلاء ، ونال الجهد والتعب من

الرجال ، فخف القتال ثم توقف ، وقنع المصريون بما أصابوا فعادوا أدراجهم يحملون معهم ما أسروا من نساء ورجال وأطفال .

وراح إبراهيم يبحث عن سارة فى خيمتها فلم يجدها ، وانتشر بين المؤمنين خبر اختفائها فأخذوا يبحثون عنها فى كل مكان فلم يهتدوا إليها و لم يجدوا لها أثرا ؛ فما كانت بين النساء وما كانت بين الجرحى ولا بين القتلى . وقالت امرأة وقد غامت عيناها الدموع :

ــ لقد أسرت فيمن أسر ! حملها المصريون معهم يا حسرتاه !

و لم يجذع إبراهيم و لم يستسلم لحزنه . إنها إرادة الله والله فعال لما يريد ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فإن كانت سارة أسرت وحملت إلى مصر فهذه مشيئة الله ولا راد لمشيئته . فمن يدرى فلعل البركة فيما أراده الله ، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

والتفت إبراهيم إلى لوط وإليعازر الدمشقى وبعض المؤمنين الذين التفوا حوله وقال :

ــ إلى مصر .

وامتطى الرجال رواحلهم وانطلقوا إلى مصر ، إلى حيث أراد الله لتتم إرادته ، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون .

* * *

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

« هاجر المصرية أم العرب »

تذييـــل

كنت وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية أجلس مع والدى وأصدقائه كل مساء ، أصغى فى انتباه إلى القارئ وهو يقـرأ فى « السيرة النبويـة لابـن هشام » . فقد كان أبى وأصدقاؤه يجتمعـون كل ليلـة فى منظـرة الـدار (السلاملك) ليقرءوا كتابا فى الأدب أو التاريخ ، وكانت أحاديثهم كلها تدور حول محمد ــ ﷺ ــ وحقبة صدر الإسلام .

وكان تاريخ محمد ــ صلوات الله عليه ــ وما يدور حوله يستهوينى ويأخذ بلبى ويستولى على كل انتباهى . وما انتهوا من قراءة السيرة النبوية لابن هشام حتى راحوا يقرءون « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، فأعجبتنى طريقة الدكتور فى السرد ، وجعلتنى أعيش بكل جوارحى فى ذلك العصر الذى استطاع الدكتور طه ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة .

وشببت وأنا معجب بمحمد رسول الله ــ ﷺ ــ فلما عرفت كيف أقرأ عكفت على قراءة كتب السيرة وما كتب عن الرسول الكريم فازداد إعجابى بشخصيته الفذة الفريدة .

وهويت الكتابة فكانت أمنيتى مذ حملت القلم أن يوفقنى الله إلى كتابة السيرة النبوية فى أسلوب قصصى يجذب القارئ ويجعله يعيش الأحداث التى عاشها ناس أعزاء علينا كانوا يملئون الأرض حياة من مئات السنين .

وهممت بكتابة السيرة العطرة أكثر من مرة ، ولكننى كنت فى كل مرة

أحجم ليقينى أنى لم أصبح أهلا بعد لمعالجة مثل هذا العمل الشاق . ومرت الأيام وأنا بين الإقدام والإحجام ، وأخيرا توكلت على الله وبدأت فى كتابة الجزء الأول من السيرة مبتدئا بأبى الأنبياء إبراهيم الخليل أبى المؤمنين جميعا ، وأنا ما أزال على يقين أنى أعجز من أنهض بمثل هذا العمل .

أقدمت على الكتابة خشية أن يفرغ الأجل دون أن أحقق أعز أمنية راودتنى فى العشرين سنة الماضية ، فإن كنت أصبت فمن عند الله ، وإن كنت أخطأت فمن عندى وأرجو أن يغفر لى الله خطئى ، وشفيعى أنى اجتهدت وبذلت ما فى طاقتى ملتمسا الحقيقة على قدر علمى واجتهادى .

اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصى ، وأنا على علم بما يعانيه كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن ينهج فى كتابته نهج القصة،فإنه سيشقى فى سبيل دراسة أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليبرز ملامحها وجوانبها ، وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها ، وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال فى سد الثغرات والفجوات التى تعترض التسلسل الزمنى ، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليبرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقى . إنه جهد شاق ولكنه يهون فى سبيل إتاحة الفرصة للقارئ ليأخذ الكتاب فى يسر دون جهد أو تعب .

حاولت جهدى — وإن كنت أكتب قصة أو ما يشبه القصة — أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها إلا ولها سند . وقد محصت الروايات المختلفة واخترت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة ، وإن تعارضت مع ما ورد فى التوراة أو بعض الأحاديث أو مع المتواتر بين المؤرخين .

وقد رأيت من الأمانة أن أشرح النهج الذى انتهجته فى هذا الجزء من السيرة ، وأكشف عن الأفكار التى دارت فى رأسى وتعذر سردها فى القصة بسبب السياق الفنى الذى اخترته .

كما عزمت أن أدون — بعون الله — فى نهاية كل جزء من أجزاء السيرة الأفكار التى تصارعت فى ذهنى قبل أن أطمئن إلى الرأى الذى دونته فى ثنايا الكتاب ، ليطلع القارئ على كل وجهات النظر ، لعل الله ينير بصيرته فيرى أصوب مما اطمأن إليه قلبى .

وقبل أن أعرض مواضع الخلاف بين ما ورد فى التوراة وبعض الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها والمتواتر فى كتب التاريخ وبين كتابى هذا ، سأعرض فى لمحة سريعة المنهج الذى اتبعته والمذهب الذى اتخذته نبراسا فى أثناء بحثى عن الحقيقة .

يقول المشتغلون بالعقائد والديانات بتطور الدين ، وأن الحضارة ظهرت على وجه الأرض منذ اليوم الذى ظهر فيه فجر الضمير ، وأن الإنسان سار فى طريق الرقى ودرج فى مدارج السمو منذ ذلك اليوم فعرف الآلهة والبعث بعد الموت والثواب والعقاب . وأكد المتحمسون لمبدأ التطور أن الديانات السماوية استمدت أصولها من ديانات قدماء المصريين والآشوريين .

ورجعت إلى القرآن الكريم أبحث عن نشأة الدين فاهتديت إلى أن الإنسان منذ خلقه الله وهو على علم : « وعلم آدم الأسماء كلها » وأن هذا العلم انتقل من آدم إلى بنيه ، وأن الصلة بين آدم وبين الله لم تنقطع بهبوط آدم إلى الأرض . « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» ، فمما لا شك فيه أن آدم وبنيه عرفوا الله الواحد القهار حق المعرفة ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وأشركوا

بالله غيره وجعلوا له أندادا ونسجوا حول الحقيقة التى بلغتهم أساطير ، فمن المقرر أنه لا يمكن خلق شيء من لا شيء ومن هنا جاءت اللمحات الصادقة فى عقائد المؤمنين .

إن الله عدل وهو أحكم الحاكمين كتب على نفسه الرحمة ، وقضت سنته ألا يعذب الناس حتى يبعث فيهم رسولا ينذرهم ويبشرهم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » « ولكل أمة رسول » « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

فكلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بربهم بعث إليهم رسله ، فقام إدريس فى منف يدعو الناس إلى عبادة الله له ما فى السموات والأرض ، وحدثهم عن البعث والحساب والميزان والجحيم والجنات التى أعدت للمتقين ، فآمن المصريون بالله وبأن إدريس عبده ورسوله : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا » .

واعتنق الصابئون دين إدريس قبل أن يبعث الله نوحا وإبراهيم وقبل أن تقوم فى مصر دولة .. عرف المصريون الله قبل أن يعرفوا أمون وأزريس وآتون .
وقد ربطت بين إدريس وعقيدة أزريس لأنى رأيت أن إدريس كان فى منف وأن أزريس كان فى منف وهو بعد على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ، ولأن كتب التاريخ تقول إن إدريس هو أول من علم الناس الزراعة وأن أزريس هو أول من علم الناس الزراعة ، وأن إدريس هو أول من خط بالقلم وأن أزريس هو الذى علم المصريين الكتابة ، وأن الله رفع إدريس مكانا عليا وأن الأسطورة رفعت أزريس إلى السماء .

وسواء أكانت أسطورة أزريس نسجت حول إدريس[1] أم نسجت حول حقيقة أخرى ، فمما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب والعقاب بعد دعوة إدريس ، وأن الصابئين الذين كانوا فى مصر قبل أن يفسد دين القوم ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة ، معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات .

عرف المصريون من إدريس أن الله علم آدم الأسماء كلها فقالوا : إن بتاح (إلـٰه منف) نطق بأسماء كل الأشياء ، كما عرفوا التوحيد الصحيح قبل إخناتون بآلاف السنين .

كان هذا هو المذهب الذى اتخذته نبراسا لى فى أثناء كتابة هذا الجزء من السيرة ، وسيكون هو نفسه نبراسي — إن شاء الله — فى الأجزاء التالية .

وكثيرا ما يسخر الذين يحسبون أنهم على شىء ، من الذين يؤمنون بالغيب فى عصر الذرة والمعمل وأنبوبة الاختبار ويتخذون الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون هزوا ، ويزعمون أن لن يجعل الله لهم موعدا كأن عندهم الغيب فهم يكتبون .

لن نعرض عن هؤلاء الساخرين الهازئين وسنجادلهم بالتى هى أحسن ، وسنذهب معهم طائعين إلى المعمل لنرى ما الذى تثبته أنبوبة الاختبار ، عسى أن يهدينا علام الغيوب جميعا سواء السبيل .

ولقد نجح المعمل فى أن يجعل تيارا يسرى فى سلكين أحدهما سالب والآخر موجب وأن ينير السلكان مصباحا ، ونجح فى أن يولد الكهرباء ، وهذا بلا مراء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون . وينهض سؤال : ما هى الكهرباء ؟ لقد رأينا أثر الكهرباء وما تفعله الكهرباء من أعاجيب ، أما الكهرباء فهى

---

[1] انظر تذييل الجزء الثانى عن أزريس وإدريس .

شىء مجهول لم ندرك كنهه . إنها غيب وسبحان علام الغيوب .

ونجح المعمل فى أن يمغنط قطعة من الحديد وأن يجذب المغناطيس المسامير ، وتنوعت استخدامات المغناطيسية وهذا بلا مراء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، وينهض سؤال : ما هو المغناطيس ؟ ولا جواب إلا أنه مجهول ، غيب ، وسبحان علام الغيوب .

ويقول العلم الحديث إن الضوء يتكون من تموجات تنتقل فى الأثير ، ويعرَّف الأثير بأنه ذلك الذى تنتقل فيه تموجات الضوء ، وهذه حقيقة يمكننا أن نسلم بها ونبارك الجهود الصادقة التى بذلت للوصول إليها ، بيد أننا فى نفس الوقت نجد أننا نسجل لغوا وتنهض أمامنا مشكلة : ما هو هذا الأثير ؟ وما هى خواصه الطبيعية ؟ غيب .. وسبحان علام الغيوب .

وكانت الذرة منذ عهد قريب أصغر وحدة فى الوجود ، ثم حطمت الذرة وأصبحت إلكترونات ، واجتهد المعمل لينتج أزواج الإلكترونات بالجملة ، ونجح ، وعرفنا أن تيارات فى جسيمات ذات طاقة عالية تأتينا من الفضاء البعيد تولد أزواج الإلكترونات بالجملة ، وأطلقنا على هذه الظاهرة « رذاذ الأشعة الكونية » . وبحثنا عن منشأ هذه التيارات التى تجرى فى جميع الاتجاهات إلى رحاب الفضاء ، فإذا بنا أمام لغز ، أمام المجهول ، أمام الغيب ، وسبحان علام الغيوب .

ووصل المعمل بعد تحطيم الذرة إلى وحدات أولية تتكون منها الذرة هى النوويات والإلكترونات والنويترنيات ، وهذا بلا مراء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، ولكن على أى أساس يحق لنا أن نفرض أن هذه الوحدات غير قابلة للتجزئة إلى أجزاء أصغر ؟ ألم يكن مفروضا منذ نصف قرن مضى أن الذرة

غير قابلة للتجزئة ؟ إننا أمام غيب وسبحان علام الغيوب .

وركز المعمل جهوده لاكتشاف سر الخلية الحية لغز الحياة، وراح العلماء يفرضون فروضا . إن الخلية تتكون من فيروسات ، وهذه مواد كيماوية معقدة ، ثم يتحدثون عن الجسيمات الفيروسية التى ينبغى أن تعتبر كجزيئات عادية ، وفى الوقت ككائنات حية ، فهى بذلك تمثل « الحلقة المفقودة » بين المادة الحية والمادة غير الحية .

ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام فروض وحلقات مفقودة ولغز لا يعرف العلماء حله ، نجد أنفسنا أمام الغيب . ولو استطردنا فى استقراء نتائج التجارب التى تجرى فى المعمل وأنبوبة الاختبار لخرجنا بحقيقة واحدة مؤكدة هى أن الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة الثابتة .

لقد سخر الذين يحسبون أنهم على شىء من الذين آمنوا بالغيب ، وسخر الله منهم ، وحاق بالذين سخروا ما كانوا به يستهزئون : « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله » ، « فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

كان الإنسان على علم منذ خلقه الله ، وكان يؤمن أن الله عنده مفاتح الغيب ، وكان يخشع قلبه لذكر الله ، فلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم بعث الله رسله ليقولوا : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره أفلا تتقون ؟).

إنها دعوة واحدة منذ آدم : إلـٰه واحد ، « إلـٰهكم إلـٰه واحد » ، « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . وأمة واحدة ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وبهذا الفهم جعلت إبراهيم ينطق

بآيات جاءت فى القرآن الكريم على ألسنة رسل آخرين ، آيات جاءت لتوضيح الدعوة وإلزام الكافرين الحجة ، آيات جرت على لسان أكثر من رسول لتأكيد أن الدعوة واحدة لم يطرأ عليها ذلك التطور المزعوم . « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

وما أردت بكتابة هذه السيرة فى هذا العصر الذى طغت فيه المادية إلا أن أعرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتفع فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله ورفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا للشهوات ورغبات الجسد . من أن ترتعد فرائصه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين .

لقد أذلت الدنيا الإنسان قبل أن يعرف إلٰهه وإنها لتذله كلما أعرض عنه ، بيد أنه أذلها يوم عرف أن إلٰهه له ما فى السموات وما فى الأرض ، بيده الأمر كله فعال لما يريد لا معقب لحكمه ، وإنه ليذلها كلما توكل على الله رب العالمين .

أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، وأن أطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رفاهته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ، وأن أعيد إلى الإنسان كرامته التى تتألق وتزكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغزائر وما تهفو إليه النفوس .

وقد اعتمدت فى كتابة هذا الجزء من السيرة على القرآن الكريم ، وعلى الأحاديث والتوراة وكتب التاريخ فيما يتفق مع القرآن وطبيعة الدعوة وصفات خليل الرحمن النبى الصديق الأواه الحليم الذى وفى، فإذا ما وقع خلاف

بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى الأحاديث أو التوراة ، فقد كنت آخذ بما جاء فى القرآن الكريم .

وكان أول خلاف بين ما جاء فى القرآن وما جاء فى التوراة نسب إبراهيم واسم أبيه ، فقد جاء فى القرآن : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » وجاء فى التوارة أن إبراهيم بن تارح ، وحاول كثير من المفسرين المسلمين أن يقضوا على ذلك التناقض فقالوا إن آزر بمعنى أعرج أو أنه اسم صنم ، ولكنى رأيت أن آخذ بما جاء فى القرآن دون تلك المحاولات التى بذلت بحسن نية لأنى أومن بما يؤمن به اليهود السامريون بصحة الإصحاحات التى نزلت على موسى ، أما ما جاء بعد موسى فهو من قبيل تسجيل اليهود لتاريخهم ، ولأنى قرأت كذلك فى كتاب الله : « ... إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

وقد ذكر يوسيفوس المؤرخ المسيحى اليونانى أن أبا إبراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم سنكلر تسديل أن للاسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار .

واختلف اليهود والمفسرون والمسلمون فى قرابة سارة من إبراهيم فقال اليهود إنها أخت غير شقيقة لإبراهيم من أبيه تارح ، وجاء فى «المشنا» وهو من أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة أن سارة هى بنت أخيه هاران . وروى الحافظ ابن كثير أن المشهور أنها ابنة عم لإبراهيم يسمى هاران . ويقول ابن إسحاق الثعلبى صاحب قصص الأنبياء إنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه . وقد أخذت برواية المفسرين العرب لأن عادة تزوج الأخت لم تكن منتشرة بين

العرب الذين خرجوا من جزيرة العرب وأسسوا مملكة بابل وآشور واستولوا على سورية ودلتا النيل ، هؤلاء العرب الذين أطلق عليهم أحد المؤرخين فى القرن الثامن عشر اسم « الساميين »[١] لأنهم من نسل سام ، وجاريناه جميعا فى تلك التسمية .

وقد أفاض الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « أبو الأنبياء . الخليل إبراهيم » فى نسب إبراهيم وقرابة سارة منه ، وفى أوجه الخلاف بين ما ورد فى التوراة وما جاء فى كتب اليهود .

و لم يذكر القرآن ولا الكتاب المقدس أن إبراهيم استولى على دمشق وإن ورد اسم إليعازر الدمشقى فى التوراة وكان صاحب خزائن بيت إبراهيم ، مما يدل على أن هناك علاقة بين إبراهيم الخليل ودمشق ، وقد اعتمدت على رواية المؤرخ اليهودى يوسيفوس الذى ولد فى القرن الأول للميلاد إذ ذكر أن إبراهيم كان ملكا على دمشق .

واعتمدت كذلك على يوسيفوس عندما ذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر ، وتركت ما ورد فى التوراة من أنه « حدثت مجاعة فى الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ، وقال لسارى امرأته وهى على مقربة من مصر : إنى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فإذا رآك المصريون قالوا هذه امرأة فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » .

« فلما دخل إبرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ، ومدحها

---

(١) انظر تذيل الجزء الثانى عن الساميين .

رؤساء فرعون لديه فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبرام خيرا بسببها ، وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال[١] .

أهملت هذه الرواية عن عمد لأنها لا تتفق مع خلق إبراهيم خليل الرحمن ، الرجل الذى وقف فى وجه الجبارين و لم يرهب الطغاة ، الرجل الذى أُلقى فى النار وهو ثابت الجنان ، فكيف يرضى مثل هذا الرجل القوى الذى يعرف أن الله معه أن يبرز مفاتن زوجته ويدخلها على فرعون لينال خيرا بسببها ويصبح له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال ؟!

قد يحتج بأن هناك حديثا نبويا يؤيد رواية التوراة ، وعندى أن هذا الحديث هو من الأحاديث التى افتريت على رسول الله ، فمحمد — ﷺ — أكيس من أن يتهم إبراهيم بالكذب ، ولا يقبل المنطق السليم صدور مثل هذا الحديث عن محمد — ﷺ — الذى يدعو المسلمون فى صلواتهم أن يصلى الله على محمد وآل محمد كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم ، ويبارك على محمد وآل محمد كما بارك على إبراهيم وآل إبراهيم .

والحديث مختلف عليه بين الفقهاء وعلماء الأصول وهو يقول :

حدث أبو هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال :

« لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله : قوله إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى

---

(١) انظر تذييل الجزء الثانى عن الساميين .

فإنك أختى فى الإسلام ، فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له :

لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتى بها .. » .

ويستمر الحديث مطابقا لما جاء فى التوراة .

وأرى أن بعض من أسلم من اليهود قد اختلق هذا الحديث وهو يحسب أنه يؤدى خدمة للإسلام ولرسول المسلمين ، فقد كان فى الأرض فى ذلك الوقت مسلمون كثيرون غير إبراهيم وسارة ، فقد جاء فى القرآن : « وآمن له لوط » ، وكان إيمان لوط قبل الهجرة من أور ؛ وقد آمن إليعازر الدمشقى وخلق كثير ، فكيف يعقل أن يقول محمد — ﷺ — الذى نزل عليه القرآن وفيه أن لوطا آمن لإبراهيم أن يقول على لسان إبراهيم : « فإنى لا أعلم فى الأرض مسلما غيرى وغيرك » ؟!

وكل ما جاء فى القرآن عن إبراهيم ينفى إمكان وقوع مثل هذه السقطة التى يترفع عنها أناس لا هم رسل ولا هم أحباء الله ، كما أن الكذب صفة مذمومة لا يمكن نسبتها إلى الأنبياء . « واتخذ الله إبراهيم خليلا » ، « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » ، واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا » ، « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » ، « وإبراهيم الذى وفى » ، « لقد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » .

كان إبراهيم أسوة حسنة وإنه لمن الكذب عليه أن تنسب إليه مثل هذه السقطة ، ومما يدل على كذبها أنها ذكرت مرة أخرى فى التوراة بألفاظها عندما انتقل إبراهيم من سدوم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور

وتغرب فى جرار ، « وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى ، فأرسل « أبيمالك » ملك جرار وأخذ سارة ... » .

وذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر فى عهد الهكسوس وقد ذكر ذلك مؤرخو العرب ، فهم يرون أن الهكسوس هم العماليق خرجوا من تهامة بأرض الحجاز واستولوا على بلاد ما بين النهرين وأسسوا ملك بابل وآشور ونزلوا بسورية ومنها هبطوا إلى دلتا النيل .

وإن علماء الآثار حديثا يؤيدون هذا الرأى ، يقول الأستاذ ألبرايت : « إن مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، لكنها آخذة فى التكشف والإبانة من الحوادث التالية بعد البحوث التى تناولها وتلوك وستوك وكاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع إلى الفترة بين سنتى ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد ، وأن قيادة الهكسوس فى يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون إلى زمن قريب ... » .

فما دامت الكشوف الحديثة تؤيد أن الهكسوس عرب ، فلا جرم أن اعتمدنا على روايات مؤرخى العرب الذين قالوا إن سنان بن الأشل بن عبيد هو ملك مصر فى عصر إبراهيم.

إنى على يقين من أن ملك مصر فى عهد يوسف من ملوك الهكسوس ، فقد كان المصريون يعتبرون ملوك الهكسوس حكاما للبلاد الأجنبية « حتاوخاسوت » ولم ينظروا إليهم أبدا على أنهم فراعين . وجاء يقينى من أن القرآن الكريم أكد هذه الحقيقة ، فعندما كان يتكلم عن موسى كان يذكر فرعون صراحة : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق » ، « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان » ، « ونادى فرعون فى

قومه قال : يا قوم أليس لى ملك مصر » ؛ أما عندما كان يقص قصة يوسف فى مصر فلم يذكر فرعون أبدا ، كان يتحدث عن الملك ، عن الحكام الذى لم يكن أبدا من الفراعين : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » ، « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى » .

كان يوسف فى عهد الهكسوس ، الحكام الذين لم يكونوا من الفراعين . فإن كان يوسف فى ذلك العهد فمن المحتمل جدا أن يكون إبراهيم فى نفس ذلك العصر . وقد ذكر بعض شراح التوراة أن ملك إبراهيم وملك يوسف كان واحدا و لم آخذ بذلك الرأى ، بل أخذت برأى مؤرخى العرب الذين قالوا : إن ملك إبراهيم كان سنان بن الأشل بن عبيد ، وقوى ذلك الرأى عندى أنه وجد تمثال من عهد الهكسوس لملك أطلق على نفسه « سنحى » بمعنى العبد وهذا الاسم ترجمة لعبيد اسم جد سنان .

هذه هى جملة الاختلافات بين ما فى كتابى وبين ما فى التوراة أو الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها ، وجدت من الأمانة أن أضعها أمام القراء ليأخذوا ما يشاءون .

وفقنا الله وإياكم إلى الصواب .

القاهرة فى ٣/ ٣/١٩٦٥

المراجـع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

بلاد ما بين النهرين — تأليف : ل . ديلابورنت
ترجمة : محرم كمال

من ألواح سومر — تأليف : صمويل كريم
ترجمة : طه باقر

تاريخ الأمم والملوك — تأليف : الطبرى

تاريخ ابن خلدون

مصر القديمة — تأليف : الدكتور سليم حسن

فجر الضمير — تأليف : جيمس هنرى برستيد
ترجمة : الدكتور سليم حسن

أبو الأنبياء — تأليف : عباس محمود العقاد

مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة
تأليف : أدولف أرمان وهرمان رامكه
ترجمة : الدكتور عبد المنعم أبو بكر
ومحرم كمال

دراسات فى تاريخ الشرق القديم

تأليف : الدكتور أحمد فخرى

خليل الله فى اليهودية والمسيحية والإسلام

تأليف : حبيب سعيد

حياة إبراهيم تأليف : الدكتور ف . ب . ماير

ترجمة : القس مرقس داود

شرح الكتاب تأليف : تشارلس ماكنتوش

واحد اثنان ، ثلاثة .. لانهاية

تأليف : جورج جاموف

ترجمة : إسماعيل حقى

قصص الأنبياء تأليف : ابن إسحاق الثعلبى

للمؤلف

ـــ وكان مساء	(قصة)
ـــ أذرع وسيقان	(قصة)
ـــ المستنقع	(قصة)
ـــ ليلة عاصفة	(مجموعة أقاصيص)
ـــ الحصاد	(رواية)
ـــ جسر الشيطان	(قصة)
ـــ النصف الآخر	(قصة)
ـــ السهول البيض	(رواية)
ـــ أم العروسة	(قصة)
ـــ قلعة الأبطال	(قصة)

ـــ وعد الله وإسرائيل

ـــ عمر بن عبد العزيز

ـــ هذه حياتى

ـــ الحفيد

ـــ ذكريات سينمائية

ـــ كشك الموسيقى

ـــ خفقات قلب

ـــ صور وذكريات

ـــ الإسراء والمعراج

ـــ القصة من خلال تجاربى الذاتية

ـــ عدو البشر

ـــ أبطال الجزيرة الخضراء

ـــ الثمر

ـــ الله أكبر

— ثلاثة رجال فى حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب فى أوربا
— الدستور من القرآن العظيم

محمد رسول الله ﷺ

والذين معه

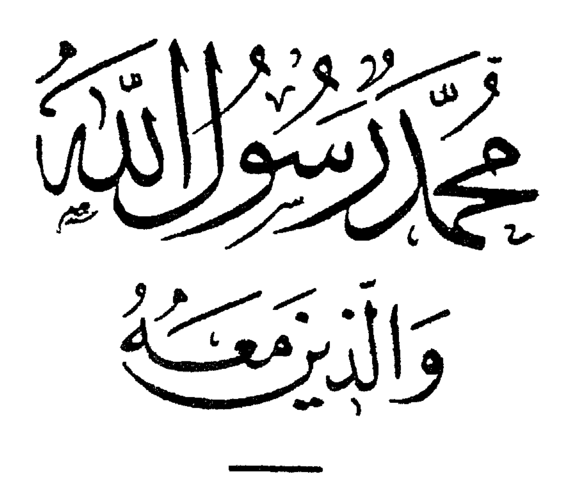
في عشرين جزءا

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

١ ــ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ــ هاجر المصرية أم العرب
٣ ــ بنو إسماعيل
٤ ــ العدنانيون
٥ ــ قريش
٦ ــ مولد الرسول
٧ ــ اليتم
٨ ــ خديجة بنت خويلد
٩ ــ دعوة إبراهيم
١٠ ــ عام الحزن
١١ ــ الهجرة
١٢ ــ غزوة بدر
١٣ ــ غزوة أحد
١٤ ــ غزوة الخندق
١٥ ــ صلح الحديبية
١٦ ــ فتح مكة
١٧ ــ غزوة تبوك
١٨ ــ عام الوفود
١٩ ــ حجة الوداع
٢٠ ــ وفاة الرسول

رقم الإيداع : ٤٠٣٢
الترقيم الدولى : ٥ ــ ٢٧٤ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية



هاجر المصرية أم العرب

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين * ﴾.

(قرآن كريم)

(إن أباكم إسماعيل أول من ذللت له الخيل العراب فأعتقها وأورثكم حبها)

(حديث شريف)

١

مدينة منف ، العرش العظيم ، مخازن الغلال المقدسة .. تقدست مذ غرق فى فيضانها أزريس إله الخضرة والخصب . منف سيدة كل الحياة من استمدت مصر منها حياتها . منف التى تدخل السرور على قلوب الآلهة فى بيت رب الأرباب « بتاح » العظيم . منف المتألقة أبدا بالبهجة والسرور رانت عليها الكآبة وارتسم على محياها الوجوم ونزل بقلبها حزن ثقيل ؛ فقد سقطت « عين شمس » فى أيدى الهكسوس ، وطرد كهنتها من معابدهم ، وتعطلت فيها عبادة « رع » إله الشمس ، وفرضت على الناس عبادة « ست » الإله الشرير !

سقطت عين شمس فى أيدى الغزاة ، ودنست المدينة المقدسة فلن تصير بعد اليوم مكان ولادة كل إله !

وراح الناس يبذرون الحبوب ويحصدون الغلال ويسوقون الماشية شاردى الألباب ، وفى عيونهم قلق وفى صدورهم ضيق ، يكادون أن تنفجر جنوبهم من الغيظ ، فقد بات أعداء البلاد على بعد فراسخ قليلة . إنها كرة واحدة ثم تسقط منف العظيمة فى أيدى الغزاة غلاظ القلوب الذين وثبوا على الملك واستولوا عليه لما دب الضعف فى قصور الفراعين .

وفى حوانيت التجار ومصانع النحاس وأماكن صنع الفخار ، وفى الأسواق والدور والقصور ، كانت الأحاديث تدور حول الخطر

المتربص بمنف الذى سيطبق عليها من الشمال من عين شمس ، حيث يتأهب العدو للزحف على قلب البلاد ، العرش العظيم !

وراح الجنود يهرعون من كل مكان فى منف إلى الحدود الشمالية ، إلى حصن الجدار الأبيض ، وراح أمير منف يجوس خلال جنوده يحمسهم بأفضل ما فيهم ويدعوهم للاستماتة في الدفاع عن شرفهم وشرف أرضهم وشرف إلههم « بتاح » العظيم .

وامتلأت معابد بتاح الصانع الأعظم خالق العالم ، بالكهنة الذين راحوا يحرقون البخور ويرتلون :

« إن النار تُهيأ والنار تضىء .

إن البَخور يوضع على النار والبخور يضىء .

وشذاك يأتى للآلهة يأيها البخور .

وشذا الآلهة يأتى إليك يأيها البخور .

إننا معكم يا آلهة .

وأنتم معنا يأيها الآلهة .

إننا نحبكم يأيها الآلهة .

فأحبونا يأيها الآلهة » .

وراح بعضهم يقدم القرابين لتمثال الإله « بتاح » ويبتهل :

« إلهنا بتاح العظيم !

يا قلب الآلهة ولسانهم .

أيها العقل المدبر .

يا من سكنت كل صدر على هيئة القلب ،

وكل فم على هيئة اللسان .

يا قلب جميع الآلهة وألسنتهم .
يا قلب كل الناس وألسنتهم .
يا قلب كل الدواب والزواحف وكل الأحياء .
يا من تفكر فيما تشاء .
وتفعل ما تريد .
يا من في فمه كل الآلهة .
ونطق بأسماء كل الأشياء .

إن الآلهة جميعا إن هم إلا صورك ، وما خلقوا بصر العين وسمع الآذان وتنفس الآناف إلا لتصل جميعا إليك ، فأنت قلب كل شيء .

يا من خلق إله الشمس ، وأوجد الآلهة جميعا وصورهم ونحت تماثيل لأجسامهم كما تهوى قلوبهم ، ليحلوا فى أجسامها المصنوعة من كل نوع من الخشب ومن كل صنف من المعادن ومن كل نوع من الطين .

يا من تفوق قوى الآلهة جميعا .
انصرنا على أعدائنا وأعدائك .

إن نهزم غدا فلن تعبد فى منف ، ولن يدخل السرور بعدها على قلوب الآلهة الذين فى بيتك » .

ووقف بعضهم عند تمثال أزريس الذى يرقد فوق الأرض وقد نبت القمح من جسده . وارتفع البخور حتى كاد يحجب تمثال إله الخضرة والخصب ، وأخذوا يبتهلون فى حرارة :

« يأيها الإله الطيب .
يا أزريس يا بن نوت إلهة السماء .

يا من ينبع النيل من عرق يديك .

بل أنت النيل حقا ، عظيم فى الحقول فى باكورة الفصول .

إن الآلهة والناس يعيشون بالندى الذى فيك .

إنك تنفث الهواء من فمك الطاهر إلى آناف الناس ، فتهب القداسة لما يعيش عليه الناس .

يا من توجد فى أنفك الشجرة وخضرتها ، والأعشاب والنباتات والشعير والقمح وشجرة الحياة .

أنت الحياة الدائمة التى لا تعرف الفناء .

يا من هزم أعداءه وذبح مناهضيه بساعد قوى ، وجعل خوفه يدب بين خصومه .

يا من كان أخوك « ست » يرتجف منك رعبا ، وإن كان قلبه يفيض بالطمع فى عرشك .

لم يجرؤ يوما على أن يقف فى وجهك فاغتالك غدرا .

وأخذت أختك وحبيبتك المخلصة إيزيس تنقب عنك وهى تبكى أحر البكاء .

حتى إذا ما عثرت عليك اضطجعت إيزيس المخلصة معك أيها السيد ، واحتضنتك فوضعت فيها — وأنت ميت — حور ، وريثك الذى تغذى بالإخلاص لك .

واشتد ساعده وكان أول ما فعله أن ثأر لك من أخيك الشرير « ست » .

فإن كان « ست » قد هزم « رع » فى عين شمس ، فإننا سننتقم من « ست » فى منف ، العرش العظيم ، كما انتقم منه حور الوفى

الأمين .

يأيها الإله الطيب .

يا من قمت من الأموات .

يا من ورثت « جب » إله الأرض الذى أسلمك قيادة البلاد لتسير بها فى طريق الرشاد ، ووضع فى قبضتك هذه الأرض وماءها و هواءها وخضرتها وكل ما يدب عليها ويرفرف فى سمائها ويسبح فى مائها ، أيدنا بنصرك وأرسل معنا « حور » المنتقم لأبيه ليهزم « ست » كما هزمه من قبل .

يأيها الإله الطيب .

أيدنا بنصرك حتى لا يعبد « ست » الشرير فى العرش العظيم ، فى مخزن الآلهة ، وفى منف التى تقدست يوم امتزجتّ فى مائها الجديد ، فى فيضانها المبارك » .

كانت الابتهالات حارة والأمل فى النصر يداعب قلوب كهنة منف ، فإن كان الهكسوس قد انتصروا على عين شمس بتأييد الإله « ست » فإنهم يأملون النصر بتأييد بتاح الذى خلق الآلهة جميعا ، وتأييد حور الذى انتقم بأبيه وأذاق « ست » ذل الانكسار .

وعلى مقربة من المعبد كان البيت الكبير قصر أمير منف ، وكان من اللّبن المجفف فى الهواء ، له باب ضخم زين برسوم فرعونية زاهية الألوان ، خلف الباب فناء على جانبيه تماثيل أبى الهول تزينه أعمدة البردى ، وراح الخدم ينظفون أرض الفناء ويتحدثون عن أمير القصر الذى خرج للدفاع عن منف .

وفى حديقة القصر قام جوسق تزينه أكاليل الزهور ، أمامه بحيرة

كبيرة تسبح فيها الأسماك وتنبت فى مياهها أزهار اللوتس ، وعلى جوانب البحيرة غرست نباتات مختلفة الأنواع ، راحت الفراشات تهيم فى الفضاء وتنتقل من زهرة إلى زهرة .

كان السكون يخيم على المكان والكون يتألق بالجمال ، بيد أن سيدة القطرين عظيمة الفضل عظيمة الرشاقة كانت تجلس فى الجوسق باسرة الوجه تكاد تتمزق فى الغيظ ، وكانت تجلس قبالتها وصيفتها ترنو إليها فى عطف وإشفاق .

كانت الأميرة هاجر شابة جميلة سمراء عيناها سوداوان واسعتان تنفثان سحرا ، ترتدى ثوبا بسيطا أبيض بلا ثنايا ولا زخارف ولا تهاويل يلتصق بجسمها التصاقا وينحدر من أسفل الثديين حتى رسغى القدم ، ويحمله شريطان يمران فوق الكتفين ، ويزين الحاملين زهرات تنتشر فوق الثديين لتحجبهما عن الأنظار .

هبت الأميرة هاجر واقفة وقالت فى ثورة :

— لو كنت أعرف أين الإله لقدمت إليه قربانا .

وهرعت إليها وصيفتها وقالت فى خوف :

— مولاتى إن الآلهة فى معابدها ترعانا .

— أهى نائمة ! أهى عنا غافلة ؟ إنه لا بأس لها يرى .

— مولاتى رفقا بنفسك ، إن بتاح العظيم لن يتخلى عنا وسينصرنا على أعدائنا .

ونظرت هاجر إلى وصيفتها نظرة قلقة مفعمة بالشك وقالت :

— ألبس بتاح هو إله الأرض ؟

— بلى يا مولاتى .

ـ كيف سمح إذن أن يطأه الغزاة بأقدامهم ؟ كيف قبل أن يدنس الهكسوس وجهه ؟

ولاح فى وجه الوصيفة فزع وقالت وهى تتلفت فى خوف :

ـ مولاتى ! إن بتاح العظيم لم يبطش بالمعتدين لأنه محب للسلام .

ـ أيقبل هذا العار ؟ أيقبل قلب الآلهة ولسانهم ، العقل المدبر للكون ، من يأمر بما يريد ، أن يطرد من معبد ليعبد فيه ست ! ليت الناس يفنون فلا حمل ولا ولادة ، ليت السماء تنطبق على الأرض قبل أن يحيق بنا هذا الذل .

وراحت هاجر تغدو وتروح فى قلق والغضب فى عينيها ، ثم التفتت إلى وصيفتها وقالت :

ـ لو انتصر الهكسوس علينا لكفرت ببتاح وبالآلهة جميعا .

ـ مولاتى ! إن تخلت الآلهة عنا فبما قدمت أيدينا . إن من لم يكن يملك زوجا من الثيران صار الآن صاحب قطيع ، ومن لم يكن يملك غلالا صار الآن صاحب صوامع من القمح . حقا إن السرور قد مات ولم نعد نتذوقه ، ولم يعد فى الأرض إلا الأنين الممزوج بالحسرات .

قالت هاجر فى يأس :

ـ أنصت يا قلبى وانع الأرض التى فيها نشأت ، أكتبت الآلهة على العرش العظيم الخراب ؟ اذرفى الدمع يا عين وابكى سيدى وحبيبى ومولاى كما بكت إيزيس حبيبها أزريس .

فخفت الوصيفة إليها وقالت :

ـــ كفكفي يا مولاتي دموعك ، فمولاي هناك في حصن الجدار الأبيض يشرف من أفقه على الكون .

ـــ قلبي يحدثني أني لن أراه .

ـــ إنه في رعاية الآلهة وستنصره ، وتعود العدالة إلى مكانها وينفى الظلم من الأرض .

ـــ هنيئا لمن يرى ذلك اليوم .

ووقعت عينا هاجر على المقبرة الهائلة التي بناها الأمير لتكون مثواه ، فهاجت شجونها وعادت إليها مخاوفها وقالت :

ـــ لو قتل مولاي لأقتلن نفسي .

فقالت الوصيفة في إشفاق :

ـــ مولاتي ارحمي نفسك ، فإن مولاي في رعاية آبائه .

فعادت هاجر تقول في إصرار :

ـــ لأقتلن نفسي ..

ـــ أنت يا مولاتي شابة ، وحرام أن تقضي بيدك على هذا الجمال .

ـــ لأقتلن نفسي إن تخلت عنا الآلهة .

ـــ اطمئني يا مولاتي فلن تتخلى عنا آلهتنا .

وشردت هاجر وراحت تهمس كأنما تخاطب نفسها :

ـــ إن في الموت شفاء نفسي .

إنه كرائحة بخور مر ، أو كالجلوس تحت الشراع في يوم اشتدت ريحه .

إنه كأريج زهرة السوسن .

مثل مجرى الماء العذب ، مثل عودة المرء إلى داره بعد رحلة

مضنية .

إنه كسماء صفت بعد أن غامت بالسحاب .

إن شوقي إليه كشوق إنسان يتوق إلى بيته بعد أن أمضى سنين فى الأسر . ترى أأجد رع فى سفينته حقا عندما أذهب إلى هناك ؟!

٢

ـــ يعتقد المصريون أنهم الناس وحدهم .

ونظر سنان بن الأشل بن عُبيد ملك الهكسوس إلى رئيس وزرائه وقال :

ـــ ونحن ؟

قال رئيس الوزراء :

ـــ أيسمح لى مولاى أن أقول ما يقوله المصريون فينا ؟

ـــ قل .

ـــ يقولون إنهم الناس وحدهم ، أما نحن فبرابرة قساة غلاظ الأكباد .

وضحك الملك وقال :

ـــ هذا رأيهم فينا فما رأيهم فى سائر البشر ؟

ـــ إنهم يعتقدون أن الآلهة اصطفتهم وأحبتهم فهم وحدهم الناس ، أما سائر الشعوب فمن نسل أعداء الآلهة ؛ فإنه عندما هزم الإله رع أعداءه فى إدفو تمكن بعضهم من الهرب ، فمن فر منهم إلى الجنوب كان منهم النوبيون ، ومن فر منهم إلى الشمال كان منهم الآسيويون ، ومن هرب منهم إلى الغرب كان منهم الليبيون ، ومن هرب منهم إلى الشرق كان منهم أسلاف البدو .

وساد الصمت برهة ثم قال الملك :

ـــ إن المصريين يسخرون من قولى إنى ابن رع وإنى فرعون مصر لأنى لم أولد ولادة إلهية . حدثنى كيف يخرج الفراعين من صلب الآلهة ؟

ـــ يعتقد المصريون أن اجتماعا يعقد فى السماء يعلن فيه الإله رع سائر الآلهة بقرب ولادة الملك الجديد ، فيقوم تحوت إله الحكمة والتاريخ ذو رأس الأبيس بذكر اسم الملكة التى ستكون أما للحاكم المقبل ، وهى أجمل النساء جميعا .

ـــ وإن لم تكن أجمل النساء جميعا ؟

ـــ أليست آلهتهم بقادرة على أن تجعلها أجمل النساء جميعا فى هذه اللحظة المباركة ! وعندئذ يتخذ رع هيئة الملك ويدخل على الملكة فيجدها مضطجعة والجمال يحف بقصرها ، بيد أنها تستيقظ فجأة عندما تشم رائحة الإله فتبتسم لجلالته ، وتتهلل بالبشر عندما تستمتع برؤية جماله فيخترق حبه شغاف قلبها ، ثم يذكر لها رع اسم الملك المقبل . ويعدها بأنه سيصبح ملكا على البلاد جميعا .

ويصدر رع أمره إلى خنوم إله الفنيين الخالق ذى رأس الكبش أن يشكل على عجلة الفخار جسم الطفل وروحه الحارس (الكا) ، فإذا ما تم ذلك نفخت إلهة الولادة « حقت » ذات رأس الضفدع روح الحياة فى جسم الطفل المصنوع من الصلصال ، وفى روحه الحارس .

ويشترك خنوم وحقت فى معاونة السيدة الحبلى على ولادة الملك وابن الإله الذى تتهلل له السماء بالفرح الفياض . وما إن يخرج المولود إلى عالم النور حتى يهرع إليه رع فيضم ابنه الحبيب إلى صدره

الحنون ، ومن ثم يعهد به إلى الإلهة حتحور البقرة المقدسة لترضعه وتغذيه .

قال الملك فى حماس :

— على كهنة أواريس أن يجدوا لنا ميلادا إلهيا فخما كهـذا الميلاد .

قال رئيس الوزراء :

— ليس ما يمجد فرعون ميلاده الإلهى وحسب ، بل ما أكثر أمجاده . فقد ازدرد علم كل إله ، ومدة حياته الأبد ، إذا أراد شيئا كان ، وإذا لم يرد لم يكن ، إنه إله يعيش على أكل آبائه ويتغذى بأكل أمهاته . وهو رب الحكمة ومجده فى السماء ، يأكل الرجال ويتغذى بالآلهة ، رب الرسل وباعث الرسالات وفى جوفه أرواح الآلهة .

وقبل أن يفيق الملك من دهشته دخل عليه رئيس الديوان الملكى ، ورفع ذراعيه محييا وقال :

— إن كل شىء يجرى كما يشاء قلب جلالتكم ويهوى ، وإن قولكم ينفذ كل يوم ، وإن أفكار قلبكم تتحقق كأفكار قلب بتاح عندما يصوغ قطعة فنية .

وراح الملك يصغى إلى رئيس ديوانه وهو سعيد ، فهو يخاطب كما كان يخاطب الفراعين ، وإنه ليأمل أن يأتى اليوم الذى ينسى فيه الناس أنه من أولئك الرعاة الذين اغتصبوا الملك من الفراعنة . واستمر رئيس الديوان فى حديثه :

— أيها الملك يا من أنت مولانا ، لقد عاد قائد الحملة التى بعثها مولانا إلى أرض كنعان لتأديب المعتدين الذين نزلوا بأرض عبيد مولانا

من الكنعانيين يسوق الأسرى والغنائم ، وهو يلتمس شرف المثول بين يدى مولانا .

قال الملك :

ــ لقد أذنا له بالدخول .

ودخل القائد إلى حيث يجلس الملك ، وقبل أن يمد إليه عينيه خر ساجدا وقبل الأرض بين يديه ، وظل فى سجوده إلى أن أمره الملك أن ينهض وأن يتكلم فقال :

ــ يأيها الملك يا من أنت مولانا ، لقد مكنتنا آلهتنا العظام من أعداء مولانا فهزمناهم شر هزيمة ، وسقنا نساءهم سبايا .

وصمت القائد قليلا ثم قال :

ــ وبين السبايا يا مولاى امرأة ينبغى ألا تكون إلا لجلالتك .

فأشرق وجه الملك بابتسامة وقال :

ــ اذهب وأت بها .

وانحنى القائد وخرج وهو يتقهقر حتى لا يولى الملك ظهره ، ثم انطلق إلى حيث كان الأسرى وأمر سارة أن تتبعه .

سارت سارة فى ردهات القصر مرفوعة الرأس ثابتة الجنان يملأ قلبها يقين فى رعاية رب العالمين ، ولم تبهرها الأعمدة السامقة ولا روعة النقوش والتهاويل وفخامة الرياش ، ولم تسر فى بدنها رعدة خشية بطش الجبارين ، فقد ذابت روحها فى الله وأسلمت له وجهها .

وانطلقت وهى غائبة عن كل ما حولها بالتسبيحات التى تتردد بين جنباتها وبالسكينة التى تنزل بفؤادها وبالنسائم الروحية التى تهب عليها ، ولم تشعر بالعيون التى تعلقت بها لتسعد بجمالها الفتان .

وأشرفت على غرفة الملك فإذا الجميع يخرون سجدا بين يديه ، وظلت هى شامخة فى كبرياء . ونظر الملك ورئيس وزرائه إليها وقد فغرا فميهما من الدهشة ، فيا طالما رأيا ألوانا من الجمال بيد أنهما لم يريا من قبل مثل هذه الفتنة الطاغية .

قال الملك :

ــ إن سنا جمالها يبهر كل الأنوار .

قال رئيس الوزراء :

ــ إن شروقها أروع من شروق رع فى أفقه .

وقال الملك فى سرور أشبه بسرور الأطفال :

ــ خذوها إلى الحريم فأنا أريدها الليلة .

وتلقفها المشرف على الحريم الملكى ، وسار بها فى جناح الحريم بين حراس شداد واقفين على الأبواب . وجاءت رئيسة الحبيسات المخدرات محظيات الملك ورحبت بسارة وهى تبدى إعجابها بجمالها الآسر الذى سيسعد به الملك الليلة .

وانطلقت سارة إلى حجرتها وأعين الفتيات الجميلات اللاتى كن يعزفن على آلاتهن الموسيقية أو يمارسن الرقص تنظر إليها وقد امتلأت قلوبهن حسدا ، وإن ندت من بعضهن آهات إعجاب على الرغم منهن ، وقالت إحداهن :

ــ ليضعنَّ الملك على رأسها حيات الأريوس المقدسة .

وقالت أخرى :

ــ وليطلقن عليها اسم : الحاكمة الجميلة .

وقالت ثالثة :

ـــ وسرعان ما تمسى المحظية الملكية الوحيدة .

ودخلت سارة غرفتها واستغرقت فى صلاة حارة فأحست كأن نورا أضاء جوفها وأن طمأنينة عجيبة غشيتها .

وراحت رئيسة الحبيسات المخدرات تهيىء الجو الشاعرى فى الغرفة التى سوف يلتقى فيها الملك بأسيرته الجميلة .. راحت تنسق أوانى النبيذ وتنثر العطور على الفراش الوثير وتعد كل شىء ليكون على ما يشتهى الملك ويهوى .

وجاء الليل وأخذت سارة إلي غرفة الشراب ، وما لبث الملك أن دخل فقبلت رئيسة المحظيات الأرض بين يديه ، وأمرت الخادمات أن يدخلن عليهما بكئوس النبيذ .

وقدمت إحدى الخادمات كأسا إلى الملك فتناولها منشرحا ، وقدمت أخرى كأسا إلى سارة فأبت أن تمد يدها إليها ، فقالت الخادمة :

ـــ فى صحتك !

اشربى حتى تثملى .

واحتفلى بهذا اليوم الجميل .

وابسطى ذراعيك للسرور .

ورأت رئيسة الحبيسات المخدرات إحجام سارة عن مشاركة الملك فى شرابه فوجهت الخطاب إلى الساقية لتذهب عن سارة روعها :

ـــ أعطينى ثمانى عشرة آنية من النبيذ ،

انظروا ! إنى أحب أن أشرب حتى النشوة ،

فجوفى يابس كالهشيم .

ولم تسمع سارة مما تقول شيئا فقد كانت روحها تهيم لتتصل بسر الوجود ، كانت تحاول أن ترى الله بعين بصيرتها لتأنس به وتتفيأ ظلال رحمته وتحتمى بحصنه .

وارتفع صوت مغنية تشدو :

حينما تستقر يدك على يدى ،

ينعم قلبى بالسرور .

إن سماع صوتك يسكرنى .

وراح الملك يرنو إلى سارة فى وله .. إنها جميلة أجمل من ندى الصباح ، يفوح منها عبير أطيب من البخور المقدس ، وأشار برأسه لرئيسة المحظيات أن تنسحب .

وأسدلت الستر ولم يبق فى الغرفة إلا الملك وسارة ، وقبل أن يتحرك من مكانه نهضت سارة وانتبذت ركنا من الغرفة وشخصت ببصرها إلى السماء وراحت كل جارحة من جوارحها تصلى لله فما لبثت أن أحست أنها روح هفهافة تخلصت من سجن الجسد ، ولم تعد تحس قلقا ولا خوفا ولا رهبة ، بل طمأنينة وأمنا وسلاما .

وقام الملك وهو مأخوذ بجمالها ليبسط إليها يده ، فإذا به لا يجد فى نفسه حركة ، وامتلأ قلبه رهبة ، وغشيه رهق ، ولم يملك إلا أن يفر من ذلك النور الطاهر الذى يترقرق فى الوجه الجميل ، فدار على عقبيه وغادر الغرفة لا يلوى على شىء .

وجاءت الليلة التالية وانفرد الملك بسارة ، وقام ليبسط إليها يده فقبضت يده قبضة شديدة ، فنزلت به رهبة زلزلته زلزالا ، ووجد أن

خير ما يفعل أن يفر من الغرفة .

وفى الصباح اجتمع برئيس وزرائه وقال له :

ـــ ائتنى بالكهنة والعرافين والسحرة .

وخرج رئيس الدين يدعو كهنة أواريس ، والملك يقول لنفسه :

ـــ إنها شيطان وليست بشرا .. لم يأتونى بإنسانة .

وجاء الكهنة والعرافون والسحرة وقص عليهم الملك ما كان بينه وبين سارة ، فقاموا إلى معابدهم وقربوا القرابين لآلهتهم ، ثم عادوا إليه فقالوا :

ـــ هذا من غضب الآلهة إذ هممت بامرأة رجل غريب .

فقال الملك فى دهش :

ـــ أو هذه أول امرأة لرجل غريب أغتصبها ؟

فقال الكهنة :

ـــ إنه رجل ذو سلطان .

وجاء المساء وانطلق الملك إلى الحريم وهو فى شك مما قال الكهنة والعرافون مريب ، فما كان يسعه أن يصدق أن الآلهة فى السماء تغضب لامرأة كسائر النساء ، فإن كانت ذات حظوة لدى الآلهة فلماذا تركتها تقع أسيرة بين يديه ؟

وقادته رئيسة الحبيسات المخدرات إلى غرفة سارة وقد خرست الألسنة وسكنت آلات الطرب وامحت الضحكات الخليعة الماجنة ، وراحت أعين الجميلات تقفو أثر الملك الذى شغف حبا بالجارية التى أمعنت فى صده وإذلاله .

وفتح باب الغرفة ودخل الملك ، ونظر فرأى سارة مستغرقة فى

الصلاة لم تشعر بإقباله ، فقد كانت متوجهة بكل كيانها إلى الله متصلة به ، تتهلل بفرح فياض مذ أنزل السكينة على قلبها لتزداد إيمانا .

ووقف يعجب من نفسه القلقة التى باتت تهاب امرأة ، ويقنع نفسه أن ما به إن هو إلا من أثر ما قال الكهنة والعرافون ، فأصم أذنيه عن وسوسات التخاذل التى أخذت تفح فى جوفه وتقدم خطوة ، فإذا بسارة قد أتمت صلاتها وأدارت وجهها نحوه فقال لها :

ـــ ماذا كنت تفعلين ؟

ـــ أصلى لله .

ـــ ومن هو الله هذا ؟

ـــ ربى وربك ورب الناس جميعا .

وأحس الملك تخاذلا يدب فى أوصاله ورهبة تغشاه ، وعزم على أن يقضى على خوفه فأطلق ضحكة ساخرة يشد بها أزر نفسه ، ومشى إليها وبسط يده ليضمها إليه فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها فى توسل :

ـــ ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك .

فرفعت سارة عينيها إلى السماء ودعت الله فأطلقت يده ، فسولت إليه نفسه أن يبسط يده إليها كرة أخرى ففعل ، فقبضت يده قبضة أشد من الأولى .

ونظر إليها فى رجاء وقال :

ـــ ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله ألا أضرك .

ففعلت وأطلقت يده ، ومد بصره إليها فرأى كأنما ينظر إلى عمود من نور يبده القلب ويغسل إفك النفس ويشيع فى الروح طهرا ، فقال

فى خشوع :

ـــ من أنت ؟

ـــ امرأة من عباد الله كانت آمنة فى كنف زوجها قبل إغارة جنودك على خيامه .

ـــ ومن زوجك ؟

ـــ إبراهيم عبد الله ورسوله ، أرسله الله ليدعو إلى عبادته وحده لا شريك له .

ـــ ما دمت زوجة رسول الله فلماذا تخلى الله عنك وعن رسوله وتركك تسقطين فى الأسر وتساقين سوقا مع السبايا ؟

فقالت سارة فى إيمان أذهل الملك :

ـــ ما كان الله ليطلعنا على الغيب ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا .

٣

كلف المصريون بالنواح مذ راحت إيزيس تبكى حبيبها أزريس فى طول البلاد وعرضها وهى تنقب عنه بعد أن غدر به أخوه « ست » ، فراحت هاجر تذرف الدمع السخين على أميرها وحبيبها الذى تقضت الأيام دون أن تراه أو تبلغها أنباؤه .

المعركة دائرة هناك بينه وبين الهكسوس على الحدود الشمالية فى حصن الجدار الأبيض ، ترى لمن يكتب النصر ؟ أينتصر زوجها أمير منف صاحب الحق الشرعى أم ينتصر الظلم والطغيان ؟ أينتصر « ست » الشرير على « بتاح » الصانع الأعظم الذى خلق العالم ، قلب الآلهة ولسانهم ؟ إن بتاح قد انتصر فى عين شمس على « رع » إله الشمس ، حور الأفق ، من أبعد العواصف وأزجى المطر وحطم السحاب ، ومن يشرف على الآلهة ولا يشرف عليه إله .

ترى أيحارب الآلهة حقا ؟ أينتصر أحدهم وينهزم الآخر ؟ يقول كهنة منف إن بتاح انتصر على رع أيام كان كل منهما ملكا فى الأرض ؟ كان ذلك قبل أن يعود إلى السماء ، ترى أتدور المعارك هناك أيضا كما هى دائرة على الأرض ؟ إن كان ذلك حقا فأين السلام ؟

إن كان « ست » قد انتصر على « رع » وهزمه فلا بد أن تتوقف رحلة إله الشمس الأبدية ، ولكن ذلك لم يحدث ، فما يزال « رع » يجدف فى سفينته الملكية الفاخرة عبر المستنقعات السماوية .

ورفعت الأميرة هاجر عينيها إلى السماء فرأت الشمس ترسل نورها إل الكون كما اعتادت أن تراها مذ فتحت عينيها على النور لا أثر فيها لهزيمة ولا يبدو عليها الانكسار . إنها متألقة كأشد ما يكون التألق . فهبت هاجر منتصبة وصوت يدوى فى جنباتها :

— أوهام !

ونظرت نحو الغرب حيث هرم سقارة ومقابر العظماء . السكون يلف كل شيء لا حركة ولا نأمة . إن أصحاب هذه القبور قد أوقفوا الضياع ومحاصيلها لتقيهم في قبورهم شر الجوع والعطش والبرد ، وعينوا الكهنة لتلاوة الصلوات ليسعدوا فى الحياة الأخرى ، وها هى ذى أوقافهم قد ذابت والكهنة قد كفوا عن الصلاة ، وقبورهم موحشة وحشة الموت .

وأخذت ترن فى كيانها مناجاة الكهنة للميت : « إن عظامك لن تفنى ولحمك لن يمرض وما أعضاؤك ببعيدة عنك . إن الآلهة تعيد لك رأسك وتجمع لك عظامك وتضم لك أعضاءك وتضع قلبك فى جوفك . قم لخبزك هذا الذى لن يجف ، وجعتك التى لن تتسنه ، إذ بهما تصبح روحا » .

وأحست هاجر أنها تتمزق وراح صوت يدوى فى جنباتها :

— أوهام !

وتذكرت الأحاديث الطويلة التى كانت تدور بينها وبين وصيفتها ! كانت كلها تدور حول الموت وما بعد الموت والحياة الأخرى . كانت أمنيتها أن تدفن فى أبيدوس حيث مقبرة أزريس إله العالم السفلى ، وقد أوصت وصيفتها إن تعذر دفنها هناك أن تقيم لوحا

حجريا فى رحاب قبر أزريس حتى يقبلها سيد أبيدوس فى مملكته السعيدة .

كان أزريس يعيش فى منف كما نعيش ، وقد قال الكهنة إن أخاه ست غدر به وقتله ، وأنه قام من بين الأموات وأصبح قاضى الموتى له ميزان يزن به أعمال البشر ، أيمكن أن يكون ذلك حقا ؟

وأحست هاجر أنها تتمزق وأن الشك يكاد يقتلها ، وراح صوت يدوى فى جنباتها :

ـــ أوهام .. محض أوهام .

وراحت تقلب وجهها فى السماء والشجر والزرع والطير فإذا بها تحس لأول مرة حقيقة طالما سمعتها من الكهان . إن الإله يحل فى كل شىء : فى الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والطير وفى كل ذات كبد رطبة ، إنه فى كل الناس ، إنه فيك .. يسرى مسرى الدم .

ورنت كلمة الناس غريبة فى أذنيها ، أحقا أن المصريين وحدهم هم الناس ومن عداهم ليسوا ناسا ؟ فماذا يكونون ؟ أليس الإله فيهم ؟ ألا يحل الإله إلا فى المصريين وحدهم ؟ إن الكهنة يقولون إن المصريين من نسل الآلهة أما الآخرون فذرية أعداء الآلهة . إن كان « بتاح » هو الذى خلق الخلق وهو الذى خلق الآلهة فمن الذى جعل شعبا فوق شعب ؟

أحست هاجر أنها تتمزق وربا الشك فى نفسها وراح يدوى فى جنباتها :

ـــ أوهام .. أوهام .

وارتفع صوت بالغناء كان أقرب إلى العويل ، فأصاخت السمع :

إن المقدر الجميل قد وقع
تمضى الأجيال فتفنى أجساد .
وتبقى أخرى .
كان ذلك منذ عهد الأجداد .
الآلهة الذين وجدوا فى غابر الزمان
يستقرون فى أهرامهم .
وكذلك الأشراف والمبجلون قد رحلوا
ودفنوا فى أهرامهم .
وأولئك الذين بنوا مزارات لقبورهم .
وشيدوا الدور لم يعد لديارهم وجود .
ماذا حدث لهم ؟
لقد سمعت كلمات « أمحتب » و « حردادف »
— من يترنم الناس بأقوالهما فى كل مكان —
كيف حال ديارهما ؟
تهدمت جدرانها .
ولم يعد لديارهما وجود
كأن لم تغن بالأمس .
لا أحد يأتى من هناك ليحدثنا عن حال من رحلوا
ويخبرنا عن مآلهم ،
حتى تطمئن قلوبنا
إلى أن نرحل إلى هناك

إلى حيث قد رحلوا .
شجع فؤادك على أن ينسى ذلك
ومتع نفسك باتباع رغبتك
وأنت على قيد الحياة ،
وضع الطيب على رأسك
وارتد ملابسك من الكتان الرقيق
وضمخها بالعطور العجيبة ؛
فهذه أشياء الإله الأصيلة .
وزد كثيرا فى مسراتك
ولا تجعلن قلبك ييتئس ،
واتبع ما تشتهى وما يطيب لك ،
فهذه شئونك على الأرض
حسبما يمليه عليك قلبك
إلى أن يأتى يوم مغيبك ،
حينما لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيهم .
ولا الذى فى القبر يصغى للعويل .
اغتنم التمتع باليوم السعيد
ولا تجهدن نفسك فيه .
أصغ ! لم يأخذ إنسان متاعه معه
ولا تجهدن نفسك فيه .
وما من أحد ممن ذهبوا يعود .

وسمعت هاجر ضجة وصراخا وعويلا وصيحات وجلبة ، فدق

قلبها رعبا . إن ما تسمعه نذير قتال عند أبواب القصر يدور ، ولم تفكر فى الفرار . وأين المفر إن كان أميرها وحبيبها قد قتل أو وقع أسيرا ؟

وجاءت الوصيفة من أقصى القصر تسعى وقد اتسعت عيناها رعبا تنتفض كحمامة وتقول وهى خائفة تترقب :

ــ الهكسوس .. الهكسوس ...

ثم فرت لا تلوى على شىء . وسارت هاجر صوب الجلبة وهى مأخوذة حزينة حتى الموت ، ترجو أن تصيبها طعنة خنجر أو يستقر فى قلبها سهم لتستريح من ألم الروح وعذاب النفس ، فقد أبغضت الحياة وكرهت الناس وامتلأ قلبها مقتا لآلهتها جميعا أولئك الذين تخلوا عنهم ومكنوا الآسيويين منهم .

وتراءى لها جنود الهكسوس وهم يتقدمون منها وقد ثبتوا أنظارهم على ثعبان الأريوس المقدس الذى يزين رأسها ، وصاح صائح منهم :

ــ الأميرة .. الأميرة .

وأطبقوا عليها وأخذوها أسيرة ، وسارت بينهم مطأطئة الرأس كسيرة الفؤاد ، فلقد كتب عليها الهوان وأصبحت جارية ذليلة .

وأصدر قائد الحملة أوامره بإرسالها فيما أرسل من غنائم وأسلاب وأسرى إلى أواريس ، إلى البيت الكبير ، إلى الباب العالى ، إلى الملك .

ووقعت عيناها على القصر وعلى العرش العظيم وعلى معبد « بتاح » فغامت مآقيها بالدموع ؛ إنها تودع منف مخازن الغلال المقدسة الوداع الأخير .

وانطلقت قافلة اليأس بين الحقول إلى المجهول ، وراح فلاح

يغنى :

ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الطير فى أيام الصيف
عندما تكون السماء حارة .
ألا إن اسمى أشد مقتا من مصايد السمك فى يوم صيد
السماء فيه حارة :
ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الطير فوق الصفصاف
المملوءبالوز .
ألا إن اسمى أشد مقتا من رائحة الصيادين على شواطىء
المستنقعات بعد الصيد .

وجاشت العواطف فى صدر هاجر وودت لو تبكى حتى تتصدع كبدها من البكاء لتنفس عن الحزن الذى يضيّق أنفاسها ، ولكنها أحست بالعيون الشامتة ترصدها فلم تشأ أن تتخاذل أمام أعدائها ، فرفعت رأسها فى كبرياء وأصرت على أن تظل أميرة جديرة بإمارة منف العرش العظيم .

ودخلت مدينة أواريس يتألق على رأسها تاج الوجهين البحرى والقبلى وقد أحاط بها جنود الهكسوس . كانت شابة سمراء جميلة لم تتجاوز الخامسة والعشرين زادها جمالا مسحة الأسى التى ارتسمت على وجهها النبيل وأنفها الشامخ وجبينها المرفوع . كانت تحاول جاهدة أن تبدو فى أعين أعدائها ــ كما كانت دائما ــ أميرة مصرية من نسل الآلهة ؛ السيدة الجميلة سيدة القطرين وزوجة الإله وحبيبته .

كانت أواريس مدينة حديثة قامت فيها مسلات وتماثيل وحدائق وقصور ومعابد شامخة ومقابر هائلة ، إلا أنها كانت حديثة عهد

بالنعمة . أين هى من منف العريقة ، منف المقدسة ، منف درة الآلهة ومخازن غلالهم ؟ وهان القوم فى عينيها ، أين هم منها ؟ إنها من الناس وهم ليسوا ناسا ؟ إنها من نسل الآلهة وهم من نسل أعداء الآلهة . إنها من بيت الملك المقدس وهم من الأفاقين الرعاة المغتصبين .

ودخلت على الملك وعلى رأسها التاج وبين جوانحها ثورة عارمة ، وخرجت من عنده وقد نزع عنها التاج ونزل فى قلبها يأس مرير . قال لها الملك فى قسوة إن أميرها وحبيبها قتل ، لقى مصرعه على أيدى جنوده . وقهقه قهقهة وهو يقول إن هذا مصير كل من يقف فى سبيله . وقالت له إنه قاس مثل إلهه ست . يحب سفك الدماء كحب إلهه سفكها ، وسيلته الغدر كما هى وسيلة إلهه ، فإن زوجها سيقوم من الأموات كما قام أزريس وسينتقم منه ومن كل من اشترك فى سفك دمه .

وتلقفتها رئيسة الحبيسات المخدرات وانطلقت بها إلى الحريم لتكون محظية . وسارت هاجر معها مطرقة الرأس كسيرة الفؤاد ، وشغلت عن كل ما حولها بصوت المغنى الذى كان ينوح فى جنباتها :

أصغ ! لم يأخذ إنسان متاعه معه .

وما من أحد ممن ذهبوا يعود .

ولأول مرة انهمرت من مآقيها الدموع .

ودخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها فخيل إليها أن باب حياتها قد أقفل عليها . انتهت أيام منف ولياليها وانقضت أيام عزها وسلطانها ومضت أيام مجدها كأمس الدابر ، تلاشى كل شىء كما يمضى الحلم الجميل .

أفل نجم هاجر سيدة القطرين الأميرة الجميلة زوجة الإله وحبيبته ، صار كل ذلك ذكرى فى جوف الزمن ، لم تعد هناك إلا هاجر الجارية المصرية .

ورنت كلمة الجارية فى أذنيها وفى ضميرها رنينا موحشا بغيضا فأجهشت بالبكاء .

٤

كان إبراهيم ولوط وإليعازر الدمشقى وبعض أتباع إبراهيم يطوون الأرض هابطين إلى مصر ، وكان إبراهيم رابط الجأش لم تذهب نفسه شعاعا لأسر سارة ، كان على يقين من أن سقوطها فى أيدى الهكسوس لم يكن غضبا من الله إنما كان خطوة من خطوات قدره لتتم كلمته . إن الله يفعل ما يريد .

وتجاوزوا الحدود التى تفصل مصر عن سيناء ودفعوا ما طلب منهم من مكوس ، ثم انطلقوا من جوشن بين النخيل والأعناب والأشجار الوارفة الظلال حتى بلغوا منديس ، فإذا قطط محنطة وتماثيل كثيرة لقطط وإذا الناس ينظرون إلى هذه القطط نظرات تقديس ، فلاح الدهش فى وجوه القادمين من فلسطين . ثم دخلوا معبد « باسنت » ينظرون فإذا برجال ونساء يعربدون ويطلقون ضحكات المجون .

ورأوا تمثالا لإلهة المعبد « باسنت » إلهة المرح ، وكان رأسها رأس قطة ففطنوا إلى سر تقديس القوم للقطط ، ولم يكن ما يجرى هناك غريبا على أعينهم فقد رأوا مثله فى معابد « عشتار » إلهة اللذة المنتشرة فى بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين .

إن ما كان يجرى فى معبد باسنت هو عين ما كان يجرى فى معابد عشتار : كان النساء يقدمن أنفسهن قربانا على مذابح الشهوة إرضاء لإلهة اللذة وكن سعيدات بتضحياتهن ، وكان الناس فى منديس

يهيمون فى متاهات الضياع كإخوانهم فى أور وبابل ودمشق وإيليا وفى كل بقعة فى بقاع الأرض أقيم فيها معبد لإلهة اللذة تمارس فيه الدعارة باسم الدين .

رأى إبراهيم والذين معه تماثيل رجال لها رءوس عجول وكباش ، وتماثيل نساء لها رءوس قطط ، وتماثيل تماسيح وثيران وثعابين مقدسة ، وعلموا أن القوم يرمزون إلى كل إله من آلهتهم بحيوان من الحيوانات التى تمرح فى أرض مصر .

كان القوم فى بابل يعبدون الشمس والقمر والنجوم ومياه البحار والرياح والزوابع ويرمزون إلى هذه الظواهر بتماثيل ينحتونها على هيئة البشر ، أما المصريون فقد عبدوا آلهة الشمس والقمر والأرض والسماء والخضرة والخصب والخلود والحكمة ، وكانوا يرمزون إليه بأجسام بشرية ورءوس عجول وكباش وقطط وثعابين ، ويقولون إن أرواح الآلهة تحل فى أجسام تلك الحيوانات المقدسة !

وشد إبراهيم والذين معه الرحال إلى أواريس فلما بلغوها اتخذوا طريقهم إلى قصر الملك ، فمروا بمسلات وتماثيل ومعابد وكهنة ورجال يرتدون الكتان ، ويحملون الأثقال على رءوسهم ، ونساء يمارسن التجارة فى الأسواق ويحملن الأثقال على أكتافهن أو يحملن سلال القرابين على رءوسهن وهن فى طريقهن إلى المعابد .

كان عبير البخور ينتشر فى المعابد ، بينا كان عبير الدين يسرى فى جنبات وادى النيل فى الحقول والدور والقصور والقبور ، وفى كل مكان تتردد فيه أنفاس البشر .

ولاح لهم قصر الملك بأعمدته الفرعونية وحدائقه الغناء وشرفاته التى يشرق منها جلالته من أفقه ، وقد وقف الجنود على جانبى الباب

الكبير بملابسهم الفرعونية وفى أيديهم الرماح ، وانتشر فى فناء القصر بعض الضباط على صهوات جيادهم .

كان القصر رائعا يأخذ بالألباب إلا أن روعته لم تبهر إبراهيم فقد هانت الدنيا فى عينيه بعد أن تاقت نفسه إلى ما عند الله .

دخل إبراهيم ومن معه القصر مرفوعى الرءوس وطلبوا مقابلة الملك ، وجاء رئيس الوزراء وسأل عن سبب التماس المقابلة فقيل له إن جنود الملك أغاروا على خيامهم فى إيليا وأسروا سارة ، وإنهم إنما جاءوا ليفدوها من الأسر .

وسأل رئيس الوزراء عما يدفعونه للملك لقاء إطلاق سراحها ؟ فقيل له لو طلب الملك وزنها ذهبا لدفعناه .

وغاب رئيس الوزراء فى القصر ساعة ، ثم عاد ليقود إبراهيم ومن معه إلى قاعة العرش ، فلما دنوا منها التفت إليهم رئيس الوزراء وقال :

ــ إذا أشرق عليكم جلالته فخروا له ساجدين .

ــ إنا لا نسجد إلا لله .

ودخلوا على الملك بخطى ثابتة وقد انتصبت هاماتهم وفى أعينهم قوة وعزم ، يترقرق فى محياهم صفاء الإيمان وتنعكس على وجوههم طهارة القلوب .

كانت مفاجأة للملك فما دنا من جلالته إنسان إلا وقبل الأرض بين يديه وما رفع رأسه إلا ولاح فى لفتاته الهلع وارتعدت فرائصه ، فما بال هؤلاء القوم لا يرتجفون فرقا من جلالته ؟

استاءت نفسه بيد أنه جاهد ليكتم عواطفه وقال :

ــ أيكم إبراهيم ؟

فاتجهت أعين القوم إلى إبراهيم وراح الملك يمد إليه بصره ..
رجل مهيب تهفو إليه النفوس وتتفتح له القلوب ، جدير بكل احترام .

وأجلسه الملك بالقرب منه ودار بينهما حديث طويل ، ثم قال الملك :

— لا . لا أقبل فدية ممن صانها الله . إنها لك وما ينبغى أن تكون إلا لك .

ثم التفت إلى رئيس وزرائه وقال :

— إنهم ضيوفى فلينزلوا القصر على الرحب والسعة .

ودخل إبراهيم غرفة من غرف القصر وسرعان ما جاءت إليه سارة يتألق النور فى محياها ، فلما رأته غامت عيناها بالدموع وخفت إليه فهرع إليها وقال :

— ما خبرك ؟

— خيرا ، كف الله يد الفاجر .

فقام إبراهيم عليه السلام يصلى لله .

وفى الليل اجتمع الملك وإبراهيم ورئيس أسرار السماء والكاهن الأكبر ورئيس خزانة الإله ست وكاتب بيت الإله والزعيم الأول للفنانين — وكان يخدم الإله بتاح الفنان الأعظم — والمشرف على قطعان ثيران الإله وكاتب المذبح ، وكان الكهنة جميعا قد حلقوا رءوسهم بالموسى وارتدوا ثيابا بسيطة من الكتان إلا الذى يرى سر السماء فقد كان عن يسار الملك يرتدى جلدا تزينه النجوم .

كان الجو حارا فجلسوا فى جوسق فى حديقة القصر ينعمون بنسيم

الليل ويتطلعون إلى النجوم التى تتلألأ فى السماء الصافية الزرقاء .

وراح رئيس أسرار السماء ينظر فى النجوم ويتحدث ، ثم أشار إلى الشعرى وقال :

— هى روح أزريس .

ثم قال عن نجم الكلب إنه روح إيزيس ، وأن روح حوريس هى الجبار (الأوريون) ، أما سائر النجوم فهى أرواح ترتبط بالشمس فى دورانها ، وأنه عهد إلى النجوم الستة والثلاثين المنتشرة فى رقعة السماء حماية ساعات الليل والنهار .

ثم راح يتحدث عن مواقع النجوم وتقسيم الزمن حسب دورة الشمس لا دورة القمر ، وكيف أن الشهر مقداره ثلاثون يوما ، ولما كانت السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع اليوم فقد أكملت السنة المصرية بخمسة أيام النسىء أضيفت إلى نهاية السنة . ثم راح يتحدث عن السنة الزراعية وكيف قسمت إلى ثلاثة فصول : الفيضان والبذر والحصاد ومقدار كل فصل أربعة أشهر . وأن فصل الفيضان يبدأ ببزوغ نجم الشعرى ، ولما كان أزريس هو الفيضان وهو النيل وهو إله الخصب ومن علم المصريين الزراعة ، فقد قالوا إن نجم الشعرى هو روح أزريس .

وراح إبراهيم يتحدث عن النجوم فقد تعلم الفلك من جده ناحور ومن أور وأبراجها التى شيدت عالية لرصد الكواكب ، وكان القوم فى أور يعبدونها ويقدمون إليها القرابين . وأذهل حديثه الكهنة وأدهش الملك ، إن السنة التى أكملت بخمسة أيام النسىء تجعل السنة تتخلف بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات . إن سنتهم هذه متغيرة لا تتفق

فصولها ولا شهورها مع السنة الطبيعية ، فإن أرادوا أن تكون سنتهم غير متغيرة فعليهم أن يعتبروا اليوم الذى يظهر فيه نجم الشعرى فى السماء صباحا هو بدء السنة وبدء الفيضان .

وتحدث رئيس أسرار السماء عن أيام السعد وأيام النحس ، عن حسن الطالع وسوء الطالع ، فقال إن اليوم الأول من أمشير واليوم السابع والعشرين من هاتور يومان كلهما سعد وبركة ، ففى الأول رفعت السماء وفى الثانى عقد الصلح بين الإلهين ست وحور واتفقا على اقتسام العالم بينهما ، أما اليوم الرابع عشر من طوبة فهو يوم نحس مستمر ، ففيه بكت إيزيس وأختها نفتيس أخاهما أزريس .

وأفاض رئيس أسرار السماء فيما ينبغى عمله فى أيام السعد وما ينبغى تجنبه فى أيام النحس ، وذكر الأيام التى يكره فيها أكل السمك والأيام التى ينبغى فيها تجنب رؤية الفيران ، وأخذ يروى أساطيره فى إيمان شديد كأنما كان يقص وحيا أوحى إليه من السماء ..

وقال إبراهيم عليه السلام :

ـــ الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وما من إله إلا الله ، لا إله إلا هو الحى القيوم .

وراح يحدثهم عن تطيرهم : عن أيام السعد وأيام النحس ، فقال لهم : طائركم عند الله ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ، له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وما كان

الله ليطلعكم على الغيب ، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور .

واستمر فى حديثه وقد تعلقت به أعين الملك والكهنة ، وقد سحرهم بيانه ، وراح الملك يتبادل النظرات والكاهن الأكبر كأنما يقول له : ترى ماذا تفعل معه غدا ؟ فقد كان من المقرر أن يزور الملك وإبراهيم الذى يأتى بأخبار السماء معابد الآلهة ، ليشاهد المراسيم المقدسة .

٥

راح الملك وإبراهيم والكهنة ورجال القصر يقطعون الطريق المقدس الذى يقود إلى معبد الإله ست وهو طريق مرصوف على جانبيه صفان من تماثيل أبى الهول . وبلغ الركب المقدس بوابات المعبد الضخمة وكانت ترتفع بميل مع الأبراج الحجرية المحيطة بها وتقوم عندها ساريات الأعلام عالية خفاقة ، واصطف الجنود فى أكمل زينة لاستقبال الملك وضيفه .. كان مشهدا فخما يهز المشاعر ويبهر النفوس .

وانطلقوا إلى الفناء الكبير وكانت أعمدته ضخمة غاية فى الروعة ، ومن ثم إلى باب فى جدار المعبد الخلفى دخلوا منه ، فإذا تراتيل الكهنة تتردد والمكان يعبق بالبخور .

وأطرق الملك فى خشية وراح إبراهيم يتلفت ، إنها قاعة واسعة بها أعمدة كثيرة ومذابح وموائد للقرابين وتماثيل للإله غريبة . بينها تمثال قرد ذى شعر أبيض وشكل سمح هو تحوت إله العلم وكاتب رسائل الآلهة . قال الكاهن الأعظم :

ــ على العاقل الحكيم أن يظل مخلصا للعلم وأن يصلى لتحوت إله العلم ليهبه المعونة وينير له الطريق . إنه لا ينسى زملاءه الأرضيين إذا دعوه .

ــ وكيف يدعونه ؟

— « تعال إلى حتى تهدينى ، واجعلنى حصيفا بارعا فى مهنتك ، فمهنتك أجمل المهن جميعا .

تعال إلى وأرشدنى فإنى خادم فى دارك .

دعنى أتحدث عن قوتك أينما حللت حتى يقول الناس جميعا : ما أعظم ما يفعله تحوت ، ثم يأتون إليك مع أولادهم ليصبحوا كتبة ، مهنة الحامى القوى النبيلة ، إن من يشغلها يتهلل بالفرح ويفعم بالسرور ويصبح قرين العين » .

ورأى إبراهيم على الجدار صور الملك بين آلهة كثيرة ، والإله ست يقدم إلى أنفه علامة الحياة ، على حين تباركه الإلهة بوضع يدها على كتفه ، بينا يسجل تحوت كاتب الآلهة ملايين السنين التى وهبتها الآلهة للملك .

وقال الكاهن الأعظم :

— الآلهة تشكر جلالته على هذا المعبد الجليل .

وراح الكاهن الأعظم يقرأ ما كتب على لسان ست : .

— « إنى أهبك السنين حتى الخلود ، وحكما على القطرين فى سرور . ما بقيت أنا حيا فستبقى أنت حيا على الأرض ، متألقا كملك على الوجه القبلى وملك على الوجه البحرى على عرش حوريس الخاص بالأحياء ، وسيبقى اسمك ما بقيت السماء ، خالدا أبدا جزاء وفاقا على هذا الأثر الجميل الكبير الطاهر المكين الذى أقمته لى حتى تسعد بحياة الخلود .

أى بنى الحبيب ، إن قلبى ليبتهج عندما أرى بهاءك ، لقد جددت لى بيتى المقدس كأفق فى السماء ، لهذا فإنى أمنحك حياة رع

الأبدية » .

ورأى إبرهيم أن المعبد أقيم تمجيدا للملك لا تمجيدا للإله بيد أنه لم ينبس بكلمة وأخذ يتفرس فى التماثيل الأخرى الغريبة ، ووقف أمام تمثال رجل له رأس الأبيس فقال الكاهن الأعظم :

ـ إلهنا بتاح إله الفنانين والصناع ، من خلق الناس من الطين ونطق بالأسماء كلها .

وشرد إبراهيم ، إنهم يعرفون أن الإنسان خلق من طين وأن هناك من عرف الأسماء كلها ، ففى علمهم بذور الحقيقة ، إنهم يؤمنون بالخلود وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب وبالعقاب ، جاءتهم هذه الحقائق عن رسالة كريمة إلا أنها طمست بفيض من الخزعبلات والأساطير .

ووقف إبراهيم أمام تمثال رجل له رأس ابن آوى .

فقال الكاهن الأعظم :

ـ الإله أنوبيس ، وهو ابن غير شرعى لأزريس من أخته نفتيس .

ولاح فى وجه إبراهيم الدهش ؛ حتى آلهتهم لهم أبناء غير شرعيين ، وحسب الملك أن إبراهيم لم يفهم مقالة الكاهن الأعظم فقال له :

ـ كان أزريس متزوجا أخته إيزيس ، وكانت نفتيس أخته أيضا . وكانت تحبه حب إيزيس إياه وإن كانت زوجة لأخيها ست إلهنا العظيم . إن هذا فى صحفنا المقدسة ، وسيتلو عليك بعضها الكاهن الأعظم الليلة .

وراح إبراهيم يتفرس فى الكباش والقردة والقطط والعجول التى

زينت رءوسها تماثيل الآلهة ، وفطن الكاهن الأعظم إلى خيبة الأمل التى لاحت فى وجهه فقال له :

ـــ قدسنا هذه الحيوانات لأن أرواح الآلهة تحل فيها .

أيقول لهم إبراهيم « لستم على شيء » ؟ كان إبراهيم فطنا حليما فآثر أن يتريث حتى تنتهى الزيارة وتبدأ بينه وبين الكهنة المناقشات والمناظرات التى اشتعلت مذ وطأت أقدامه قصر الملك فى أواريس .

ونحرت الذبائح وأطلق البخور وتكدست على موائد القربان الأطعمة من لحوم وفواكه وشراب الجعة ، وراح المرتلون العمى يرتلون للآلهة على هزات ا لسستروم (الشخشيخة) .

ودخل الملك والكاهن الأعظم وإبراهيم مقصورة مظلمة كان بها مغنيات الإله ست ، وكن يرتلن أناشيد الإله ويرفعن أصواتهن الجميلة بالابتهالات .

ولاحت المقصورة الوسطى ، قدس الأقداس ، حيث يوضع الإله ست إله الحرب ، من رفعه الهكسوس فوق آلهة البلاد جميعا .

وكتب على مدخل المقصورة : « أنا طاهر ... أنا طاهر .. أنا طاهر .. أنا طاهر » وما كان ينبغى أن يدخل « قدس الأقداس » إلا من كان طاهرا .

وراح الكاهن الأعظم يحرق البخور ويقرأ :

لقد صعدت إليك .

وطهورى فوق يدى .

ولقد مررت على الإلهة تفنوت فطهرتنى تفنوت .

أنا كاهن هذا المعبد وابن كاهنه .

أنا كاهن حضرت لأعمل ما ينبغي على المرء عمله ،
ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغي عمله .

وتقدم هو والملك وإبراهيم إلى مقصورة الإله ، وبدأت رئيسة حريم الإله الجميلة اللطيفة ذات اليدين الطاهرتين والصوت المحبوب تغنى وتهز بيدها السستروم « الشخشيخة » .

تقدم الكاهن الأعظم إلى مقصورة الإله وحل رباطها وهو يقول :

ـــ طرحت أرضا كل ما عليّ من شرور .

وفتح الكاهن الأعظم الباب وراح يبخر بالطيب حية الأوريوس المقدسة حامية الإله ، وتقدم نحو قدس الأقداس فى خشوع فلما وقعت عيناه على تمثال الإلهة خر ساجدا وقبل الأرض ، ثم انطرح على بطنه وعاد يقبل الأرض ، ثم أخذ يحيى الإله بأنشودة .

ركع الملك للإله أما إبراهيم فظل منتصبا وراح يسبح بحمد الله ويقدس له ويستغفره .

وقال الكاهن فى نبرات مرتجفة عامرة بالإيمان :

ـــ سيزدان عرشك وتسمو أرديتك ويقف آلهة السماء العظام بين يديك . سيأتون من السماء وينزلون من الآفاق ليلقوا إليك السمع .

وأخذ يدنو من المقعد الكبير حيث يقوم تمثال ست ، ويقول دون أن يرفع رأسه :

ـــ سلام على الإله ، سلام على الإله ، الروح الحية التى تقهر أعداءها . إن روحك معك وعصاك إلى جانبك .

وإنى لطاهر .

وأخذ فى إلباس الإله وهو يقول :

ــ الثوب الأبيض يأتى .. الثوب الأخضر يأتى ..

وزين الكاهن تمثال الإلـه بالصولجـان وعصا الحكـم والسوط والأساور والخلاخيل ، ووضع فوق رأسه ريشتين وهو يقول :

ــ لقد انتصرت على أعدائك وصرت أبهى الآلهة والأرواح المنيرة جميعا .

وقلد تمثال الإله قلادة وتميمة وشريطين أحمرين وآخرين أخضرين وثالثين أبيضين .

ثم راح الكاهن يتقهقر دون أن يولى الإله ظهره . وغادر الملك وإبراهيم قدس الأقداس ، وأغلق الكاهن الباب خلفه وهو يقول :

ــ تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. تحوت يحضر .. ما من شرير أو شريرة يدخل هذا المعبد . سيغلق بتاح الباب ويحكم إغلاقه تحوت ، سيقفل الباب ويحكم إغلاقه بالرتاج .

وانتهى الاحتفال الدينى ، وعاد إبراهيم إلى غرفته يفكر فى دين القوم ويسترجع صور تماثيلهم العجيبة وأساطيرهم ، إنه يرى بعين خياله إلهة الحرب « سخمت » ذات رأس اللبؤة ، إنها مثل عشتار عند البابليين عندما تكون إلهة الحرب ؛ قاسية متعطشة إلى الدماء لا يعرف قلبها الرحمة .

إن عشتار هناك فى بابل تجمع بين الحرب والحب واللذة ، أما هنا فى مصر فإن « سخمت » للحرب و « باسنت » للمرح واللذة ، و « بس » مقوس الساقين للحب ، فما أكثر الآلهة عند المصريين . إن لكل شىء إلها ، حتى الحبالى لهن إلهة تحميهن وهى على هيئة فرس نهر تسير منتصبة على ساقيها الخلفيتين وفى إحدى يديها علامة

هيروغليفية ترمز للحماية !

وآلهة المصريين يتزوجون وينجبون وأحيانا يأتون بأبناء غير شرعيين ، وقد يسر قبول هذه المعتقدات أن القوم يعتقدون أن آلهتهم كانوا من قبل ملوكا يحكمون على الأرض قبل أن يذهبوا إلى السماء .

السماء ؟ إنها مرة كامرأة انتثرت على جسدها الكواكب والنجوم ، ومرة كبقرة يحملها الإله « شو » وتسندها أرواح أخرى وعلى بطنها المزين بالنجوم تسير سفينة الشمس مرتين !

كيف تستقيم مثل هذه السذاجة مع اعتقاد الناس بالخلود والبعث والحساب والثواب والعقاب ! إن فى دين القوم ملامح عقيدة سماوية قيمة طغت عليها الأساطير لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وتذكر إبراهيم أن الملك قال له مرة : « إن وحى الإله فى كل الناس » وقال له الكاهن أكثر من مرة : « أصغ إلى الإله الذى فيك » و « اتبع وحى الإله الذى فيك » . كيف يجتمع مثل هذا الفهم مع الآلهة الكثيرة التى تستعير رءوس العجول وأفراس البحر والقطط واللبؤات والقردة والتماسح ؟

وجاء الليل ودخل الكاهن الأعظم يغتسل قبل أن يحمل الكتاب المقدس وينطلق به إلى إبراهيم ، وراح يفكر فى الآيات التى يختارها ليتلوها على ذلك الرجل الفطن الحليم الذى يتمتع بمنطق سليم ، والذى تتدفق الحكمة من فيه كسلاسل الذهب .

ودخل الكاهن الأعظم على إبراهيم يحمل الكتاب المقدس بين يديه فى إجلال وتوقير ، ثم قال :

ـــ كنت أغتسل فإن الآلهة تغتسل سبع مرات إذا أرادت أن تقرأ فى

الكتاب المقدس .

وصمت إبراهيم ، آثر أن يتريث حتى يعلم ما عند القوم وإن أنكر فى نفسه أن الآلهة تغتسل وتقرأ ، وأن ثم آلهة غير الله ، تعالى الله عما يصفون .

وجلس الكاهن الأعظم وقال :

ـــ سأقرأ لك الآيات التى تروى كيف احتالت إيزيس حتى عرفت الاسم الأعظم للإله ، إن من يعرف الاسم الأعظم تسخر له قوى الكون وتتهتك أمام عينيه حجب الغيب ويستطيع أن يفعل ما يريد .

وصمت الكاهن قليلا ، ثم راح يقرأ :

ـــ فى العصور الغارقة فى القدم ظهر إله الشمس « رع » على الأرض ليحكم العالم ، فثار عليه الآلهة والناس ، ولكن « رع » انتصر عليهم وحكم زمنا طويلا فى أمن وسلام كملك على الناس والآلهة جميعا .

واستتب له الملك طالما كان مستمتعا بجميع قواه ، بيد أن شبابه لم يكن خالدا فدبت فيه الشيخوخة ، فيبست أعضاؤه واستحالت عظامه إلى فضة ولحمه إلى ذهب وشعره إلى لازورد .

وثارت عليه رعيته ، وكان من الثائرين عليه الإلهة إيزيس وكانت أوسع حيلة وأدهى من ملايين البشر وملايين الآلهة وملايين الأرواح ، كانت تعرف كل ما فى السماء وكل ما فى الأرض مثل الإله « رع » نفسه ، ما عدا شيئا واحدا لم تكن تعرفه وكان ذلك يحد من قوتها ، ألا وهو الاسم الأعظم : الاسم السرى للإله رع .

كان رع ذا الأسماء الكثيرة يحتفظ باسمه الأعظم سرا إذ كانت

قوته مستمدة منه ، وكانت إيزيس تحاول جاهدة أن تعرف هـذا الاسم ، حتى إذا بلغ الإله من الكبر عتيا وسال لعابه من فمه وسقط لهيبه على الأرض ، عجنته إيزيس بيدها مع التراب الذى امتزج به وصاغت منه دودة مكرمة .

وأقبل « رع » الكريم وهو يتألق تحف به آلهة القصر وراح يسير كعادته كل يوم ، فألقت إيزيس الدودة المكرمة فى طريقه فلدغته ، فصرخ الإله المقدس فمه وشق صوت جلالته أجواز السماء ، وصاح مجمع آلهته « ماذا ؟ ماذا ؟ » وصاحت آلهته : « ما الخبر ؟ مـا الخبر ؟ » فلم يجد لسانه ليجيبهم وأخذت شفتاه تختلجان وأعضاؤه ترتعد واخترق السم لحمه كما يخترق النيل ملكه .

ولما عاود قلب الإله العظيم هدوءه نادى حاشيته قائلا : « تعالوا إلىّ أنتم يا من خرجتم من جسمى ، أيها الآلهة الذين خلقتم منى ، لكى أحيطكم خبرا بما حدث : لقد لدغنى شىء فاجع مؤلم لم يعرفه قلبى ولم تره عيناى ولم تصنعه يداى ولا أعرفه من بين كل ماصنعته . إنى لم أذق أبدا ألما شبيها بهذا الألم ولا يوجد ما هو أشد إيلاما منه .

أنا عظيم ابن عظيم ، أنا ماء الحياة الذى تدفق من إله ؛ أنا ساحر ابن ساحر ، لقد ابتدع أبى اسمى وإن لى لأسماء كثيرة وأشكالا عدة ، وإن شكلى فى كل إله .

لقد حدثنى أبى وأمى باسمى بيد أنه مخبوء فى جسمى حتى لا يتغلب علىّ ساحر أو ساحرة ، لقد خرجت أنظر ما صنعته يداى وأختال فى القطرين اللذين خلقتهما وإذا بشىء لدغنى لا أعرفه . ليست هى النار وليس هو الماء . إن قلبى مفعم باللهيب المتقد وجسمى يرتعد

وجميع أعضائى تسرى فيها البرودة .

والآن أدعو إلىّ أبناء الآلهة الذين يستطيعون الكلام بما ينفع ويفيد ، والذين لهم فم ذو معرفة وحكمة ، من بلغت حكمتهم عنان السماء .

عند ذلك حضر إليه أبناء الآلهة كل منهم مفعم بغمه ، وحضرت إيزيس بحكمتها وفمها الذى هو أنفاس الحياة وحديثها الذى يطرد الآلام ، وأخذت تقول : « ماذا .. ماذا أيها الأب الإلهى ؟ ما خطبك ؟ أدودة سببت لك كل هذا الألم ؟ أشق عصا طاعتك ابن من أبنائك ؟ إذن لأنتقمن منه بسحر مستمر ، ولأجعلنه يتلاشى أمام رؤية أشعتك .

خبرنى باسمك أيها الأب الإلهى . فمن يرقى باسمك يبقى حيا إلى الأبد .

ـ أنا الذى خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال وأنشأت ما عليها .

أنا الذى خلقت الماء ووهبت العجل للبقرة . أنا الذى خلقت السماء وأسرار الأفقين ووضعت أرواح الآلهة فيها .

أنا الذى إذا فتحت عينى كان النور ، وإذا ما أغمضتهما كان الظلام ، أنا من يجرى ماء النيل بأمرى ، أنا من صنعت الساعات فكانت الأيام .

ولم يخرج السم ولم يتعاف الإله فقالت له إيزيس :

ـ إن اسمك ليس بين ما ذكرت من أسماء ، فانطق به حتى يخرج السم من جسدك ، فإن من ينطق بالاسم الأعظم يحيا .

واشتد سريان السم فكان أنكى من لهيب النار ، ولم يعد رع بقادر

على أن يتحمل الآلام فقال لإيزيس :

ــ قربى أذنك منى يا أختى حتى ينتقل اسمى من جسمى إلى جسمك .

وباح رع لإيزيس بالسر الخطير .

وراح الكاهن الأعظم يقرأ فى كتبه المقدسة وإبراهيم يصغى ويتعجب فإن فى تلك الأساطير بصيصا من نور الحق ، لمحات من قدرة الله الخالق الذى بنى السماء وطحى الأرض وجعل فيها رواسى وجبالا ، وخلق الليل والنهار وجعل الشمس والقمر حسبانا ، بيد أن ذلك البصيص من الحق ضاع فى زحمة ما جاءت به عقول الكهنة !

واجتمع الملك وإبراهيم والكهنة ، ودار الحوار حول الآلهة والقرابين فقال إبراهيم :

ــ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . وما من إله إلا إله واحد هو خالق كل شىء .

ــ أتأمرنا أن نعبد « رع » وحده الذى أبعد العواصف وأزجى المطر وحطم السحاب ؟ من يشرف على كل الآلهة ولا يشرف عليه إله ما ؟ من سوى الناس بأصابعه و ...

فقال إبراهيم :

ــ إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار .

ــ و « بتاح » و « أزريس » و « ست » وآلهتنا الأخرى ؟

ــ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إنى لكم منه نذير مبين .

ــ أتجعل الآلهة إلها واحدا ؟ آلهة السماء وآلهة الأرض ؟

ــ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا . وما كان معه من إله إذن لذهب

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون .. إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ؟..

ـــ أإلهك يا إبراهيم خير من آلهتنا ؟ أيستطيع وحده أن يرعى السماء والأرض ، ويزجى السحاب ، وينزل من السماء ماء ، ويرسل الضياء ، ويشرف على الفنانين ويقود الجيوش فى الحرب ويزن أعمال البشر بعد الموت ؟

ـــ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ؟ أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون . أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وحده وما يشعرون أيان يبعثون .

ـــ إذا كان إلهك وحده لا شريك له فمن الذى يرفع السماء معه ؟

ـــ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ... الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس

والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

ـــ وكيف تتقرب إلى ربك ؟ إنك مذ كنت بيننا لم تقدم له طعاما ولا شرابا ولم تنحر له قربانا .

ـــ أتقرب إلى الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ـــ والذبائح ؟

ـــ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

واستمر الحوار حتى انتصف الليل ، فقام الملك والكهنة وانصرفوا وهم فى حيرة من أمرهم .

٦

لم يستقر إبراهيم فى أواريس بل استأذن الملك فى أن يسافر إلى عين شمس ومنف ليقابل كهنة « رع » و « بتاح » ، ولو كان الأمر استتب للهكسوس فى مصر العليا لاستأذن فى الذهاب إلى طيبة لمقابلة كهنة « آمون » ، فقد كان يرجو أن يبلغ رسالات ربه إلى الكهنة وأن يدعوهم إلى عبادة رب العالمين .

كان إبراهيم يطمع فى إسلام القوم ، فقد استطاع بنفاذ بصيرته أن يجد فى عقائدهم التى زخرت بالخرافات ونبضت بالأساطير بقايا عقيدة سماوية تعرف أن لهذا الكون إلها خلق الناس جميعا ، إلها يدعو إلى مكارم الأخلاق ويثيب المحسن على إحسانه ويجازى المسىء على إساءته ، إلها قادرا على بعث من فى القبور ، وهو مالك يوم الدين .

أطلقوا على ذلك الإله « آتوم » ثم « رع » ثم « بتاح » ، وقالوا إنه خلق الإنسان من طين ، ورمزوا إليه بالشمس المجنحة مرة ، وبالصقر فى الجنوب مرة ، فقد خيل للقوم أن الصقر رفيق الشمس فى علوها ، وأنه لا بد أن تكون الشمس صقرا مثله ، تطير عبر السماوات كل يوم ، وأطلقوا على ذلك الإله اسم « حور » وصوروه على هيئة قرص الشمس ذى الجناحين المنشورين .

كان القوم يعتقدون أن ثم إلها ، أيا كان اسمه ، قد خلق الناس

والشمس والقمر والنجوم وإن كانت الأساطير قد جعلت من صفاته آلهة تارة أو جعلت الآلهة صورا منه تارة أخرى ، فقد كان الآلهة جميعا صورا لبتاح ، وإن أوجدوا بصر الأعين وسمع الآذان وتنفس الآناف لتصل جميعها إلى القلب الذى يصدر كل قرار ، ليقوم اللسان بإعلان فكر القلب .

كان بتاح هو القلب فى كل صدر واللسان فى كل فم ، وكان أزريس هو الذى يرعى الموتى ويحاسب البشر يوم البعث . إن القوم يؤمنون بالقيامة ، بالحياة بعد الموت ، بينا كان البابليون لا يؤمنون إلا بالعالم السفلى . فالأمر أيسر فى وادى النيل منه فى بلاد ما بين النهرين فى إقناع القوم أن الله خالق كل شيء وأنه قلب المؤمن ولسانه وأنه قادر على أن يبعث من فى القبور دون إقامة تماثيل لهم ، أو بذل جهد للمحافظة عل أجسامهم بالصلوات والقرابين والسحر .

وركب إبراهيم وسارة ولوط وإليعازر الدمشقى ومن معهم من المؤمنين قوارب فى النيل ، وكانوا على علم بالأنهار ولكن هذا النهر بدا لهم غريبا ، فهو يجرى من الجنوب إلى الشمال بينا كانت كل الأنهار التى عرفوها تجرى من الشمال إلى الجنوب .

كانت زهور اللوتس تغطى سطح الماء والتيار يجرف أمامه أجمات البردى ، والطيور المائية ترفرف بأجنحتها فى السماء والشمس ترسل أشعتها فتملأ الكون سنى وضياء .

ومد إبراهيم عينيه إلى الأرض السوداء الممتدة على جانبى النيل . كانت أشجار النخيل على مدى البصر ، وقامت هنا وهناك أشجار الجميز والسنط والتين والليمون واكتسى الوادى بحلة خضراء ، فسبح

إبراهيم لله رب العالمين .

وبلغ ومن معه أهرام الجيزة وكان كل شيء هادئا ، كان المعبد خاويا وما كانت الذبائح تنحر ولا الصلوات تتلى ولا الابتهالات ترتل .

إن الملوك العظام الذين بنوا هذه الأهرام لصيانة أجسامهم من البلى قد أوقفوا على قبورهم ريع كل ما كانوا يملكون ، وعينوا كهنة جنازيين يصلون عليهم حتى قيام الساعة لتقيهم صلاتهم شر الجوع والعطش والبرد فى الحياة الآخرة ، وتمكنهم من الاشتراك فى أعياد السنة والاحتفالات الدينية . كانوا لا يريدون أن يحرموا فى الآخرة ما كانوا ينعمون به فى الدنيا .

وسأل سائل ممن كانوا مع إبراهيم :

ـــ لماذا بنيتم هذه الأهرام ؟

فرد عليه كاهن كان يرافقهم :

ـــ لكيما تخلد أجسام الملوك وتبقى سليمة حتى تعود إليها الروح يوم يبعثون .

ـــ إن من خلق السماوات والأرض قادر على أن يبعثنا خلقا جديدا إذا كنا عظاما ورفاتا .

قال الكاهن :

ـــ وقد أقيم الهرم فوق جثمان الملك ، ليحيى فرعون أباه إله الشمس عندما يبزغ من أفقه ، وليتمكن من رؤية رب الأفق عندما يقلع فى عرض السماء .

قال إبراهيم :

ـــ لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال الكاهن :

ـــ إن الفراعين لا يموتون بل يأتون معظمين فى الأفق ، وما سافروا أمواتا بل سافروا أحياء ، سافروا ليعيشوا ، فهم يفرون من الموت ، ويتحدون بإله الشمس إذ هم من نسل الآلهة .

ـــ إذا كان هذا حال الملوك ؛ فما مآل الناس ؟

ـــ يصبحون بعد الموت فى رعاية أزريس .

ـــ ومن يقدم القرابين لأرواحهم ؟

ـــ أسرهم ومعارفهم وجيرانهم .

ـــ وإذا انقرضت أسرهم وذاق معارفهم الموت وغاب جيرانهم فى القبور ؟

فشرد الكاهن قليلا ثم قال :

ـــ لا بد أن للخلود طريقا آخر غير طريق القرابين .

فقال إبراهيم :

ـــ من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا .

وانطلقوا إلى « عين شمس » وكانت أشبه بمعبد كبير ، ولا غرو فهى المدينة المقدسة التى ولد فيها الآلهة . كانت المسلات قائمة فى كل مكان ترمز لرع إله الشمس ، فذكرت إبراهيم وسارة ولوط بأبراج أور التى شيدت لسين إله القمر ـــ وقد غصت الشوارع بالكهنة والمصلين .

وأشرف إبراهيم ومن معه على معبد الشمس الكبير ، وكان يقوم

وسط فناء واسع ويحيط به ممر حجرى . كان عبارة عن مسلة حجرية فوق قاعدة عالية ، وتتألق قمة المسلة المدببة المموهة بالذهب فى أشعة الشمس المشرقة . وأمام المسلة كان المذبح الضخم ، وكانت القرابين تقدم إلى الشمس فى الهواء الطلق .

دنا إبراهيم ومن معه من المعبد فإذا بجنبه سفينة كبيرة بنيت جدرانها من اللبن . إنها السفينة التى يعتقد القوم أن إله الشمس يسبح بها فى السماء كل يوم .

وعندما تطلع الشمس من المشرق فى الصباح وتطرد الظلام ، تهلل الكائنات الحية ، وتعلن القردة وهى حيوانات تحوت إله الحكمة ، تعلن برفع أيديها شروق الكوكب ذى النعم .

وفى جانب من الممر الذى يفضى إلى قاعدة المسلة رأى إبراهيم نقوشا ذات ألوان زاهية على الجدران تعرض ما يجرى فى فصول السنة المختلفة من تكاثر النبات وتناسل الحيوان ومن أعمال الناس .

وأصغى إبراه. ومن معه إلى تمجيدات « رع » إله الشمس من كهنة عين شمس :

ـ الصلاة لك يا رع عند الشروق وأتوم عند الغروب ، إنك تشرق وتشرق وتسطع وتسطع متوجا كملك الآلهة . أنت رب السماء ورب الأرض من خلق الكائنات العليا والسفلى والنجوم والبشر .

أيها الإله الأحد الذى كان منذ البدء ، من أنشأ العالم وخلق البشر ، من أنزل من السماء ماء وأجرى النيل ، من خلق الماء وأحيا ما فيه ، من أرسى الجبال وخلق الإنسان والدواب .

أصغى إبراهيم وهو يعجب من أمر هؤلاء القوم كيف قبلت عقولهم

التى سمت إلى مثل هذا التوحيد أن تعبد العجل والقرد والحية والتمساح ، وأن تعتقد أن أرواح الآلهة تحل فيها ؟

كيف تصورت هذه العقول أن الإله يركب سفينة فاخرة يعبر بها السماء ؟ وأن للإله زوجة وابنا وأنه يعيش بين أسرته كما يعيش الناس ؟

واجتمع إبراهيم وصحبه بكهنة عين شمس ودار الحوار واحتدمت المناقشات ، قال إبراهيم :

ــ ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء .. ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .

وقال كبير كهنة « رع » :

ــ إننا نعبد « رع » الذى خلق السماوات والأرض والذى كان منذ البدء وخلق الناس .

ــ الله الذى خلق السماوات والأرض .. والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

ــ إن رع يشرق علينا من أفقه ، فمن أين يشرق ربك ؟

ــ ربى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .. لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل .

وتدفق إبراهيم فى الحديث وكان قوى الحجة يجذب القلوب وألقى إليه الكهنة أسماعهم ولم يثوروا فقد تفتحت نفوسهم لدعوته ومالوا إلى دين التوحيد .

ثم انطلق إبراهيم ومن معه إلى منف والتقى بكهنتها وسمع صلواتهم

التى يرفعونها إلى « بتاح » الذى خلق إله الشمس وبرأ الآلهة وعرف الأسماء كلها .

ودارت المناقشات بين إبراهيم وصحبه وبين كهنة منف ، ولم تحتدم المناقشة ولم يثر الكهنة فإن دعوة إبراهيم كانت ترفعهم من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، كانت تدعوهم إلى التحرر من عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع إلى عبادة إله واحد .. له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .. وسع كل شيء علما .. لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة .

وذاع أمر إبراهيم بين الناس وإنكاره القرابين . إنه يقول إن الله لا يأكل ولا يشرب ، وأن التقرب إلى الله إنما يكون بالتقوى ، فامتنع الناس عن إرسال الهدايا إلى المعابد ، وأحس الكهنة خطر هذه الدعوة على مصالحهم فتأهبوا لمناجزتها .

ولما بلغت دعوة إبراهيم كهنة آمون قالوا للناس إنها دعوة وفدت عليهم من بلاد الأعداء من أواريس ، وما قصد بها إلا النيل من آمون والتمكين لـ « ست » إله الهكسوس .

كان كهنة آمون مترفين يملكون الضياع ويكنزون الذهب والفضة ، وكان لهم على الناس سلطان ونفوذ ، فإذا انتشرت دعوة إبراهيم التى تقول إن المرء يستطيع أن يعبد ربه دون وساطة كاهن ودون تقديم الهدايا للمعبد أو نذر النذور للإله ، فستذهب ريحهم ويتقوض سلطانهم .

بذر إبراهيم بذرة التوحيد وبذر معها بذور الثورة على كهنة آمون ، فراح الكهنة فى أواريس وعين شمس ومنف يجمعون الآلهة المتناثرة

فى إله واحد فجعلوا بتاح ورع وأزريس إلها واحدا ، إلا أنهم لم يعتنقوا دين إبراهيم خشية أن تدول دولتهم .

رحب الشعب بالتوحيد ورحب ملك الهكسوس بالدين الجديد ، إلا أن مصائر الأمة كانت كلها فى قبضة يد الكهنة ، وما كان الكهنة ليفرطوا فى سلطانهم أو يتنازلوا عن نفوذهم بنفوس طيبة .

واستأذن إبراهيم فى الرحيل بعد أن أيقن أن الدين فى وادى النيل آل إلى سلطان الكهان ، وأن مصر ليست مهدا صالحا للرسالة وإن كان فى ديانة القوم بعض ما فى عقيدة التوحيد .

وأعطى الملك إبراهيم أنعاما وهدايا وخيرات وفيرة ، ووهب لسارة هاجر التى كانت بالأمس أميرة منف عظيمة الرشاقة سيدة القطرين .

وانطلقت قافلة إبراهيم من أواريس ، وكانت الأنعام والأغنام والجمال والحمير تثير الغبار والعبيد يسيرون خلف القافلة . كانت قافلة تنم عن ثراء عريض ، وما دار بخلد إبراهيم فى تلك اللحظة أن أثمن ما عاد به من مصر هى تلك الجارية التى وهبها الملك لسارة ، تلك الجارية السمراء الجميلة ، هاجر المصرية التى أراد الله أن يربط بينه وبينها الأسباب ليتم نوره ، إن هذا لشىء يراد .

وسار إبراهيم على رأس القافلة يسبح لله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .

٧

خرجت هاجر من أواريس وهى تحس أنها تتمزق من الحزن ، فقد تخلت عنها الآلهة جميعا فسقطت فى الأسر وتركت قصورها ومجدها وعزها لقوم آخرين .

أعرض عنها بتاح ولم يحم عرشها رع ولم ينافح عنها حور المدافع عن أبيه ، وساقها أعداؤها أسيرة ذليلة إلى أواريس . لقد كانت تتمنى الموت ولكن أزريس لم يرحب بها فى مملكته ، إنها لم تتمن يوما أن تدفن فى أبيدوس ولكنها فى هذا اليوم تتلهف على أن تدفن فى أرض مصر .

رفعت عينيها إلى السماء فحبس لسانها فى حلقها وخرس ضميرها ، فما كانت تدرى لأى إله تبتهل وقد خاصمتها الآلهة ، حتى « ست » الإله الشرير طردها من أواريس .

كانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها الذهبية فتنير السبل وتبدد الظلام ، بيد أن هاجر كانت لا ترى شيئا .. كانت مشغولة بالتيه الذى تضرب فيه ، مشغولة بالضياع الواسع العريض ، كانت كالغريق الذى لا يجد من ينتشله ولا ينعم بالراحة فى أحضان الموت .

وانسابت القافلة فى أرض جوشن ، ثم حطت رحالها فقام إبراهيم للصلاة واصطف المؤمنون خلفه . ونظرت هاجر أول الأمر فى غير

اكتراث وسرعان ما وجدت نفسها ترقب القوم فى اهتمام ، إنهم يصلون فى الخلاء لا معبد ولا مذبح ولا كهان ولا إطلاق بخور ، إلا أنها أحست إحساسا عميقا أن الأسباب قد اتصلت بينهم وبين السماء .

ترى أى إله هذا الذى يعبدونه ويقفون بين يديه هكذا خاشعين ؟ إنها لم تر تمثالا يخرون له ساجدين ، ولكنها رأتهم يركعون ويسجدون ويجهرون بالدعوات وقد تألق فى وجوههم نور لم تر مثله فى وجوه الكهنة العظام ولا رؤساء أسرار السماء .

ودخلت هاجر على سارة فى خيمتها وسألتها عن ذلك الإله الذى يعبدون ؟ فقالت لها سارة :

ــ إنه الله الذى لا إله إلا هو خالق السماء والأرض ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير .

ــ ومتى حكم على الأرض ؟

ــ ما كان ملكا أرضيا فى زمن من الأزمان . إنه قديم قدم الأزل ، إنه الأول لا أحد قبله والآخر لا أحد بعده . الله الذى خلق السماوات ومن فى الأرض .. يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .. والله عليم بذات الصدور .. ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم .. والله يرزق من يشاء بغير حساب .. وإن الله لهو الغنى الحميد .. وأن الله يبعث من فى القبور .. ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب .

ــ أتعبدون إلها لا ترونه ؟

ــ إن كنا لا نراه فهو يرانا . إنه معنا فى كل وقت وهو معنا فى كل مكان يسمع سرنا ونجوانا . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا

خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم .

— أيرعى وحده السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والعواصف والرياح والأنهار ومن يغربون في الغرب ؟

— من يغربون في الغرب ؟

— من يذهبون ولا يعودون .

— تقصدين الموتى ؟

— إننا نقول إنهم أحياء كأزريس الذى قام بعد الموت .

— ونحن نقول : إنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

— أيرعى وحده هذا الكون الواسع العريض ؟

— ما هذا الكون في ملك الله إلا كذرة رمال في صحراء شاسعة . لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير .

— إن لم يكن إلهكم ملكا على الأرض ولم تروه ولم تسمعوا صوته فكيف عرفتموه وآمنتم به ؟

— إن الله يصطفى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

— أو تصدقون الرسل ؟

— إنهم يحسنون الحسن ويقبحون القبيح ويقولون لنا .. سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير .. انظروا ما في السماء والأرض . أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت .. سنريهم آياتنا في الآفاق وفي

أنفسهم .

إنهم يفتحون أبصارنا وبصائرنا على آيات الله وعلى قدرته وعلى بدائع صنعته حتى نحس الله فى أنفسنا .

وأذن بالرحيل وانطلقت العير وإبراهيم على رأس القافلة تتردد أنفاسه تسبيحا فى معبد الكون . كانت القافلة تموج موجا بالإماء والعبيد والأنعام والأغنام والجمال والحمير ، وكانت الهدايا الفاخرة والذهب والفضة على ظهور الدواب . كانت قافلة قوية غنية بيد أن قلب إبراهيم لم يتعلق بمتاع الدنيا لحظة ، بل كان يتجه بكل كيانه آناء الليل وأطراف النهار إلى الله رب العالمين .

وانسابت القافلة فى سيناء فى الفضاء العريض وأخذت هاجر تقلب وجهها فى الكون فخيل إليها أنها ترى هذه الدنيا لأول مرة ، إنها تستشف جمالا رائعا فى قصور منف وعين شمس وأواريس . امتلأت جوانحها خشوعا لم تحس مثله فى معابد رع وبتاح وأزريس والآلهة الأخرى ، وكان صفير الرياح أوقع فى نفسها من تراتيل المرتلين وغناء المغنيات وصلصلة « الشخاشيخ » .

لقد كان الكاهن الأعظم يحدثها عن الإله الذى فى نفسها والبخور يتصاعد والقرابين تقدم على المذابح وتماثيل الآلهة أمام عينيها . فلم تحس يوما أن الله فى أعماقها كإحساسها فى تلك اللحظة التى خلت من الكاهن والبخور والمذبح والتماثيل .

إنها قريبة من الله تشعر بوجوده أكثر مما كانت تشعر بوجود رع وبتاح وأزريس وإن كانت ترى تماثيلهم ، وإن كانت القرابين تقدم إليهم ، وإن كان الكهنة يضمخونهم بالعطور المجلوبة من الأرض

المقدسة !

ونامت هاجر فرأت فى المنام رؤى مجنحة ، رأت نفسها روحا هفهافة تسبح فى بحر من النور ، ورأت أن ماء طاهرا غسل صدرها وأزال الأدران عن قلبها ، و أن طيبا مس جسدها له عبير يفوق عبير عطور الأرض طرا .

و قامت من نومها وهى سعيدة بما رأت ، ولكن سعادتها انقلبت إلى دهشة عندما أحست رائحة الطيب التى شمتها فى حلمها تملأ أنفها ، وراحت تشم نفسها وهى فى حيرة من أمرها . إنها لم تتطيب منذ غادرت أواريس ، منذ وضعها الملك جارية فى يد سارة ، وحتى إن كانت تطيبت فشذا هذا العطر الذى تشمه الآن يفوق شذا كل العطور التى عرفت طريقها إلى أنفها طول حياتها .

« ترى أما أزال أحلم ؟! أهذا الشذا الذكى وهم من الأوهام ؟ أيبلغ تأثير الحلم أن أظل أشم ما كنت أشمه فى منامى حتى بعد يقظتى ؟ » .

وسارت هاجر وهى فى حيرة من أمرها إلى حيث كانت سارة ، حتى إذا قالت لها سارة : « ما أطيب ريحك اليوم يا هاجر ! » أيقنت أن ما رأته فى منامها إن هو إلا رؤيا صادقة .

وقضيت الصلاة وجلس إبراهيم يفقه من معه فى أمر دينهم ، فراحت هاجر تصغى إليه متفتحة النفس حاضرة القلب تحس إحساس الفرح الذى أحسته عندما رأت فى منامها أنها تسبح فى النور ، وأن ماء طاهرا صب فى جوفها فغسل صدرها وأزال أدران فؤادها .

إنها تشعر أنها خلقت خلقا آخر ، أنها ولدت من جديد . وراحت تفكر فى أمرها ؛ لقد حسبت أن الآلهة أرادت بها شرا لما تركتها

تسقط أسيرة فى أيدى أعدائها ، فإذا بها ترى الآن أن الله أراد بها الرشد ، أراد لها الهداية ، أراد لها أن تكون مؤمنة فى قافلة الإيمان .

أحست أنها كانت سجينة فى قصر منف وأن الله أطلق سراحها . أنها كانت أسيرة أوهام وأن الله حرر روحها وأزال عن عينيها غشاوة الضلالة .

كانت تغتسل قبل أن تذهب إلى المعبد فكان الماء يطهر جسدها ، أما روحها فتبقى غارقة فى الدنس ، أما اليوم فإن قليلا من الماء يجعل روحها تتألق بالنور .

كانت تصغى إلى الكاهن وهو يتلو صلاته وإلى المرتلين وهم يرتلون تمجيدات الآلهة وإلى المغنين والمغنيات وهم يترنمون بعظمة الأرباب دون أن تنفعل أو يرتجف قلبها . كانت حاضرة ثم بجسدها أما ذهنها فكان يجرى وراء الموائد التى سوف تقيمها لأصحابها ووراء رحلات الصيد والمرح التى سوف يخرجون إليها .

كانت سيدة القطرين عظيمة الفضل عظيمة الرشاقة ، كانت فارغة لا تحس سموا وإن قالوا لها إنها من نسل الآلهة . أما اليوم فهى عظيمة بالله قوية بإيمانها عزيزة بالروح الجديد الذى سرى فى جنباتها . إنها تتهلل بالفرح وتغمرها سعادة عارمة كلما وقفت بين يدى الله وأحست بفيض نوره يغمر قلبها .

أن تكون جارية تنعم بالأنس بالله ويتجلى لها نوره ويدخلها فى رحمته ويجزيها جزاء المحسنين أحب إليها من أن تكون أميرة على القطرين تخبط فى الضلالة ، جزاؤها فى الآخرة جزاء الجاهلين .

وانطلقت القافلة فى طريقها إلى « بيت إيل » وراحت ترقى

مرتفعات جنوب فلسطين . كان الليل حالك الظلام وكانت النجوم تتلألأ فى السماء، وكان الهواء يهب رخاء ، وكان كل شىء خاشعا لا يعكر الكون إلا خوار الثيران وثغاء الغنم وحنين الإبل ، وأحست هاجر أن الله يتجلى على الكون فنادت فى الظلمات أن لا إلــه إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين .

٨

دخلت القافلة « بيت إيل » وعلى رأسها إبراهيم ، فسجد على قتب بعيره شكرا لله على ما أولاه من نعم . فها هو ذا يعود إلى محرابه ليستأنف دعوته ويبلغ رسالات ربه .

كان إبراهيم مع الله منذ نظر فى النجوم فى أور ثم منذ خرج إلى حاران ومنها إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين . فإن كانت سارة قد وقعت أسيرة فى أيدى الهكسوس فقد كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله ، وقد تقبل ما نزل بسارة بقلب مؤمن يثق أن الخيرة فيما اختار الله .

إنه يعود من مصر راضيا مرضيا . لقد ذهب إليها بقلب سليم لم يراوده شك فى أن الله إنما قاده إلى هناك لتتم كلمته . لقد أسلم وجهه لله يوجهه حيث يشاء ، أسلم له وجهه مذ أمره بالخروج من أور ثم من حاران .

كان إذا نزغه نزغ من الشيطان استعاذ بالله وتوجه إليه بقلبه وروحه ووجدانه ، إنه لم ينس الله لحظة فى الليل والنهار ، فى الصحراء المترامية والحقول الخضراء ، فى قصور الملوك ومعابد البابليين والسوريين والمصريين ، فى البر والبحر ، فى السر والعلانية ، فأينما كان فإن الله معه ينير له بصيرته ويرشده إلى الهدى ، ولا غرو فهو خليل الرحمن .

ونظر الكنعانيون إلى القافلة وفى عيونهم دهش وفى قلوبهم خوف ، لقد فزعوا إلى ملك مصر لينقذهم من ذلك الشيخ الذى جاء يدعو إلى دين غير دين آبائهم، يفرق به بين المرء وزوجه والأخ وأخيه والأب وبنيه، فإذا بملك مصر يكرم وفادته ويعطيه العبيد والإماء والأنعام والأغنام والإبل والحمير ، ويسلح رجاله بأسلحة الفراعين الحديثة .

كانت رجاله فى عدة القتال كثيرا عديدهم ، والأنعام والماشية والإبل تسير فى قطار طويل لا يعرف أوله من آخره . إن لإبراهيم اليوم لملكا عظيما ، ولكنه كان يسير متواضعا لله شاكرا لأنعمه . ولم يتسع قلبه لهذا الغنى العريض فقد كان الله يملأ أقطار قلبه ، وكان هو على يقين من أن هذه الأموال إن هى إلا عرض زائل وأن ما عند الله خير وأبقى .

كانت المراعى الخضر تمتد إلى مدى البصر فراحت الأنعام ترعاها ، وخف النسوة إلى الآبار يملأن سقاة القوم وهاجر معهن . لقد كان النيل يجرى تحت شرفتها والمغنون يرتلون له الأناشيد تمجده وتسبح بحمده ، إلا أنها لم تكن تحس نحو النيل ذلك الشعور الغريب الذى يملأ نفسها وهى تلقى بدلوها فى البئر . إنها تحس كأن بينها وبين البئر ألفة وأن إحساسا غريبا أخاذا كله نشوة يربط بينهما .

عادت هاجر تحمل جرتها وهى سعيدة وسارت بين الإماء وهى تضحك ، فقد أنسيت أنها كانت أميرة . إنها الآن مؤمنة بالله الذى يملأ نفوس عباده عزة وكرامة وآمالا عراضا تسمو بصاحبها فوق هذا الكون وفوق ماديته التى تشد الناس إلى الأرض وتمنعهم أن يحلقوا فى السماء .

كانت هاجر راضية لأن الله أراد لها الرشد وهداها إلى عبادته ، وكانت لا تفتأ تحمده على هذه النعمة ، كانت إذا قامت للصلاة جرت على خديها الدموع وإذا سجدت أطالت السجود ، وما دار بخلدها أن الله ما بعث برسوله إبراهيم إلى مصر إلا ليعود بها . فهى الدرة الغالية فى قافلة الإيمان ، وهى الجوهرة التى بارك الله فيها والتى يعدها ليوم عظيم .

وراحت هاجر ترقى الجبل ، فهناك تحت ظلال غابات البلوط نصب إبراهيم خيامه بالقرب من المحراب . فلما بلغت القمة نظرت شرقا فإذا وادى الأردن الخصيب على ضفتى النهر . كان كوادى النيل يزهو بخضرته ، كان فى وسط الصحراء جنة فيحاء تسر الناظرين ، إلا أن هاجر لم تتهلل بالفرح فقد أعرضت عن الدنيا وزينتها . كانت نفسها تتوق إلى جنة الله التى تجرى من تحتها الأنهار خالدة فيها أبدا .

والتفتت وراءها فإذا البحر العظيم الذى تقع على شاطئه بلادها المحبوبة تتلاطم أمواجه ، فلم تهف روحها إلى وادى النيل فإنما هى فى شوق إلى الله الذى وهبته نفسها .

ومدت بصرها إلى الأفق البعيد حيث أطبقت السماء على الأرض وقرص الشمس الأحمر يغوص فى الماء ، وتلون الكون بلون الشفق وصبغت حواف السحب الفضية بلون وردى أخاذ .

وأخذ المنظر العجيب يتشكل ويتلون ويتبدل فى تتابع يسبى العقول ويهز المشاعر وتتهلل له النفوس بالفرح الفياض ، وتهيم فى روعته الأرواح لتذوب فى ملك الله ، وهتفت كل خلجة من خلجات هاجر :

ـــ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !

ودخلت الخيمة وجلست إلى جوار سارة وأخذتا بأطراف الحديث ، فقد أحبت كل منهما الأخرى وراحتا تتنافسان فى عبادة الله .

وشردت هاجر فاحترمت سارة صمتها ولم تنبس بكلمة وإن راحت ترقب الانفعالات التى كانت ترتسم على وجهها . ورفت على شفتى هاجر بسمة وسرعان ما انطلقت ضحكة ، فقالت لها سارة :

ـــ ما الذى أضحكك ؟ أضحك الله سنك .

ـــ تذكرت أنى كنت أعبد العجل والقرد والقطة والتمساح والثعبان وفرس البحر ، وأنى كنت أعتقد أن روح الآلهة تحل فى أجساد هذه الحيوانات فضحكت .

وفى الليل التف الرجال والنساء حول إبراهيم وألقوا إليه سمعهم فراح يحدثهم عن الله من له ما فى السماوات والأرض الغنى الحميد . من يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى ، العلى الكبير . كان حديثه أخاذا يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت هاجر تصغى إليه بنفس متفتحة تحس كأن فيضا من الحكمة يسكب فى وجدانها فيملأ بصيرتها نورا .

وانفض الجمع وقام كل إلى خيمته .

ثم خشع الكون وهبت نسائم ندية وغمر المكان نور لطيف ، وسرت همهمات كتسبيح الملائكة ، وبدا أن الأرض تتلقى وحى السماء .

وتألق النور فى خيمة لوط وغشيها أمن وسلام ، وانشرح صدر لوط

ورقت مشاعره وسمت روحه وتفتح فؤاده ، فقد كان يتلقى ما نزل به الروح الأمين .

وتنفس الصبح فانطلق لوط إلى إبراهيم ، من آمن له وهاجر معه إلى الله ليهديه سواء السبيل ، وقال :

— أرسلت إلى أهل سدوم .

— فاصدع بما تؤمر ، وبلغ رسالة ربك .

وراح لوط يجمع أهل بيته ورجاله وعبيده وإماءه وأنعامه وإبراهيم يرقبه فى فرح وحب ، فقد اصطفاه الله وأرسله ليدعو أهل سدوم وعمورة إلى الصراط المستقيم وفضله على العالمين .

وحانت ساعة الرحيل فخفق قلب إبراهيم رقة ، فقد تبنى لوطا ولم يفترقا أبدا منذ خرجا فى سبيل الله من أور ، لم يفارقه فى حاران ، وهاجر معه إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وهبط معه إلى مصر ، وعاد معه إلى بيت إيل ، وكانا أبدا على أهبة الرحيل لينطلقا إلى حيث يشاء الله .

لم تكن لهما إرادة فالإرادة كلها لله ، ولم يكونا ليعلما أين مكانهما فى الغد فالغد من غيب الله ، وهو وحده علام الغيوب . لقد أسلما وجهيهما لله والله يحكم بما يريد .

وتعانق النبيان ، وراح الرجال يودعون الرجال ، وحمل لوط زوجه وابنتيه وسار على رأس القافلة إلى الأردن إلى حيث أمره الله ليدعو الناس إلى الهدى والرشاد .

وأوغلت القافلة فى الأفق البعيد وإبراهيم يرصدها من فوق الجبل ، حتى إذا غابت عن عينيه دخل محرابه وراح يصلى لله ، وأحس أنه صار

فردا بعد أن تركه لوط ، وتحركت الأبوة فى أحشائه فأخذ يدعو الله :

— رب هب لى من الصالحين .

وسمعت سارة نداءه فسرى فى جنباتها حزن عميق ، إنها عجوز عقيم فأنى يكون لها ولد ؟ وزاد أساها أن زوجها الحبيب يشتاق أن يكون له ذرية وهى تعجز أن تحقق له ما يتمنى .

فعادت إلى خيمتها كسيرة الفؤاد يترقرق الدمع فى عينيها ، ليتها تستطيع أن تهتدى إلى ما يرجوه خليل الله ، لقد دعت الله سرا وعلانية فى الليل والنهار أن يهب لها من تقر بهم عين زوجها الكريم ، إلا أن الله لم يستجب دعاءها إن الله عليم خبير .

ومن خلال دموعها رأت هاجر تصلى لله فى خشوع وعبراتها تسيل على خديها ووجهها يتألق بنور الإيمان العميق . فى تلك اللحظة طافت بذهن سارة فكرة ؛ إن كانت هى تعجز أن يكون لها ولد فهى تستطيع أن تهب لزوجها جارية من جواريها ، فإن أنجب منها تحقق له ما يرجوه واتخذت هى من المولود ولدا لها .

وعادت تنظر إلى هاجر فى إمعان وشرد ذهنها : « ولماذا هاجر ؟ لماذا لا تهب زوجها جارية أخرى ؟ » :

« إن هاجر شابة وضاءة مؤمنة تعبد الله مخلصة له دينها وتقيم الصلاة لذكره » .

« بين الجوارى الأخر عابدات خاشعات مؤمنات ومنهن من تفوق هاجر حسنا » .

« عاشت هاجر فى بيت الملك فهى ذات فضل ، وهى خير من تكون أما لابن صالح من ذرية إبراهيم رسول الله وخليله » .

وهمس فى جوفها هامس : « لعل الله أوقعها فى الأسر وساقها أسيرة إلى أواريس لتوضع فى يدى فأهبها إلى الخليل ، لعل الله اصطفاها لتكون أما للوارثين » .

ولم تطمئن سارة إلى هواجس نفسها وآثرت أن تنتظر أمر الله فى هاجر ، فإن أمرها أن تهبها له فعلت وهى راضية النفس مستريحة الضمير ، وإن أمرها أن تعرض عن هذا فعلت ، إنها لا تعصى لربها أمرا .

٩

دخل لوط وزوجه وابنتاه الصغيرتان وعبيده وإماؤه ورجاله ومواشيه مدينة سدوم وكانت تغص بالناس ؛ الرجال والنساء والولدان والجوارى فى الأسواق يموج بعضهم فى بعض كأنهم جراد منتشر ، والدور على جانبى الطريق تزهو بتهاويلها وزخارفها ، وامتدت وراء المدينة وعن يمينها ويسارها حقول خضراء بثمرات مختلفة ألوانها تسر الناظرين .

كان كل ما فى المدينة ينطق بالثراء العريض ، فانطلق لوط وهو يسبح لله لا يمد عينيه إلى ما تزخر به المدينة من غنى ولا يدنس قلبه الطمع فى متاع الدنيا . فقد هاجر إلى ربه منذ خرج من أور ، وكان كل ما يطمع فيه أن يهديه الله سواء السبيل ، فإذا بالله يصطفيه ويرسله إلى أهل سدوم وعمورة الذين شاعت فيهم الفاحشة ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

وراح يتلفت وهو يعجب لأمر الناس ، فلم يقابل كاهنا ولم تقع عينه على معبد . لقد رأى المعابد والأبراج العالية فى أور ، ورأى الكهان ومعابدهم فى بيت إيل ودارت بينهم وبين إبراهيم ومن معه المناقشات ، ورأى معابد المصريين الفخمة ومسلا تهم وعباداتهم وصلواتهم . كان يجد الناس فى كل مكان مر به فى سياحته الروحية يعبدون الله على حرف أو يجعلون لله أندادا ، أما هؤلاء الذين أرسل

إليهم فما كانوا يعرفون الله وما كانوا يبحثون عنه ، فقد ضلوا ضلالا بعيدا .

ومرت القافلة على أناس فى ناديهم فإذا هم يسخرون من القافلة وكل من فيها وارتفعت ضحكاتهم . ولم يكتفوا بالهزء بل أراد بعضهم أن يعبث بيده ليضحك القوم فقام إلى العبيد يعبث فى وجوههم وظهورهم ، فازدادت الضحكات الماجنة ارتفاعا وانطلقت الكلمات الفاحشة فى وجوه القوم كالحجارة أو أشد قسوة .

وانتهز بعضهم غفلة من العبيد وانشغالهم بسورة الغضب التى هزت كيانهم فسرقوا بعض الأغنام وولوا هاربين ، وأهل سدوم ينظرون ويضحكون مستبشرين .

وتواصى لوط الصبر وسكت عنه غضبه وراح ينظر إلى القوم وهو يحرص على هداهم يرجو أن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، أن يرفعهم مس مهاوى الجسد إلى رفرفات الروح .

إن كانوا سلقوهم بألسنة حداد أو كانوا أشحة على الخير فما جاءهم من قبل رسول ولا نذير ، وقد أرسله الله إليهم ليرشدهم إلى الخير ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما .

وضرب لوط خيامه خارج أسوار المدينة وراحت مواشيه ترعى فى المراعى الخضر الممتدة على ضفتى نهر الأردن ، وأخذ يقلب وجهه فى المكان ؛ كان بحر الملح ينخفض عن كل ما حوله انخفاضا هائلا ، وكانت الآبار الحمر تنتشر هنا وهناك ، وكانت سدوم أمام عينيه تنتظر مصيرها لا تدرى أشر أريد بها أم أراد بها ربها رشدا ؟

ورأى لوط أن يذهب إلى ملك سدوم ليستأذنه فى النزول بأرضه ويعاهده على أن يكون حربا على من حاربه ، فهو يذكر ما كان من الكنعانيين لما نزلوا « بيت إيل » فقد ذهبوا إلى ملك مصر وحرضوه على المؤمنين فأرسل حملة دهمتهم بليل فقتلت مواشيهم وأسرت سارة وعاثت فى خيامهم فسادا ، وهو لا يريد أن يقع لهم فى سدوم ما وقع لهم فى بيت إيل .

انطلق لوط إلى القصر وكان الناس فى ناديهم يشربون ويضحكون ويستهزئون بكل من يمر بهم . كانوا غارقين فى الدنس يأتون المنكر على أعين الناس !

امتلأت نفس لوط بالشجن وأحس أن الأسى يمزقه ، إنه لم يشهد فى كل البلاد التى مر بها مثل هذا الفساد . لقد رأى العاهرات المقدسات فى معابد عشتار يقدمن أنفسهن قربانا على مذبح الشهوة باسم الدين ، ورأى احتفالات تمور بالخلاعة والتهتك والمجون باسم « باسنت » إله المرح رأس القطة فى منديس ، فى الدلتا الشرقية لنهر النيل ، رأى فى كل بقعة من بقاع الأرض التى ساح فيها أناسا غارقين فى الخطايا ، ولكنه لم ير الرجال يأتون الرجال على أعين الناس إلا فى سدوم !

فسار وهو يتألم . كان يعلم أنهم قوم مفسدون ولكنه ما كان يحسب أن الفساد استشرى فيهم إلى هذا الحد ، إلى حد أنهم لا يخافون يوما كان شره مستطيرا .

ورأى فى الأسواق ألوانا من الظلم والاضطهاد ، ورأى السادة يضربون العبيد بالسياط ، ورجال الدولة يسومون الناس العذاب .

والشهوات الدنيئة ترتكب فى كل مكان ، والنساء يطلقن الزفرات حسرة على ما حاق بهن من ظلم عظيم .

ودخل قصر الملك وكان الجنود على جانبى الطريق يحملون أسلحتهم ، بيد أنهم كانوا كأعجاز نخل خاوية ، انطفأ بريق أعينهم أو كاد ، وذهبت نضارة شبابهم واصفرت جلودهم . فقد استخلصوا أنفسهم للشهوات .

وبلغ قاعة العرش فلم تأخذه روعة الزخارف والتهاويل بل أحس إشفاقا على هؤلاء الملوك نازلى القصور الذين يحسبون أنهم مخلدون ، وما دار بخلدهم أنهم يولدون للموت ويعمرون للخراب !

وتقدم من الملك ولم يخر ساجدا بين يديه بل ألقى عليه السلام ، ثم أفضى إليه بما جاء يطلبه وهو مرفوع الرأس . فهو يستشعر بكل جارحة من جوارحه أن الله معه يثبت أقدامه ، فقلبه لم يغفل لحظة عن ذكر الله فهو على نور من ربه أرسله بالهدى ودين الحق .

وخرج من قصر الملك وقد عاهده على أن يكون حربا على من يحاربه وأن ينصره على أعدائه ، وسار وهو يحمد الله رب السماوات والأرض ورب العالمين له الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

وبلغ مشارف المدينة فإذا أناس يقطعون السبيل يهجمون على القوافل فيسلبون الأموال ويسلبون الأولاد ويقتلون الرجال والنساء كأنهم الوحوش الضارية ، فقد غلظت أكبادهم ولم تعرف قلوبهم الرحمة ، أولئك هم شر البرية .

فذهب إلى خيامه وقام يصلى لله ويدعو ويطيل الدعاء ، ويستغفر

ويطيل الاستغفار ، يرجو رحمة ربه ويسأله أن يعينه على أداء رسالته ، فقد بعث إلى أشرار لا يفرقون بين الخبيث والطيب .

وتوكل على الله وانطلق إلى حيث كانوا يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ويطلقون ضحكات الخلاعة والمجون وقال لهم :

ـــ ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون .

والتفت بعضهم إلى بعض يضحكون ، وقال لهم أخوهم لوط :

ـــ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

فقالوا له وهم يستهزئون :

ـــ أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر .

ـــ إنى رسول الله إليكم ، ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين .

ـــ بل أنت كذاب أشر .

ـــ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون .

ـــ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين .

ـــ إنى لعملكم من القالين .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

ـــ رب نجنى وأهلى مما يعملون .

ومرت الأيام ولوط ينذرهم بطش الله فتماروا بالنذر ، إنه لا ينقطع عن استنكار ما يفعلون ، كان يذهب إلى ناديهم ويقول :

ـــ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون .

وأعرضوا عنه وهم يستهزئون وقالوا :

ــ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر .

وضاقوا به فآذوه فكان يقول لهم :

ــ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

ولم يقنط لوط . كان يدعوهم إلى الله ويخوفهم عذابه فكانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويفرون منه وهم يسخرون ، لا يصدقون أن الله قادر على أن يرسل عليهم الطوفان فيأخذهم كما أخذ قوم نوح .

ومرت السنون ولوط يدعو قومه إلى الهداية وتأبى قلوبهم ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وتاقت نفس إبراهيم إلى تنسم أخبار لوط الذى آمن له وهاجر معه وآتاه الله حكما وعلما ، فدعا إبراهيم إليعازر الدمشقي وكيل بيته وأمره أن ينطلق ليأتيه بخبر لوط وقومه ، فخرج إليعازر من بيت إيل قاصدا سدوم .

فبلغها مع هبوط الظلام فنزل عن ظهر حماره وربطه ثم دخل يبحث عن مكان يبيت فيه . وتقضى بعض الوقت وخرج فإذا به لا يجد حماره ، فأخذ يبحث عنه دون جدوى ويسأل هذا وذاك فلم يرشده إليه أحد ، بل وجدهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم إنهم قوم فاسقون .

وفى الصباح خرج إليعازر إلى السوق وكانت الحوانيت غاصة بالناس والدواب فى غدو ورواح على الطريق ، فأخذ ينظر وهو يعجب فأنكر تصرفات القوم !

وحانت منه التفاتة فإذا به يرى حماره الذى سرق منه بالأمس وقد اعتلى ظهره رجل من القوم ، فهرع إليعازر إليه وأخذ بتلابيبه . والتف

حولهما الناس ينظرون ، وحاول أكثر من واحد منهم أن يطلق الرجل من قبضة إليعازر ، إلا أن إليعازر قبض عليه بيد من حديد وطلب أن يذهبوا بهما إلى من يقضى بينهما بالعدل .

ووقف إليعازر ومن سرق حماره أمام قاضى سدوم وراح إليعازر يقص على القاضى قصته ، ولما انتهى منها كان على يقين أن القاضى سيقيم الحد على السارق لا تأخذه فيه رحمة ، فالقضية واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ووقف سارق الحمار يقول للقاضى :

ـــ وجدت الحمار فى الطريق فأخذته وآويته وأطعمته ، وإنى أطلب أجر إيوائه وثمن طعامه .

وتأهب القاضى لينطق بالحكم فأرهف إليعازر سمعه ، فلما نطق القاضى بحكمه ارتسم على وجه إليعازر الذهول ، إنه لا يصدق أذنيه ، فما كان ينتظر حتى من قاضى سدوم مثل ذلك الحكم ، فقد حكم القاضى بأن يدفع إليعازر للسارق أجر إيواء حماره وثمن طعامه !

سار إليعازر وهو مطرق حزين ، فقد رأى فى بلاد الله أشرارا مجرمين ولكنه لم ير قوما فاسقين ظالمين كافرين كقوم لوط ، ترى كيف يجادل لوط مثل هؤلاء المفسدين ؟ أيلقون إليه السمع أم يستهزئون به ؟

ـــ وبلغ إليعازر خيام لوط فما إن رآه لوط حتى هرع إليه يستقبله ويرحب به ويسأله عن إبراهيم . وأخذ الرجلان يتناجيان بالمعروف ، ثم خرج لوط ومعه إليعازر ليدعو قومه إلى الله ، قال :

ـــ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، يا قوم اتبعونى أهدكم

سبيل الرشاد ، يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، يا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟ يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول رب العالمين .

وقال إليعازر :

ــ يا قوم اتبعوا المرسلين ، يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء .

ــ إنا بالذى آمنتم به كافرون .

ــ يا قوم إنى أخاف عليكم عذاب يوم شديد .

ــ ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين .

ــ إلا تؤمنوا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم .

ــ لئن اتبعناك إنا إذًا لخاسرون .

ــ إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر .

فما كان جواب قومه إلا أن قالوا :

ــ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

١٠

قام إبراهيم ومن معه للصلاة على قمة الجبل فى بيت إيل وقد بدأ الظلام ينحسر عن الكون ، وأنفاس النهار الندية تتردد فى جنباتـه، ونجوم السماء الصافية تسبح لله مع المستغفرين بالأسحار ، وعبق المكان بروائح زكية لكأنما ملئ ما بين السماء والأرض مسكا .

وسكنت أبدان الأبرار ، واستغرقت القلوب بذكر الله واتصلت به واستنارت بأنواره ، وتفتحت الأفئدة تتلقى الحكمة التى تنسكب من السماء لتملأ الجوانح وتنير البصائر .

وقامت هاجر تصلى ووجهها يتهلل نورا فقد وهبت نفسها لله وذاقت حلاوة محبته ولم تعرف الوحشة بعد أن عرفته ، كانت تستأنس به وتطيل السهر معه فطهر قلبها وملأه محبة وأمنا .

صارت تحب الله وتحب من يحبه فاتسع فؤادها لكل المؤمنين وكل ما تقع عليه عيناها فى الأرض أو فى السماء . كانت ترى قدرته فى البحر إذا هدأ وفى البحر إذا تلاطمت أمواجه وارتفعت كالجبال ، فى السماء إذا صفت وتلألأت فيها النجوم وفى السماء إذا تلبدت بالغيوم ، فى الأرض إذا أنبتت زرعا مختلفا ألوانه وفى الأرض إذا قامت فيها الجبال الجرداء الشاهقة البيض والحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود .

كانت تستغفر الله آناء الليل وأطراف النهار ، حرمت على عينيها لذيذ النوم وكيف تنام وقد تعلمت من رسول الله أنما هى أنفاس تعد

وأيام تنقضى وعمر يفنى ، ثم لقاء الله .

إنها وصلت حبلها بحبل الله .. وباتت تخشى أن يطلع على قلبها فيجده مشغولا بسواه ، أعرضت عن الدنيا وزينتها ونسيت أيام كانت أميرة فى منف . ولم تعد تلك الأيام تخطر على قلبها أو تطوف ببالها ، وإن استرجع ذهنها ذكريات تلك الأيام لحظة سارعت بحمد الله الذى أخرجها من الظلمات وأنار لها سبيله .

كانت فى خيام إبراهيم تحس فى كل شىء رحابة : رحابة فى النفس ورحابة فى الروح ورحابة فى البصيرة ورحابة فى القلب . رحابة كادت تتسع للأرض والسماء . وغمرتها سعادة فياضة فقد تعلمت أن آدم لما عصى أوامر ربه كان سجين نفسه المعذبة وإن كان فى الجنة ، وأن إبراهيم لما ألقى فى النار كان فى سلام ، لأنه أسلم وجهه لله رب العالمين .

لا القصور الفاخرة ولا الرياض الزاهرة ، ولا المال الممدود ولا الجاه العريض ، ولا السلطان المبين ولا التحكم فى الرقاب يجلب السعادة ، إنما الجنة فى النفس المطمئنة الراضية المرضية ، فى أن تعيش فى سلام مع السلام .

وقامت هاجر تشرف على الإماء تشاركهن أعمالهن وترعاهن وتحوطهن بحبها الكبير ، وذهب إليعازر الدمشقى ليشرف على العبيد ، وآوت سارة إلى خيمتها لترعى شئون القبيلة وتعد العدة لاستقبال الضيف ، فما انقطع وفود الضيف ليلة إلى خيام رسول الله الكريم .

انصرف الرجال والنساء وبقى إبراهيم وحده فى المحراب يصلى لله

ودموعه تجرى على خديه ، ورق قلبه وصفت نفسه وسمت روحه لتتصل بالسماء ، فإذا به يحس ما كان يحسه عندما يتلقى وحى الله .

— ارفع عينيك وانظر إلى المشارق والمغارب . ولسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها ذريتك .

ونظر إبراهيم من مكانه إلى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الهلال الخصيب وأرض الكنعانيين وأرض الحجاز ووادى النيل ، إنه قد ساح سياحته الروحية فى كل هذه الأرض إلا الحجاز ، ترى أيأمره ربه أن يخرج إليه ؟

ورن فى أذنيه صوت الوحى واضحا :

— وسيجعل الله فى ذريتك النبوة والكتاب . اضرب فى الأرض حيث يشاء الله .

— هذا رحمة من ربى .

وعده الله أن يعطيه مشارق الأرض ومغاربها ، وكان وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ؟ ووعده أن تكون الأرض لذريته من بعده ولا يخلف الله وعده . لقد قبل ربه صلاته ودعاءه ووعده أن يهبه من الصالحين .

وراح إبراهيم يفكر ممن تأتى ذريته وسارة عجوز عقيم ؟ لو أن ذريته الموعودة كانت من سارة لما تأخر وعد الله فهى معه منذ تزوجا فى أور قبل أن يؤمر بتبليغ الرسالة بسنين ، أيام كان يقلب وجهه فى ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين .

إنه أسلم وجهه لله وأطاعه منذ أمره أن يخرج من أور ثم من حاران ونجاه من نار المكذبين . ولم تذهب نفسه شعاعا يوم وقعت سارة فى

الأسر فقد كان على علم أن هذه إرادة الله ومشيئته وأن الله تعالى فعال لما يريد .

إن حكمة هبوطه إلى مصر لم تتضح بعد لعينيه إلا أنه كان على يقين أن ذهابه إلى مصر لم يكن عبثا ، فما ساقه الله إليها ليجادل كهانا لم يؤمنوا برسالته ولا ليعود بأموال وأنعام وعبيد ، بل لا بد أن يكون لوفوده عليها شأن أعمق من ذلك وعزم على ألا يفكر ممن تأتى ذريته وتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره .

لقد أوحى إليه أن اضرب فى الأرض وها هو ذا يكاد يستقر فى بيت إيل ورسالته لم تتم بعد . إن الله يأمره أن يخرج لينشر دينه فى المشارق والمغارب فليس دين الله لأهل حاران وحدهم ، ولا لأهل سورية ولا لأهل فلسطين ولا لأهل مصر ، بل للناس كافة لا فضل لقوم على قوم إلا بالتقوى .

وراح يفكر فيمن معه من المسلمين ، إن منهم من خرج معه من أور ومنهم من آمن له فى حاران ، ومنهم إليعازر الدمشقى وهاجر المصرية ، إنهم مؤمنون من بلاد دخلها شرح الله صدرهم للإيمان فآمنوا وأتم نعمته عليهم ، فإن استقر فى بيت إيل فلن تبلغ رسالة ربه المشارق والمغارب ، وسيكون للناس حجة على الله فما بعث إليهم رسولا .

أمره الله أن يضرب فى الأرض ليدعو الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والله يهدى من يريد .

وذهب إبراهيم إلى سارة وأبلغها ما أوحى الله إليه ، قال لها إن الله وعده أن الأرض يرثها ذريته من بعده فتهللت أسارير سارة بالفرح ، فقد

كانت تحس نياط قلبها تتمزق كلما سمعت زوجها الحبيب يبتهل إلى ربه ويدعوه بالأسحار ودلوك الشمس وغسق الليل : « رب هب لى من الصالحين » ، فإذا بربه يستجيب له ويعده بذرية بعدد نجوم السماء وذرات الرمال !

سيهب الله لزوجها من الصالحين ، سيكون له الولد الذى طالما اشتهاه فى أور وحاران وفى كل بقعة من بقاع الأرض وطئتها قدماه . لقد كانت تحس ما يقاسيه زوجها من حرمان كلما ارتفعت فى الخيام صرخات وليد ، وما أكثر الصرخات الحبيبة التى تجاوبت فى الفضاء لتملأ فراغ القلوب .

ونذرت سارة أن ترضع ألف طفل يوم ترضع غلامها . غلامها ؟! إنها عجوز عقيم . كيف تلد وهى عجوز عقيم ؟ إن الله بشر زوجها بالذرية ولم يقل له إن هذه الذرية منها ، من أبناء بطنها ، لعل هذه الذرية تخرج من بطن آخر ، بطن غير بطن الزوجة التى أمضت شبابها كله مع زوجها دون أن يقدر الله لها أن تحمل .

إنها هى العقبة فى تحقيق وعد الله ، فقد أبى إبراهيم أن يتخذ زوجة ثانية ، وإن كان من حقه ما دامت هى لم تلد أن يتخذ زوجة أخرى تمنحه الولد ويكون ذلك الولد ولده وولدها ، ولكنه يحبها وعزيز عليه أن يطعنها فى كبريائها .

إنها هى العقبة فى أن يكون لزوجها ذرية ، أنانيتها وحبها نفسها هما اللذان حرما زوجها ما يتمناه ، صار الأمر واضحا بعد أن أعلن الله وعده ، فإن كانت مؤمنة حقا وتحب الله ورسوله أكثر من حبها نفسها فلتهب له جارية من جواريها ليتحقق وعد الله .

كم يشق على نفسها أن تقدم بيدها امرأة أخرى إلى زوجها لينجب منها ذرية ترثه وتصبح تلك الذرية آل إبراهيم ، وإنه لآلم لنفسها وأوجع لقلبها أن تكون عقبة فى سبيل إرادة الله وهى المؤمنة التى وهبت روحها لرب السماوات والأرض رب العالمين .

لو أن الله أعلن مشيئته لصدعت لأمره راضية النفس مستريحة الضمير ، أما أن تقبل على عمل لا تعرف مغبته ولا تعرف إن كان الله يتقبله بقبول حسن أم أنه يرغب عنه فذلك ما يجعلها فى حيرة من أمرها لا تدرى أيان سبيلها .

ودخلت عليها هاجر يتهلل وجهها نورا فأخذت تحدجها طويلا ، إن قلبها ليهفو إليها ، وإنها لعلى يقين من أنها أصلح من تنجب لزوجها الذرية الصالحة إن كتب الله عليها ألا تكون الذرية منها . إن شعورا خفيا يهتف بها أنها الموعودة وأن الله ما ساق إبراهيم إلى مصر إلا ليعود بها لتتم إرادته ويكون وعد الله مفعولا ، إلا أنها أصمت أذنى سريرتها عن تلك الهتافات ، إنها تنتظر أن يعلن الله مشيئته واضحة كفلق الصبح لتنفذها وهى ناعمة البال ، فليس لها من الأمر شيء وإلى الله ترجع الأمور .

وأذن إبراهيم بالرحيل فرفعت الخيام ، وراح إليعازر الدمشقى يشرف على العبيد وهم يسوقون قطعان الإبل والماشية والغنم ، وراحت هاجر تشرف على الإماء وتسهر على راحتهن وكانت أرأف بهن من الأم الحنون .

وسار إبراهيم على رأس القافلة التى أمر الله أن تضرب فى الأرض لتعلن للملأ أن لا إله إلا الله ، وانسابت والفلوات تردد تسبيحها حتى

أشرفت على حبرون (الخليل) .

وكانت سارة تنظر إلى المشارق والمغارب ، إلى الأرض التى سوف ترثها ذرية إبراهيم وهى قريرة العين ، فقد راضت نفسها على الرضا سواء أكانت هذه الذرية الصالحة منها أم ممن يشاء الله من عباده .

ولاحت بلوطات ممرا بأوراقها الوارفة الظلال فأمر إبراهيم أن يحط الرحال تحتها ، ونصبت الخيام وذهبت سارة لتستريح وما لبثت أن دخلت عليها هاجر ووجهها يتألق بنور الإيمان ، فعادت همسات النفس تهمس : « إنها الموعودة ، إن الله أراد أن يشرفها وأن يربط بين بلادها وبين أنبيائه الأسباب » ، فرفعت سارة رأسها إلى السماء وقالت فى إيمان عميق :

ـــ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

١١

كانت سدوم تموج بالشباب إذا رأيتهم حسبتهم جنودا صناديد ، كانوا فارعى الطول مفتولى العضلات لا يكفون عن الصياح والشجار والقتال كأنهم وحوش فى غابة .

ونظر ملك سدوم إلى الشباب القوى الذى تموج به مدينته فخطرت له فكرة . إن الأشوريين قد هزموهم منذ اثنتى عشرة سنة وفرضوا عليه وعلى من حوله الجزية ، وإنه ليبعث بها إلى بلاد ما بين النهرين كل عام وهو صاغر ، فلماذا لا يثور هو ومن حوله من الملوك على هذا الخزى والعار ؟ ولكن أيسكت كدر لعومر ملك عيلام على هذا العصيان ؟ يسكت أو لا يسكت إن سدوم وعمورة فى منعة بفضل قوة رجالهما !

وأرسل بارع ملك سدوم إلى برشاع ملك عمورة وشآن ملك أدمة وإلى ملك صبوبيم ، وراح يزين لهم العصيان حتى تعاهدوا على أن يشقوا عصا الطاعة وأن ينفضوا عنهم ذلك الذل المهين .

ولأول مرة منذ اثنتى عشرة سنة لم تخرج الجزية من دائرة الأردن إلى بلاد الأشوريين ، وانتفخت أوداج الملوك الأربعة زهوا وراحوا يبثون روح الحماسة فى الشباب ويعبئونهم لموقعة حربية كبيرة إذا تحركت جيوش الأشوريين لتعيدهم إلى الخزى الذى ذاقوا مرارته سنين .

وغرق الشباب فى اللذة حتى آذانهم ، كانت سدوم تموج بالترف

والفسق فالخمور تجرى كالأنهار والفاحشة تمارس فى المجالس ما سبقهم بها أحد من العالمين ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء إنهم قوم فاسقون .

وراح لوط يجوس خلال المدينة ينهاهم عن الفحشاء التى فشت فيهم ويخوفهم الله وعذابه ويدعوهم إلى سواء السبيل ، فكانوا يستهزئون به .

كان يقول لهم إنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وأن النار مثوى لهم فما كان يزيدهم ذلك إلا كفورا .

ومسه التعب وضاق صدره واكتوى قلبه بالأسى ودب فيه اليأس ، لقد قال لقومه كما قال هود لقومه : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ . فكذبوه كما كذب الرسل من قبله ، فبات يخشى أن يحيق بقومه ما حاق بقوم هود .

وبلغ الأشوريين أن ملوك الأردن أبوا أن يدفعوا الجزية ، فاجتمع كدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم وامرافل ملك شنعار وأريوك ملك الأسار يتشاورون فيما يفعلون لتأديب العصاة ، فاستقر رأيهم على إرسال جيش جرار لإخضاع ملوك سورية وضرب كل من تمرد على سلطانهم .

وخرج الجيش فى جنود لا عد لها ، واهتزت الأرض وانطلق الأشوريون يخضعون العماليق ويعيشون فى المدن فسادا ، فريقا يقتلون

وفريقا يأسرون .

ونظر إبراهيم من حبرون فرأى جنود الآشوريين يتدفقون كجراد منتشر ، كانوا فى طريقهم إلى سدوم ولكنه أخذ أهبته . فإن اعتدوا عليه فسيقاتل الذين يقاتلونه ولن يدهمه أحد على غرة كما فعل جنود مصر ليلة أغاروا على خيامه وساقوا سارة أسيرة إلى أواريس .

ـــ إنه رسول السلام يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن إذا كتب عليه القتال فسيقاتل ، فالله يقول : ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ .

ومر الجيش دون أن يميل على خيامه ، وانطلق الجنود إلى الوادى حتى إذا بلغوا عمق السديم عسكروا فى حفرة القار على أبواب سدوم .

ولقد عاهد لوط ملك سدوم على أن يحارب من يحاربه ، وها هى ذى جيوش الآشوريين تقرع أبواب المدينة ، أيوفى بعهده وأهلها فاسقون يستحقون العذاب الغليظ ؟ أيخرج لنصرة أناس قد يكون الله قد سلط عليهم هذه الجيوش بذنوبهم ؟ أينقض عهده ويخلى بينهم وبين أعدائهم ؟

إن الله أرسله نبيا ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، إن عاهد فعليه أن يصدق ما عاهد الله عليه ، أن يوفى بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وانضم لوط ورجاله إلى ملك سدوم .

وخرج ملوك دائرة الأردن الخمسة لقتال ملوك الآشوريين وكانوا يأملون فى النصر ، فسدوم موقع حصين وهم أعرف بمسالكها ودروبها من الوافدين عليها للسلب والنهب واستعباد الشعوب .

ونظر ملوك الأردن إلى جنودهم فى زهو فقد كانوا أقوياء الأجسام يبدون كالليوث . ونظر لوط إليهم فى إشفاق فقد كان يرى تلك الأجسام القوية خلت من الروح ، نخر فيها سوس الفساد ، لا تحارب فى سبيل الله ولا تحارب فى سبيل الشيطان . إنها إنما تحارب خوفا من أن يتخطفها الموت وهى تريد أن تحيا لتستزيد من الخبائث والشهوات المنحرفة التى صارت لا تستطيع الفكاك من عبوديتها وسلطتها .

ومشى الجنود إلى الجنود ودارت رحى معركة رهيبة ، السهام تتطاير ، والحراب تغوص فى الصدور والقلوب ، والدماء تسيل أنهارا ، والخناجر ترتفع لتهوى تشق البطون ، وصرخات مفزوعة وأنين وحشرجة ، وأجساد ترتطم بالأرض وكرّ وفرّ ، وأوامر تصدر ، وشغل كل عن أخيه بنفسه التى يحوم حولها الفزع الأكبر .

ولى النهار وألقى فى قلوب سدوم الرعب ، وأخذ الآشوريون يزحفون ويتقدمون ويضيقون على السدوميين الخناق ، ولاحت الهزيمة لما فر بارع ملك سدوم وأطلق برشاع ملك عمورة ساقيه للريح فولى جنود الأردن الأدبار .

وثبت لوط ورجاله وراحوا يقاتلون فى ضراوة ، إلا أن الله لم يؤيدهم بنصره فما كانوا يقاتلون فى سبيله بل كانوا يقاتلون فى سبيل كرامتهم ، واستمرت المعركة دائرة بين لوط ورجاله وبين جيوش ملوك آشور ، ورجحت كفة الآشوريين وسقط لوط أسيرا فى أيديهم .

وفتحت أبواب المدينة أمام الغزاة بعد أن قتل حماتها أو فروا إلى الجبال مرعوبين . ودخل الغزاة وعاثوا فى مدينة الفساد فسادا فسبوا

النساء ونهبوا الدور وساقوا أمامهم الأنعام والأسرى والإبل والأغنام . ثم خرجوا من سدوم وقد ثار الغبار والناس يتدافعون بالمناكب ويموج بعضهم فى بعض كأنما جاء يوم النشور .

وسيق الأسرى زمرا ، وكان لوط يسير مطرق الرأس حزينا لا يدرى أن زوجه وابنتيه وقعن فى أيدى الآشوريين . ولم يستسلم ليأسه فسرعان ما توجه إلى ربه يحمده ويسبح له فأحس قوة تسرى فى روحه ووجد لنفسه عزما .

وجاء رجل يسعى إلى حبرون ، رجل من رجال لوط فر من الأسر فهرع إلى إبراهيم وقال له :

ـــ النجدة النجدة ، لقد وقع لوط أسيرا فى أيدى الآشوريين .

وتحرك إبراهيم سريعا ، لم يدر بخلده لحظة أن يترك نبى الله فى أيدى أعداء الله ، إنه لوط الذى تبناه فى أور ، ابن أخيه الذى آمن به . إلا أنه كان فى تلك اللحظة أكثر من ابن أخيه ، إنه نبى أرسله الله ليبلغ رسالته فإن كان فى ضيق فحق عليه نصره .

وخرج إبراهيم فى ثلاثمائة وثمانية عشر من الرجال والعبيد فى عدة القتال ، وانطلقوا فى أثر الجيش الذى كان فى طريقه إلى بلاده بما حمل من أسلاب وغنائم وأسرى .

وطويت الأرض تحت أقدام رواحل إبراهيم ومن معه وانقضت خمسة أيام وأدبر النهار ، ولاح معسكر جيش الآشوريين فقد نزلوا يستريحون وسط الجبال التى ينبع منها نهر الأردن .

وانتظر إبراهيم حتى جن الليل فقسم رجاله قسمين ، قسما بقيادته

وقسما بقيادة إليعازر الدمشقى ، ثم أمر بالزحف باسم الله وعلى بركة الله فقد كان يعتمد على مفاجأة عدوه وعلى نصر الله .

كان الآشوريين يعربدون فى خيامهم وقد أدارت الخمر رءوسهم وسقط فريق منهم على فراشهم يغطون فى نومهم ، وكالأطياف انسل إبراهيم ورجاله إلى المعسكر وراحوا يذبحون السكارى ويكتمون أنفاسهم .

وأذهلت المفاجأة العدو ودب الذعر فى المعسكر فهام الملوك والجنود على وجوههم مفزوعين . فروا لا يلوون على شيء وإبراهيم ورجاله فى أثرهم حتى شمال دمشق ، وانتصروا عليهم نصرا مؤزرا .

وخلَّص إبراهيم لوطا وزوجته وابنتيه والرجال والنساء من الأسر ، وعاد منتصرا يسوق المواشى والإبل والغنم ، فقد غنم أموال القوم وكل ما فى معسكرهم من متاع .

وطار نبأ انتصار إبراهيم إلى سدوم فخرج ملك سدوم لاستقبال المنتصر عند عودته المظفرة .

عاد ملك سدوم من الجبال التى فر إليها ليستقبل إبراهيم المنتصر ، كان فى زينة الدنيا وأبهتها يحوط به وزراؤه وكبار قومه الذين ولوا الأدبار إلى عمق السديم .

وبلغ إبراهيم ومن معه الوادى الملكى فإذا بملك سدوم يستقبله فى ترحيب ويقول له :

ـــ أعطنى رعيتى وخذ الغنائم كلها لك .

ـــ ما خرجت إلا لله ، كل شيء هو لك ، لم آخذ شيئا إلا ما أكله

العبيد .

— خذ الأموال ، خذ ما شئت ودع لى رعيتى .

— لا آخذ شيئا فقد أغنانى الله من فضله .

وعاد لوط وزوجه وابنتاه إلى سدوم مع من أنقذ من قومهم من الأسر ، وذهب إبراهيم إلى حبرون ليتم الله نعمته عليه .

١٢

سجدت هاجر شكرا لله وأطالت السجود ، فوقوع لوط فى الأسر وتخليص إبراهيم الرجال والنساء والعبيد من أيدى ملوك الآشوريين أهاج لديها الذكريات . إن إطلاق سراح لوط ومن معه من أسرهم قد أعاد إليهم كرامتهم ، أما هى فقد أحياها الله بأسرها . كان الأسر نعمة عليها وبركة تستحق الحمد ، إذ أكرمها الله وهداها إلى الإيمان وجعلها من عباده ، وإن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا .

رفعت هاجر رأسها فإذا بالدموع تملأ عينيها ، فقد راضت نفسها على الأنس بالله ومناجاته والتسبيح له حين تصبح وحين تمسى وآناء الليل وأطراف النهار وبالأسحار وقبل الغروب ، كانت تحس أن الله يغمرها بنوره وأنه سميع قريب ، فتموج فيها مشاعر حب عظيم وخوف شديد وتجرى على خديها العبرات وينزل بقلبها خشوع عميق .

كانت تعبد الله لذاته لا تطمع فى عرض الحياة الدنيا ، إنها تريد الآخرة لا تريد أن تذل وتخزى يوم يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه ، بلى إن الله يجزى من شكر ، نعمة من عنده والله عليم بالمتقين .

خشع قلب هاجر لله وخشيت ربها فرضى الله عنها ورضيت عنه ، وأراد الله أن يجزيها جزاء الشاكرين وأن يرفع قدرها فوق نساء عصرها

فأوحى إلى سارة أن تزوج هاجر من خليله إبراهيم[١] .

أعلن الله مشيئته واضحة كفلق الصبح أن يتزوج إبراهيم هاجر ليتحقق وعده ، ليأتى النسل المبارك الذى يرث مشارق الأرض ومغاربها .

إنها لتضحية تفوق قدرة البشر أن تدفع زوجة عزيزة مكرمة بيديها امرأة أخرى إلى فراش زوجها الذى تحبه من أعماق فؤادها ، إنها لتضحية عظمى أن تتنازل عن مركزها السامى كزوجة وحيدة لرسول الله لامرأة أخرى أيا كانت تلك المرأة . إنها سيدة القبيلة وستشاركها فى زوجها جارية من جواريها ؛ ولكن سارة كانت كفئا للتضحية ، عرفت الله وآمنت به وتوكلت عليه وأسلمت وجهها ، فإن أمرها بأمر وجبت عليها طاعته وهى راضية ، فله الأمر وهو فعال لما يريد .

ولم تفكر لحظة أن تكتم ما أمرها الله به حتى لا يأثم قلبها ، فالإيمان نقى سريرتها وهيأها لأن تؤثر غيرها على نفسها دون أن تتبرم أو تضيق بما تفعل ، وذهبت إلى حبيبها وقد شرح الله قلبها وقالت :

— إنى أهب لك هاجر عسى أن يرزقنا الله منها ذرية .

وأبى إبراهيم فقالت له زوجته :

— إنى أهبها لك ليتحقق وعد الله .

وأبى إبراهيم فقد وعده الله أن يهب له ذرية ترث مشارق الأرض

---

(١) قال يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد : « وأحضرت سارة بأمر الله إلى فراشه إحدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى الله أن يرزق منها ذرية » .

ومغاربها وكان وعده مأتيا ، فالله لا يخلف وعده وهو قادر على أن يهب له من الصالحين من زوجه سارة التى شغف بها حبا .

وقالت له سارة :

ـــ وما تشاء إلا أن يشاء الله ؛ إن الله كان عليما حكيما .

وأيقن إبراهيم أن الله أمر بزواجه هاجر فأطاع أمر الله ، .وبنى بهاجر ليرزق بالذرية التى وعده الله أن ترث المشارق والمغارب والله خير الوارثين .

وحملت هاجر فتهللت القبيلة بالفرح وراح إبراهيم يصلى شكرا لله ودموعه تغسل لحيته ، فقد صدق الله وعده ووهب له على الكبر ما فى بطن جاريته بعد أن عاش فردا مذ خرج من أور ، وإن ظل لوط الذى تبناه إلى جواره دائما قبل أن يرسله الله نبيا إلى أهل سدوم .

وفرحت سارة فقد تلقت عل يديها مئات الولدان الذين ولدوا فى القبيلة ، بيد أن ذلك الذى ستتلقاه وهو ينزل من بطن هاجر يختلف عن الولدان جميعا فهو ابنها وابن إبراهيم الحبيب .

هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر . وخرت سارة ساجدة لله رب العالمين ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد .

وراحت هاجر تقوم الليل تصلى لله ما استطاعت وتحمده حمدا كثيرا وتبتهل إليه أن يتقبل دعاءها ، فقد من الله عليها بنعمة كبرى ، نعمة ما كانت تجد نفسها قادرة على أن تفى الله حقه من الشكر عليها ، فكانت عيناها تفيضان بالدمع وهى تقول : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ ، رب اجعله من الصالحين ، رب هب لى من

لدنك ذرية طيبة والحمد لله رب العالمين .

ونامت هاجر وهي قريرة العين تحمد الله أن اصطفاها لتنجب ذرية لخليله ، وإذا بهاتف يأتيها فى منامها ويقول لها :

ـــ يا هاجر ! قد سمع الله ضراعتك وسيهب لك ولدا فسميه إسماعيل ، أى المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتك وسيباركه الله ويكثر نسله تكثيرا .

وقامت من نومها خافقة القلب منشرحة الصدر فما زال الكلام الذى سمعته يرن فى أذنيها عذبا كتسبيح الملائكة ، وإذابروائح أطيب من المسك تنتشر فى الخيمة .

وتهلل وجهها بالفرح فقد بشرها الله بإسماعيل وبأنه سيكون مباركا لا يحصى نسله ، وخرت ساجدة لله شكرا ، إنها كانت شكورا ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

كانت أميرة فى منف وكانت غاية أمانيها أن ينتصر زوجها على الهكسوس لتصبح سيدة القطرين تختال فى قصرها سنين ثم تذهب كما ذهبت مئات الملكات من قبلها كأن لم تكن بالأمس ، إلا أن الله أراد لها الهداية فأوقعها فى الأسر ودفعها إلى قوم مؤمنين ، فشكرت الله وفتحت له قلبها ليبدد ظلامه بنوره ، وسارت فى طريقه وأفعم فؤادها بمحبته وأمست تقضى الليالى تدعوه وتسبح بحمده وتأنس به ، فجزاها الله جزاء الشاكرين .

آتاها فى الدنيا حسنة فجعلها أما لابن رسوله الكريم الذى وعده أن يورثه المشارق والمغارب ، وسيؤيتها فى الآخرة حسنة فتكون مع المتكئين على الأرائك فى الجنة مع إبراهيم .

وجاء اليوم الموعود وأشرقت الدنيا بنور ربها ، وأحست هاجر بآلام الوضع فهرعت إليها سارة مستبشرة قد جعل الله قلبها فارغا من الحسد ، وكانت تحس إحساسا صادقا أنها ستتلقى ابنها الحبيب على يديها .

ونزل بالخيمة سكينة وأمن وسلام ، وراح إبراهيم يصلى لله فى محرابه ويدعوه دعاء حارا ويسجد له ويطيل السجود ، وانبعث من الخيمة صوت إسماعيل فإذا بقلب إبراهيم يفيض رقة وحبا ورحمة ، وإذا بالعبرات تطفر إلى مآقيه ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب .

الحمد لله الذى صدقنا وعده ، الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، له الحمد فى الدنيا وفى الآخرة وهو الحكيم الخبير . واندفع إبراهيم إلى الخيمة وهو يقول :

— رب إنى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم .

وحملت سارة إسماعيل بين يديها فى رفق وحنان وقدمته إلى الشيخ الجليل ، الشيخ الذى كان يدعو فى حاران وفى دمشق وفى بيت إيل وفى أواريس وفى منف وفى حبرون : رب هب لى من الصالحين ، فاستجاب له ربه ووهب له إسماعيل .

وألقى إبراهيم أول نظرة على ابنه الحبيب ، على ابنه الموعود ، فإذا بقلبه يتهلل بالفرح ، وإذا بينابيع الرقة تتفجر فيه ، وإذا بكل خلجة من خلجاته تلثم الوليد . وحانت منه التفاتة إلى هاجر فإذا وجهها يتهلل بنور عجيب .

وقال إبراهيم وهاجر وسارة :

— الحمد لله الذى فضلنا على كثير من المؤمنين .

وخروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون .

وفى ذات يوم جلس إبراهيم على باب خيمته ينتظر الضيفان كعادته وكان إسماعيل فى حجره ، وإذا بالهواء يرق وبروائح أطيب من كل طيب الأرض تفوح فى الجو ، وإذا بنفسه تصفو وإذا به يتهيأ لاستقبال وحى السماء .

وأوحى الله إليه :

ـــ قد سمعت لك فى إسماعيل ، إنى أباركه وأبارك ذريته ، يلد اثنتى عشرة أسباطا أمما وأجعله أمة عظيمة .

وقال إبراهيم وهو يضم ابنه إليه فى حنان :

ـــ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

١٣

انتصر إبراهيم على كدر لعومر وأبى أن يأخذ من ملك سدوم خيطا أو شراك نعل أو شيئا مما هو له فقد أغناه الله من فضله ، وما خرج للغزو ابتغاء الغنائم والأسلاب بل خرج غاضبا لله لينقذ نبيه من الأسر .

كان خليل الرحمن يمثل مشيئة الله على الأرض ، عاش مع من حوله من الملوك فى ود وسلام وجنح إلى السلم لما جنحوا لها ، أما من جاءوا معتدين فقد حق عليه قتالهم إن الله لا يحب المعتدين ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

وعاد لوط إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله لا إله إلا هو ويحذرهم غضب الله إن عذاب الله شديد . كذبت عاد فكيف كان عذاب الله ؟ أرسل عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . وكذبت ثمود بالنذر ، فأرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر .

وعكف لوط يدعوهم إلى الرشاد وألا يجحدوا بآيات ربهم وألا يعصوه وألا يتبعوا شهواتهم ، إنه يخاف عليهم أن ينزل بهم ما نزل بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح ، فاتخذوه هزوا فقال لهم :

ـــ استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون .

دعاهم فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ، وأنذرهم فما زادهم إلا نفورا ،

وضاقوا به فقالوا :

— ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

لطالما قالوا له ائتنا ما تخوفنا به ، ائتنا عذاب الله ، ولطالما قالوا مهددين: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. بيد أن لوطا كان يرجو لهم الهداية ، يرجو أن يتوبوا من الفساد وأن يعودوا إلى الله متطهرين ، إلا أن القوم كانوا مفسدين ، فلما يئس لوط من هدايتهم قال :

— رب انصرنى على القوم المفسدين .

كان ذلك فى سدوم ، أما فى حبرون فقد كان إبراهيم وهاجر وسارة يشكرون الله كثيرا أن منّ عليهم بإسماعيل واستمع لدعائهم فيه وبشرهم بأن يجعله أمة عظيمة وأن يلد اثنتى عشرة أسباطا أمما ، وما كان يكدر صفو أبى الضيفان إلا أن الضيفان لم يفدوا إلى خيامه فقد حبسوا عنه خمس عشرة ليلة فشق ذلك عليه .

ورأى إبراهيم رجالا قادمين فسر بهم ، ولما دنوا منه قالوا :

— سلاما !

قال :

— سلام !

ورأى ضيفا لم يضف مثلهم حسنا وجمالا تتهلل وجوههم بالنور ، فراغ إلى أهله وقال :

— لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدى .

وجاء بعجل سمين فذبحه ثم شواه وحمله إلى الضيف وقربه إليهم وجلس ليأكل معهم ، وقامت سارة تخدمهم فأمسكوا أيديهم عنه

فقال لهم :

— ألا تأكلون ؟

— يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن .

— فإن لهذا ثمنا .

— وما ثمنه ؟

— تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره .

فنظر أحدهم إلى الآخر فقال :

— حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا .

فلما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل الحنيذ الذى حنذه وشواه على الحجر المحمى إكراما لهم ، نكرهم وأوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من طعامه ، ونظرت سارة إلى إبراهيم وضحكت لتخفف من روعه وقالت :

— عجبا لأضيافنا هؤلاء ، إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

وقال الأضياف لإبراهيم :

— لا تخف إنا رسل ربك أرسلنا إلى قوم لوط .

استنصر لوط ربه ، دعاه لينصره على القوم الفاسدين فبعث الله رسله لنصرته ، والتفت رسل الله إلى سارة وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

قالت :

— ياويلتى ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشىء عجيب .

قالوا :

ــ أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى بإسحاق وأمن ما كان يخاف قال :

ــ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء .

وراح يجادل فى قوم لوط ، كان قلبه يفيض رحمة حتى على العصاة ، إن الله يريد أن يأخذهم بذنوبهم وهو يرجو رحمة الله . إن إبراهيم لحليم أواه منيب .

قالوا :

ــ إنا مهلكو أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين .

ــ أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟

قالوا :

ــ وإن كان فيهم خمسون لن نعذبهم .

ــ وأربعون ؟

ــ وأربعون .

ــ وثلاثون ؟

ــ وثلاثون .

ــ وعشرون ؟

ــ وعشرون .

ــ وعشرة ؟

ـــ وإن كانوا عشرة .

قال إبراهيم :

ـــ ما من قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير .

فراح رسل الله يؤكدون أن قوم لوط ليس فيهم عشرة مؤمنـون وقالوا :

ـــ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود .

وأشفق إبراهيم على لوط فقال :

ـــ إن فيها لوطا .

ـــ نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت فى الغابرين .

ومضت رسل الله نحو سدوم ، وبلغوا باب المدينة ونظروا فرأوا ابنة لوط عند النهر تستقى من الماء لأهلها . كان النهار قد انتصف والشمس ترسل أشعتها الحامية والآبار الحمر منتشرة فى المدينة وحولها بعض ما نفثت من القار ، فانطلق رسل الله إلى ابنة لوط وقالوا :

ـــ يا جارية هل من منزل ؟

ـــ نعم .

نظرت إليهم وكانوا شبانا لم تر أحسن منهم منظرا فخشيت عليهم من قومها ، إنهم كانوا قوم سوء مفسدين ، فقالت لهم :

ـــ مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم .

وأتت أباها فقالت :

ـــ يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم هى

أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم .

وذهب لوط إليهم فقالوا له :

— إنا متضيفوك الليلة .

فانطلق بهم وهو يتلفت ، فسألوه عما يريبه فقال :

— ما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟

— وما أمرهم ؟

— والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسا أخبث منهم ، أشهد بالله أنها لشر قرية فى الأرض عملا .

وبلغ لوط وأضيافه داره ودخل لم يعلم بهم إلا أهل بيته ، وانسلت امرأة لوط إلى قومها فى ناديهم وقالت :

— إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم ومثل وجوههم حسنا .

فجاء قومه يهرعون إليه فلما رآهم قال :

— هذا يوم عصيب .

وخرج لقومه فإذا بهم يراودونه عن ضيفه وقالوا له :

— ألم ننهك عن أن تضيف الرجال ؟

— يا قوم إن كنتم تريدون الزواج فهؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ؟

قالوا :

— لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق . وإنك لتعلم ما نريد .

فقال لوط :

— لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد .

لو أن له انصارا ينصرونه عليهم أو عشيرة تمنعه منهم لحال بينهم

وبين ما جاءوا يريدونه من أضيافه ، ولكنه لا أنصار له ولا عشيرة تمنعه . ليس معه إلا الله والله ذو بأس شديد .

ودخل لوط وأغلق الباب خلفه لما ضاق بهم ذرعا ووقف خلف الباب يحاول أن يمنع القوم من الدخول على ضيفه ، وتكاثر القوم وكادوا يحطمون الباب واستولى على لوط الجزع فقال له الضيفان :

ـــ يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . يا لوط إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين .

فقال لوط :

ـــ أهلكوهم .. أهلكوهم الساعة .

ـــ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟

وفتح الباب ودخلوا يتصايحون ، وطمس الله أعينهم فجعلوا يلتمسون الحيطان وهم لا يبصرون .

وقالوا للوط :

ـــ فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد .

وفى السحر أسرى لوط بأهله وأخذ معه زوجته عل كره منها ، إنها لا تصدق أن الله سيأخذ سدوم بذنوبها . وفى الصبح جاء أمر الله فثارت الآبار الحمر وألقت حممها وجعل الله قرى سدوم عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود .

والتفتت امرأة لوط تنظر وكان قلبها مشدودا إلى القوم الفاسدين ، إنها ترى وعد الله يتحقق وكانت من الساخرين ، وأصابتها حجارة السماء إنها كانت من الهالكين .

ووقف إبراهيم ينظر ، إن الله يجعل عالى سدوم سافلها ..

والمؤتفكة أهوى . فغشيها ما غشى .. هذا نذير من النذر ، صارت سدوم عبرة كعاد الأولى وثمود وقوم نوح من قبل .. إنهم كانوا هم أظلم وأطغى .

ورأى إبراهيم لوطا وأهله قادمين إلا امرأته كانت من الغابرين ، كانوا تسعة . إنه كان يجادل ربه فى قوم فاسقين ، قوم لا خير فيهم ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

١٤

لم يبن إبراهيم بيتا لله منذ بعث فى أور ، كانت المعابد فى بلاد ما بين النهرين فى أيدى كهنة سين ومردوخ وشماس وعشتار ، وكانت الهياكل فى سورية فى أيدى كهنة بعل والآلهة الأخرى وكانت المعابد فى مصر فى أيدى كهنة ست وبتاح وأزريس وباسنت وآمون . لقد كان يبنى فى كل بقعة من بقاع الأرض تطؤها قدماه محرابا ، وإنه ليخشى أن يضل المؤمنون بهذه المحاريب فيحسبون أن كل محراب أقيم لإله فيجعلون لله أندادا ، كما ضل الذين من قبلهم لما حاولوا تجسيد صفات الله فأصبحت كل صفة من صفاته إلها يعبد لذاته ، فجعلوا لله شركاء !

كان يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار أينما كان ، وكان الناس يقيمون فى قلوبهم هياكل لله ، بيد أن الله لم يكن له بيت تقام فيه الشعائر بينا أقام المشركون لآلهتهم معابد وهياكل انتشرت فى الأرض ، إن الله لا بد أن يكون له منار يهدى المؤمنين الضاربين فى بيداء الحياة سواء السبيل .

أتنتهى رسالة إبراهيم بدعوة الناس إلى عبادة رب السماء والأرض رب العالمين ؟ أيكتفى بالمحاريب التى أقامها على قمم الجبال وفى السهول والوديان ؟ ألا يكون لله بيت يسبح له فيه بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟

وإن أراد أن يبنى هذا البيت أيسمح له كهنة حبرون أو كهنة بيت إيل أو كهنة أى إله من الآلهة المنتشرين فى المدن والبلاد ما بين النهرين إلى وادى النيل أن يقيم بيتا لله ليقضى على نفوذهم وعلى الثراء الفاحش الذى ينعمون به ؟

أمره الله أن يضرب فى المشارق والمغارب ، أن يضرب فى الأرض التى سترثها ذريته . والمشارق والمغارب ليست بيت إيل ولا حبرون ولا بابل ولا مصر وحسب فالجنوب لا يزال مفتوحا أمامه . إنه لم ينطلق فى سياحته الروحية إلى الحجاز وهو الذى أمر أن يجوب الآفاق يدعو لله رب العالمين .

لماذا يستقر فى حبرون ؟ أليرعى شئون المؤمنين ؟ أليكون إلى جوار سارة ؟

إن شئون المؤمنين يمكن أن ينهض بها لوط بعد أن عاد إلى حبرون ، وسارة لن تشده إلى الأرض وقد وهب نفسه وذريته لله . إنه هاجر إلى ربه منذ خرج من أور وستستمر هجرته ما استمرت أنفاسه تتردد بين جنبيه .

وأوحى الله إليه أن خُذ هاجر وإسماعيل واخرج إلى حيث أريك ، فحمل هاجر وإسماعيل وهو رضيع وانطلق إلى الجنوب ، إلى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

ونزل خليل الله وهاجر وإسماعيل بواد غير ذى زرع يطل عليه جبل قبيس ، لا ماء ولا شجر ولا دوحة ولا ظل ولا أنفاس حياة ، لم يكن بالوادى أحد إلا الله والذين أمر بخروجهم ليعلى كلمته ويتم نوره .

ونظر إبراهيم فإذا بربوة ؛ إنها بيت الله المحرم قد أتى عليه الطوفان[١] فأنزل هاجر وإسماعيل فوق الربوة وراح يصنع لهما سكنا . ومكث إبراهيم معهما ما شاء الله له أن يمكث ثم وضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاة فيها ماء وذهب منطلقا ، فتبعته هاجر وقالت :

— يا إبراهيم أينّ تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟

وسار إبراهيم لا يلتفت إليها ، إنه يوسع من خطوه فقلبه يكاد ينفطر . إن الله وهب له إسماعيل على الكبر ، وها هو ذا الله يأمره أن يتركه فى هذه الفلاة التى لا يطير فى سمائها طير ولا يدب على أرضها إنس ولا حيوان ولا ينبت فيها زرع ولا يحلب فيها ضرع . إن الله قد ابتلاه فصبر على ما أصابه إن ذلك من عزم الأمور .

وراحت هاجر تهرول خلفه وتقول :

— يا إبراهيم أين يذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟

ولم يحر إبراهيم جوابا فهو ذاهب إلى الله وإنه يتركها لله لتتحقق مشيئته ، إن الله فعال لما يريد .

وانطلق إبراهيم لا يلوى على شىء . كان قلبه يفيض بالرحمة وهاجر تحرك شجونه وهى تهرول فى أثره وتقول له :

— يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس

---

(١) يعتقد الصابئة أن إدريس أول من بنى بيت الله الحرام فى مكة ، وأن الطوفان أتى عليه « انظر التذييل » .

ولا شيء !

أنيس ؟! أليس الله أنيسك يا هاجر ؟ ألم يملأ عليك خيمتك أنسا ؟ ألم يملأ بصيرتك نورا والكون غارق فى الظلام ؟ أيكون بلا أنيس من كان الله أنيسه ؟ أيشكو الوحدة من كان الله معه ؟ ما هذا الفزع يا هاجر ؟ ألا يطمئن قلبك بذكر الله ؟ إن كان هذا الوادى ليس فيه شيء فإن الله قادر على أن يفتح عليكم بركات من السماء والأرض .

وجعل إبراهيم لا يلتفت إليها حتى إذا ما عاد نور الله إلى فؤادها قالت :

ـــ آلله أمرك بهذا ؟

قال :

ـــ نعم .

فاطمأن قلب هاجر ، إن كان الله قد أمره بأن يحملها هى وابنها إلى هذا الوادى فإن الله يريد أن يتم نعمته عليها وعلى ابنها ، فقالت فى ثقة :

ـــ فإذا لا يضيعنا .

وذهب عنها الروع وعادت إلى العريش مرفوعة الرأس لم تذرف دمعة ولم ترتعد فرائصها من الخوف ، كانت الجبال من حولها شامخة هائلة تبعث الوحشة فى النفوس إلا أن هاجر نزل بقلبها أمن وسلام .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يريانه استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

ـــ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

(هاجر المصرية)

وجلست هاجر ترضع ابنها وتمد عينيها إلى ما حولها ؛ كانت الجبال تطل عليها من كل مكان ، جبل قبيس .. الصفا .. المروة .. السماء فوقها .. والأرض حولها ما جت ببحار من الرمال .

وخيم على المكان سكون عميق وانثالت على ذهنها الذكريات ، إنها كانت فى قصرها فى منف ومن حولها الوصيفات والخدم ودنيا صاخبة إلا أنها كانت دنيا بلا روح ، دنيا بلا أمل ، لا يملأ فراغها إلا الطعام والشراب وأناشيد المغنين وترتيلات الكهان ، أما هنا وهى وحيدة بلا خدم ولا وصيفات ، ولا أنيس ولا جليس ، ولا أغانى ولا ترتيلات ، فهى تحس تعاطفا مع الكون ، يملأ الله حياتها أنسا ويجيش صدرها بآمال عريضة مشرقة ، فقد وعدها الله أن يجعل إسماعيل أمة عظيمة وأن يولد له اثنا عشر رجلا .

إن كان الله قد جاء بها من قصور مصر إلى هذا الوادى المقدس فإنه أراد أن يشرفها ، وأن يحقق ما وعدها به ، أن يكون ما شاء ، إن الله فعال لما يريد .

وإن كانت نشأت فى القصور فما ذلك إلا لتتعلم كيف تربى ابنها الذى اصطفاه الله ليكون أبا لأمة عظيمة ، وإن كانت وقعت فى الأسر وتحملت الشدائد فما ذلك إلا لتعلم ابنها كيف يصبر على الشدائد . إن الله قد كيَّف حياتها لتنهض بعبء عظيم ، عبء تنشئة إسماعيل .

وراحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وراح يتلبط .

ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست نياط قلبها تتمزق وكاد عقلها يطيش ، إنها لا تستطيع أن تنظر إلى حبيبها وهو يبكى من الألم ،

إن كبدها تكاد أن تنفطر .

وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشا ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة التى استولى عليها فيها الجزع أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان فى ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت :

ـــ صه !

تريد نفسها ، ثم أصاخت السمع فسمعت الصوت أيضا ، فانطلقت إلى حيث كان ابنها فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تخوضه فى فرح وتغرف الماء فى سقاتها .

وشربت وأرضعت ولدها وإذا بالملك عند زمزم فقال لها :

ـــ لا تخافى الضيعة فإن هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله .

وتهللت هاجر بفرح فياض فقد حملها الله إلى بيته الحرام ، إلى بيته المبارك الذى سيبنيه ابنها وخليل الرحمن ، إنها تعيش فى البقعة الطاهرة ، فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

ونزلت رفقة من جُرهم فى طريق أسفل مكة ، ورأوا طائرا يحوم فى

الجو فقالوا :

ــ إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء .

وأرسلوا من يرى الخبر .

وأقبل غلامان من العماليق يريدان بعيراً لهما قد أخطآه وقد عطشا ، وكان أهلهما بعرفة فنظرا بطير يهوى قبل الوادى فاستنكرا ذلك وقالا :

ــ أنى يكون هذا الطير على غير ماء ؟

ــ كما ترى . هذا الطير يذهب إلى غير ماء .

قال الآخر :

ــ فأمهل .

ونظر فإذا الطير يرد ويصدر ؛ إنه يرد الماء ويصدر عنه ، فاتبعا الواردة منها حتى وقفا على أبى قبيس فنظرا إلى الماء وإلى العريش فإذا بهاجر عند الماء .

وجاء رسول جُرهم إلى هاجر وقال لها :

ــ أتأذنين لنا أن ننزل عندكم ؟

فقالت فى ترحيب وحزم :

ــ نعم ولكن لا حق لكم فى الماء .

ــ نعم .

وهبط الغلامان من فوق جبل قبيس إلى الوادى وانطلقا إلى هاجر وقالا :

ــ لمن هذا الماء ؟

قالت :

— لى ولابنى .

فقالا فى دهش فعهدهما بالوادى قريب وليس به ماء :

— ومن حفره ؟

قالت :

— سقيا لله .

الله ؟ ونظر أحدهما إلى الآخر فما كانا يعرفان الله ، بيد أنهما أحسا إحساسا جليلا ملأ قلبيهما خشية وقالا :

— أتأذنين لنا أن ننزل عندكم ؟

— نعم ولكن لا حق لكم فى الماء .

وجاءت جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وإبلها وبعيرها وغنمها ، وجاء العماليق برجالهم ونسائهم وأطفالهم وإبلهم وغنمهم ، وإذا بالوادى الذى ليس فيه زرع ولا ضرع ولا أنيس ولا شىء ينبض بالحياة قد فتح الله عليه بركات من السماء والأرض .

وخرت هاجر ساجدة لله وكل خلجة من خلجاتها تحمده وتسبح له : إن ربى رحيم ودود .

١٥

لم يستقر إبراهيم فى حبرون فقد أمره الله أن يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، وقد كان الناس أمة واحدة يتكلمون لغة واحدة وما كان الاختلاف فى اللغة إلا كاختلاف اللهجات فى القبائل فى الإقليم الواحد .

لم ينظر إبراهيم إلى عشيرته على أنها أفضل عشائر الأرض طرا ، و لم يتفتح قلبه لمدينة دون مدينة ، فالناس أمام الله سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، والأرض كلها لله . وقد تعلق قلبه بربه وامتلأ بمحبته فكان سواء لديه أفى حبرون كان أم كان فى بيت إيل أم فى أواريس أم فى مسقط رأسه أور .

كان قلبه لا يهفو إلا لله ، وكان يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ليدعو إلى الله ، وهو يعلم أن الأمر كله لله إن شاء أنعم على قوم بالإيمان وإن شاء طمس على قلوبهم : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

رفع إبراهيم خيامه من حبرون وانطلق هو وأهل بيته وعشيرته ورجاله وعبيده وإماؤه وإبله وأنعامه وأغنامه إلى الجنوب ، فالاستقرار يفسد النفوس كالماء إن وقف عن الجريان أسن . إنه يخشى أن تتحول رسالته إلى ملك عضوض وهو يرى الممالك من حولـه نخر فيها السوس ،

فالعرب[1] أغاروا على بلاد سومر وأسسوا مملكة بابل ، وأغاروا على مصر وأسسوا مملكة الهكسوس ، وأغاروا على سورية وأسسوا مملكة قوية فى مارى ومملكة أخرى فى جرار .

كانت جرار عاصمة مملكة قوية قامت فى أرض فلسطين قبل أن يطلق عليها ذلك الاسم ، أغار عليها العرب الرعاة كما أغاروا على ممالك الشرق الأوسط واستأصلوا شعبها واستقروا فيها وانتقلوا من أمة بدوية إلى أمة حربية لها سلطان ونفوذ .

وأطلق على كل ملك من ملوك جرار اسم أبيمالك أى أبى الملك ، كما أطلق على كل من حكم مصر اسم فرعون . إن إبراهيم يرى الممالك تتهاوى من حوله ، ويرى أن الله يذهب أقواما ويورث الأرض أقواما آخرين . إنه لا يريد ملكا أرضيا بل يريد أن تظل مملكة السماء لله يرثها عباده الصالحون .

ونزلت قبيلة إبراهيم بين قادش وصور على طريق القوافل بين البادية والحضر ؛ ليتصل إبراهيم بالناس إذا نهض لدعوته وليهيىء لنفسه ولقومه جو العزلة ليتصلوا بالله ليفتح عليهم بركات من الأرض والسماء .

وذهب إبراهيم إلى جرار وكانت مدينة حصينة تموج بالجنود وتقوم

---

(١) يطلق المؤرخون على هؤلاء العرب اسم الساميين ، ولا يرجع تاريخ استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ثم على بعض الأقوام إلا إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألمانى شلويتسر للتدليل على لغات الذين ينسبون إلى سام بن نوح ، وكانوا يعيشون فى بلاد العرب وبلاد النهرين بسورية وفلسطين .

فيها الحصون والقصور . أما المعابد التى انتشرت فى بابل ومصر ، والهياكل التى أقيمت فى بيت إيل وحبرون ، والكهان الذين كانوا يسيطرون على منابع الثروات والنفوذ فما كان لهم فيها من أثر .

وبلغ إبراهيم قصر أبيمالك وكان قصرا هائلا له شرفات زينت بالزخارف والتهاويل كشرفات قصور دمشق وأواريس ، وكان الحراس يقفون عند باب القصر فى أيديهم الرماح شدت حول أوساطهم أحزمة بها الخناجر ، والتفت حول ذقونهم اللحى ، وأطلت من عيونهم ضراوة المقاتلين .

دخل إبراهيم ثابت الخطو فوقعت عيناه على الزخارف التى زين بها القصر وكانت محاكاة للزخارف التى رآها فى دمشق ، أما التماثيل فكانت من صنع مصر رأى مثلها فى أرض جوشن وفى أواريس وفى منف . بيد أنها كانت تحاط هناك بمراسيم وقدسية أما هنا فى قصر أبيمالك فقد وضعت للزينة . كانت تماثيل لا معنى لها أكثر من أنها قطع فنية !

وسار فى ردهات القصر يقوده رجل من رجال الملك ، وكان ساكنا مهيبا لم تختلج فيه خلجة حتى إن رجل الملك رمقه فى دهش ، فما من أحد دنا من قاعة العرش إلا اضطرب وغاض لونه وزاغت نظراته .

كان إبراهيم خليل ملك السماوات والأرض وما بينهما ، رسول رب العالمين عند ذى العرش مكينا ، فكيف يخشى عبدا من عباد ربه وقد وعده الله بالتأييد ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .

لم يعرف الخوف طريقه إلى قلبه عندما قال لقومه : ﴿ يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض

حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ ولم يرتجف فرقا يوم وقف أمام النمروذ يجادله ويقول له : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ وظل ثابت الجنان حين أمر النمروذ بإلقائه فى النار ، ولم تذهب نفسه شعاعا إذ دخل على ملك مصر فى قصره بأواريس . إنه يدخل على جبارى الأرض بسلطان جبار السماء ، أوَ ترتعد فرائصه من أبيمالك بعد بعد أن رأى كيف أمطر ربه قوم لوط حجارة من سجيل منضود ، وجعل عاليها سافلها ؟[١] .

ودخل قاعة العرش وكان أبيمالك فوق عرشه وعلى رأسه التاج وفى يده الصولجان يحف به رجال دولته ، وكان فيكول رئيس جيشه عن يساره ، وما كان ثم رئيس للكهنة ولا كاهن لأسرار السماء ؛ فما كان القوم يؤمنون ببعل ولا عشتار ، وما كانوا تعلموا بعد كيف يتملقون الشعوب باعتناق دياناتها ، فقد أبادوا أهل البلاد الأصليين عن بكرة أبيهم .

وخر الرجل الذى دخل مع إبراهيم ساجدا بين يدى أبيمالك ، ووقف إبراهيم مرفوع الرأس وقال فى رقة :

— سلاما .

---

(١) جاء فى التوراة أن إبراهيم خاف أن يبطش به أبيمالك من أجل سارة ، فقال لسارة : قولى إنك أختى ، وأرسل أبيمالك وأخذ سارة ولكن الله حذر أبيمالك فى المنام من أنه ميت إن اقترب منها . وجاء فى التوراة أن مثل ذلك حدث مع ملك مصر ، وقد وجدت أن ذلك لا يتفق مع جلال إبراهيم وشجاعته فأسقطت الحادثتين وإن ورد فى إحداهما حديث نبوى مشكوك فى صحته .

راجع تذييل الجزء الأول .

وراح الرجال يتلفت بعضهم إلى بعض ويعجبون من ذلك الشيخ الوقور الذى أبى أن يسجد بين يدى أبى الملك ، و لم يستطع الملك أن يكتم ثورته فقال فى غضب :

ــ لماذا لا تسجد ؟

ــ لم أكن لأسجد إلا لله .

ــ ومن هو الله الذى تسجد له ؟

ــ الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد .

ــ وأين الله هذا ؟

ــ إنه معنا يسمع ويرى . ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم * وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ..﴾ .

وراح إبراهيم يدعوهم إلى الله وهم يجادلونه ، و لم يشتدوا معه بل قالوا قولا معروفا ومالت قلوبهم إليه فقد كان يجادلهم بلسانهم .. وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وحفر إبراهيم بئرا حيث نزل وبنى محرابا لله وأقام على باب خيمته ينتظر الضيف ويدعو الغادين والرائحين إلى دين الله ، فآمن له كثيرون وانتشر دين الله فى الآفاق .

وجاء عبيد أبيمالك وأرادوا أن يغتصبوا البئر من إبراهيم وقومه ، وكادت أن تنشب حرب بين أتباع إبراهيم وعبيد الملك لولا أن تحلم إبراهيم الحليم وخلى بينهم وبين البئر .

ورأى أبيمالك أن إبراهيم أصبح فى منعة وقوة وأنه لو أراد أن يثب على الحكم لا نتزعه منه ، فقرر أن يعقد معه حلفا ليصون عرشه الذى أصبح فى مهب الريح .

وخرج أبيمالك وفيكول إلى حيث نزل إبراهيم فاستقبلهما بالترحاب وضيفهما وأكرمهما غاية الإكرام ، وقال الملك :

ــ إن الله معك يا إبراهيم وهو يبارك كل ما تفعل ، وقد جئتك لتحلف لى بالله ألا تغدر بى ولا بذريتى من بعدى . إنى رحبت بك يا إبراهيم فى بلادى ووسعتك فى أرضى فنزلت فيها من المعززين المكرمين .

ــ أقسم لك .. فمن نكث فإنما ينكث على نفسه .

وتهلل الملك وقائد جيشه بالفرح فقد عاهدهم إبراهيم على حسن الجوار وعلى ألا يغدر بهم ولا بذريتهم ، وإن إبراهيم لمن الصادقين .

والتفت إبراهيم إلى الملك وقال :

ــ اغتصب عبيدك البئر التى حفرتها .

فالتفت أبيمالك إلى فيكول قائد جيشه وقال :

ــ أسمعت شيئا عن هذا من قبل ؟

ــ لا يا مولاى .

قال أبيمالك :

ــ والله ما سمعت بهذا من قبل اليوم فلماذا لم تقل لى ؟

كان الملك ضئيلا أمام الشيخ المهيب ، جاء من قصره إلى الصحراء

ليخطب وده ويلتمس منه أن يعاهده على صيانة عرشه ، ذل جبار الأرض لرسول جبار السماء .

وأهدى إبراهيم للملك بعض الأنعام والأغنام فتقبلها شاكرا إلا أن أبيمالك لاحظ أن سبع نعاج من الغنم وقفت وحدها بعيدة عن القطيع فالتفت إلى إبراهيم وقال :

ــ ما أمر هذه النعاج السبع ؟

قال إبراهيم وهو يشير إلى القطيع :

ــ هذه هدية أهديها لك .

ثم أشار إلى النعاج السبع وقال :

ــ أما هذه فإنى أعطيكها لتكون شهادة لى بأنى حفرت هذه البئر .

فقال أبيمالك :

ــ البئر لك .

وعاد أبيمالك ورئيس جيشه سعيدين بالميثاق الذى أبرماه مع إبراهيم رسول الله ، الرجل الذى يؤيده ربه فى كل ما يفعل ، وانطلق إبراهيم إلى بئر سبع وهو يشكر الله فقد عادت إليه البئر دون أن يشن حربا أو يهريق دما .

١٦

ركب إبراهيم راحلته منطلقا إلى الجنوب إلى حيث أسكن هاجر وإسماعيل ، إن الله أمره أن يسكن ابنه ذلك الوادى القفر يوم كان إسماعيل رضيعا ، فلم تشهد هاجر مولد إسحاق الذى من الله عليه به بعد أن وهب له إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

لم يكن بين سارة وهاجر مخاصمة ولم تحس سارة غيرة من هاجر . كانت سارة مؤمنة تتلقى أوامر الله راضية ، وقد جزاها الله جزاء الشاكرين فوهب لها إسحاق وهى عجوز عقيم . ولم ير إسماعيل أخاه الوليد بعد ولم تسمع هاجر بمولده .

ختن إبراهيم إسحاق وهو ابن ثمانية أيام ، وأقام وليمة لعشيرته وجيرانه وأطعم كل من استطاع أن يطعمه شكرا لله ، وها هو ذا يخرج ليزور إسماعيل ويزور أمه ، فقد كان إبراهيم رحيما يحبها من كل قلبه ، وكان إسماعيل قريبا إلى فؤاده فهو ابنه البكر الذى استمع الله لدعائه فيه وأمر بخروجه إلى الأرض التى يريد أن يبارك فيها للعالمين ، ليتم الله وعده .

لقد تركه وأمه بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، ولم يضع عندهما غير جراب به تمر وسقاء فيه ماء ، وكان يعلم علم اليقين أن التمر لا يكفى هاجر إلا أياما قليلة وأن الماء ينفد وشيكا وليس بالمكان أحد وليس به ماء . ولم يشغل قلبه بأمرهما فقد أمره الله أن يتركهما بذلك

المكان فكان عليه أن يطيع أمر الله وعلى الله أن يتولاهما برحمته .

إن الله قادر على أن يرزقهما وهو لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز . لقد اتقت هاجر الله فجعل لها مخرجا ورزقها من حيث لا تحتسب . فجر لها زمزم فكانت بركة ، تبارك الله رب العالمين .

وراح إبراهيم يفكر فى هاجر وإذا بحكمة هبوطه إلى مصر تتضح لعينيه . لقد وقعت سارة فى الأسر فهبط إلى مصر دون أن يتبرم أو يضيق بمشيئة الله . كان يؤمن فى قرارة نفسه أن الله ما قاده إلى مصر إلا لحكمة لا يعلمها إلا هو وإذا بحكمة الله تتجلى له وهو يضرب فى البيداء أقرب ما يكون إلى ربه . إن الله إنما قاده إلى مصر ليعود بهاجر ليهب له منها ذرية صالحة ، وقد ولدت له هاجر بكره الحبيب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وتذكر سارة وإسحاق ، تذكر النعم التى أسبغها الله عليه ، لقد صكت سارة وجهها لما بشرها رسل ربها بإسحاق وتهللت بالفرح وضحكت ملء شدقيها بعد أن تحقق وعد الله ووهب لهما إسحاق . أكانت سارة فى شك من قدرة الله يوم صكت وجهها أم أذهلتها المفاجأة عن أمرها ؟

كانت هاجر شابة وضاءة تفور بالحياة فإن قضى الله بأن يبنى بها إبراهيم فقد كانت حَرِيَّة بأن تلد له الابن الموعود . أما سارة فقد كانت عجوزا عقيما . كانت عاقرا فكانت البشرى مذهلة لها جعلتها تصك وجهها وتعجب من أمر الله حتى إن رسل ربها قالوا لها : « أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » .

إسحاق معناها الضحك ، وقد بشر رسل الرحمن سارة بإسحاق

فأصبحت ضاحكة السن مذ ولدته ، وهل هناك ما هو أفرح للقلب من أن تلد عجوز عقيم بعد اليأس ؟ لقد فاضت نعمة الله على إبراهيم وعلى أهل بيته .

وراحت الشمس تغرب عن يمينه وكان الغسق فى لون الأرجوان وانتشر اللون الأحمر فى رقعة السماء وراح يتشكل فى روعة تملأ النفس انبهارا والقلب خشوعا . إنه ليشهد فى الأفق آية من آيات الله بديع السماوات والأرض . وفاضت جوانح إبراهيم بالعواطف المشبوبة فسجد على قتب بعيره وقال :

ـــ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على .

واستأنف رحلته يسهر مع الله ويسرى مع الله وقد وجه وجهه شطر الأرض التى أرسل الله إليها الرسل من قبله : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ *

﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون *

وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدَّكم بما تعلمون * أمدَّكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا : سواء علينا أوَعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذَّبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين *

﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذا قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين * أتتركون فى ما هٰهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزرع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرضِ ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحَّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنتَ من الصادقين * ﴾ .

وفكر إبراهيم . إن ابنه إسماعيل يشب بين أقوام أسلافهم قوم هود وقوم صالح ، كانوا أناسا ذوى قوة وبأس اتخذوا مصانع لعلهم يخلدون ، ونحتوا من الجبال بيوتا فارهين ، وأنعم الله عليهم بجنات وعيون ، فلم يشكروا نعمة الله فحاق بهم عذاب غليظ مثل العذاب الذى نزل بقوم لوط .

إنه يرتجف فرقا من خشية الله كلما تذكر كيف أن الله أمطر عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إنه يرجو من كل قلبه أن يرحم الله إسماعيل وإسحاق من مثل ذلك العذاب الغليظ .

وبعد أيام وصل إبراهيم إلى جبل قبيس ووقف ينظر إلى الوادى الذى ترك فيه هاجر وابنه إسماعيل . كان الوقت ليلا وكانت النيران تنبعث من

كل مكان حول زمزم وكان عريش هاجر فى مكانه فوق الربوة الحمراء عند بيت الله المحرم ، فانشرح صدر إبراهيم وترقرق الدمع فى عينيه . إنه يشهد رحمة الله وبركاته يسبغها على أهل بيته .

لقد كانت هاجر منذ أهداها ملك مصر إلى سارة خيرا وبركة عليه ، إنها مباركة جاءها الملك عند زمزم فقال لها : لاتخافى الضيعة فإن هذا البيت الحرام يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . إنها مؤمنة شاكرة والله لا يضيع أجر المحسنين .

وفى سكون الليل راح إبراهيم يناجى ربه ويدعوه :

— ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبَنىّ أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن اتبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ .

وراح يهبط إلى الوادى وهو يقول :

— ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء * الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ﴾ .

وأناخ بالقرب من العريش وذهب خافق القلب شاعت فيه رقة وحنان إلى حيث كانت هاجر وإسماعيل ، ولم يدخل بل وقف يستأذن فإنه قادم بليل . ومس أذنيه صوت هاجر رقيقا وهى تقرأ مع ابنها الحبيب فى صحف إبراهيم فأفعم فؤاد خليل الرحمن بالرضا ، ذرية بعضها من بعض يهدى الله الشاكرين إلى صراط مستقيم .

وختن إبراهيم إسماعيل ونحر أبو الضيفان النحائر وأولم وليمة عظيمة ، وجاء من نزلوا عند هاجر يشاركون رسول الله سروره ، ودار الحديث

حول الله وترددت فى جنبات الوادى أنفاس طاهرة تسبح لله فى الغدو والآصال وعند دلوك الشمس وفى غسق الليل وبالأسحار .

وكان إسماعيل يخرج إلى البرية مع أترابه وكان شغوفا بالصيد يجد متعته فى أن يعدو خلف الغزلان يرميها بسهامه ، وكان يتهلل بالفرح كلما سقطت فى يده فريسة . ثم يعود إلى العريش يحمل صيد يومه ويجلس يصغى إلى أبيه ويتلقى منه الحكمة فتنير جنبات كيانه بنور لطيف يملأ النفس أمنا ويفيض على الروح بالسلام .

وفى يوم انطلق إسماعيل مع إخوانه للقنص فى الصحراء وبلغوا أقصى ما كانوا يصلون إليه ، وإذا بإسماعيل يفوتهم ويتوغل فى البيداء فراحوا يخوفونه السباع ، ولكنه سار لا يلوى على شىء ولم يتبعه أحد منهم فهم يعرفونه متأبدا خشنا شديدا لا يثنيه شىء عما عزم أن يفعله .

ووقف من خرجوا معه ينظرون وفغروا أفواههم دهشة ، إن الأفق البعيد يطبق عليه . ترى ماذا يفعل هناك ؟ لقد ذهب أكثر من مرة ثم عاد دون أن ينبس بكلمة أو يفضى بسر .

وراح إسماعيل ينظر .. إنه يرى جيادا وحشية تجرى فى الفلاة . ولم تكن الجياد قد استؤنست بعد وإن فكرة أن يمتطى جوادا من تلك الجياد تملأ رأسه . إنه يفكر فى الوسيلة التى يعتلى بها ظهر جواد منها .

أخذ يعدو خلف الجياد فكانت الجياد إذا أحست به أطلقت سيقانها للريح ، وكانت أنفاسه تنبهر دون أن يصل إليها . إنها جياد عربية غر محجلة تمر به مر السحاب .

وجرى بالقرب منه جواد أشهب فعدا إلى جواره وتمكن من أن يتشبث بعرفه ، وراح يجرى معه ثم قفز على ظهره ، ولم يستقر به المقام

طويلا فقد أخذ الجواد يثب فى الهواء ويضرب الفضاء برجليه الخلفيتين ويحاول محاولة أن يلقيه عن ظهره . ونجح الجواد فى أن يطرح إسماعيل أرضا دون أن يسلس له قياده .

ونهض إسماعيل وهو يبتسم ولم يدب اليأس إلى قلبه فسيعاود محاولته . كان اعتلاؤه ظهر الجواد حلما يراوده ، أمنية من أمنياته ، فإذا به يحقق حلمه ، ولئن لم يستقر على ظهر الجواد إلا لحظات إن الخوف ذهب عنه وتحطم الحاجز الذى كان يحول بينه وبين تحقيق ما يتمنى ، وسيأتى اليوم الذى يستقر فيه على ظهر جواد ويعود به إلى قومه .

وتحدث إبراهيم وهاجر حديثا يفيض رقة وعذوبة عن ابنهما الموعود . لقد بشر الملك هاجر بأن الله سيجعله أمة عظيمة ، ولقد أوحى الله إلى خليله أنه سيبارك فى نسله ، فكان أمر اختيار زوجة لإسماعيل يشغل بال الشيخ الجليل والأم الحنون . قالت هاجر : إن جُرهم كانوا معها ومع ابنها وأنهم آنسوهما وكانوا لهما خير جيران ، وأنهم يحبون إسماعيل ويحبون أن يزوجوه منهم..

فقال إبراهيم :

ـــ وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

١٧

غرس إبراهيم فى بئر سبع أثلا ، وهو شجر فاره دائم الخضرة ، وبنى محرابا يصلى فيه لله . لقد أبرم معه أبيمالك وفيكول رئيس وزرائه ووزير حربيته معاهدة سلام .. إنهم جنحوا للسلم فجنح إبراهيم لها وراح يعبد ربه الذى أكرمه فجعل الملوك يخطبون وده ورضاه .

ونظر إبراهيم إلى خيامه وأنعامه وأغنامه ورعاته وعبيده ، لقد أغناه الله من فضله . وإن خيامه لتتسع لإسماعيل وأمه ، وإن قلب سارة التقية التى آمنت بإله إبراهيم قبل أن يؤمن به أحد غيرها ليتسع لإسماعيل وأمه ، فقد نشأت فى كنف خليل الرحمن وتعلمت أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وأن ما عند الله خير وأبقى ، ولكن الله أمر أن يسكن خليله إسماعيل وأمه عند بيته المحرم ليتحقق وعد الله ، ليكون لذرية إبراهيم المشارق والمغارب .

خرج إسماعيل من خيام أبيه وهو طفل رضيع ، وصدع إبراهيم لأمر الله وإن كان قلبه تعلق بابنه وشغف به حبا . أراد الله أن يشب الغلام بعيدا عن تدليل القبيلة ، أراد له أن يتنسم منذ نعومة أظفاره الحرية وأن يتوكل على الله وأن يعتمد بعد الله على نفسه فى تحصيل رزقه ورزق أمه .

وانشرح صدر إبراهيم وهو يعيد إلى ذاكرته مارآه فى عريش أحب الناس إليه ليلة هبط من جبل قبيس إلى حيث كانت هاجر وإسماعيل . كان إسماعيل يقرأ فى صحف أبيه التى أنزلها الله عليه لتكون نورا وهدى

للناس .

إن هاجر عميقة الإيمان رقيقة الوجدان ، وإنها لعلى علم وزادها الإيمان حكمة ، فإن حرم إسماعيل حكمة أبيه فلم تزل له حكمة هاجر ورحمة الله الذى آتى إبراهيم رشده ، إن الله قادر على أن يعلمه ما لم يكن يعلم .

ولقد اصطفى الله هاجر وزوجها إبراهيم . أراد أن تكون أم إسماعيل مؤمنة حامدة صابرة ترجو لقاء ربها وتقيم الصلاة وتطيع الله ورسوله ، إن الله كان بعباده خبيرا بصيرا .

ورن فى أذنيه صوتها يوم تركها هى وابنها فى الصحراء لا ماء ولا أنيس : « آلله أمرك بذلك ؟ » « نعم » « إذن لن يضيعنا » لو وزع إيمانك يا أم إسماعيل على أهل الأرض جميعا لوسعهم .

« إن إسماعيل قد سمعت لك فيه ، إنى أباركه وأكثره وأجعله أمة عظيمة لأنه من ذريتك » .

وهفت نفس إبراهيم إلى إسماعيل وإن كان توة عائدا من عنده . لقد جلس إليه يجاذبه الحديث . حدثه عن الله وقدرته وعلمه الصلاة واستمع إلى حديثه عن الصحراء والصيد والقنص . وكان يصغى إلى ابنه وإلى فصاحته وهو منشرح الصدر مشرق النفس لكأنما كان يصغى إلى نفسه وقد ارتد شابا يتأجج بالحماس .

وسرح خياله فإذا به يرى أمة مؤمنة انتشرت فى البطاح حول عريش هاجر وإسماعيل ، أمة عظيمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، خير أمة أخرجت للناس ، فتهلل وجهه بالفرح وأشرق وجهه بالابتسام . ألم يعده ربه وعدا حسنا ؟

وجاء إسحاق يجرى ومن حوله العبيد ، كان غلاما فطم بالأمس لما يتجاوز الثالثة من عمره وقد احتفلت القبيلة لذلك احتفالا عظيما نحرت فيه العجول والكباش والتيوس . ولم ير إسحاق أخاه فقد ولد بعد أن أمر الله إبراهيم أن يسكن إسماعيل عند بيته المحرم باثنتى عشرة سنة .

وفتح إبراهيم ذراعيه يستقبل إسحاق ثم حمله وضمه إليه فى حنان وقبله وإذا به يشرد ؛ إن الله أكرمه ووهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن الله يهب البنين والبنات للناس جميعا بيد أن الله منَّ عليه بهما ليجعل فيهما وفى ذريتهما الحكمة والكتاب والنبوة ، اصطفاهما ليكونا نورا للعالمين ، فعليه أن يطهرهما وأن يغرس فيهما الإيمان العميق وخشية الله الواحد القهار وأنهما وذريتهما إلى ربهم راجعون .

كان إسماعيل يخرج إلى صحراء الحجاز يصطاد ، وكان إسحاق يلهو فى كنف أبيه عند بئر سبع . بعدت بينهما الشُّقة ولكن إبراهيم كان يرجو أن يكون بينهما مودة ورحمة ، أن يتعاونا على إعلاء كلمة الله فى المشارق والمغارب ، ألا يكون بينهما ذلك التنافس الذى ينخر فى عظام ممالك الأرض فيجعلها تتهاوى وتنهار .

إن مملكة الله تقوم على أعمدة المحبة والإيثار ، وعلى أكتاف عباد مخلصين أقوياء : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعا سجَّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ فراح إبراهيم يدعو الله ألا ينزغ الشيطان بينهما ﴿ إن الله لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

ورأى إبراهيم أن يأتى بإسماعيل فى الفينة بعد الفينة إلى خيامه ، وأن يحمل إسحاق وسارة إلى حيث أسكن هاجر وابنها ليؤلف بين قلوبهم .

فإن كان الله قضى لحكمة رآها أن يباعد بين إسماعيل وإسحاق فى الأرض ليورث ذريتهما مشارق الأرض ومغاربها فإن أفئدة المؤمنين لا بد أن تتقارب ، يجمعها بعضها إلى بعض حب إلٰه واحد ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

و لم يستقر إسحاق طويلا فى أحضان أبيه فقد أراد أن ينطلق إلى البئر ليلعب مع غلمان القبيلة ، فتركه إبراهيم يذهب وهو يرقبه وبين جنباته حب فياض وكان من الشاكرين .

وابتعد إسحاق عن أبيه . إبراهيم يتبعه بعينيه وإذا به يرى المكان فى وضوح . كان الأثْل فارها وارف الظلال والأنعام والأغنام كثيرة لا يكاد يحصيها العد والعبيد والرجال كجراد منتشر . إنه غنى وعند إليعازر الدمشقى أمين بيته أموال كثيرة من الذهب والفضة ، ولكنه لن يورث إسماعيل وإسحاق أشياء من عرض الدنيا فهو يعلم أن الأنبياء لا يورثون وأن ما يتركونه صدقة . ولكن أين هذه الأموال مما يعدكم الله به ؟ لقد وعد الله أن يورث إسماعيل وإسحاق وذريتهما المشارق والمغارب وأن يجعل فيهم الحكمة والكتاب والنبوة .

لن يختصم الأخوان فى ميراث ولن يبغى بعضهم على بعض ، سيهديهما الله إلى الطيب من القول وإلى صراط الحميد .

عرف إبراهيم الاستقرار بعد أن ضرب فى مشارق الأرض ومغاربها وثار فى نفسه سؤال : ترى هل انتهت رسالته ؟ هل أتم الله عليه نعمته بعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق ؟

إنه لفى شك من أن رسالته انتهت فإن إلٰه القمر سين وإلٰه الشمس شماش وإلٰهة اللذة والحرب عشتار وإلٰه الفن بتاح وإلٰه الشمس رع

وآلهة الوثنيين ما تزال تنتشر معابدهم وهياكلهم فى بلاد ما بين النهرين وسورية ووادى النيل ، بينا ليس لله الواحد القهار بيت يعبد فيه ويسبح له فى الغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

لقد بنى محرابا لله فى كل مكان حل فيه ولكنها محاريب متواضعة ، بينا معابد الوثنيين شامخة سامقة فارهة تباشر فيها المناسك وتجرى فيها المراسيم . أيكون حب هؤلاء الوثنيين آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع أعظم من حب المؤمنين الله الواحد القهار ؟

لم يأمره الله بأن يبنى له بيتا ولم يبين له الأرض التى بارك فيها للعالمين ، وما كان له أن يقدم على شيء جليل الخطر مثل هذا قبل أن يأذن له ربه ، ذلك هو الفضل الكبير .

وتذكر ما رآه فى « سفروايم » أيام هاجر من أور ؛ لقد رأى الوثنيين يقدمون أبكار أبنائهم قربانا لآلهتهم كفارة عن معاصيهم ، وإنه ليرى الوثنيين من الكنعانيين يذبحون أبكار أبنائهم زلفى لأربابهم . أيكون إيمانهم بآلهتهم أعمق من إيمان المؤمنين بالله الذى لا إله غيره رب السماء ورب الأرض رب العالمين ؟

أتتم رسالته وفى الأرض من هو أكثر إيمانا بإلهه منه هو من وضع إيمانه مكان الاختبار فوفى ؟ إنه ألقى فى النار وأمر الله النار أن تكون بردا وسلاما عليه ، أيكون إلقاؤه فى النار أوجع لقلبه من ذبح ابنه وتقديمه قربانا إلى ربه ؟

أيذبح إسماعيل بيديه ؟ ذلك هو البلاء العظيم . أيذبح حبيبه الذى شغف به حبا ؟ إن إسماعيل هو بكره وإن السفراويميين يحرقون أبكار أبنائهم على مذابح آلهتهم ، وإن الكنعانيين الوثنيين يقدمون أبكار أبنائهم

محرقة لأربابهم ، ولم يفكر إبراهيم فى ذبح إسحاق إذ كانت العادة أن يكون القربان الابن البكر وقد بشر الله إبراهيم بإسحاق ومن بعده يعقوب ، لقد كتب الله له الحياة .

إن أمره الله بذبح إسماعيل فسيطيع وسيجده الله إن شاء الله من الصابرين .

لم تكن السماء والأرض وما بينهما لتتسع لله . ولكن قلب إبراهيم اتسع لله فقد كان من المؤمنين حقا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

١٨

انقلب إسماعيل إلى قومه مسرورا يمتطى صهوة جواده فقد استطاع بالصبر والعزيمة أن يروض جوادا بريا وأن يخضعه لإرادته على أن يسلس له قياده فكان أول إنسان يركب حصانا .

انطلق فى الوادى يعدو صوب الخيام ، وسمع الناس وقع حوافر الجواد فخرجوا ينظرون فرأوا إسماعيل يركب فرسا يسابق الريح ، ففغروا أفواههم من الدهش ورمقوه فى إعجاب وإن فر بعضهم إلى الجبال مرعوبين .

وترجل إسماعيل عن الجواد وراح يمسح ناصيته بيده ويربت على ظهره فى حنان وحب ، وقومه ينظرون من بعيد لا يجرؤ أحدهم على أن يدنو من الجواد خشية أن يثور فجأة ويعود إلى طبعه الوحشى فيعيث فى المكان فسادا ، يبقر بطون الغلمان ويقتلع الخيام ويلقى الرعب والفزع فى قلوب الشيوخ والعجائز والنساء .

وجمع أحدهم أطراف شجاعته و تقدم من الجواد فى حرص شديد ، ثم مد يده يمسح بها ظهره وتأهب ليطلق ساقيه للريح إذا بدرت من الجواد بادرة غدر أو غضب .

واستقرت يد الرجل على ظهر الجواد واطمأن قلبه الواجف شيئا ما واقترب وفى عينيه قلق وإسماعيل يشجعه بابتسامة ليعتلى الجواد ، ولكن الرجل اكتفى بتمرير يده على جسم الجواد واعتبر ذلك نصرا .

وصهل الجواد وتبهنس فاتسعت أعين الناس رعبا وتأهبوا للفرار ، ولكن إسماعيل مسح بيده وقاده إلى بئر زمزم وسقاه ثم عاد به إلى خيمته .

كانت هاجر ترقب ابنها فى إعجاب . لقد كان يرعى الغنم مع أترابه من الغلمان ولكن همته لم تقتصر على رعى الغنم بل راح يضرب فى جوف الصحراء وحده ، وحذره الرجال أن تفتك به السباع وخوفوه أن تتخطفه الشياطين ولكنه أصم أذنيه عن تخويفهم .

وانشرح صدر هاجر إذ اتخذ ابنها لنفسه سبيلا غير سبيل قومه ، فلم يؤثر الدعة و لم يؤثر السلامة بل فكر ودبر وعقد العزم ونفذ . فكان حريا أن ينتصر .

استطاع ابنها الشاب أن يستأنس الخيل وأن يذللها لقومه ليركبوها وزينة وتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن الله رءوف بالعباد .

كانت هاجر ترقب إسماعيل ومشاعر الحب والإعجاب تفيض من قلبها الكبير حتى تملأ وجدانها فرحا وسرورا ، كانت ترى فيه زعيما لقومه ، أبا لأمة عظيمة ، أمة مؤمنة بالله رب العالمين .

وأقلع الخوف من قلوب القوم وأقبل شبابهم على الحصان حتى إذا استأنسوا به تشجع بعضهم فركبه ، وداعبت قلوبهم أمنية أن يكون لكل منهم حصان مثله ، وفى عماية الصبح خرج إسماعيل على ظهر جواده وحوله شباب الحى ، خرجوا إلى الصحراء ليصطادوا الجياد .

كان شباب العمالقة يحلمون بما يفعلونه بعد أن يستولوا على الخيل ، قال بعضهم إنه سينطلق بحصانه إلى سورية ، وقال آخر إنه سينطلق به إلى مصر ، وقال ثالث إنه سينطلق به إلى أهله فى بلاد بابل ، حتى إذا توغلوا

فى الصحراء ورأوا الجياد تمرح فى الخلاء وضعوا أنفسهم تحت إمرة إسماعيل يوجههم كيف يشاء فهو أعرف منهم بذلك الأمر الخطير .

وراح إسماعيل يعدو بجواده خلف الجياد يسوقها إلى حيث وقف الشباب متحفزين، وانقضى النهار بين كر وفر وجهاد فى سبيل الاستيلاء على الخيل حتى إذا مالت الشمس للغروب عاد الشباب على ظهور جيادهم يرفعون رءوسهم فى خيلاء ، ولا غرو فهم أول كتيبة من الفرسان تسير على وجه الأرض . يزيدها شرفا أن على رأسها إسماعيل بن إبراهيم عبد الله ورسوله .

وربطوا الجياد فى ناحية من الخيام وجلسوا يتسامرون . وقال أحد المحاربين الشيوخ : ستجعلنا هذه الجياد أولى قوة وبأس نستطيع أن نقهر بها أهل الأرض طرا .

وكانت هاجر فى عريشها تفكر فى أمر زواج ابنها : إن العماليق يطمعون أن يزوجوه منهم ويرغب الجراهمة أن ينكحوه امرأة من نسائهم ، وهى تريد لابنها زوجة تصلح أن تكون أما للذرية الموعودة التى يبارك الله فيها .

راحت هاجر تبحث عن امرأة تقية تؤمن بالله ورسوله وتتحمل ما قد يصيبها من شدة وهى راضية . امرأة تهجر الدنيا وزينتها ابتغاء وجه الله وتطمع فى ثواب الآخرة يوم يقوم الحساب .

ونظر إسماعيل إلى صدا بنت سعد وهى فتاة جميلة من العماليق فأعجبته . فذهب إلى أبيها وخطبها ، وسكتت هاجر وإن لم يتفتح قلبها للفتاة و لم ينشرح لها صدرها ، سكتت ما دام إسماعيل أعجب بها .

وتزوج إسماعيل صدا بنت سعد ، ومرت الأيام وإذا بصدا برمة

بعيشها لا تطيق ما هى فيه من حرمان . إن زوجها يتنكب قوسه كل صباح ويخرج للصيد ثم يعود بما رزقه الله ، إنها حياة جافة لا تطاق .

لم تكن صدا تعلمت ما تعلمته هاجر ، لم تكن على درجة من الصفاء والتقى تؤهلها لتجد فى ساعات فراغها فرصة للتفرغ لله والأنس به .

كانت هاجر تجد السعادة فى التسبيح والتحميد وتتهلل بالفرح كلما تجلى عليها الله برحمته ؛ أما صدا فكانت تبحث عن السعادة فى زينة الحياة الدنيا وكان الوادى الذى تعيش فيه جافا نضبت فيه متع الحياة .

كان الله غاية هاجر فشرح صدرها ، وكانت الدنيا غاية صدا فألقتها فى سجنها الذى أطبق عليها وضاق عليها الخناق ، حتى لودت أن تصعد على جبل قبيس وتشكو للأرض والسماء ما هى فيه من ضيق وشظف عيش .

رأت هاجر كفر كِنتِّها (امرأة ابنها) بالنعمة التى أنعم الله بها عليه فأمسكت على مضض ، ولم تشأ أن تنغص عيش ابنها ما دام راضيا عن عيشه . فاتخذت لها محرابا بعيدا عن بيت ابنها تعبد الله الذى قدر فهدى .

وجاء إبراهيم يزور هاجر وابنه وزوجة ابنه فهو لا ينقطع كثيرا عن زيارتهم ليشد الأواصر بين إسماعيل وإسحاق وبين سارة وهاجر ، وتبادل أهل بيته الزيارات . ولكن هذه كانت أول مرة يزور إسماعيل بعد زواجه . ووقف إبراهيم أمام بيت إسماعيل وقال :

ـــ السلام عليكم ياأهل البيت .

فلم ترد عليه صدا .

وأقبلت عليه تحدق فيه ولم يكن فى نظرتها ود ولا ترحيب ، قال لها :

ـــ هل من منزل ؟

— لا .

— كيف طعامكم ولبنكم وماشيتكم ؟

— نحن فى ضيق . أما الطعام فلا طعام ، وأما الشاة فلا تحلب الشاة بعد الشتاء المضير (اللبن) ، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ .

— فأين رب البيت ؟

— فى حاجته .

— فإذا جاء فأقرئيه السلام وقولى : غير عتبة بيتك .

وانطلق إبراهيم إلى حيث كانت هاجر ودخل عليها المحراب فألفاها ساجدة لله تسبح بحمده وتقدس له .

رأى إبراهيم أن زوجة إسماعيل فظة غليظة القلب لا تصلح أن تكون أما للذرية الصالحة التى سوف تحمل رسالة الله إلى المشارق والمغارب ، فأمر ابنه أن يغير عتبة بيته ، أن يطلقها .

وطلق إسماعيل صدا بنت سعد ، وطفقت هاجر تفكر فى زوجة صالحة ، زوجة تقية تؤمن بالبعث والحساب وتطمع فيما عند الله من جزاء ، فرأت أن تبعث فى طلب فتاة من مصر[1] ، فتاة حرية أن تؤمن بالله الواحد القهار ، أن تؤمن باليوم الآخر وبالثواب والعقاب يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة .

وأرسلت هاجر إلى مصر .. إلى صديقة من صديقاتها بمنف فرسانا

---

(١) جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من التوراة : « وأخذت له أمه زوجة من مصر » وقال ابن هشام إنها عاتكة بنت عمرو الجرهمى وقال الواقدى إنها شاملة بنت مهلهل .

ليعودوا بمصرية يكون لها شرف زواج إسماعيل . وانطلق الفرسان على ظهور جيادهم ليبهروا أعين المصريين وهم يجوسون بها خلال بلادهم .

وبلغ الفرسان أرض مصر ورحب بهم ملك الهكسوس ، كانوا من العماليق وكان ملك مصر منهم ، ولم يغادروا قصره قبل أن يتفقوا معه على أن يمدوا جيشه بالخيل ، بالسلاح الرهيب الذى يجعل جنوده فى حصون متحركة .

وعاد الفرسان إلى محراب هاجر بعد أن بهروا أنظار العالم بخيولهم ، وقدموا إليها الفتاة المصرية التى جاءت معهم لتكون زوجة لإسماعيل .

وتزوج إسماعيل الفتاة المصرية . وذات يوم أقبل الأب الرحيم لزيارة ابنه فانطلق إلى بيته فألفى زوجه فقال :

— السلام عليكم يأهل البيت ورحمة الله .

— وعليكم السلام . تفضل .

— هل من منزل ؟

— نعم إن شاء الله ، انزل رحمك الله فاطعم واشرب .

— ما طعامكم ؟

— اللبن واللحم .

— فما شرابكم ؟

— اللبن والماء .

— هل من حب ؟

— يكون إن شاء الله ونحن فى نعم .

— بارك الله فى طعامكم .

وهبط إبراهيم وانطلق معها إلى زمزم فأخذت تغسل له رأسه فقال

لها :

— أين إسماعيل ؟

— خرج مع أمه يرعيان الغنم .

وعاد معها إلى الدار ، حتى إذا انقلب إسماعيل إلى أهله ورأى أباه هرع إليه يضمه ويقبله ويرحب به . وقال إبراهيم لابنه :

— أثبت عتبة بيتك فإنها صلاح المنزل .

١٩

كان إبراهيم فى محرابه يصلى لله ، وكانت هاجر تحمل نابت بن إسماعيل وهى منشرحة الصدر قريرة العين ، عرف قلبها الله وهامت روحها فى ملكوته فكانت ترى فى كل ما تمد إليه بصرها آية من آياته : فى الماء والنار ، فى السماء والسحاب ، فى الصحراء الجرداء والمروج الخضر ، فى النور والظلام ، فى حر الصيف وقر الشتاء . كانت الحقيقة العميقة التى تغلغلت فى سويداء فؤادها نبع فرح دائم فياض .

ونظرت إلى نابت بن إسماعيل بعين الحكمة التى جلت بصيرتها نعمة الله التى أسبغها عليها . لقد شكرت الله يوم هداها إلى الإسلام ، ولم يضق صدرها حرجا يوم زالت عنها أبهة الملك فجزاها الله جزاء موفورا ، زوجها من خليله وجعلها أم إسماعيل بكره الحبيب ووعدها أن يجعله أمة عظيمة : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

لقد وفى الله وعده ومن أوفى بعهده من الله ؟ فوهب لها إسماعيل ومن بعده نابتا . وإن إسماعيل ليغدو ويروح فى قومه مهابا فما من أمر يبرم إلا إذا وافق عليه ، وما من قرار يتخذ إلا إذا قال رأيه فيه ، فلئن كان لا يزال شابا إن الله وهب له صفات كريمة تجعله زعيما فى قومه ، رئيسا لا ينازع سلطانه منازع . إنه من الأخيار .

ولو أن ابنها ولد فى منف لكان أميرا أسيرا فى أيدى الهكسوس ولباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ، ولكن الله أكرمه فجاء من صلب رسول

كريم ، وأسكنه بواد غير ذى زرع ليشب حرا طليقا سليم الفطرة ، وكرم الله وجهه عن الشرك والوثنية وعبادة آلهة غير الله رب السموات والأرض .

ضمت هاجر نابتا إلى صدرها فى حب عميق ونظرت من خلال الخيمة وشردت فرأت بعين خيالها الوادى يلكّ بالناس بكّا ، يموج بعضهم فى بعض . رأت مدينة قائمة عامرة بالمؤمنين ، إنها بكة ، بكة المكرمة ، مدينة إسماعيل وذريته من بعده .

وأفاقت من شرودها ومالت على نابت تقبله ، إنه أول الأسباط وقد وعدها الله أن يجعل من ذرية إسماعيل اثنتى عشرة أسباطا أمما . ترى أينجب إسماعيل هؤلاء الرؤساء أم يأتون من صلب نابت ؟ سواء أكانوا من إسماعيل أم من نابت فإنهم ذرية إبراهيم وذريتها المباركة .

وفاض فى الخيمة نور كريم ونزل بها أمن وسلام وانتشرت روائح أطيب من ريح المسك وبدا أن الله يوحى لخليله بما يشاء ، وأنزل على هاجر ونابت أمنة نعاسا يغشاهما ، وانقضى من الوقت ما انقضى وقام إبراهيم ووجهه يفيض بالبشر . لقد كان يرى معابد الوثنيين وهياكل المشركين فارهة شامخة فكان يستشعر حسرة ، فأبراج سين ومردوخ وشماس وعشتار مرتفعة فى سماء بابل ، وهياكل بعل منتشرة فى سورية ، ومسلات آلهة المصريين قائمة أمام المعابد الفرعونية ، بينا لم يكن لله إلا محاريب بناها أينما نزل ، ولم يكن لله بيت مكرم يجتمع به المؤمنون ليقيموا شعائر دينهم .

إن إبراهيم يتهلل بشرا فقد أمره الله أن يبنى لله بيتا يحج إليه الناس من المشارق والمغارب ، وقد هداه إلى مكانه ؛ الربوة الحمراء التى أنزل

فوقها هاجر وإسماعيل . سأل إبراهيم فى انشراح :

ـــ أين إسماعيل ؟

فاستيقظت هاجر من نعاسها وقالت :

ـــ فيم تريد إسماعيل ؟

ـــ أبشرى يا هاجر ، أمرنى الله أن أبنى له بيتا وأمرنى أن يعيننى إسماعيل عليه .

وخرج إبراهيم يبحث عن ابنه ، وشخصت هاجر فى السماء تصلى شكرا لله أن اصطفى ابنها إسماعيل ليكون له شرف بناء بيت الله الذى جعله قياما للناس .

وهرع إبراهيم إلى وراء زمزم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له فقال له :

ـــ يا إسماعيل إن ربك أمرنى أن أبنى له بيتا .

فقال له إسماعيل :

ـــ فأطع ربك فيما أمرك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى ابنه فى حب :

ـــ قد أمرك أن تعيننى عليه .

واغتبط إسماعيل فقد تلقى الحكمة فى صحف إبراهيم ، وعاش بين قوم يذكرون الله ويسبحون بالعشـــى والإبكار باسمه العظيم ، وعرف أن الله نور السماوات والأرض وأنه فى كل شيء وأنه أقرب إليه من حبل الوريد . ولكن ما دار بخلده أن يأتى اليوم الذى يشرفه الله فيه بأن يرفع القواعد من بيته المحرم فقال وقد امتلأ قلبه بالفرح :

ـــ إذًا أفعل .

وليفعلن إسماعيل الكثير إن شاء الله ، إنه ابن خليل الرحمن النبى

الصديق وابن هاجر المؤمنة القانتة الشاكرة لأنعم الله التى أرسل الله رسوله إلى مصر ليصطفيها له من دون نساء العالمين ، ليهب له منها ابنا من الصالحين .

وقام إبراهيم وإسماعيل بتخطيط البيت ، وطوله اثنتان وثلاثون ذراعا وعرضه إحدى وعشرون ذراعا . وشرع إبراهيم وإسماعيل وهاجـر ومعهم المؤمنون يقطعون الحجارة من جبل حراء وجبل قبيس ، وراح إبراهيم يقول :

ـ ﴿ رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .

فأوحى الله إليه :

ـ ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ .

وعكفوا على العمل : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وارتفع البنيان وإبراهيم يفكر فى الأمة المسلمة لله ، الأمة التـى سيجعلها الله من ذريته وذرية إسماعيل ، ففاض قلبه بالرحمة وتملكه الخوف أن ينزل بهم ما نزل بالأمم التى كفرت بأنعم الله قبلهم . إنه يذكر ما حاق بأهل سدوم . فقد أرسل الله عليهم حاصبا .. أمطرهم بحجارة من سجيل منضود .. أنزل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ،

وترك من سدوم آية بينة لقوم يعقلون .

وقوم نوح أخذهم الطوفان : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ .

وقال صالح لقومه : ﴿ يا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمر الله نجبينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منّا ومن خِزْيِ يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ .

إنه يخشى أن يفسق أهل هذا البلد كما فسق قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط فيعذبهم الله بالطوفان أو يتبعهم باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة أو تأخذهم الصيحة فيصبحوا فى ديارهم جاثمين أو يرسل عليهم حاصبا ويمطرهم بحجارة من سجيل ، وكم قصم الله من قرية كانت ظالمة وأنشأ بعدها قوما آخرين .

إن الله قادر على أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد ، وهو قادر على أن يعذبهم عذابا غليظا ، ولكن إبراهيم يريد أن يكون بين ذريته وذرية إسماعيل وبين الله عهد أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يرفع عنهم مقته وغضبه ، وألا ينزل عليهم رجزا من السماء وألا يجعل أسفل ديارهم عاليها ، فرأى أن يجعل فى بيت الله حجرا من الحجارة التى أمطر الله بها قوم لوط ليكون علما للناس يبدءون منه طوافهم ، يذكّرهم دائما أبدا أن الله قادر على أن يبطش بهم وأن يفتح عليهم بابا ذا عذاب شديد ، وأن من يستلمه فإنما

يجدد العهد بينه وبين الله على الاستقامة وإغلاق أبواب العذاب : ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

وجاء إبراهيم بالحجر الأسود وجعله ركنا للبيت ، ثم وضع الركن اليمانى وجعل باب البيت أمام زمزم وكان بالأرض غير مبوَّب ، وجعل قبالة ذلك الباب بابا آخر ، فبنى للبيت بابا شرقيا وآخر غربيا ليدخل الناس من باب ويخرجون من الباب الآخر .

رأى إبراهيم فى أور وبابل قدس الأقداس ، ورأى المراسيم التى يقوم بها الأوريجاللو عند دخول بيت الصنم ، ورأى فى مصر ما يقوم به الكهان ورؤساء أسرار السماء من مراسيم قبل دخول قدس الأقداس، إنها طقوس ما أنزل الله بها من سلطان ، طقوس وضعها الكهان ليشرفوا طبقتهم ويثروا ثراء فاحشا باسم الإله .

إن الله هو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، يدعوه عباده وهو قريب ويستجيب دعاءهم ، فبيته حرم آمن يحج إليه الناس يدخل إليه من يريد دون وساطة كاهن .. دون سلطان الأرض أو نفوذ المال ، فرب هذا البيت: ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو

العزيز الحكيم ﴾ .

وحفر إبراهيم وإسماعيل عن يمين الداخل من الباب المواجه لزمزم حفرة لتكون خزانة للبيت . وارتفع البناء فى السماء تسع أذرع وما كان للبيت سقف ، وأتم إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة ، ووقف إبراهيم فى مقامه وأمامه باب الكعبة مفتوح للجميع كرحمة الله وعن يساره زمزم البئر المباركة التى فجرها الله لسقيا زوار بيته ، وراح يدعو الله ودمعه يجرى على خديه ، ويشكر الله على أن أتم نعمته عليه وشرفه وشرف ابنه الحبيب إسماعيل بأن يرفعا القواعد من بيته المحرم ، الذى سيجعله الله مثابة للناس وأمنا .

— ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

٢٠

انقضى من الشهر أيام وكان إبراهيم على علم بالفلك والنجوم والحساب ، كان يعرف أن السنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع اليوم فقد تعلم النظر فى النجوم من جده ناحور فى أور ، وتعلم منازل الكواكب وناقش كهنة مصر فى الدورة الشمسية ، وكان على علم بأن اليوم أربع وعشرون ساعة . وكانت هاجر من مصر ولم تكن من سواد الشعب بل كانت أميرة من منف ، فإن كان سواد الشعب يحسبون أوقات الفيضان ومواسم الزراعة فإن ما تعرفه هاجر كان يفوق ما يعرفه عامة الناس ، فقد تعلمت فى مدرسة الكهان الذين كانوا يحبسون المعارف عن الشعب ويدعون أنها من أسرار السماء .

وتلقى إسماعيل عن أبيه وأمه علم الفلك والحساب ، وعلم أن الأهلة مواقيت للناس ، وأن الله جعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا .

وعلم إبراهيم وإسماعيل وهاجر القوم الذين نزلوا معهم على ماء زمزم ما يعرفونه عن اليوم والشهر والسنة ، ووضحوا لهم ساعات النهار والليل : الذرور ثم النزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم الدلوك ثم العصر ثم الأصيل ثم الصبوب ثم الحدود ثم الغروب ثم الشاهد ثم الغسق ثم العتمة ثم الفحمة ثم الموهن ثم القطع ثم الجوس ثم الكعبة ثم التباشير ثم الفجر الأول ثم المعترض ثم الأسفار .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق

السماوات والأرض منها أربعة حرم ﴾ كان ذلك ما علم إبراهيم المسلمين الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر الذين نزلوا مع هاجر وابنه حول ماء زمزم .

بوّأ الله لإبراهيم مكان البيت ورفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وأتما بناء الكعبة ، فأمر الله إبراهيم : ﴿ أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فراح إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومن معهم من المسلمين يغسلون الكعبة بماء زمزم ويطهرون البيت المحرم .

وأمر الله إبراهيم : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ .

ووقف إبراهيم على الحجر واستقبل اليمن ونادى :

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات تلبى :

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل المشرق فدعا إلى الله :

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا يا عباد الله . يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المشرق :

ـــ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل المغرب فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ألا إن ربكم قد اتخذ بيتا وأمركم أن تحجوه ، يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية من المغرب :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

ثم استقبل الشأم فدعا إلى الله :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، حجوا يا عباد الله ، حجوا إلى البيت العتيق .

وارتفعت أصوات التلبية :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وضج الكون بالتلبية وراح الوجود كله يسبح لله ، وهبت على البيت نسائم من الرحمة وتجلى نور الله فإذا بالأفئدة تهوى إلى أول بيت بنى للناس مباركا وهدى للعالمين .

وأقبل الناس من الشعاب وانحدروا إلى الوادى من الجبال ، أتوا من كل فج عميق يمشون أو يركبون على ظهور الإبل والخيل والحمير ، وارتفعت الأصوات بالتهليل :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

ومست التلبية آذان إبراهيم وهاجر كأنها تلبية ملائكية آتية من السماء ، فامتلأت قلوبهم خشية واعترت أجسادهم رعدة وسالت عبراتهم ، شرقت هاجر بدموعها ونشج إبراهيم بالبكاء إنه أواه حليم

منيب وخر إسماعيل ساجدا لله رب العالمين .

ووقف إبراهيم مستقبلا بيت الله وأمامه باب الكعبة وعن يساره زمزم وخلفه اصطف المؤمنون كملائكة أطهار ، وجعل يدعو الله وهم يرددون الدعاء بعده ، ثم أعلن نية الطواف سبعة أشواط حول البيت .

واستلم الحجر الأسود وفعلوا جميعا مثله ، كانوا يعاهدون الله على التوبة ويسألونه المغفرة وألا يحمل عليهم إصرا كما حمله على الذين من قبلهم ، وأن يغلق دونهم أبواب العذاب .

وأتوا إلى الصفا ووقفوا فوقه كما وقفت هاجر يوم نفد الماء تستقبل الوادى تنظر هل ترى أحدا ، ونووا السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط كما فعلت فى ذلك اليوم الذى أنعم الله عليها وعلى ابنها ببئر زمزم .

كانت هاجر منفعلة غاية الانفعال إذ غمرها الله بأنعمه وكرمه ، أخرجها من الظلمات إلى النور وهداها سواء السبيل ووهب لها إسماعيل وجعلها بركة يوم جاد عليهم بزمزم وكان لها شرف المشاركة فى بناء بيته المحرم ، وما خطر لها على قلب أن يجعل سعيها بين الصفا والمروة من شعائر الله ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

إن الله اصطفاها لإبراهيم دون نساء العالمين ، وأمر رسوله أن يسكنها هى وإسماعيل عند بيته المحرم وأن يتركها إلى الله عز وجل ، فوثقت بالله وقالت حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ .

وصار سعى هاجر بين الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر

عليم . كانت هاجر مؤمنة عميقة الإيمان شاكرة لأنعم الله فجزاها الله خير الجزاء ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟

وكان الساميون كلما التفتوا إلى البيت قالوا فى فرح فياض :

— بكة .. بكة .

أى البيت البيت ، فقد كانت بكة تطلق على البيت فى لغتهم السامية الأولى ، وقد أطلقوا على بيت البعل بعلبك ، وعرفت المدينة التى تكونت حول بيت الله ببكة ، بالبيت المبارك ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾

وفى اليوم الثامن من الشهر الذى أطلق عليه ذو الحجة منذ أمر الله إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج خرج إبراهيم بالحجيج إلى منى ، ونصبت الخيام هناك فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات بهم حتى أصبح فصلى بهم صلاة الفجر ، ثم غدا بهم إلى عرفة فقال بهم هناك ، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة وأخذوا يدعون ويبتهلون ويقولون :

— لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حى لا يموت .

وهبطت الشمس تغوص فى الأفق البعيد وهاجر وإسماعيل يبتهلان إلى الله أن يتم نعمته عليهما وأن يتقبل منهما : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ ، ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا

سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ . ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وراح إبراهيم يناجى ربه :

— ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وغابت الشمس فدفع إبراهيم بمن معه إلى المزدلفة فنزلوا هناك ، وكان القمر فى ليلته العاشرة ينشر ضياءه على الصحراء المترامية فينبعث فى الكون سحرا ، وكان الهواء يهب رخاء فينعش النفوس ، وكانت أفئدة الحجاج مشرقة بنور ربها . قد كانت لهم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه .

ونام إبراهيم ورأى فى المنام أنه يذبح إسماعيل فهب من نومه مفزوعا وراح يفكر فى ذلك البلاء العظيم ، إنه رأى فى المنام أنه يذبح ابنه ورؤيا الأنبياء صدق ، وحى من الله . إن السفراويميين يقدمون أبكار أبنائهم قربانا إلى آلهتهم ، إلى صنم من الأصنام ، أيكون إيمان الوثنى بصنمه أعمق من إيمان إبراهيم برب السماوات والأرض رب العالمين ؟

وتذكر ذلك اليوم الذى كان مهاجرا فيه من أور إلى حاران ، يوم مر بسفروايم وكان معه أبوه ، فرأى رجلا يتقرب إلى سين بذبح ابنه البكر ثم إحراقه قربانا على مذبح إلهه . وإنه ليرى فى هذه اللحظة نظرة آزر إليه : أتذبح ابنك البكر لإلهك تقربا إليه وزلفى كما يفعل ذلك المؤمن بآلهتنا ؟ لم يكن له ولد فى ذلك الوقت ، لم يكن قد رأى إسماعيل و لم يكن قد شغف به حبا . قال يومها فى بساطة إنه ليفعل لو كان له ولد وأمره الله بذبحه ، ولكنه يحس اللحظة أن الأمر ليس هينا . إن نارا تسرى

فى أحشائه وخناجر تمزق قلبه وروحه تفيض من الدمع ويجثم عليها حزن أقسى من لسع النار ووخز الخناجر .

أمره الله أن يقدم ابنه البكر قربانا له ، وقد رأى الكنعانيين من حوله يذبحون أبكار أبنائهم لبعل وغيره من آلهتهم التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا . أيضن هو على الله الملك الحق بابنه بينا لا يضن من كانوا فى الضلالة على آلهتهم التى ينحتونها بأيديهم بفلذات أكبادهم ؟

أيكون حب السفروايميين والكنعانيين لأصنامهم أشد من حبه لربه العظيم ؟ أيكون إيمانهم بما ينحتون أشد من إيمانه بالله الذى هداه سواء السبيل ، من أمر النار أن تكون بردا وسلاما عليه واتخذه خليلا ؟ إن إيمانه بالله ليس له حدود . إنه ليصدع بما يأمره الله به أيا كان ذلك الأمر ، فإن كانت حكمة الله تجل عن عقله فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

وأصبح وهو حزين وإن عزم على أن يذبح ابنه البكر إسماعيل قربانا إلى الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . وصلى بالناس الفجر كأعجل ما يصلى أحد من الناس ثم أفاض بالناس إلى منى .

ونظر إبراهيم فإذا جبل ثبير فدنا من إسماعيل وقال :

— يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى هذا الشعب لنحطب أهلك منه .

وانطلق إبراهيم وهو واله حزين تكاد كبده أن تنفطر وغص حلقه ونزل بروحه حزن ثقيل ، ودنا منه رجل وقال :

— أين تريد أيها الشيخ ؟

فالتفت إبراهيم إلى جبل ثبير وقال :

— أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه .

— والله إنى لأرى الشيطان جاءك فى منامك فأمرك بذبح بنيك هذا فأنت تريد ذبحه .

وعرفه إبراهيم فقال له :

— إليك عنى أى عدو الله فوالله لأمضين لأمر ربى .

ورجمه بسبع حصيات حتى ذهب .

ويئس عدو الله إبليس من إبراهيم فذهب إلى إسماعيل فاعترضه وهو وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة فقال له :

— هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟

— يحطب أهلنا من هذا الشعب .

— والله ما يريد إلا أن يذبحك .

— لم ؟

— زعم أن ربه أمره بذلك .

فقال إسماعيل فى إيمان :

— فليفعل ما أمره به ربه ، فسمعا وطاعة .

ورجمه بسبع حصيات حتى ذهب .

فذهب إلى هاجر وقال لها :

— يا أم إسماعيل هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل ؟

— ذهب به يحطبنا من هذا الشعب .

— ما ذهب به إلا ليذبحه .

— كلا هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك .

— إنه يزعم أن الله أمره بذلك .

ـــ إن كان ربه أمره بذلك فتسليما لأمر الله .

ولم يذهب إلا بعد أن رجمته بسبع حصيات .

وانطلق إبراهيم إلى ثبير واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم فلما خلا بابنه فى الشعب قال وهو يكاد ينوء من الحزن :

ـــ ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ .

قال إسماعيل :

ـــ ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ .

ووقف إبراهيم وقد شرد بصره وخفق قلبه بين جنبيه فى شدة يستجمع كل إيمانه ويستعين بالله على ذلك البلاء العظيم ، فالأرض تزلزل تحت قدميه والجبال تتراقص ومِنًى يخيم عليها وجوم ، وقال إسماعيل :

ـــ يا أبت إن أردت ذبحى فاشدد رباطى لا يصبك منى شيء فينقص أجرى ، فإن الموت شديد وإنى لا آمن أن أضطرب عنده إذا وجدت مسه ، واشحذ شفرتك حتى تجهز علّى فتريحنى .

وإذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فكبنى لوجهى على جبينى ولا تضجعنى لشقى ، فإنى أخشى إن أنت نظرت فى وجهى أن تدركك رأفة تحول بينك وبين أمر الله فىّ . وإن رأيت أن ترد قميصى على أمى فإنه عسى أن يكون هذا أسلى لها عنى فافعل .

وكان إبراهيم يصغى إلى إسماعيل وهو فى ذهول ، فلم يجزع إسماعيل ولم يبك أبناءه بل هو يخاف أن ينقص أجره ، يخاف أن تدرك أباه رأفة فينكص عن أمر الله إن إسماعيل صابر لأمر ربه ، فقال إبراهيم :

ـــ نعم العون أنت يا بنى على أمر الله .

فلما أسلما وتلّه للجبين. ناداه ربه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا إنا

كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفداه الله بذبح عظيم .

فأكب إبراهيم على إسماعيل يقبله والدموع تغسل لحيته ويقول :

— يا بنى اليوم وهبت لى .

سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين .

٢١

عاد الناس إلى بكة يستلمون الحجر الأسود ويطوفون ويصلـون ويركعون ويسجدون وجلس إبراهيم يرقب إسماعيل فى حب شديد وإن قلبه ليخفق حنانا ويمتلىء زهوا به ، فقد صبر لبلاء الله صبر الصالحين . ورن فى أذنيه صوت ابنه وهو يقول : « يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » ، فانهمرت الدموع من عينى إبراهيم وراح يفكر فيما ابتلاه الله به منذ كان شابا فى أور ، ابتلاه بمردوخ وكان قومه يرمزون إليه بكوكب المشترى ، فلما جن عليه ورآه قال هذا ربى ، ولم يكن قومه وحدهم الذين ظنوا الكواكب أربابا اعتقد المصريون أن نجم الكلب روح إيزيس وأن الجبار روح حوريس ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

وابتلاه بالقمر ، أطلق عليه أهله فى أور اسم « نانا » ، وأطلقوا عليه فى بلاد ما بين النهرين وسورية وسيناء اسم « سين » . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

وابتلاه الله بالشمس وكان قومه يعبدونها وأطلقوا عليها « شماس » ولم يكن قومه وحدهم الذين عبدوا الشمس بل عبدها السوريون ، وعبدها المصريون باسم « رع » وباسم حور الأفق ، وعبدها الناس فى كل مكان بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

ابتلاه الله بالكوكب وبالقمر وبالشمس ، بالعبادات التى كان عليها قومه فتبرأ منها جميعا واهتدى إلى ربه رب السماء والأرض رب العالمين .

وابتلاه الله بقومه . كاد أصنامهم ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ وأججوا النيران وأتوا به لعله يكفر بإلهه الذى يدعو إليه قبل أن يلقوا به فى النار . ابتلاه الله فصبر على بلاء الله ، وألقوا به فى النار ولم يتخل عنه ربه وقال يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلهم ربه الأخسرين .

وابتلاه الله بالهجرة بترك أور إلى حاران وبالخروج من حاران إلى الشأم وبالهبوط من الشأم إلى مصر ثم بالعودة من مصر إلى أرض الكنعانيين ومن أرض الكنعانيين إلى الجنوب إلى أرض الحجاز ، إنه فى سياحة روحية دائمة ، فقد هاجر إلى ربه وصبر على بلاء الله صبر الصالحين .

وابتلاه ربه بأن قال له إنى جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين .

أن يجعله الله إماما إن فى ذلك لبلاء مبين ، فلا يستطيع أن ينهض بالإمامة الحقة إلا أولو العزم من لا يضطرب فى أيديهم ميزان العدل ، من القوى عندهم ضعيف حتى يأخذوا الحق منه ومن الضعيف عندهم قوى حتى يأخذوا الحق له ، من يكون للناس مثلا وقدرة . وكان إبراهيم خير

إمام .. ولقد اصطفاه الله فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .

وابتلاه ربه بأن جعل البيت مثابة للناس وأمنا فراح هو وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت ويدعوان الله : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وابتلاه ربه بأن عهد إليه وإلى إسماعيل أن يطهرا بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، فطهرا البيت وأراهما الله مناسكهما وتاب عليهما إنه هو العزيز الحكيم .

وابتلاه ربه بالبلاء المبين فأمره أن يذبح ابنه .. ابنه الذى كان يقف فى المحراب فى حاران وفى دمشق وفى بيت إيل وفى مصر وفى حبرون يدعو الله أن يهبه له ، ابنه الذى استمع الله لدعائه فيه ووهبه له على الكبر وسماه « إسماعيل » ، ابنه الذى ملأ حياته بهجة وسرورا ، ولكن أيكون ابنه أحب إليه من ربه ؟ أيخسر دنياه وآخرته ليبقى على ابنه الحبيب ؟ أيعصى أمر ربه ويضن به على من وهبه له ووهب له من بعده إسحاق ؟ أيستطيع أن يهب ابنه الحياة إن أراد الله أن يقبض روحه ؟ إنها إرادة الله ولا راد لقضائه .

أيذبح ابنه بيده ؟ أيكبه لوجهه على جبينه ؟ أيتله للجبين ويضع الشفرة على عنقه ثم يجذبها جذبة واحدة فإذا إسماعيل فى الغابرين ؟ إن القلب ليتمزق أسى وإن النار لترعى فى الحشا وإن الأنفاس لتختنق فى

الحلقوم وإن الصدر ليئن كأنما حطت فوقه أثقال الدنيا وإن الدموع لتتحجر فى العيون وإن الروح لفى كرب شديد ، ولكن الله أمر وما كان إبراهيم ليعصى أمر ربه وإن كان ذلك الأمر أن يستل بيده روح أحب من على وجه الأرض طرا إلى قلبه .

وفدى الله إسماعيل بذبح عظيم والله أرأف بعباده من أنفسهم . أراد الله أن ينسخ عادة تقرب الناس إليه بذبح أبكار أبنائهم ، وأن يختبر إيمان إبراهيم الاختبار الأخير ، أن يبلوه البلاء المبين .

ففى اليوم العاشر من ذى الحجة صلى إبراهيم الفجر فى منى وخرج إلى شعب ثبير امتثالا لأمر الله ، فاعترضه إبليس ليصده عن طاعة ربه .

وقد رجم إبليس ثلاث مرات ، رجمه فى كل مرة بسبع حصيات ، وسيأتى المسلمون من بعد ليرجموه كما رجمه أبوهم إبراهيم .

وصار الرجم من شعائر الحج تشترك فيه اليد مع الروح ، وما من شريعة من شرائع الإسلام إلا ويشترك فيها الجسد والروح تعظيما للجسد ليرفع العنصر الهابط إلى ملكوت السماء ، وليكون له شرف المشاركة فى عبادة العظيم المتعال .

وصار ثبير مكانا مقدسا . انطلق إليه إبراهيم وإسماعيل ليذبح ابنه تصديقا للرؤيا التى رآها ، وخاطب الله فيه إبراهيم فقال يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، وفدى إسماعيل بذبح عظيم .

وليأتين الحجاج إلى ثبير ، إلى البقعة المقدسة التى نادى الله فيها إبراهيم ، حتى الحجاج فى الجاهلية قد أتوا إليه تعظيما لشأنه ، ففيه فدى الله أباهم إسماعيل بذبح عظيم .

وكان إسماعيل بركة على البشرية جمعاء فقد وضح أن الله لا يقر ذبح

أبكار الناس وأنهم يستطيعون أن يتقربوا إليه بكبش أو بأضحية أخرى ، ولن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم .

وصار المسلمون فى العاشر من ذى الحجة بعد صلاة الفجر ينحرون لله فداء لأنفسهم وذرياتهم ويأكلون من الأضحية ويطعمون البائس االفقير أسوة بما فعله أبوهم إبراهيم .

لقد تاب إبراهيم إلى ربه ، وعبده حق عبادته وحمده فى الغدو والآصال ، وساح فى الأرض يدعو إلى الله ، وركع لله وسجد له ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وحفظ حدود الله : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ .

أسلم إبراهيم وجهه لله وآمن بالله وباليوم الآخر و ﴿ كان أمة قانتا لله حنيفا و لم يك من المشركين ﴾ وكان صادقا بل صديقا لم يكذب على الله أبدا لا فى ذات الله ولا فى نفسه : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ وصبر على ما ابتلاه الله به صبر الصالحين الأخيار وخشع قلبه وعنت جبهته للواحد القهار . وكانت كفه كالريح المرسلة فهو أبو الضيفان وأبو المتصدقين ، وكان ينذر للرحمن صوما فيصوم ما شاء الله له أن يصوم وإن كان يذبح للضيف كل يوم وكل ليلة وفى كل آن .

تزوج سارة وأبى وهو شاب أن يتخذ جارية لتنجب له ذرية ، حتى إذا صار شيخا وأمره الله أن يتزوج هاجر أطاع أمر الله . لقد كانت الفاحشة منتشرة فى أرجاء الأرض والعاهرات المقدسات فى معابد عشتار وباسنت وفى كل مكان ، ولكنه تعفف ونأى بنفسه عن الدنس الذى كان يفخر به عصره .

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

وذهب النهار وانحدرت الشمس وراء جبال بكة وسقط الظلام على الوادى والناس يطوفون حول البيت ويركعون ويسجدون ، ووقف إبراهيم فى مقامه أمام الكعبة وراح يتلو : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج الحىَّ من الميت ويخرج الميت من الحىِّ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ .

﴿ وإبراهيم الذى وفَّى ﴾ .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ .

٢٢

تأهب خليل الرحمن لمغادرة بكة بعد أن انقضى موسم الحج وعاد الناس إلى ديارهم ، فقد ترك سارة وإسحاق فى حبرون قبل أن يشد الرحال إلى هاجر وإسماعيل وقبل أن يأمره الله برفع القواعد من بيته المحرم .

وكان قد قطع عهدا مع أبيمالك وتعاهدا على أن يعيشا فى سلام ، أن يكرم أبيمالك وفادة رسول الله وأن ينزله على الرحب والسعة فى أرضه وأن يقسم إبراهيم بربه ألا ينافس أبيمالك فى ملكه وأن يرعى ذريته من بعده .

وكان قد زرع حول بئر سبع أثلا واستقر به المقام فيها ولكن رعاته وعبيده كانوا فى شجار دائم مع عبيد الملك ، فأمر إبراهيم قومه برفع الخيام والعودة إلى حبرون حيث كان رؤساء القبائل يحبونه ويبجلونه ويلتمسون منه البركة .

وأكرم الله هاجر وإسماعيل يوم أمره أن يسكنهما بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، ولم يكن هناك أنيس بل كانت الأرض لله لم يورثها بعد لأحد من عباده . وفجر لهما بئر زمزم . فجر لهما الحياة فهرع الناس إليهما يلتمسون النزول عندهما .

وكانت البئر لهاجر وإسماعيل .. كانا يملكان عصب الحياة فكانا أساس العمران الذى بدأ يتكون حول بيت الله .

ونظر خليل الرحمن إلى سفوح الجبال فرأى البيوت قامت عليها ونصبت الخيام وبدأت تتكون مدينة بكة . إنها مدينة مباركة يذكر فيها اسم الله فى الغدو والآصال وفى آناء الليل وأطراف النهار ، إن هذه المدينة تنتشر ببركة هاجر وابنها إسماعيل .

إن إسماعيل يشب زعيما بين قومه ، إنه صادق الوعد من الأخيار ويعيش مع أمه آمنا فى حرم الله لا يخشى أن يعتدى عليه أحد فقد حرم الله الاعتداء حول بيته ، إنها مدينة محرمة يأمن فيها الناس والحيوان والطير ، يأمن فيها كل من تتردد بين جنباته روح .

ولو مال خليل الرحمن مع هواه لحمل سارة وإسحاق وقومه إلى بيت الله ولأمضى سحابة نهاره وسواد ليله فى التهجد والعبادة ، ولكن الله وعده أن يورث ذريته مشارق الأرض ومغاربها وأن يجعل فيهم الحكمة والكتاب . وقد تحقق وعد الله فى بكة فورث هاجر وإسماعيل الأرض المباركة لا ينازعهما فيها منازع ، وستنتشر ذرية إسماعيل فى هذه البطاح . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون .

أما ابنه الآخر فلا يزال غريبا فى الأرض يسيح بين بيت إيل وبئر سبع وقادش وشور وحبرون ، لا يملك أرضا و لم يبن بعد بيتا لله العلى القدير يصلى فى محرابه ، بينا بيوت آلهة الوثنيين فارهة سامقة تشهد أن الضلالة لا تزال شامخة فى الأرض ، إن الأرض يرثها عباد الرحمن الصالحون .

ووقعت عينا خليل الرحمن على هاجر وهى تنظر إلى بيت الله وقد تعلقت فيه كل آمالها ؛ كانت مهيبة تعرف فى وجهها نضرة النعيم وتشع روحها نورا تتفتح له القلوب . لقد رأى خليل الرحمن ملوك بابل وحاران وجيرار ومصر ولكنه لم ير فى أى منهم ذلك الجلال الذى أسبغه

الله على أم إسماعيل .

وودع خليل الرحمن هاجر وإسماعيل وزوجه وبنيه وطاف بالبيت طواف الوداع ، ثم امتطى راحلته وخرج فى القافلة المنطلقة إلى الشام ليعود إلى حبرون ، وكان فى شوق شديد إلى سارة وإسحاق .

ليقصنّ على سارة ما رآه فى المنام من ذبح إسماعيل وكيف أن الله ناداه فى ثبير وفداه بذبح عظيم ، وليقصن عليها خبر البيت وكيف أمره الله أن يطهر بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وكيف أمره أن يؤذن فى الناس بالحج وكيف أتوا رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق .

إن أحداثا جليلة قد وقعت منذ غادر سارة إلى حيث أسكن هاجر وإسماعيل قد تكون أجل الأحداث التى وقعت فى حياة من اتخذه الله خليلا ، لقد شاركته سارة كل حياته وهى تشاركه ذكرياته ، فهو يحدثها بين الحين والحين عن جده ناحور وعن أبيه آزر وعن أمه إيمتالى وعن عمه هاران وعن أخيه ناحور . وإنه ليذكرها بما كان بينه وبين النمروذ ، وإنها لتذكر له كيفَ آمنت له وخرجت معه مهاجرة إلى ربها .

إن ذكريات السنين تشد أحدهما إلى الآخر ، أيام حاران ولياليها ، حروب دمشق ، أول محراب بناه إبراهيم لله العلى القدير ، هجوم جنود المصريين عليهم بالليل ، أسر سارة وهبوط إبراهيم إلى مصر ، عودتهما بهاجر وكيف كانت هاجر خيرا وبركة على إبراهيم وأهل بيته فأنجبت له إسماعيل ثم بشر الله سارة بإسحاق .

إن الذكريات التى تربط خليل الرحمن بسارة ذكريات غالية نابضة بالحياة والبركة . إنها قصة أروع كفاح شهدته البشرية ، كفاح فرد آمن بالله الواحد القهار فوقف فى وجه العالم يجلو حقيقة التوحيد فى الأرض

وقد نجح فى رسالته ووفّى ما أمره الله به .

لقد عرف خليل الرحمن قبل أن يغادر حبرون إلى بكة أن ملكة زوجة أخيه ناحور أنجبت ثمانية وأن بتوئيل بن ناحور أنجب رفقة وأن رفقة شبت فى حاران جميلة وديعة ، ففكر أن يبعث إليعازر الدمشقى إلى حاران ليخطبها لإسحاق .

وسوف تسر سارة وتتهلل بالفرح عندما يقول لها إبراهيم إن ابنهما إسحاق سيتزوج رفقة ابنة عمه ناحور ، فأمنية سارة أن ترى إسحاق زوجا يملأ الدنيا ذرية صالحة ليتحقق وعد الله ، وقد كانت سارة تحب ملكة وإن كانت ملكة وناحور قد أبيا أن يهاجرا مع إبراهيم إلى حيث لا يعلمان .

كان إبراهيم بارا بأهله ، فلئن كان فى سياحة روحية يجوب المشارق والمغارب إنه كان يتنسم أخبار أخيه . ولم يهمل إبراهيم هاجر وإسماعيل بعد أن أسكنهما عند بيت الله الحرام بل كان يهدف دائما إلى ربط أواصر الأسرة . ولئن كانت سارة وإسحاق لم يحجا هذه السنة إنه سيحملهما فى العام القابل إلى بيت الله ليؤديا شعائر الله . وقد زاره إسماعيل مرات فى حبرون وفى بيت إيل وعانق إسماعيل إسحاق فى حب شديد حتى إن سارة تأثرت بذلك اللقاء وانهمرت من عينيها الدموع .

وخيل إليه أنه يصغى إلى ترتيل سارة فى صحفه المطهرة ، صحفه التى أنزلها عليه الله ، ولهف صوتها عذب ندى كترتيل الملائكة يمس شغاف القلوب ويبلل الروح بالعبرات .

إن صوتها يسرى فى سكون الليل أشجى من المزامير ويتغلغل فى سويداء النفوس فيبعث الخشية فى الوجدان ويطلق الأرواح لتهيم فى نور

الله ترشف رحيق الحكمة الغالية .

إنه فى شوق إليها ، فى شوق إلى أن يصغى إلى صلاتها ، فى شوق إلى أن يلقى إليها السمع وهى تناجى ربها وتبتهل إليه أن يغفر لها ويتقبل منها إنه هو السميع العليم .

ولاحت له أرباض حبرون — و لم تكن قد نسبت إليه بعد و لم تعرف بعد باسم الخليل — فخفق قلبه رهبة . فما أكثر ما سافر وجاب الآفاق وما أكثر ما عاد بعد سفره إلى خيامه وأهله ، ولكنه لم يحس أبدا ما يحسه فى هذه العودة فقلبه يخفق فى حزن وصدره يضيق وهامس يهمس فى أغواره أن خطبا جللا نزل بأهله . ترى ما الذى حل بأسرته التى تركها وهى آمنة فى كنف الله ؟

وأسرع إلى خيامه فنزل عن راحلته وراح يتلفت فهرع إليه الرجال والعبيد ولكن وجوههم كانت باسرة . وتقدم إبراهيم إلى إليعازر الدمشقى وقال :

— ماذا هناك ؟

و لم يستطع إليعازر أن يتجلد فأجهش بالبكاء وقال والعبرات تخنقه :

— ماتت سارة .

فأحس خليل الرحمن أنه يتمزق ، وهرع إلى خيمته وفتحها فإذا بسارة مسجاة أكب عليها إسحاق يبكى وينتحب . و لم يستطع إبراهيم أن يكتم حزنه فراح يبكى سارة التى آمنت له يوم كفر به الناس وواسته يوم أعرض عنه الناس وضمدت جروح نفسه يوم سددت إليه الطعنات . إنه يرى أحب الناس إليه فارقت الحياة ، أمست سارة جثة هامدة ، أضحت ذكرى كأيام أور وحاران ومصر .

وراح إبراهيم ينظر إلى سارة وفى حلقه وقدة من نار ثم قال :

ـــ إنا يا سارة عليك لمحزونون ، العين تدمع والقلب لا يقول إلا خيرا ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وطاف بذهنه أن يحملها إلى أور ليدفنها إلى جوار أمه إيمتالى أو يحملها إلى حاران ليدفنها إلى جوار أبيه آزر ، ولكنه أعرض عن هذا . فليدفننها فى حبرون حيث فاضت روحها فالأرض كلها لله .

وقام إلى بنى حث ، إلى الناس الذين نزل بينهم وكانت بينه وبينهم مودة ، وكانوا مجتمعين لما بلغهم موت سارة فقال لهم :

ـــ أريد أن أشترى قبرا أدفن فيه سارة .

فقالوا له فى إيمان :

ـــ قبورنا كلها لك يا رسول الله اختر منها ما تشاء .

فشكر لهم إبراهيم وقال :

ـــ التمسوا لى من عفرون بن صومر أن يبيعنى مغارة الكفيلة التى له فى طرف حقله .

وكان عفرون بين المجتمعين فقال :

ـــ إنها لك يا رسول الله ، هى والحقل لله ولرسوله .

ولم يقبل خليل الرحمن أن يقبلها هدية بل قال :

ـــ شكرا لك يا عفرون ، لا بد أن أدفع ثمن الحقل فإنى لا أدفن سارة فى قبر لا أملكه ، فى قبر لم أدفع ثمنه .

قال عفرون :

ـــ إنى رضيت أن أبيعك الحقل بأربعمائة شاقل من الفضة .

ووزن خليل الرحمن لعفرون الفضة التى طلبها وأعطاه إياها على مرأى

ومسمع من القوم . وقبرت سارة فى مغارة الكفيلة ووقف على قبرها إبراهيم وإسحاق وإليعازر الدمشقى والمؤمنون يبكون السيدة الجليلة التى كانت أول من آمن بالله ورسوله ، والتى كانت القلوب تخشع لصوتها إذا قامت للصلاة أو قرأت فى صحف خليل الرحمن .

٢٣

بعث إبراهيم إلى إليعازر الدمشقى وكيل بيته الذى كانت فى يده أموال إبراهيم وعبيده ومواشيه وقال له :

ـــ أستحلفك برب السماوات والأرض ألا تتخذ لإسحاق زوجة من بنات الكنعانيين .

ـــ ومن أين تريد أن أتخذ له زوجة يا رسول الله ؟

ـــ من أهلى . من عشيرتى . من قومى .

ـــ وإن رفضت المرأة أن تخرج معى إلى هنا ، آآخذ سيدى إسحاق معى وننطلق إلى حاران ؟

خلف موت سارة فراغا فى حياة الشيخ وترك بُعد هاجر وإسماعيل عنه وحشة فى نفسه . إن إسحاق أنيسه فى حياته وقد بات لا يحتمل فراقه ، وإن الله وعده أن يورث هذه الأرض إسحاق وذريته ، فإن ذهب إسحاق إلى حاران فقد يستقر هناك مع زوجه وأهلها .

إنه احتمل أن يسكن هاجر وإسماعيل عند بيت الله المحرم وأن يبقى هو وإسحاق فى أرض الكنعانيين ليكون لذريته من بعده المشارق والمغارب . إنه احتمل أن يكون مشتتا بين أرض الحجاز وبين حبرون ليتم الله وعده إن وعد الله كان مأتيا .

قال خليل الرحمن لإليعازر :

ـــ إياك أن تذهب بإسحاق إلى هناك . إن الله الذى أخرجنى من

دياري وأوحى إليّ ما أوحى ووعدني أن يجعل في ذريتي الحكمة والكتاب وأن يورث ذريتي مشارق الأرض ومغاربها لقادر على أن يهديك إلى زوجة إسحاق .

أقسم برب السماوات والأرض ألا تعود بابني إلى هناك .

فقال إليعازر :

ـــ أقسم برب السماوات والأرض ألا أعود بإسحاق إلى أرض أهله .

واطمأن قلب إبراهيم فقد كان يخشى أن يموت فيعود إليعازر بإسحاق إلى حاران ليزوجه في أهله تنفيذا لوصية خليل الرحمن .

لقد وعد الله أن يورث الأرض عباده الصالحين . إن أرض الحجاز وما حولها لإسماعيل وذريته ما داموا صالحين ، وأرض الكنعانيين وما حولها لإسحاق وذريته ما داموا صالحين . إن الله لا يميز شعبا على شعب ولا ذرية على ذرية إلا بالتقوى والصلاح . قال الله تعالى لإبراهيم من اتخذه ربه خليلا : « إني جاعلك للناس إماما » قال إبراهيم : « ومن ذريتي ؟ » قال الله : « لا ينال عهدي الظالمين » .

وخرجت قافلة إليعازر من حبرون وكانت عشرة من الإبل حملت بالزاد والهدايا ، وانطلق إليعازر مولى إبراهيم إلى بلاد ما بين النهرين ، إلى البلاد التي خرج منها إبراهيم شابا ليسيح في الأرض يدعو الناس إلى الهدى والرشاد .

وانسابت القافلة في أرض حاران وكانت أبراج معابد « سين » فارهة في السماء وعيون الماء تنتشر هنا وهناك والمروج الخضر تمتد على مدى البصر .

ودخل إليعازر أبواب مدينة ناحور وقد أرخى الليل سدوله وجاءت الفتيات إلى بئر الماء يحملن جرارهن على عواتقهن ، فأناخ الإبل بالقرب من البئر وشخص ببصره إلى السماء وقال :

— يا رب ! يا رب مولاى إبراهيم ورب الناس أجمعين ، يسر لى أمرى واهدنى إلى من اخترتها زوجة لسيدى إسحاق .

يا رب ! ها هن بنات أهل مولاى آتيات بجرارهن ، فلتكن التى أقول لها : أميلى جرتك لأشرب فتقول لى : اشرب وأنا أسقى إبلك هى التى اصطفيتها لعبدك إسحاق .

وذهب إليعازر إلى فتاة حلوة جذابة وقال لها :

— اسقنى يا بنيتى .

فأعرضت الفتاة عنه وسارت فى طريقها لا تلتفت إليه كأنما لم تسمعه . ورأى فتاة رقيقة يخطف حسنها الأبصار تهبط فى درج البئر فى خفة الأطياف وتملأ جرتها ، فخف إليها وقال :

— اسقنى جرعة ماء .

فأشرق وجه الفتاة بابتسامة رقيقة وقالت :

— اشرب هنيئا يا سيدى .

ما ألطفك وأرقك أيتها الفتاة ! ليتك تكونين التى اختارها الله لسيدى إسحاق ! تفتحت نفس إليعازر لها وأرهفت حواسه قبل أن يُرهَف سمعه ، وفتحت الفتاة فاها عن لؤلؤ نضيد وقالت :

— اشرب حتى أسقى جمالك .

يا ألله ! أتكون هى التى اصطفاها رب مولاه إبراهيم لابن مولاه إسحاق .

(هاجر المصرية)

يا رب ! نورا فى قلبى حتى أهتدى إلى ما تريد ، يا رب ! أريد اليقين حتى لا يكون ما جرى إن هو إلا نزغ من الشيطان .

وراحت الفتاة تغدو وتروح بين البئر والمسقاة حتى إذا فرغت من سقاية الإبل عادت إلى إليعازر مشرقة الوجه متهللة الأسارير فقال لها :

— ما اسمك يا بنيتى ؟

— رفقة .

— بنت من أنت ؟

— بنت بتوئيل ابن ملكة الذى ولدته لناحور .

وخفق قلب إليعازر وتهلل بالفرح فقد هداه الله إلى حفيدة ناحور أخى مولاه إبراهيم .

— هل فى بيت أبيك مكان لنا لنبيت ؟

— عندنا مكان لتبيتوا فيه وعندنا علف وتبن كثير . انتظر هنا حتى أخبر أهلى ونهيئ لكم مكانا .

وانقلبت رفقة إلى أهلها ، وخر إليعازر ساجدا لله أن هداه إلى بيت ناحور وإلى حفيدته رفقة ، إن الله أكرمه إكراما لخليله وإكراما لسيده إسحاق .

وبقى إليعازر ورجاله وإبله إلى جوار البئر حتى جاء لابان أخو رفقة وقال :

— تفضل إنا هيأنا البيت ، ادخلوا على الرحب والسعة .

ودخل الرجال البيت وقدم إليهم الماء ليأخذوا زينتهم ، ثم قدم إليهم الطعام وكانت رفقة وأهل البيت يخدمونهم .

وسيقت الإبل إلى حيث تبيت وقدم لها العلف والتبن ، وأسلم

الرجال والعبيد جنوبهم للأرض فراحوا فى سبات ، ودخل إليعازر مع لابان ورفقة وأهل بيتهما ليتحدث فى الأمر الذى جاء من أجله .

قص إليعازر قصته قال إنه مولى إبراهيم رسول الله وأن ربه قد وسع الله عليه فى الرزق فأغناه ، وأن خزائنه تفيض بالذهب والفضة وعبيده لا يحصيها العد ومواشيه وغنمه وجماله وحميره ترعى فى أرض الله كأنها جراد منتشر ، وقد وهب الله لإبراهيم وهو شيخ وسارة وهى عجوز عقيم غلاما زكيا هو سيدى إسحاق ، وقد أمرنى مولاى أن أخرج إلى أهله لأختار لسيدى إسحاق زوجة ، وقد هدانى الله إلى بيت ناحور أخى مولاى إن هذا من فضل الله وإن الله لذو فضل عظيم .

والتفت إلى أهل بيت ناحور وقال :

ـــ والآن أريد أن أعرف رأيكم فى زواج سيدتى رفقة من سيدى إسحاق .

وكانت ملكة قد آمنت برسالة إبراهيم ورب إبراهيم ، فقد آمن بها أبوها ناحور ولكنه أبى أن يهاجر معه واستقر فى أرض أجداده ، وقد دعت ابنها بتوئيل كما دعا إبراهيم ابنه إسماعيل نسبة إلى إيل ، الله العظيم .

فقال لابان وبتوئيل :

ـــ ليست لنا إرادة بعد إرادة الله ، الله أمر وعلينا أن نصدع لما يأمر به إن الله فعال لما يريد ، ها هى ذى رفقة فخذها وزوِّجها لإسحاق تنفيذا لأمر الله بارك الله لكم فيها .

فخر إليعازر شكرا لله على أن وفقه فى سفارته ، على أن هداه إلى رفقة التى اصطفاها لإسحاق ، إن الله يفعل ما يشاء ويصطفى من يريد . اصطفى هاجر لإبراهيم لتكون أما للعرب واصطفى رفقة لإسحاق

لتكون أما ليعقوب ، أما لبنى إسرائيل .

وأهدى إليعازر إلى رفقة آنية فضة وآنية ذهب وثيابا ، ووضع فى أنفها خزامة ذهب وزنها نصف شاقل ، ولف حول معصمها سوارين من الذهب ، وأهدى إلى ملكة ولابان وبتوئيل هدايا فاخرة .

وأحس إليعازر رغبة أن يطير إلى حبرون وأن يقول لمولاه خليل الرحمن إن الله أكرمه وهداه إلى بيت أخيه ، وأنه جاء برفقة لتكون زوجة لإسحاق وأن إسحاق لن يعود إلى حاران بل سيبقى فى حبرون ليرث مشارق الأرض ومغاربها مع أخيه إسماعيل فقال لأهل رفقة :

— جهزوا رفقة لتعود إلى مولاى إبراهيم .

— تمكث معنا عشرة أيام ثم تذهب معك .

— بالله ابعثوا بى إلى مولاى وقد من الله علىّ بالفلاح .

— ندعو رفقة ونخيرها أتمكث معنا أياما أم تذهب معك الآن .

وجاءت رفقة وخيروها فاختارت أن تنطلق إلى المجهول الساحر الجميل الذى أعده لها الله ليبوئها فى الدنيا حسنة : ﴿ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

وتأهبت رفقة وجاريتها التى أرضعتها وفتياتها للرحيل ، ووقف أهل بيت ناحور يودعونها فكانوا يضمونها إلى صدورهم فى حب ويقبلونها قبلات وداع ويدعون الله أن يبارك ذريتها . ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ .

ووقف إليعازر ينظر وإذا الذكريات تعود به سنين إلى الوراء ، فيرى مولاه إبراهيم وهاجر وابنها الرضيع إسماعيل والقبيلة كلها وقد خرجت تودع الأميرة المصرية التى يحملها زوجها بأمر الله إلى المجهول . إن الله

شرف هاجر يوم أوقعها فى الأسر فاصطفاها لتكون أما للأمة المؤمنة التى تتكون حول بيته المحرم ، الأمة التى بدأت تضيق بها بكة . وقد شرفه الله هو نفسه يوم وقع فى الأسر يوم غزا إبراهيم دمشق فقد عرف الله واهتدى بنوره وهداه الله صراط الذين أنعم عليهم ، وصار وكيل بيت مولاه وجعله على خزائنه .

وقد أوصاه خليل الرحمن أن يتصدق بكل ماله على الفقراء والمساكين يوم يذهب إلى ربه ، إلى الرفيق الأعلى ، فالأنبياء لا يورثون وما يتركونه من بعدهم صدقة وإن تركوا القناطير من الذهب والفضة .

ألا ما أكرم هذا الدين جعل من الإماء أزواجا للرسل وأمهات لخير ذرية ، وجعل العبيد على خزائن أموال المسلمين لا فضل لحر على عبد إلا بالتقوى .

إن مولاه إبراهيم يورث بنيه الحكمة والكتاب ، يورثهم طاعة الله والإيمان . إنه لا يورثهم عرض الحياة بل يورثهم ما عندالله وإلا لجعل إسماعيل على خزائنه ، أو جعل إسحاق يشرف على العبيد والإبل والحمير والأنعام والأغنام وما فى الخزائن من ذهب وفضة .

وركبت رفقة وفتياتها الجمال وانطلقن فى أثر قافلة إليعازر . فلما ابتعدت القافلة عن مدينة ناحور وقبل أن يطبق عليها الأفق حانت من رفقة التفاتة إليها فانهمر الدمع من مقلتيها كاللؤلؤ على خديها .

لقد خرجت سارة من حاران من سنين طويلة مثلما تخرج منها رفقة الآن ، ولكن شتان بين خروج وخروج . كانت سارة مهاجرة لله فرارا من الاضطهاد لإعلاء كلمة الله وتمكن زوجها من إبلاغ رسالات ربه ، أما رفقة فإنها تخرج لأن الله اصطفاها لتكون زوجة لإسحاق وأما

ليعقوب . كانت سارة مقبلة على حياة خشنة ليس لها قرار بينا كانت رفقة ذاهبة للزواج من ابن رسول الله الذى مكن الله له فى الأرض وجعل له مالا ممدودا .

ومرت أيام والقافلة فى طريقها وإذا بشاب جميل أقبل من الجنوب يتألق وجهه بالنور فلما وقعت عينا رفقة عليه لم تقو على أن ترفع عينيها عنه والتفتت إلى إليعازر فألفته يتبسم له فقالت :

ـــ من هذا الشاب المقبل للقائنا ؟

فقال إليعازر وهو ينيخ جمله :

ـــ إنه سيدى إسحاق .

فأسدلت رفقة الخمار على وجهها وأناخت جملها فذهب إسحاق إليها وانطلق بها إلى أبيه . وقص إليعازر على خليل الرحمن قصته وكيف أن الله أكرمه وهداه إلى بيت ناحور . ثم أخذ إسحاق رفقة وذهب بها إلى خباء أمه وغمر القوم سرور وأفعمت القلوب بالبهجة لذلك الزواج المبارك .

٢٤

كان الحمام يطوف حول الكعبة ويسير بين الناس وهو آمن ، فقد كان الناس يطعمونه ولا يمسونه بأذى ما دام فى حمى بيت الله ، وكان أهل التقى يتعبدون فى فناء بيته ، وكانوا فى حرمته طائفين أو راكعين أو ساجدين . وكان بعض الخائفين يلوذون بالحرم مستجيرين فكانوا فى ظل الله آمنين لا يخشون بطشا ولا اعتداء ، فمن يعكر صفاء السلام أو يحدث فى حرم الله حدثا يخرج منه وعليه لعنة الله .

وكانت البيوت قد بنيت من الحجارة على سفوح الجبال التى تحيط بالوادى المقدس إلى جوار خيام الوبر السود ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية إلى الصخور البركانية فتشع الحرارة فتحيل بكة وقت الظهيرة إلى أتون نار .

كان الحر شديدا ولكن الطواف حول الكعبة لم ينقطع ، كان الناس ينسون لسع الأرض لأقدامهم ووخز الشمس لأبدانهم وانبثاق العرق من أجسامهم فى غمرة النشوة الروحية التى تفيض عليهم ، كانوا يستلمون الحجر الأسود بأيديهم وهم على ثقة من أنهم يعاهدون الله عل الطاعة وعلى ألا يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم .

وجلست هاجر فى الحرم وإلى جوارها نابت بن إسماعيل ، وعلى مقربة منها جلست زوجة إسماعيل وحولها أبناؤها قيدار والذيل ومنشا ومسمع ، وكان نابت يكتب على كتف بعير بعض صحف جده ،

وكانت أم الأولاد تعلمهم القراءة والكتابة .

رأى إبراهيم الكتابة المسمارية فى أور ، وكان القوم يصنعون ألواحا من الطين يكتبون عليها بقلم على هيئة المسمار ثم يتركونها تجف ، وعلم ناحور حفيده إبراهيم كيف يكتب مثلما كان قومه يكتبون .

وذهب إبراهيم إلى مصر ورأى كيف يكتب المصريون على ورق البردى ، وخرجت معه من مصر الأميرة المصرية هاجر التى تعلمت الكتابة على أيدى كهنة منف ، فعلمت إسماعيل الكتابة ثم اشتركت فى تعليم أحفادها ، ولم يكن البردى متوفرا فى بكة فراحت تعلمهم الكتابة على الرمل وعلى عظام كتف البعير ورقاق الغزلان .

وانقلب شباب بكة إلى دورهم يحملون ما صادوه من أرانب برية وغزلان وطير ، وجاء شاب إلى إسماعيل يشكو صاحبه قال إنه صاد بعض ما معه من الطير فى الحرم ، فبعث إسماعيل فى طلب الشاب وأنبأه بشكوى صاحبه ، فأقسم الشاب أنه اصطاده خارج الحرم .

ولم تكن هناك حدود تفصل بين الحل والحرم وكان ذلك متروكا لتقدير الناس ، فرأى إسماعيل أن يقيم حدودا فى بكة تحدد حرم الله ليكون الحرام بينا والحلال بينا ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وراح إسماعيل يبين حد الحرم من جهة الطائف على طريق عرفة من بطن نهرة ، وحدّه من جهة العراق ، وحدّه من جهة الجعرانة ، وحدّه من جهة جدة ، وحدّه من طريق التنعيم ، وحدّه من طريق اليمن ، وكانت المسافات بين هذه الحدود والحرم تتراوح بين ستة أميال وثمانية عشر ميلا ، وكان يقيس المسافات بمقاييس أهل بابل بالذراع المقسم إلى أربع وعشرين إصبعا .

كان إسماعيل فارسا رجل قوس وسهام ونبال ، ولكنه كان خلاصة حضارتين عظيمتين بل أعظم حضارتين فى عصره ، حضارة بابل وحضارة مصر ، وكان يعلم أبناءه فى ظل الحرم ما تعلمه من خليل الرحمن وما رشفه من العلم من أمه هاجر التى جاءت من منارة العرفان ، تعلم منها العلم الصحيح الذى تخلص مما فيه من زيف الكهان وتألق بنور الله .

وتاقت نفس إسماعيل إلى زيارة الخليل فقد كانت الأسباب متصلة بين بكة وحبرون ، وقد شد إسماعيل الرحال إلى هناك أكثر من مرة فذهب لتعزية أبيه فى فقد سارة وكان يعلم مكانتها فى قلب أبيه وليكون إلى جوار إسحاق يواسيه ويمسح الحزن عن قلبه الكبير .

وذهب ليهنىء أخاه لما تزوج رفقة بنت بتوئيل ابن عمه ناحور الذى لم يره وكان يسمع من أبيه أنه استقر فى حاران وأبى أن يهاجر إلى ربه مع المهاجرين فى سبيل الله .

كانت رفقة حفيدة عمه الذى سميت البقعة التى نزل بها باسمه فصارت مدينة ناحور ، لقد رآها فى ذلك اليوم الذى ذهب فيه إلى حبرون وكان معه ابنه نابت وكان غلاما قوى الإرادة يجوب مع أبيه الآفاق ويسير فى الأرض ينظر كيف بدأ الخلق وكيف كان عاقبة المجرمين . ومر بسدوم ألا بعدا لسدوم قوم لوط .

رأى إسماعيل رفقة بيد أنه لم ير ابن عمه بتوئيل ، وسألها عن قومها وعما يعبدون فقالت له إن جدها دعا قومه إلى الله بعد رحيل إبراهيم الخليل وإنهم قوم مؤمنون ، وقالت إن أباها يعبد الله وحده لا إله إلا هو وإنه امتلأ بالفرح وسجد لله شكرا لما قال له إليعازر الدمشقى إن الله

اختار ابنته لتكون زوجة لإسحاق ابن خليله وحبيبه إبراهيم .

وتذكر إسماعيل كيف أن أباه تلقى ابنه نابت بترحاب عظيم وقبله فى حب وأجلسه إلى جواره وأبى أن يفارقه ما دام فى حبرون ، وكان نابت سعيدا برفقة جده ، وكان يصلى خلفه كل الأوقات ويلقى إليه السمع إذا دعا ربه أو تحدث إلى المؤمنين .

وذهب إسماعيل كذلك إلى الخليل يوم علم أن الله منَّ على أخيه إسحاق بتوأمين ، وكان إسحاق يقص على أخيه كيف وضعت رفقة العيص ويعقوب . نزل العيص أولا ثم نزل يعقوب فى عقبه ويده قابضة بعقب أخيه وأنه سماه لذلك يعقوب : لقد بشر الله خليله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وكان نزول يعقوب ويده قابضة بعقب أخيه إشارة إلى أنه هو المقصود بالبشارة .

كان إسحاق يفيض بشرا وسرورا ورفقة فى سعادة غامرة فقد اصطفاها الله لتكون أم يعقوب ، وقد لاح فى وجه رفقة الدهش لما قال إسماعيل : إن وهبنى الله أنثى زوجتها العيص .

وضحك إسحاق وإسماعيل وضمت رفقة يعقوب فى حنان إلى صدرها وكان أقرب إلى قلبها من أخيه .

وتذكر إسماعيل أنه اصطحب ابنه قيدار فى تلك الرحلة ورأى بعين خياله كيف كان فرح الخليل بالغلام ، كان يضمه إلى صدره فى إعزاز ويقبله فى حب عميق فقد كان يرى فى ذرية إسماعيل وإسحاق الوارثين الذين وعده الله أن يورثهم الكتاب والحكمة .

وتأهب إسماعيل للرحيل إلى الخليل ، إلى حبرون التى شرفها الله برسوله وهدى قومها للإيمان ، فامتطى جواده وودع أهله وانطلق مع

القافلة الخارجة إلى الشأم .

بدأت بكة تأخذ مكانتها التجارية فصارت محطا للقوافل التى تنقل بضائع الجنوب إلى الشمال وبضائع الشمال إلى الجنوب ، وأصبحت سوقا تموج بالتجار ويتبادل فيها السلع وأخذ أهلوها يهتمون بشئون المال والتجارة .

خرجت القافلة إلى الفضاء العريض وكانت الطرق مفتوحة إلى العراق والشأم وسيناء ، ولم يكن هناك فاصل بين الحجاز وما جاورها من الدول ، وكان الناس أمة واحدة وكان أصلهم واحدا فقد خرجوا جميعا من الجزيرة العربية واستوطنوا العراق والشأم وصحراء سيناء ، وكانوا يتكلمون اللغة العربية وإن اختلفت لهجاتها .

لم تكن العبرية قد نشأت بعد ، فستنشأ العبرية فى كنعان من العربية كما نشأت منها لهجات بابل وآشور وستصبح لغة الكنعانيين وسيأخذها عنهم بنو إسرائيل .

وانفصل إسماعيل عن القافلة وعرج إلى حبرون مدينة الخليل ، وسارت القافلة فى طريقها إلى غزة تحمل بضائع شرق إفريقية التى أخذت طريقها فى المراكب إلى اليمين ومنها إلى الشمال .

ودخل إسماعيل خيام أبيه يمتطى جواده فهرع إليه العبيد يرحبون به ، وراح الرجال يرمقونه فى إعجاب فقد كان جليلا مهابا تتفتح له القلوب وتهفو إليه النفوس .

وخف إليه العيص ويعقوب يستبقان فأخذهما بين يديه وقبلهما وهو مسرور ، وساروا إلى خيمة الخليل وإذا العيص ينسل منهما وينطلق إلى حيث كان حصان عمه يحاول أن يعتلى ظهره . كان العيص خشنا يهوى

الصيد ويهيم فى الصحراء وكان متأبدا كعمه إسماعيل ، وكان عمه يحبه من أعماق قلبه .

ودخل إسماعيل على أبيه واعتنق الرجلان وأخذا بأطراف الحديث . وكان إبراهيم مسرورا لوفود حبيبه الذى هم يوما بأن يذبحه تنفيذا لأمر الله لولا أن فداه الله بذبح عظيم .

وفى الليل صلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والعيص والمؤمنون خلف من جعله الله إماما للناس ، وكانوا يصغون إلى صلاته فترتجف قلوبهم فى صدورهم وتهيم أرواحهم فى ملكوت الله تسبح فى اطمئنان فى النور الذى تجلى على العباد ، وأتم إبراهيم صلاته وجلس فى المحراب وجلس عنده إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وخرج العيص مرة أخرى إلى حيث كان جواد عمه .

كان إسماعيل يهفو إلى الكعبة فهو فى شوق إلى الطواف حول بيت الله، تعلق قلبه به وبات يستشعر وحشة إذا ما بعد عنه. كان الهواء يهب نديا فى حبرون والحقول الخضراء تسر الناظرين والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو الكون حلة من البهاء ، كانت مدينة الخليل تزهو بجمالها ولكن كل ما فى الأرض من جمال لا يرقى إلى جمال النفحات الروحية التى تفيض بها نفس إسماعيل إذا استلم الحجر الأسود أو طاف بالبيت أو دعا الله وهو فى الحرم بالسحر وعند شروق الشمس وآناء النهار وفى الغدو والآصال .

والتفت إبراهيم إلى بنيه ويعقوب وراح يوصيهم قال :

— ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

٢٥

ران على بكة الوجوم فقد ذاع فى الدور والخيام أن هاجر تجود بأنفاسها ، ونزل القلوب حزن عميق فإنها أول أنفاس طاهرة مؤمنة ترددت فى الوادى المقدس منذ ذلك اليوم الذى أسكنها خليل الرحمن بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم .

تركها وحدها هى وابنها الرضيع فى واد لا ينبت إلا السلم والكلأ لا ماء ولا أنيس ، وتحيط بها جبال فارهة قاسية جرداء ، ويجثم على المكان سكون عميق ينفث الوحشة والرعب والفزع ، فلما سألته آلله أمرك بهذا ؟ وقال لها نعم ، لم تجزع ولم تبك بل قالت فى إيمان عميق : إذاً لن يضيعنا .

إن التى تجود بأنفاسها وهى شاخصة إلى الكعبة لم تكن فى يوم من الأيام امرأة تعصف بها الأحداث وتلعب بها العواطف . إنها مذ أسلمت وجهها لله وثقت به وآمنت بقدرته وحكمته فتركت له نفسها يفعل بها ما يريد ، إنه على كل شيء قدير له الملك وله الحمد وهو العليم الخبير .

إن التى تجود بأنفاسها ومن عندها يرنون إليها فى هلع ورجاء هى بكة ذاتها ، هى تاريخها المشرق الذى فاض بالبركة والرحمة والأمن والسلام ، كانت ثانى اثنين إذ هما فى الوادى القفر هى وابنها الرضيع ، وكانت على يقين أن من أمر بتركها فى هذه البيداء لن يضيعها أبدا . كان قلبها عامرا بإيمان لو وزع على أهل الأرض لأشرقت أفئدتهم بنور الله .

ولم يضيعهما الله ففجر لهما بئر زمزم ونبض الوادى القفر بالحياة ، وجاء الناس يلتمسون منها النزول عندها فأذنت لهم على شرط أن تكون البئر لها ولابنها ، فما كانت تفرط فى بئر وهبها الله لها ولإسماعيل ابن خليل الرحمن .

كانت جليلة رفيعة القدر لها مهابة وإن كانت أكثر أهل الأرض تواضعا . أحبها الناس الذين نزلوا عندها حبا عميقا من أغوار نفوسهم فكانوا يهرعون إليها يصغون إلى أحاديثها العذبة ، وكانت أحاديثها تدور كلها حول الله ودينه الذى بعث به رسوله ، وكان الناس يرهفون السمع فتخشع أفئدتهم وتفيض أعينهم بالدمع إذا قرأت فى صحف إبراهيم ، وكان صوتها عامرا بالإيمان يحرك العواطف ويمس شغاف القلوب .

وراح الناس يرمقونها فى أسى عميق ويحسون عظم الفاجعة التى سوف تنزل بموتها . لقد كانت بركة مذ وطئت قدماها الوادى المقدس وإنهم ليخشون أن ترفع البركة بموتها .

أمر الله خليله أن يسكنها هى وإسماعيل بالوادى القفر لحكمة تجلت للناس جميعا : أراد الله أن يقيم إبراهيم وإسماعيل القواعد من بيته المحرم . وقد بُنى البيت وطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود وجعله الله مثابة للناس وأمنا ، وقد شاركت هاجر فى بناء بيت الله وشاركت فى تطهيره ، وكانت أول من لبى يوم أمر الله خليله أن يؤذن فى الناس بالحج .

إن تاريخا مشرقا حيا نابضا بأعمق ما عرفت البشرية من إيمان وتسليم لله يذوى أمام أعينهم ؛ يطوى كطى السجل للكتب . وإن هى إلا نفس يخرج ثم لا يدخل غيره وتصبح هاجر ذكرى عطرة ، ذكرى لا يمحوها

كر السنين ما دام فى النفوس وفاء .

وغص الحرم بالناس وضاق بمن جاءوا من كل فج عميق يسألون عن سيدة بكة ، وغصت الحناجر بالدموع وضاقت الصدور بمشاعر الأسى والحزن ، كان الجميع يقولون فى وجد : إن هاجر تموت .

وفتحت هاجر عينيها فى جهد فرأت إسماعيل ونابت وقيدار وسائر حفدتها يحفون بها ، وكانت وجوههم مرآة للوعة التـى تسرى بين ضلوعهم ، وكانت عيونهم تشع شفقة وترقرقت فيها الدموع .

ورفت على شفتى هاجر ابتسامة فهى ترى فى إسماعيل وأبنائه وعد الله ، وعدها الله أن يبارك فى ذرية إسماعيل وأن يجعله أمة عظيمة وأن يهب له اثنى عشر زعيما . غمرها الله برحمته حتى إنها لتخشى أن تكون قصرت فى حمد الله على النعم التى فاضت عليها وعلى إسماعيل وحفدتها .

وفى لحظات قصيرة استعرضت كل ما مر فى حياتها : فرأت نفسها طفلة فى قصر والديها فى منف ، ورأت نفسها يوم زفت إلى أمير منف وكان القصر يموج بالأمراء والكهنة وكبار رجال الدولة ، وغمرتها فى تلك الليلة سعادة عارمة فكانت تحسب أنها نالت أقصى ما يمكن أن يناله إنسان فى الدنيا .

ولاح فى وجهها أنها تسخر من شيء . إن كل ما أحست به فى وادى النيل من سعادة وحبور وغبطة لا يساوى الرضا الذى يطوف بالروح فى سجدة واحدة ، كانت سعادتها تلك عابرة سرعان ما تبخرت ؛ أما رضى النفس ، سرور الإيمان ، فكان خالدا يشرق بالأمن والسلام .

ورأت نفسها وهى قلقة تذرف الدمع السخين يوم خرج زوجها لقتال الهكسوس ، ودب فى قلبها يأس مرير لما جاءها نبأ مصرع أميرها

حتى إنها كادت تقتل نفسها حزنا عليه . كانت جاهلة لم يستطع بتاح ولا رع ولا حور ولا آلهة المصريين جميعا أن يمنحوها نفحة من إيمان صادق ، إيمان يجعلها تتقبل قضاء الله بنفس راضية .

أين هى فى ذلك اليوم منها يوم أسكنها إبراهيم بوادى بكة بلا ماء ولا أنيس ؟ إنها كانت يوم جاءها مصرع زوجها فى قصرها وبين رجالها وعبيدها ووصيفاتها ولكنها أحست أنها وحيدة فى الحياة بلا سند ولا معين ، بينا أحست يوم تركها إبراهيم وحده فى الفلاة أنها فى كنف إله قادر عظيم لن يتخلى عنها ولن يضيعها .

كانت تمقت الرعاة العمالقة الذين أغاروا على بلادها بكل خلجة من خلجات نفسها ، كانت تتمنى الموت لهم جميعا ، فإذا بها بعد أن هداها الله للإيمان تمنحهم الحياة وتسمح لهم أن ينزلوا معها على ماء زمزم وتفتح لهم قلبها وتغمرهم بحبها .

أسروها فى منف يوم كانت أميرة ، يوم لم تكن شيئا مذكورا ووهبوها لسارة وحطوا من شأنها ، ثم أنزلوها أرفع منزلة فى قلوبهم بعد أن صارت جارية وأعزها الله بالإسلام ورفع من شأنها ، إن الله يعز من يشاء إن الله عزيز حكيم .

وكان إبراهيم يدعو ربه فى أور وحاران وفى الشأم ومصر : رب هب لى من الصالحين ، كان فى شوق عظيم أن يكون له ذرية . وأخر الله استجابة دعاء خليله لأن الله قدر أن يكون ابن إبراهيم البكر منها . أكرمها الله ! وإنها لتسبح بحمده وهى تودع آخر أيامها فى الدنيا قبل أن يجزيها الله الجزاء الأوفى .

واختبرها ربها فى وحيدها يوم أمر الله خليله أن يذبح ابنها ، كان بلاء

عظيما انتصر فيه الإيمان وحب الله ورسوله على حب فلذة الفؤاد ، إن نار الثكل أليمة ولكنها تهون فى سبيل رضا الله .

وأراد الشيطان أن يصدها عن طاعة الله فوسوس لها أن ما رآه إبراهيم فى منامه إن هو إلا وحى كاذب ، فصمَّت أذنيها عن همزاته وأغلقت وجدانها دونه ورجمته فى نفسها قبل أن ترجمه بسبع حصيات ، فما كان للشيطان سلطان على من قال له الله أسلم ، قال أسلمت لله رب العالمين .

وطاف بذهنها ذلك اليوم العصيب ، يوم نفد الماء الذى تركه إبراهيم لها ولإسماعيل ، فإنها لم تهرع إلى جبل الصفا كراهية أن ترى ابنها يموت فقد كان قلبها عامرا بالإيمان أن الله لن يضيعهما فلم يأمر الله خليله أن يسكنها بذلك الوادى المقدس عبثا سبحانه وما فعل ذلك إلا لأمر عظيم . إنها ارتقت الصفا وسعت بين الصفا والمروة تتعجل رحمة الله فقد خلق الإنسان عجولا .

وجزاها الله جزاء الشاكرين فجعل هرولتها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج ، ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما ومن تطوَّع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ .

واستشعرت رغبة ملحة أن تسجد شكرا لله ، ولكنها كانت مسجاة لا تستطيع حراكا وأعجز من أن تلصق جبهتها بالأرض ، و لم تقو شفتاها على تمجيد الحميد المجيد فأسبلت جفنيها وأحست أن روحها تسبح لله وتسجد له فى ملكه الواسع العريض الذى لا تحده سماء ولا أرض .

ورأت وهى مسبلة العينين مقام إبراهيم وهو ملتصق بالبيت عن يمين باب الكعبة ومرتفع عن الأرض قرابة ذراع ، وإنها لترى إبراهيم وهو قائم

عليه إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وخيل إليها أن الكون كله يدعو بدعائهما : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وإنها لترى إبراهيم وقد وقف على مقامه يؤذن فى الناس بالحج يوم جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، يأيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . وسمعت الكون كله يلبى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وتهللت أساريرها وهفت نفسها إلى أن تقف على مقام إبراهيم تدعو الله أن يبارك فى إسماعيل وذريته ، وفى الرسول الذى سيبعثه فيهم استجابة لدعوة خليله ، ولكنها كانت أعجز من أن تفتح عينيها . ولكن روحها وإن ضاق بها الصدر كانت قوية مشرقة بنور ربها قادرة على أن تتصل بمن غمرها بفيض رحمته ، فراحت تناجى رب الحياة والموت أن يبارك فى إسماعيل وذريته الصالحين ، وفى الرسول الذى سيبعثه فيهم ليعلمهم الكتاب والحكمة .

وجاهدت وفتحت عينيها الواهنتين لتلقى نظرة وداع على الكعبة ، وفتحت أذنيها تريد أن يكون آخر عهدها بالدنيا أن تلقى السمع إلى ابتهالات الصالحين ودعوات المؤمنين ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

وتهللت روحها بفرح فياض فهى تستشعر أمنا ينسكب فى وجدانها

وتغشاها سعادة عارمة أن تفيض روحها فى ظل بيت الله . لو لم يشأ الله لها الهداية لكانت الساعة تموت شريدة فى أواريس أو طريدة فى دار من دور السادة بعد أن وقعت فى أسر الهكسوس . وحتى لو لم تقع أسيرة فى أيديهم لماتت فى قصرها فى منف ، ولحنط جسدها ليقاوم البلى ، ولأوقفت الأوقاف العظيمة للكهان ليقوموا بالصلوات وتقديم القرابين لتظل ررحها سعيدة فى حياتها الثانية . ولسوف يأتى يوم تنقطع فيه الصلوات والقرابين كما انقطعت فى قبور بناة الأهرام ومن جاء بعدهم فتمسى نسيا منسيا دون أن تهتدى إلى نور السماوات والأرض ، النور الذى يهدى السبيل فى الدنيا والآخرة .

إن الله أكرمها فقضى أن تموت فى بيته المحرم وأن تقبر فى الكعبة التى لا ينقطع الطواف حولها فى الليل أو فى النهار ، قضى أن تدفن فى الحرم الذى لا تتردد فيه إلا الأنفاس الطاهرة ولا يسمع فيه لغو ولا تأثيم ويغص بالطائفين والعابدين والركع السجود .

وأرهفت السمع فلم تسمع ابتهالات الطائفين فقد خفت الرجل فى الحرم وحبست الأنفاس ، كان الجميع فى وجوم تعلقت أعينهم بوجه السيدة الجليلة الذى كان يتألق بنور عجيب ، فقد كثرت صلاتها بالليل فحسن وجهها بالنهار .

ومال إسماعيل فوقها يرقب أنفاسها الواهنة المتقطعة فخيل إليه أن أمه تلتقط أنفاسها من ثقب إبرة فراح يسح الدموع دون أن يجهش بالبكاء ، كان أرحم من أن يسمعها بكاءه .

وانقطع الطواف حول البيت وشغل الناس بحبهم الكبير الذى أوشك أن يغيض ، أن يختفى إلى الأبد ، وطأطئوا رءوسهم أمام جلال الموت .

وعبس وجه هاجر فهى تريد أن تموت وابتهالات الصالحين تنسكب فى روحها ودعوات الطائفين تصافح حواسها حتى تغيب عن الوجود . إن انقطاع الطواف والابتهالات والدعوات يملأ نفسها حزنا ، ليتها تستطيع أن تصرخ فيهم : طوفوا .. ادعوا الله إنه قريب يستجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، إلا أنها كانت فى النزع الأخير .

وطار حمام الحمى يطوف حول البيت وسمعت خفقات أجنحته فانبسطت أساريرها . إن الطواف لم ينقطع حتى فى لحظة موتها . ومس أذنيها تسبيحات عذبة لا تدرى أكانت تسبيحات إسماعيل أم تسبيحات الملائكة أم تسبيحات روحها التى تتأهب للانطلاق من سجن الجسد . كل ما كانت تدريه أن الحرم ضج بالتسبيح والابتهال والتهليل والتلبية لكأنما جاءت كل الأجيال القادمة التى قدر لها أن تحج إلى بيت الله تلبى نداء الله .

وتهلل وجهها ورفت على شفتيها ابتسامة رضى ثم أسلمت روحها ، فارتمى إسماعيل على صدرها وأجهش بالبكاء :

ــ أمى .. أمى .

وبكى أبناء إسماعيل جدتهم الغالية ! وضج المكان بالنحيب فقد ماتت أعز من ترددت أنفاسها فى الوادى المقدس ، ماتت الجارية التى أراد الناس أن يحطوا من شأنها وأبى الله إلا أن يرفع لها ذكرها .

ورفع إسماعيل رأسه وألقى على أمه نظرة وداع ثم قال :

ــ لا إله إلا الله ، ما أطيبك وأطيب ريحك !

وراح الرجال يحفرون قبر هاجر السيدة الجليلة التى تكونت حولها بكة ، بكة التى بارك الله فيها للعالمين . وكان قبرها فى جوف الكعبة بين الركن الشامى والركن الغربى فى المكان الذى بنى لها فيه خليل الرحمن

عريشا يوم أسكنها هي وإسماعيل بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم .

وحمل إسماعيل ونابت وقيدار والرجال الجسد الطاهر ودلوه في قبره وأهالوا عليه التراب وفي الحناجر غصة وفي القلوب حزن ثقيل ، ثم تفرقوا في بكة مطرقي الرءوس ، وسرعان ما عادوا إلى البيت يستلمون الحجر الأسود ويطوفون ويركعون ويسجدون لله الحي الذي لا يموت .

٢٦

كان القمر يتألق فى السماء تحف به سحب ناصعة البياض كأنها جياد شهب ، وبدت الحقول كبساط من إستبرق يموج باللجين ، وانتصبت الأشجار الفارهة كأبراج فى معبد الكون ، وتدلت الثمار كأنها الزبرجد واللآلىء واليواقيت والذهب والمرجان ، وهب النسيم رخاء يداعب أوراق الشجر فكان رفيفه رقيقا كنبض القلوب المؤمنة عذبا كتسبيح خرير الماء شجيا كشدو زفيف الهواء . كانت الكائنات كلها تنبض بسحر يبده القلوب ويأخذ بالألباب .

وانسابت القافلة فى هجعة الليل من حبرون واتخذت طريقها إلى الجنوب ، إلى الحجاز . وعند السحر كانت أخفافها تغوص فى رمال الصحراء وقد انتثر العشب الأخضر وازدهر النوار الأصفر واكتست البيد بحلة ترقرقت فيها نضارة الربيع . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !

وعلى رأس القافلة كان خليل الرحمن قد ابيضت لحيته ولاح أثر السنين فى وجهه ، لكن البريق الأخاذ الذى كان يشع من عينيه لم ينطفىء بل زاده مهابة على مهابته وشرفا على شرفه ، وتألق وجهه بنور الإيمان المنبعث من قلبه العامر بحب رب السماوات والأرض رب العالمين .

وكان فى القافلة نفر من أهل بيته وقومه خرجوا معه لزيارة بيت الله

وتقديم العزاء لإسماعيل وبنيه فى فقد هاجر ، السيدة التى كانت بركة على آل إبراهيم منذ أول يوم وهبها ملك الهكسوس لسارة .

كان خليل الرحمن آنفا فى شوق إلى الولد ، كان يدعو ربه أن يهب له من الصالحين فجاء أمر الله من فوق سبع سماوات أن يبنى خليله بهاجر المصرية التى ولدت بمنف حيث ولد نبى الله إدريس . قدر الله أن تكون أما لإسماعيل ، أما للعرب الذين غرست نبتتهم الصالحة فى بكة التى بارك الله فيها وفيما حولها للعالمين .

وبشرت ملائكة الله سارة بإسحاق وهى عجوز عقيم بعد أن جاء إسماعيل بكر إبراهيم من هاجر المصرية التى أمر الله خليله أن يهاجر من أور وأن يسيح فى الأرض ليقابلها فى أواريس فى قصر ملك الهكسوس لتتحقق مشيئة الله وتنفذ إرادته . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم أمر الله خليله إبراهيم أن يخرج بها إلى الحجاز وإسماعيل بعد طفل رضيع قبل أن تبشر ملائكة الله سارة بإسحاق وأن يسكنها بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ، فقبلت هاجر أمر الله بنفس راضية مطمئنة ونزلت عند بيت الله المحرم ، البيت الذى بناه إدريس النبى الصديق الذى ولد مثلها فى منف ، والذى دعا الناس إلى عبادة الله الواحد القهار قبل أن يبعث نوح وإبراهيم .

وكان الطوفان قد جرف البيت فيما جرف فأسكن إبراهيم هاجر وإسماعيل فوق الربوة الحمراء التى بقيت من البيت المحرم ، إلى أن يأتى أمر الله بأن يقيم إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .

وكان إدريس أول من علم المصريين الخط بالقلم ، وكانت هاجر أول

من علم إسماعيل وبنيه ومن نزل عندهم حول بئر زمزم الكتابة ، ولم تجد ورق البردى فاستخدمت عظام كتف البعير والرِّقاق .

وعلَّم إدريس المصريين الزراعة والتصرف فى ماء النيل ولبس المخيط بعد أن كانوا يغطون أجسامهم بالريش ، ولو وجدت هاجر فى بكة أرضا خصبة وأنهارا تجرى لعلمت ذريتها الزراعة ، ولكن الله يعد ذريتها لحياة أخرى غير حياة الدعة والاستقرار ، غير حياة المترفين .

وعلَّم إدريس المصريين الإيمان بالبعث بعد الموت . ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ . فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسجوا حول إدريس الأساطير وجعلوه أزريس قاضى الموت من يضع الموازين القسط ليوم القيامة . ولكن هاجر كانت تؤمن باليوم الآخر وبالحساب بعد الموت ، فلما دعاها إبراهيم للإسلام لم تقل له فى دهش : ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ بل قالت ﴿ أسلمت لله رب العالمين ﴾ .

كانت هاجر بركة منذ أسكنها إبراهيم عند بيت الله المحرم ، وقد فاضت بركتها على الوادى كله ففجر الله لها ولابنها بئر زمزم واشتركت فى إقامة القواعد من البيت ، وكانت أول من لبى عندما أذن خليل الرحمن فى الناس بالحج ، وصبرت على بلاء الله لما أمر بذبح وحيدها إسماعيل ، وكان إبراهيم عسيًا أن يجد السلوى فى إسحاق وذريته بينا تتلظى هى نار الثكل وتتجرع غصص الحزن دون أن تجد من يخفف لوعتها ، فما كان نابت وقيدار والذيل وإخوتهم ليقوموا عندها مقام إسماعيل :

آمنت هاجر وصبرت وعملت الصالحات وأحسنت فماتت فى ظل الكعبة وقبرت فى البيت العتيق ، فى البيت الحرام الذى جعله الله قياما للناس : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

انطلق إبراهيم والذين معه إلى بكة وكانوا يسجدون لله فى معبد الكون فى الفضاء العريض ، وكانت قلوبهم تهوى إلى أول بيت وضع للناس مباركا فيه آيات بينات مقام إبراهيم فمن دخله كان آمنا .

ولاحت لأعينهم سلسلة الجبال الجرداء الفارهة التى تحيط بالوادى المقدس فضج من فى القافلة بالتلبية والتهليل وخشعت قلوبهم . واستشعر إبراهيم حزنا فقد كانت هذه أول مرة يزور فيها بكة بعد موت هاجر الزوجة الوفية التى اتقت الله ما استطاعت ، وسمعت وأطاعت ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ .

وانحدرت الإبل إلى وادى بكة وظهر البيت والناس يطوفون به فى ملابس بيضاء فبدوا كملائكة أطهار ، وارتفعت أصواتهم بالدعوات والابتهالات لرب العرش العظيم فخفقت القلوب فى الصدور وطفرت العبرات من العيون .

واستلموا الحجر الأسود وطافوا طواف القدوم وكان إبراهيم يستشعر أن روح هاجر تطوف مع الطائفين . كانت سعادتها فى الدنيا أن تعتكف وأن تناجى ربها وأن تستغرق فى عبادته حتى يشرق نور الله على روحها فتتهلل بفرح فياض ، ولتكونن بهجتها فى الآخرة أن تنعم بقرب الحبيب وأن تظل تسبح بحمده وتقدس له وتنعم بسرور الأنس به .

وأتموا الطواف ووقفوا أمام قبر هاجر خاشعين وقالوا :

ـــ السلام عليك يا زوجة رسول الله يا أم إسماعيل ، لقد وجدت ما

وعدك الله حقا ، إنا بك إن شاء الله لا حقون .

وترقرقت الدموع فى مآقى القوم لما رأوا العبرات تسيل على خدى خليل الرحمن ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب .

وجاء إسماعيل لما بلغه قدوم أبيه ، وتعانق الرجال وجلسوا فى ظل الكعبة يذكرون الله كثيرا ويسبحون بحمده ويخرون له ساجدين . وأقبل أبناء إسماعيل إلى جدهم فرحين وألقوا إليه سمعهم فكان يوصيهم بما أوصى به بنيه ويعقوب : يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

ومس أذنيه صوت هاجر فخفق قلبه بين ضلوعه فى شدة ولاح فى وجهه هلع والتفت فى فزع ، فإذا بزوجة إسماعيل المصرية وكان صوتها أشبه بصوت هاجر فهزه من أعماقه وزلزل كيانه . كانت هاجر أثيرة عنده لن ينسى ذكراها ما دام قلبه يخفق وأنفاسه تتردد فقد وهبها الله له من رحمة ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ومرت الأيام وخليل الرحمن والذين معه عاكفون فى الكعبة يستشعرون طمأنينة ورضا وأمنا فقد أشرقت بكة بنور ربها ، ولو ترك لهم أن يختاروا ما فكروا فى العودة إلى حبرون أبدا ، ولكن خليل الرحمن أبى أن يتبع هواه فإن الله لم يأمره أن يستقر فى بيته المحرم .

وكان على خليل الرحمن أن يتخذ له زوجة بعد موت سارة وهاجر فما كان لرجل صالح أن يعيش بلا زوجة . إنه قبر حب شبابه فى حبرون وقبر حب رجولته فى الكعبة . ولكن كان عليه أن يتزوج فإن الله يريد أن يهب له ذرية من نساء أخريات غير سارة وهاجر ليشتركوا فى الميراث

العظيم الذى وعده به خليله ، ميراث مشارق الأرض ومغاربها .

وتلفت إبراهيم يبحث عن زوجة له . لقد أبى أن يزوج إسحاق من بنات الكنعانيين الذين ينزل بينهم وبعث إليعازر الدمشقى إلى حاران ليعود برفقة ، فإن كان أبى أن يزوج ابنه منهم فأجدر به ألا يختار زوجة منهم لنفسه .

إنه ولد فى العراق وتزوج سارة بنت عمه هاران ثم زوّج إسحاق فى قومه ، وقد يسر الله له أن يتزوج من مصر وأن يكون بينه وبين المصريين نسب . إنه يريد أن يربط الأواصر بين أهل بيته وهؤلاء القوم من العرب الذين نزلوا مع هاجر حول بئر زمزم وأصبحوا قوم إسماعيل وذريته ، فلو تزوج فيهم لربط الله به بين العراق ومصر وبلاد العرب .

وتزوج إبراهيم قنطورة بنت مفطور من العرب العاربة وولد له منها مدن ومدين وقيسان وزمران ويسبق وسوح . ومرت السنون وجاء اليوم الذى ينتشر فيه هؤلاء فى الأرض فأمرهم أن يخرجوا إلى حيث يوجههم ، فأمر مدن ومدين أن ينزلوا الأرض التى سميت مدين فيما بعد ، وأمر قيسان أن يذهب إلى مكة ، وأمر بعضهم أن ينزل خراسان فقالوا له :

— يا أبانا أنزلت إسماعيل وإسحاق معك وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة .

فقال خليل الرحمن فى هدوء :

— بذلك أمرت .

إنه أمر فكان عليه أن يطيع ويصبر وكان على بنيه أن ينفذوا أمر الله ، وخرج مدن ومدين إلى سيناء لتكون ذرية مدين أهل مدين قوم شعيب

نبى الله ، وانطلق قيسان إلى مكة ليتزوج امرأة من جرهم لتلد له البربر ، وانطلق بعضهم إلى خراسان واستولوا على الحكم وسموا ملوكهم خاقان .

وانتشر دين إبراهيم فى الآفاق ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

٢٧

نام إسماعيل فى الحرم وإذا بنور ينسكب فى روحه وإذا بأوامر تلقى إليه ، كان الله يوحى إليه ما يشاء وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب .

وقام إسماعيل من نومه وكأنما حفرت أوامر الله فى صدره ، لقد أرسله الله إلى قومه ليدعوهم ليلا ونهارا إلى الله لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه .

لقد نزل العمالقة معه حول بئر زمزم وآمنوا بالله وبإبراهيم رسول الله ووقّروا الكعبة ، وما كانوا يعودون إلى دورهم قبل أن يطوفوا بالبيت العتيق . ولكن من نزل منهم حول البيت قليل ، فقد انتشر فريق منهم فى تهامة ومنهم يثرب بن عبيل بن مهلايل بن عوص بن عمليق الذى نزل عند جبل أحد وحفر آبارا وزرع نخلا وسمى المكان باسمه « يثرب » ؛ وانتشر فريق آخر فى الشام واستولوا على مصر . وقد أرسل الله إسماعيل لينذر العمالقة الذين كانوا يعيشون فى بلاد العرب .

وكذلك نزلت قبيلة جرهم حول بئر زمزم ، وآمن الجرهميون بالله وبإبراهيم رسوله ووقروا بيت الله ، ولكن من نزل منهم حول البيت قليل . كان جُرهم بن قحطان سيد اليمن وكانت قبيلته التى نزلت عند هاجر حول بئر زمزم من اليمن وكانت فى طريقها إلى الشام فاستقرت وآمنت بالله ، ولكن اليمنيين كانوا لا يزالون على دين قومهم فتأهب

إسماعيل للخروج إلى تهامة والانطلاق إلى اليمن ليدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار .

وولى إسماعيل ابنه نابتا على بكة وكان شابا ورعا راجح العقل مطاعا مهابا شريفا فى قومه وإن لم يبلغ الخامسة والعشرين . كان يجمع بين حلم إبراهيم وإيمانه ونبل هاجر ورجاحة عقلها وشجاعة إسماعيل وصبره ، كان سبطا من خيرة الأسباط .

وطاف إسماعيل بالبيت العتيق . ثم ركب جواده وانطلق إلى تهامة بلاد العمالقة . وكان محط أنظار الجميع آتاه الله حكما وعلما والله غالب على أمره وكذلك يجزى المحسنين . وكانت الصحراء مترامية لا يبلغ مداها البصر والسماء زرقاء صافية تبدو فى الآفاق البعيدة كأنما انطبقت على الأرض ، والجبال الصخرية الشاهقة فارهة جرداء موحشة فنزلت بالقلوب المؤمنة رجفة من خشية الله القادر الجبار رب السماوات ورب الأرض رب العالمين .

ودنا إسماعيل من شاطىء البحر الأحمر ورأى ثم فرأى سفنا من بلاد النهرين ومن شواطىء المحيط الهندى ومن مصر ومن اليمن تمخر عباب الماء صاعدة هابطة محملة بالأحجار الكريمة والبخور والجلود والعاج وريش النعام والتوابل والحبوب وأقمشة الكتان .

وكان إسماعيل على علم بطرق القوافل البرية فالحجاز هو الجار الغربى للعراق وما كان ثَمَّ حواجز طبيعية تعوق الاتصال بين بابل والجزيرة العربية ، فإن كانت تجارة السند وبابل ومصر تنقل عن طريق البحر فما كان ذلك إلا لخشية القوافل من غارات البدو المنتشرين فى البادية ، وكان هؤلاء يعيشون على مفاجأة القوافل وسلب ما تحمل من نفائس وسبى من

فيها من نساء .

كان البدو يهددون القوافل تهديدا ، وزاد الأمر سوءا أن العمالقة الأشداء الذين لم يستقروا فى سورية و لم يهبطوا إلى مصر احترفوا النهب فكانوا يقتلون الرجال ويأسرون النساء والولدان بضاعة ، فازدهرت الملاحة فى البحر الأحمر ، وكان للقناة التى تصل النيل بذلك البحر شأن عظيم فى تبادل سلع بلاد النهرين ووادى السند ووادى النيل وبلاد بونت .

كانت بضائع وادى النيل وبلاد ما بين النهرين ووادى النيل تنقل فى السفن إلى عدن ، فكان التجار اليمنيون يشترونها ثم يحملونها فى قوافل تخترق الجزيرة العربية إلى سورية ، وقد أنشأ هؤلاء التجار أسواقا فى بكة ويثرب وبصرى وغزة .

وكان إسماعيل يعرف بنى قحطان حق المعرفة فقد نزل معه على ماء زمزم قبيلة جُرهم وهى قبيلة يمنية فأسلموا له قيادهم وإن كان لهم « مكرب » ، وكانوا يسمون كل رئيس فيهم « مكربا » كما كان المصريون يسمون ملكهم « فرعون » وكما كان أهل جيرار يسمون ملكهم « أبيمالك » .

وقد قابل إسماعيل اليمنيين فى أسواق الشأم واعتاد أن يخرج معهم كلما ذهب إلى حبرون لزيارة أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق ، كانوا تجارا يحبون المال حبا جما ويركبون الصعاب فى سبيل جمعه ، وقد بعثه الله إليهم ليدعوهم إلى الإسلام . وقد استجابت له جرهم وأسلمت لله وإنه ليرجو أن يعز الله دينه بهؤلاء التجار الذين يجوبون الآفاق فيحملوا دين الله القيم إلى العالمين .

إنه منطلق أول أمره إلى تهامة باسم الله وعلى بركة الله ، إنه منطلق إلى العمالقة الذين علا شأنهم حتى استولوا على الشأم ووادى النيل ، إنه منطلق إلى جبارين يرجو أن يشرح الله قلوبهم للإسلام . وبعد ذلك ينطلق إلى اليمن ليبلغ الناس هناك رسالات ربه ، وقد وطن النفس على الصبر واحتمال الشدائد .

وبلغ إسماعيل تهامة ونزل بسوق من أسواقها كانت عامرة ببضائع هندية من وادى السند وبضائع عراقية من بابل وبضائع مصرية من وادى النيل وببخور وأخشاب من بلاد بونت ؛ الأراضى الآسيوية والإفريقية الواقعة حول مضيق باب المندب .

وكانت السفن تمخر عباب البحر الأحمر تحمل البضائع وحضارات الأمم الواردة منها ، كانت تتبادل السلع وتتبادل الأفكار ، كانت تأتى ببضائع بلادها وأفكار قومها وتعود ببضائع البلاد الأجنبية وعصارة أفكارها .

وراح إسماعيل يجوس خلال السوق ثم قام على مرتفع وقال :

— يا قوم ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين .

— أتريد يا إسماعيل أن نعبد إلهك ونذر آلهتنا ؟

— إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

— وآلهتنا يا إسماعيل ؟ ألا تخشى أن تبطش بك ، أن تنزل عليك غضبها ؟ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟

— ليست آلهتكم على شىء . إنى أدعوكم إلى الله رب العالمين .

وسرت همهمة استياء بين القوم . إنه جاء إليهم يسفه آلهتهم على أعين

الناس . إنهم يعبدون إلٰه القمر وإلٰه الشمس وإلٰه الزهراء ، والبلاد التى فتحوها تعبد نفس الآلهة وإن تباينت أسماؤها ، أجاء ليجعل الآلهة إلٰها واحدا ؟ وراحوا يجادلونه فقال لهم :

— ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ؟

— ﴿ تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا فأتنا بسلطان مبين ﴾ .

— ﴿ ما كان لى أن آتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، فاستغفروا الله ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ .

— إن آلهتنا قد مكنت لنا فى الأرض ولن نكفر بآلهتنا أبدا .

— ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

— ﴿ إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾ .

— ﴿ ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ .

— ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ .

— ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين * ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا فى الأرض

بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين * وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرِّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ .

وما زال إسماعيل يجوب البلاد وينطلق فى كل واد من تهامة يدعو الناس إلى الله ، فشرح الله صدور المستضعفين للإيمان فأسلموا لله الواحد القهار . . يريد الله أن يمنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض وأن يورثهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك فيها للعالمين .

٢٨

خرج إسماعيل من تهامة فى قافلة من القوافل المنطلقة إلى اليمن وسار ومن فى القافلة ليالى وأياما آمنين ، ثم أمطرت السماء مطرا شديدا فصهلت الجياد وأقبلت وأدبرت وقامت على سيقانها الخلفية فجذب الفرسان الأعنة ليكبحوا جماحها ، وارتفع رغاء الإبل وهمت بأن تشرد لولا أن أخذ الرجال بزمامها ، وخف العبيد يسدلون على البضائع الأغطية خشية أن يصل إليها الماء فيدب فيها الفساد ويلحقها الكساد .

وراح الرجال ينصبون الخيام ، وشد إسماعيل خيمة من الوبر الأسود احتمى بها هو وجواده من المطر المنهمر على الجبال المتدفق إلى الوديان سيولا تجرف فى طريقها الصخور لكأنها ريش فى مهب الرياح .

وبرق البرق ورعد الرعد وزمجرت العواصف فنزل الخوف بالقلوب فراح إسماعيل يسبح لله الذى يرِى عباده البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال . وجاء رجل من رجال القافلة بتمثال للإلٰه بعل إلٰه العواصف والصواعق ، وكان التمثال لبعل واقفا على قمم الجبال فى يده اليمنى دبوس القتال وفى يده اليسرى حربة فى أعلاها ما يمثل الصواعق وعلى رأسه تاج ذو قرنين تهدل من تحته الشعر حتى بلغ صدره ثم استدار فى حلقات ، ووضع الرجل التمثال فى خيمته ودعا الناس للصلاة .

وصلى إسماعيل فى خيمته لله وأتم صلاته وإذا بأصوات ضراعات تبلغ سمعه ، فذهب ليرى ما يفعل القوم فألفاهم يسجدون لبعل فقال لهم :

— أتسجدون لغير الله ؟
— إنا نسجد لآلهتنا .
— لا تسجدوا لبعل و ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .
— إنا نعبد آلهتنا التى وجدنا آباءنا لها عابدين .
— ﴿ إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .. إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون * ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العقاب ﴾ .

وحاجه قومه كما حاج أباه إبراهيم قومه ، فقال لقومه ما قاله خليل الرحمن :

— ﴿ أتحاجونِّى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزِّل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ .

ثم عاد إلى خيمته واعتزل فيها وكان كأبيه يحب الخيمة وحياة العزلة ليتصل بالله ويأنس به وتتهلل روحه بالفرح كلما أشرق فؤاده بنور الله .

إنه نشأ فى خيمة بالقرب من البئر المقدسة . ولكنه جاب الآفاق

ورأى قصور مدينة مارى فى سورية ، مدينة العموريين ، وكانوا عربا مثله كما كان أهل بابل عربا كذلك ولكن أطلق العرب على عرب سورية اسم العموريين أى الغربيين لأنهم كانوا غرب بابل ، كما أطلقوا اسم الشأم على من كانوا عن شمالهم واسم اليمن على من كانوا عن يمينهم .

كانت قصور مدينة مارى قصورا فخمة ضخمة بلغت مساحة أحدها ستة أفدنة وكان به ثلاثمائة غرفة زخرفت جدرانها بزخارف وتهاويل ، ورسم على إحداها بألوان زاهية أخاذة تسبى العقول صورة الملك وهو يتسلم صولجان الملك والسيادة من الإلهة عشتار .

ورأى فى مدينة أوجاريت قصورا ومعابد للإله بعل وأخته عنت روعة فى الفن والجمال ، ولكن لم تبهره هذه القصور بكل ما فيها من ترف وزينة وتهاويل ، بينا كانت نظرة واحدة إلى شروق الشمس أو غروبها أو إلى بزوغ القمر من خلف سحابة تهز مشاعره وتجعله يخر ساجدا لبديع السماوات والأرض .

وأخيرا انقشعت السحب وكف المطر عن الهطول ، وراحت طيور كالصقور تحوم حول قمم الجبال . لم تكن صقورا بل كانت طائر الحر وهو طائر صغير أغر أصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ، وقد عبر الحر مع أهل البلاد البحر إلى الشاطىء الإفريقى ثم إلى صحراء مصر الشرقية ثم إلى وادى النيل عن طريق وادى الحمامات حيث عبد فى مصر باسم حور ، ومنذ ذلك الوقت نظر المصريون إلى ذلك الوادى نظرة تقديس فقد جاءت منها الآلهة .

وانطلقت القافلة ونظر إسماعيل إلى الجنوب فرأى أرض اليمن فخفق قلبه وهفت نفسه إليها فهى أرض الأجداد ، فمن هذه البلاد خرج

أجداده فيمن خرج إلى بلاد ما بين النهرين حيث قضوا على مملكة سومر وأسس سرجون الأول مملكة أكد العربية التى اتسعت فتوحها حتى وصلت إلى آسيا الصغرى .

ومن أرض الأجداد خرج نفر من المغامرين إلى الشاطئ الإفريقى حيث دخلوا وادى النيل عن طريق وادى الحمامات المقدس ومن ذريتهم جاء المصريون . إن آباء أبيه إبراهيم من هذه الأرض السعيدة وإن آباء أمه هاجر منها وكانوا جميعا يتكلمون لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها . كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

واستأنفت القافلة رحلتها إلى أن نزلت عند أبواب صنعاء ، وراح إسماعيل يجوس خلال الأسواق وكانت غاصة بالثياب والمنسوجات الواردة من جبيل وبالأقمشة الكتانية والحلى الواردة من مصر وبالأوانى الفخارية الواردة من بلاد السند وبالسيوف والخناجر الواردة من بابل وبالبخور والتوابل والأخشاب الواردة من بلاد بونت ، ولا غرو فقد كان التجار اليمنيون همزة الوصل بين إفريقية والهند من ناحية والعراق وسورية ومصر من ناحية أخرى .

وأقبل كهان صنعاء ورجال الدين فيها على البخور فالبخور يحرق فى ديانات العرب إرضاء للآلهة ، وأقبل النسوة على الحلى المصرية والحلى البابلية والأوانى الفخارية الواردة من بلاد السند ، وأقبل الأغنياء على التحف والتماثيل .

وراح إسماعيل يجوس خلال البلاد ويسعى فى السهل الفسيح الذى

ازدان بالحدائق والحقول فرأى معابد القوم تنهض على الربى العالية ، فآلهة العرب لا تسكن إلا الأعالى وقمم الجبال .

ورأى إسماعيل فى اليمن ما رآه أبوه إبراهيم فى أور ، رأى معبد إلٰه القمر وكان يطلق عليه فى أور اسم نانا أو سين أما هنا فيطلقون عليه اسم « الموقاة » . ورأى معبد إلٰه الشمس وهو فى أور شماس أما هنا فهو ذات حميم . ورأى معبد إلٰه الزهراء وهو هناك عشتار ذكر بالنهار وأنثى بالليل أما هنا فهو إلٰه ذكر . ورأى العاهرات المقدسات فى معابد الآلهة .

كان الموقاة هو الأب و ذات حميم هى الأم وعشتار هو الابن ، وكان لكل قبيلة إلٰه لجلب المطر وآخر لمباركة المحاصيل أو لغير ذلك من شئون الدنيا والدين .

وكان إلٰه القمر فى الديانات العربية هو رب الأرباب ، فإن كان العرب الذين أسسوا مملكة بابل فى بلاد العراق جعلوا مردوخ ربـا للأرباب ونسجوا الأساطير حول تنصيب الآلهة إياه فى مجمعهم إلٰها للآلهة ، فما ذلك إلا لأن مردوخ كان إلٰه القبيلة العربية التى استلت الملك من السومريين .

فلما أصبح زعيم تلك القبيلة ملكا على مملكته بابل أراد أن يكافىء إلهه على ما أسدى إليه من معروف فجعله رب الأرباب من خلق البشر جميعا .

ورأى إسماعيل فى معابد الموقاة وذات حميم وعشتار القرابين تقدم للآلهة فى الصباح والظهر والمساء ، والكهنة يطلقون البخور ويتلون الصلوات ، وسمع المغنين والمغنيات وهم ينشدون على أنغام الشخاشيخ

والمزامير والدفوف . رأى إسماعيل النبع الذى نبعت منه ديانة بابل أصل المعتقدات التى ثار عليها أبوه خليل الرحمن .

وجادل إسماعيل أهل اليمن كما جادل إبراهيم قومه :

— ﴿ ما تعبدون ﴾ ؟

— ﴿ نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ .

— ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ ؟

— ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

— ﴿ أرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأولون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ .

— ﴿ أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ ؟

— ﴿ بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدي * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ ؟

ولم يثر أهل اليمن ثورة أهل بابل . لم يقولوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، فهم بطبعهم ميالون إلى السلم وينتهجون مبدأ المسالمة . هم قوم تجار فيهم رحابة صدر وسعة أفق وحسن إدراك للأمور تقوم حياتهم على حسن الصلة بالناس ، فجادلوه بالتى هى أحسن حتى شرح الله قلوبهم للإسلام وشهدوا أن لا إله إلا الله وآمنوا برسله وملائكته وكتبه .

وعكف إسماعيل على تعليمهم دين الله وعلمهم فيما علمهم الكتابة لينسخوا صحف إبراهيم ، وفرح اليمنيون بالقلم الذى صار بين أصابعهم فهم قوم يعيشون على التجارة وهم فى أشد الحاجة إلى تسجيل عقودهم وتدوين حساباتهم وبعث رسائلهم إلى الأمصار ، فشكروا ربهم الأكرم ﴿ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

٢٩

كان إبراهيم مسجى فى خيمته والتفّ حوله إسحاق ويعقوب وإليعازر الدمشقى ورفقة وكبار رجال القبيلة ينعكس الأسى على وجوههم ، وكانوا كلما سمعوا صوتا التفتوا إلى باب الخيمة فى لهفة ورجاء كأنما ينتظرون وفود عزيز .

وخرج إليعازر ووقف على باب الخيمة وألقى بصره إلى الأفق الجنوبى يرقب الطريق مدة حتى إذا مشى اليأس إلى قلبه عاد مطرقا إلى حيث كان إبراهيم ، وأحس إليعازر عيون القوم تسأله فرفع رأسه وهزه فى حزن فغاض الأمل فى نفوسهم ونكسوا رءوسهم .

وراح الرجال يرصدون وجه خليل الرحمن وكان واهنا يلتقط أنفاسه فى جهد ، وأسبل عينيه فراح ينظر بعضهم إلى بعض وقد غشيهم وجوم يرجون رحمة الرحمن بخليله ، ولم يطق إسحاق صبرا فخرج مهرولا يرقب الطريق .

ومد إسحاق بصره إلى بعيد فلم ير أحدا قادما . ولم يكن حوله إلا المؤمنون الذين تعلقت قلوبهم بإبراهيم فلما سمعوا أنه يموت جاءوا مفزوعين من كل فج عميق وهم فى ريب مما سمعوا ، فقد أبت نفوسهم أن تصدق أن خليل الله يموت !

وراح إسحاق يشرئب بعنقه وينظر وقد خنق القلق الرجاء فى صدره ، إن الله أرأف بخليله من أن يقبض روحه دون أن يحقق له رجاءه

الأخير ، فما أكثر ما وعده الله وكان وعد ربه حقا . وما دعا إبراهيم ربه دعاء إلا واستجاب له ، أوَ يموت إبراهيم دون أن تمتلىء عيناه برؤية الحبيب ؟!

وظل إسحاق يغدو ويروح فى قلق ثم عاد إلى حيث كان أبوه فتعلقت به الأعين فهز رأسه نفيا وقلبه يتمزق من الحزن .

وفتح إبراهيم عينين واهنتين وقال :

— ألم يأت إسماعيل ؟

فغصت الحناجر وطفرت الدموع من العيون ، ومال إسحاق على أبيه وقال :

— إنه فى الطريق ، إنه قادم .

ولم يطق إسحاق أن يبقى على تجلده فكاد يجهش بالبكاء ولكنه كتم أنفاسه بكفه وأشاح بوجهه ، ثم فر من المكان ليبكى بعيدا خشية أن يسمعه أبوه .

وأسبل إبراهيم جفنيه وراحت الذكريات تتوالى على ذهنه : رأى هاجر يوم وضعت إسماعيل وإلى جوارها سارة تكاد تطير فرحا بالوليد ، ولم يلبث أن رأى هاجر وابنها الرضيع فى الصحراء ذلك اليوم الذى أسكنها عند البيت المحرم ، أمره الله أن يسكنها هناك قبل أن تبشر ملائكة الله سارة بإسحاق . ثم رأى نفسه وهو يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ورن فى أذنيه ذلك الدعاء الحار الذى انبعث من قلبه وقلب إسماعيل الحبيب .

وتمتم بصوت خافت : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وزفر إبراهيم زفرة قوية وشاع فى وجهه نور وسلام ، كان يرى نفسه يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ويسعى بين الصفا والمروة كما سعت هاجر يوم نفد الماء منها وهرعت تستعجل وعد الله . ولقد وعدها الله أن يجعل ابنها الرضيع أمة عظيمة وأن يلد اثنى عشر رئيسا فما كان الله ليتركه يموت عطشا بعد ذلك الوعد الصريح .

وطافت سحابة أسى بوجه إبراهيم فهو يرى نفسه وفى يده الحبل والمدية وسار خلفه إسماعيل وهما فى طريقهما إلى ثبير .ورن فى أذنيه صوته وهو يقول : ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك .. يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾ .

وفتح إبراهيم عينيه وقال :

ـــ ألم يأت إسماعيل بعد ؟

فقال من كانوا عنده :

ـــ إنه قادم . سيكون هنا عما قليل .

وأسبل إبراهيم جفنيه وعاد إلى ما كان فيه فسمع صوت إسماعيل يقول فى وضوح :

« يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء من الصابرين » . وأحس إبراهيم لهفة ليضم ابنه الحبيب إلى صدره قبل أن يموت ، فقد بعث إليه رسولا ليعود به ولكن الأيام مرت ولما يعد بإسماعيل بكره وأحب أبنائه إلى قلبه ، بكره الذى فداه الله بذبح عظيم وكرمه بأن جعله راعيا لبيته المحرم .

كان إبراهيم يتوق أن يكون لله بيت أعظم من بيوت الأصنام المنتشرة

فى مشارق الأرض ومغاربها . وقد شاء الله أن يكون لإسماعيل دون بنيه كلهم شرف إقامة القواعد من البيت العتيق ، وأن يمضى عمره آمنا فى ظله يسقى الحجيج ويكرم وفادتهم .

ورأى إبراهيم نفسه وهو يقف على مقامه يؤذن فى الناس بالحج ، فإذا بأصوات تدوى فى جوفه : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » وانفعل إبراهيم بالتلبية المدوية فى أعماقه فهتف :

ــ لبيك اللهم لبيك .

وحسب إسحاق أن أباه لبى نداء ربه فارتمى عليه مفزوعا وقال فى هلع :

ــ أبتاه ! أبتاه !

وفتح إبراهيم عينيه وقال :

ــ أجاء إسماعيل ؟

وسمعت حركة عند باب الخيمة وامتدت الأبصار وحبست الأنفاس وكادت القلوب أن تكف عن الوجيب ، ودخل القادم وهتفت الأصوات :

ــ مدين .

وهرع مدين إلى أبيه وفاضت عواطفه وركع إلى جواره ونادى بصوت خنقته العبرات :

ــ أبى .. أبى .

فرفع إبراهيم ذراعه وراح يمرر يده على رأس ابنه فى حب عميق ، وما لبث أن عاد ذهنه إلى إسماعيل ، إلى من فداه الله بذبح عظيم ، فرآه يجلس

عند بئر زمزم يعلم أبناءه وأبناء من نزلوا معه حول البئر الكتابة ، ويبرى لهم الأقلام ثم يبرى لنفسه السهام . إن إسماعيل أبرع من رمى .

وملأت صفحة ذهنه صورة إسماعيل على صهوة جواده ، لقد كانت الخيل وحوشا قبل أن يستأنسها إسماعيل فروضها وجعلها ذلولا لقومه فاشتد بها بأسهم وصاروا هم الأعلون تدين لهم بالولاء الشعوب .

وارتفعت أصوات الناس فى الخارج يرحبون بمقدم شخص عزيز ، وهرع إسحاق ومدين وإليعازر ورفقة ينظرون وإذا بأصوات تهتف فى راحة :

ـــ إسماعيل .. إسماعيل .

وترجل إسماعيل عن حصانه وخف إلى أهله وهو واله حزين وحياهم فى اقتضاب ، ثم راح يهرول إلى حيث كان أبوه فلما رآه مسجى وقد ذبل وغاض لونه خفق قلبه حزنا وقال وهو يشرق بدموعه :

ـــ أبتاه ! كيف أنت يا أبتاه !

ـــ إسماعيل ؟ الحمد لله الذى قدر لى أن أراك قبل أن أموت .

ـــ كيف أنت يا أبتاه ؟

فقال إبراهيم فى راحة وقد رفت على شفتيه بسمة ذابلة :

ـــ أصبحت بحمد الله بارئا يا بنى .

ذهبت أوصاب نفسه لما رأى ابنه الحبيب وملأ أنفه عبيره ، إنه يحس أن صدره انشرح على الرغم من أنه كان يلتقط أنفاسه فى جهد جهيد . إنه إن لفظ النفس الأخير يموت قرير العين فيده فى يد إسماعيل ومن حوله إسحاق ويعقوب ومدين والصالحون ، وستصعد روحه إلى الرحمن

الذى اتخذه خليلا .

وراحت تمر بذهنه أيام أور فرأى جده ناحور وأباه آزر وأمه إيمتالى . ورأى نفسه فى معبد نانا والقوم يعبدون مردوخ ويرمزون له بكوكب المشترى ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين .

ورأى الناس يعبدون القمر ، يعبدون سين ونانا ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

ورأى الناس يعبدون شماش إلٰه الشمس ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون .

إنه اهتدى إلى الله قبل أن يبعث ، آتاه الله رشده من قبل وكان به عالما .

ورأى نفسه وهو فتى يحطم تماثيل سين وشماش وعشتار والأصنام ثم يعلق الفأس بأذنى مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب !

ورأى قومه وهم يلقون به فى النار ، ومس أذنيه ذلك الصوت الذى سمعه وهو بين براثن اللهب : « يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » .

وطافت بذهنه فى لحظات أيام دمشق وذلك اليوم الذى أسر فيه إليعازر الدمشقى ، وأيام مصر وخروجه منها وفى قبيلته هاجر ولم يحس فى تلك اللحظة النعمة الكبرى التى أنعم الله عليه يوم وهب ملك مصر لسارة هاجر أميرة منف ، هاجر التى ادخرها الله له لتلد له ابنه البكر الحبيب .

إنه يحس وهو يفارق الدنيا أن ليلة بنائه بهاجر كانت بداية النصر العظيم ، جاءت له بإسماعيل وأمره الله أن يسكنها هى ورضيعها بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم ليتوج جهاده بشرف إقامة القواعد من البيت العتيق ، ليأمره بأن يؤذن فى الناس بالحج ليحقق له دعوته التى دعاها يوم أن قال : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وجاء إسماعيل ومن بعد إسماعيل جاءته البشرى بإسحاق ، ورأى الضيف يدخلون عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

وتذكر سارة فى ذلك اليوم إذ عرفت أن الضيف رسل الله فضحكت من خوفه فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب * قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

وأحس إبراهيم الفناء يسرى فى أطرافه وكان يوصى بنيه بالتقوى طوال حياته ، فرأى وهو يغادر الدنيا ليقبل على الآخرة أن يوصيهم وصيته التى فيها خير الدنيا والآخرة فطلب من بنيه أن يدنوا منه ويعقوب وقال :

— ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم

مسلمون ﴾ .

وفاضت روح من ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، روح من اتخذه الله خليلا ، روح من قال لجبار الأرض فى إيمان عميق : ربى الذى يحيى ويميت ، وروح من كان أمة لله حنيفا وما كان من المشركين ، روح إبراهيم الذى وفى .

وأهت رفقة أهة فيها ذوب نفسها ، كانت تحس نار الحزن تتلظى فى أحشائها ، وبكى إسحاق ويعقوب ، وانهمرت العبرات غزيرة من عينى إسماعيل ، وأجهش الرجل الخشن المتأبد بالبكاء وغص بالدموع ، كان أبوه عينيه اللتين بهما يرى وأذنيه اللتين بهما يسمع وروحه التى تخفق بين جنبيه ، كان حبه الكبير .

والتقت عينا إسماعيل بعينى إسحاق ففاضت مشاعرهما حتى إن إسماعيل اعتنق أخاه وامتزجت دموعه بدموعه فضج من فى الخيمة بالبكاء والعويل . ولم يستطع إليعازر الدمشقى أن يرى سيده الحليم الأواه المنيب جثة هامدة فغادر الخيمة وهو واله حزين لا يرقأ له دمع وفى حلقه وقدة نار وبين جنبيه سعير .

ورأى الناس إليعازر فاشتد نحيبهم وراحوا يموج بعضهم فى بعض ذاهلين ، كانوا حيارى لا يدرون كيف تصبح حبرون دون أن تتردد فى أرجائها أنفاس الخليل .

وحمل إسماعيل وإسحاق ومدين ويعقوب الجثة الطاهرة وانطلقوا بها إلى مغارة المكفيلة ليقبروا جثة رجل الإيمان إلى جوار جثة سارة ، فقد رجعت النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية .

وعبق الجو بأريج عطر وأفعم بالتسبيح وغشى الكون خشوع ، كان

من فى السماء ومن فى الأرض يسبحون لله ملك السماوات والأرض وإليه المصير .

ودلوه فى حفرته ثم أهالوا عليه التراب ونزل بقلوبهم حزن ثقيل ، وعادوا مطأطئى الرءوس تنز أفئدتهم أسى ولوعة . لقد صبغ إبراهيم حبرون صبغة تنم عنه ، إنه فى كل أرجائها سواء أحيا كان أم كان ميتا ، إن كل ما فى حبرون يذكر الناس به ، إنها مدينته وستظل إلى الأبد مدينته ، إنها الخليل .

٣٠

كانت كلمات خليل الرحمن تدوى فى آذان إسماعيل وإسحاق ومدين ، إنه وصى بها بنيه ويعقوب : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . كانوا على علم بأن الله قد وعد بأن يورثهم المشارق والمغارب وأن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

إنها لنعمة من الله وفضل أن جعل فى ذرية إبراهيم النبوة والكتاب وجعلهم خلفاء فى الأرض واصطفاهم على العالمين ، فكانوا يذكرون الله ذكرا كثيرا ويسبحونه بكره وأصيلا ، ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ .

وكان إسماعيل مطمئن النفس سليم القلب يحب إسحاق وبنيه فقد كان يجد فيه ريح أبيه . وكان إسحاق يعظم إسماعيل ويحبه من كل قلبه لم ينفس عليه مكانته ولم يمنع عنه حقا من حقوقه ، إن إسحاق كان نبيا من الصالحين .

كان إسحاق يحب إسماعيل وكانت أمنيته أن يشد الأواصر بين بنيه وبين بنى إسماعيل ، أن يجعل ذرية إبراهيم وحدة مؤمنة متماسكة ، وحدة تدعو إلى الله .. إلى الهدى .. إلى النجاة . وكان إسماعيل ممتلئا بروح الفروسية لم يدر بخلده أبدا أنه قد يأتى يوم يقوم فيه خصام بينه وبين أخيه أو بين بنى إسحاق وبين بنيه ، إنه فى منعة من قومه وإنه على استعداد دواما أن يهب لنجدة أخيه إذا ما تعرض لعدوان ، وقد وصى بنيه أن

يكونوا مع أبناء عمهم على الكافرين .

كان إسماعيل وإسحاق وذرية إبراهيم يسارعون لفعل الخيرات وأمدهم الله بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا ، بيد أن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين . وكان عدو إسماعيل بين المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان بإسحاق ودعوته ، كان قلبه ممتلئا حسدا على أن جعل الله لإسماعيل وبنيه حرما آمنا بينا يتخطف الناس من حولهم .

كان يقول لآل إسحاق والحقد ينهش قلبه إن بيت الله عندهم خيمة لا تستقر فى مكان ولا يحج إليها الناس بينا صار لإسماعيل وذريته بيت محرم يشد إليه الرحال ، مبارك تهوى إليه أفئدة الناس ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .

إن خليل الرحمن لم يشرف حبرون ولا أرض الكنعانيين كلها ببناء بيت أو هيكل لله ، إنه دفن فى حبرون وصارت بعد موته الخليل بيد أن كل ما تركه من أثر لإقامة الشعائر الدينية خيمة للرب يؤمها المؤمنون من آل إسحاق والذين معهم .

إن خير ما فعله خليل الرحمن بعد أن دعا الناس إلى الله رب السماوات والأرض رب العالمين أن أقام القواعد من البيت وإسماعيل فأقر لمكة بالزعامة الدينية دون سائر بقاع الأرض ، وراح عدو إسماعيل يوسوس لآل إسحاق أن أى بيت لله أو أى هيكل يبنونه ذات يوم مهما عظم ولو تعاون على بنائه الإنس والجن لن يصل إلى ما وصل إليه البيت المحرم من شرف ، إنه أول بيت بنى للناس وقد شارك فى إقامة شعائر الحج إليه خليلَ الرحمن هاجرُ وإسماعيل .

وراح ينزع بين إسماعيل وبنيه وبين إسحاق وبنيه ، كان يقول : إن

الآبار التى حفرها إبراهيم
الكنعانيين مهما كانت مبارك
سقيا للحجيج .

وسد إسحاق وآل إسحاق آذانهم عن تلك
تمزق وحدة المسلمين ، كانت وصية خليل الرحمن هم "
لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون لا تزال تخفق بين جنوبهم
قلوبهم سليمة وكانت غاياتهم واحدة ، إعلاء كلمة الله وإقرار الناس بأن
لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، كانوا لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا
والعاقبة للمتقين .

كان إسحاق يحب أخاه الأكبر حبا شديدا وكان حبه ابنه العيص يفوق حبه يعقوب ، فعزم على أن يزوج العيص محلة ابنة عمه إسماعيل ، وكان حب رفقة يعقوب أشد من حبها العيص فعزمت على أن تزوجه راحيل ابنة أخيها لابان .

وشب العيص وتزوج يهوديت بنت بيرى من الحيثيين الذين نزلوا بأرض كنعان فأحس إسحاق مرارة وحزنت رفقة ، فقد كانت أمنيتها أن يتزوج ابنهما ابنة عمه إسماعيل صادق الوعد الأمين ، من فداه الله بذبح عظيم وجعله صديقا نبيا .

وعاد العيص وتزوج بسمة بنت إيلون من الكنعانيين ، وضاق صدر إسحاق بتلك الزيجة واستاءت رفقة فقد كان هواها مع هوى زوجها ، كانت تؤيد زواج العيص من محلة بنت إسماعيل .

ودعا إسحاق ولديه العيص ويعقوب فدخلا عليه فأخذ يتحسسهما بيده فقد فقد بصره ، وكان العيص أشعر وكان يعقوب أجرد فكان

يفرق بينهما باللمس ، وقال ليعقوب :

— يا بنى لا تتزوج من بنات كنعان ، قم واذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت جدك واتخذ لك زوجة من هناك من بنات خالك لابان بارك الله يا بنى فيك . إن الله قد وعد أن يجعل فى ذرية خليله الكتاب والحكمة وإنه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم .

وسمع العيص وصية أبيه لأخيه يعقوب . إن أباه ينهى أخاه أن يتخذ زوجة من الكنعانيين ، وقد علم أن جده إبراهيم العظيم قد نهى أباه إسحاق من قبل أن يتخذ زوجة منهم بينا تزوج هو اثنتين منهم .

إن أباه بوصيته لأخيه قد أعلن عن عدم رضائه عن زواجه من بنات كنعان ، وهو يحب أباه ويحب أن يرضيه فنهض وقال :

— إنى ذاهب إلى مكة .

— لماذا يا بنى ؟

— لأتزوج محلة بنت عمى إسماعيل .

وانشرح صدر إسحاق وراح يتحسس جسد ابنه الأشعر ويقول :

— اذهب يا بنى بارك الله فيك .

وخرج العيص لينطلق إلى الجنوب إلى بكة المكرمة إلى بيت الله العتيق ، وخرج يعقوب لينطلق إلى الشمال إلى حاران إلى بيت جده ، إلى فدان آرام حيث ولدته أمه ، إلى البلد الذى قبر فيه آزر وقال فيه إبراهيم الخليل : إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم .

وسار يعقوب حتى إذا جن الليل دخل مدينة إيليا بيت الله وكانت تموج بالصابئين من آمنوا بالله وبرسوله إدريس ، ثم آمنوا بالله ورسوله إبراهيم الخليل . وبحث يعقوب عن مكان يبيت فيه حتى اهتدى إلى

مكان هادىء فتوسد حجرا ونام فرأى عند رأسه فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه ، وأسرى به ، أسرى الله به ، أسرى إيل به وجعله نبيا من الصالحين ، فصار منذ تلك الليلة إسرائيل .

وتهلل يعقوب بالفرح فقد كان عمه أول من نسب إلى الله إلى الإيل فسمى إسماعيل ، من سمع الله دعاء أمه وأبيه فيه ، وها هو ذا ينال مثل الشرف الذى ناله عمه فينسب إلى الإيل ويصبح إسرائيل .

وبلغ إسرائيل مدينة فدان آرام فخطب إلى خاله لابان ابنته راحيل فقال له :

— هل من مال أزوجك عليه ؟

كان إبراهيم خليل الرحمن غنيا يملك الذهب والفضة والمواشى والعبيد بيد أن الأنبياء لا يورثون ، فقد تصدق إليعازر الدمشقى وكيل بيت إبراهيم بكل ما ترك الخليل من متاع الدنيا و لم يصبح إسحاق بعد غنيا .

ورَّث إبراهيم أبناءه الكتاب والحكمة ووعد الله أن يجعل فيهم النبوة وإنه لشرف عظيم لا يعدله كل ما فى الأرض من كنوز . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

كان إسرائيل لا يملك مالا فأبوه إسحاق يتصدق بكل ما يصل إلى يده و لم يزوده بمال يدفعه لخاله فقال :

— لا مال عندى إلا أنى أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك .

— صداقهـا أن تخدمنى سبع حجج .

- فزوجنى راحيل وهى شرط ولها أخدمك .

كان لخاله ابنتان ليا وهى الكبرى وراحيل وهى الصغرى ، وكان

إسرائيل يرغب أن يتزوج راحيل فقال له خاله :

— ذلك بيني وبينك .

* * *

وانطلق العيص إلى مكة وكان أقرب الأخوين شبها بعمه إسماعيل ، كان رجل صيد خشنا متأبدا فارسا يضرب فى الصحراء ويعود بالصيد الوفير ، وطالما عاد إلى أبيه إسحاق بالغزلان والأرانب البرية والطيور .

ولاحت له حدود الحرم التى نصبها عمه ناحية الشأم فارتفع صوته بالتلبية وبين جنبيه عواطف متأججة بإيمان عميق ، إنه مقبل على البيت العتيق الذى أقام قواعده جده الخليل وعمه العظيم .

وأشرف على الكعبة فخفق قلبه على الرغم من الأمن الذى غشيه والنور الذى أشرق فى روحه ، وفاضت جنباته بالرقة والرحمة حتى ترقرقت الدموع فى عينيه وسالت عبراته .

كان الناس يطوفون بالبيت يسبحون لله ويبتهلون إلى رب السماوات والأرض واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وكانت الدعوات شجية عذبة تعبث بأوتار القلوب وتبعث فى الوجدان أرق العواطف وأنبلها .

وانحدر العيص إلى البيت وهو مفعم بالمشاعر الطاهرة التى تطلق الروح لتسبح فى نور النور ، وراح يلبى وكل خلجة من خلجاته تستشعر وجود الله وأنه يتجلى على عباده .

وملأت صورة جده صفحة ذهنه وتذكر وصاياه ، وراحت وصية بعينها تلح على ذهنه بدا كأنما حفرت فى أعماق نفسه . إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

إنها النور الذى يهتدى به إسماعيل وبنوه فى مكة ، وهى النور الذى

يهتدى به إسحاق فى أرض الكنعانيين أرض فلسطين ، وهى النور الذى يهتدى به يعقوب فى فدان آرام ، وهى النور الذى يهتدى به العيص أينما كان .

واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم راح يسعى بين الصفا والمروة سعى هاجر بينهما يوم تركت عمه يقاسى من العطش وذهبت تستعجل وعد الله .

وحلق شعره عند المروة ثم انطلق إلى بيت عمه فقابله نابت وقيدار وأبناء عمه بالترحيب ، وقالوا له إنهم علموا بمقدمه وعرفوا أنه يطوف بالبيت فخفوا إلى بيت أبيهم لينتظروه .

وجاء إسماعيل وقد نالت منه السنون إلا أنها زادته مهابة وشرفا ، كان الشيب تاجا على رأسه و لم تستطع الجفون التى تهدلت على عينيه أن تخفى البريق الأخاذ الذى يشع منهما فيملأ النفوس جلالا واحتراما .

ورأى العيص عمه فخف إليه متفتح النفس فاحتواه عمه بين ذراعيه وقبله . كان إسماعيل يحب إسحاق ويحب أبناءه حبه بنيه .

وقال العيص لعمه :

ـــ جئت يا عمى لأخطب إليك محلة .

فلم يقل إسماعيل لابن أخيه : هل من مال أزوجك عليه ؟ كما قال لابان لابن أخته إسرائيل بل قال :

ـــ بارك الله لك فيها وبارك الله لها فيك .

وبنى العيص بمحلة بنت إسماعيل فولدت له الروم بن عيص لترث ذرية إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها وليتحقق وعد الله ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ .

٣١

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

اهتزت جنبات الوادى المقدس بالتلبية ، كان الحجيج يأتون من كل فج عميق من اليمن وتهامة ويثرب والشام ، فقد استدارت السنة وبزغ قمر ذى الحجة .

وراح نابت بن إسماعيل يسقى الحجيج ويسهر على راحتهم ، يطعم فقراءهم ويبش لحجاج بيت الله وإن كان الأسى يحز فى نفسه ، فقد كانت هذه أول سنة مذ أذن خليل الرحمن فى الناس بالحج يغيب فيها إسماعيل عن سقاية الناس والترحيب بهم فهو مسجى فى فراشه لا يقوى على النهوض .

ووقف نابت إلى جوار بئر زمزم يرقب الناس وسرعان ما شرد ذهنه فرأى نفسه صغيرا وهو يجلس إلى جوار جدته هاجر خلف البئر يصغى إليها وهى تقص عليه قصة بركة أبيه التى فجرت زمزم لتكون سقيا لحجيج البيت المحرم .

كانت جدته تملأ مكة حياة ، كانت الروح التى سرت فى أرجائها والنور الذى أنار عقول ولدانها ، إنه ليذكر كيف كانت جدته تجمع صبيان جُرهم والعمالقة وتحفظهم صحف إبراهيم وتعلمهم الكتابة على ألواح من عظام الإبل ، فقد كانت أول من خط بالقلم فى مكة .

وتذكر نابت حديث أبيه له ذات ليلة وكان القمر قد اكتمل بدرا وسكب أشعته الساحرة على الوادى ففاضت على البيت وعلى كل الجبال التى حوله وملأت النفوس بمشاعر ناعمة رقيقة تشرح الصدور وتطلق الألسنة من عقالها :

ــ هل خط أحد بالقلم قبل هاجر فى بلادنا يا أبتاه ؟

ــ ثمود قوم صالح وكانت لهم جنات وعيون .. وزروع ونخل طلعها هضيم . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين .

وأطرق نابت حزنا فقد ذهبت هاجر وتركت فى النفوس لوعة ، ولكن سرعان ما ملأ إسماعيل العظيم فراغ الأفئدة وفراغ العقول وصار الأنفاس المترددة فى الوادى الذى ضاق بالناس ، بعد أن كان قفرا قبل أن يسكن خليل الرحمن هاجر وابنه البكر إسماعيل عند بيت الله المحرم ، فإن ذهب إسماعيل بعد هاجر فمن للناس بعده .

واستشعر نابت رعدة تسرى فى بدنه ، إنه اليوم سيد قومه كلمته شريعة إذا أشار لبى الناس وإذا نصح أطيع أمره ، وما كان فظا ولا غليظ القلب فالتف الناس حوله ، لكنه يحس فى أعماقه أن مكانته مستمدة من عظمة ذلك الرجل الممدود فى فراشه ، من تفيض هيبته وإن كان لا يستطيع حراكا .

وفح فى جوفه صوت يسأل : « أتستطيع يا نابت أن تملأ ذلك الفراغ الهائل الذى يخلفه موت أبيك ؟ » فتقاصرت نفسه وغشيته رهبة ، وفى مثل لمح البصر غامت عيناه بالدموع وأحس رغبة فى أن يجهش بالبكاء ، أن ينفس عن الحزن الذى ألمَّ به وضاق به صدره .

أيموت إسماعيل ؟! إنه مكة .. إنه بئرها المباركة وبيتها المحرم ، فإن

كان إبراهيم قد أقام القواعد من البيت وإسماعيل ، فقد عاد إبراهيم إلى حبرون بعد أن طهر البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود وبقى إسماعيل فى بيت الله يخدم زواره ويسقى حجيجه .

وما من زائر أو حاج وفد على مكة إلا وجاء يسعى إلى إسماعيل يقرئه السلام ويلقى إليه سمعه . وقد عاده حجاج هذا العام وغشى وجوههم الإظلام ونزل بقلوبهم حزن ثقيل لما علموا أن إسماعيل أقعده مرضه عن أن يؤدى معهم المناسك ، ولو كان به قدرة على الحركة لحملوه فى محفة ، ولكنه كان أعجز من أن يرفع يدا أو يحرك ساكنا .

وغص حلق نابت . إن الفارس الذى لا يشق له غبار والرامى الذى طالما رمى بالنصال ، من كان يشتعل بالفتوة والحياة بات جسدا كل ما يربطه بدنياه أنفاس واهنة تشهق فى جهد وتزفر وجلة ألا يعقبها نفس آخر .

كان قلب نابت يهوى إلى أبيه ، ملك عليه حبه إياه كل حواسه . إنه قلق يريد أن يذهب إليه وأن يبقى إلى جواره إلى أن يقضى الله أمره ، ولكنه الآن سيد قومه عليه أن ينهض بواجبه وأن ينسى آلامه وعواطفه وأن يسمو فوق واقعه وألا ينسى أنه حفيد من اتخذه الله خليلا وابن إسماعيل صادق الوعد من اصطفاه الله وفضله على العالمين .

وخرج الناس إلى عرفات وذهب نابت إلى أبيه يلقى عليه نظرة ويستأذنه فى الخروج فألفى قيدار وإخوته عنده وقد لاح الأسى فى وجوههم فاشتعل الحزن فى نفسه ومال على أبيه وقال :

— كيف أصبحت اليوم يا أبتاه ؟

وفتح إسماعيل عينيه فى جهد وحاول أن يبتسم ولم يحر جوابا ، إنه

ليذكر أنه ألقى على أبيه نفس السؤال يوم جاد بروحه لتنطلق إلى الرفيق الأعلى . إنه يحس الموت يدنو منه وأنه عما قريب يلقى ربه وأنه سائله عما قدمت يداه فى دنياه فقال فى صوت خافت :

— يا بَنى اذهبوا . حجوا قبل ألا تحجوا بارك الله فيكم .

وخرج بنوه مطرقين رطبت عيونهم وجفت حناجرهم ونزت أفئدتهم أسى ، وراح إسماعيل يجاهد أن يملأ عينيه منهم قبل أن يغيبوا عن ناظريه ، وأرهف سمعه للتلبية التى تجاوبت فى الآفاق فإذا بالوحشة التى كادت تطبق عليه تنقشع وإذا بالمكان يشيع فيه أمن وسلام .

وانطلق بنو إسماعيل إلى عرفات وكانوا اثنى عشر رجلا على رأسهم نابت يرفع صوته بالتلبية ، فإذا بصوته يتهدج ويفعم بنبرات تنبض بإيمان عميق يهز الأفئدة ويفتح الأرواح لتلقى ما يهب الله لعباده من رحمته .

ومضى يوم عرفة وقلب نابت عامر بذكر الله ، كان ذاهلا بربه عن نفسه وعن دنياه ، ذرف الدموع وقرص الشمس يغيب فى الأفق الغربى وراح يبتهل بكل وجدانه أن يغفر الله له سيئاته وأن يجعله من الأبرار .

وبدأ الناس ينفرون إلى المزدلفة ليبيتوا ليلتهم هناك ، وركب نابت راحلته وإذا بصورة أبيه الممدود فى فراشه تملأ الأفق أينما يولى وجهه . ترى أيموت إسماعيل وحده ؟ إن الله أرأف به من أن يجرعه غصص الموت دون شهداء ، لقد رحمه صغيرا وفجر له زمزم وسيرحمه كبيرا جزاء على صبره ، إنه لمن الأخيار .

وفى الفجر صلى نابت بالناس ثم جر كبشه وراءه وصعد إلى جبل ثبير ، إلى حيث أخذ جده أباه ليذبحه تصديقا للرؤيا التى رآها فى المنام ، فصبر أبوه على بلاء الله وقال : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، وفداه

الله بذبح عظيم .

لو لم يرحم الله أباه وترك إبراهيم يذبح بكره إسماعيل لجاء هو نفسه اليوم ببكره ليذبحه قربانا لله ، ولجاء المؤمنون بأبكارهم ليذبحوهم ولكن الله فداه بذبح عظيم فأصبح نحر الأضاحى بعد صلاة العيد شعيرة من شعائر الإسلام شكرا لله الذى حرم التقرب إليه بنحر الأبكار من الولدان كما كان الأمر قبل أن يصبر إسماعيل على بلاء الله .

إن الله أرحم من أن يترك إسماعيل يموت وحده . ومن قال إن إسماعيل وحده ؟ إنه كان طول حياته ميالا للوحدة متأبدا يضرب فى جوف الصحراء ليعتزل العالم ويعيش مع الله ، وورث عن أمه حب الأنس بالله ، قالت أمه لزوجها يوم أسكنها بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم : لمن تكلنا ؟ قال : لله ، قالت فى إيمان : إذًا لن يضيعنا .

لم يكن إسماعيل وحده . كان مع الله وفى كنف الله وفى رعاية الله ، ومن كان الله وليه فلا خوف عليه . إنه من أصحاب الصراط السوى إن هذا لهو الفضل المبين .

وأتم الناس مناسك الحج وعادوا إلى البيت يطوفون به وامتلأ الوادى بأصواتهم . وبلغت أصوات الناس مسامع إسماعيل فلم ينشرح صدره و لم تتهلل نفسه بالفرح . كان فى شغل عن الدنيا بأبيه وبأمه فقد كانا لديه لما حضره الموت . إنهما يدعوانه أن يفر من سجن الجسد ليلحق بهما فى جنات النعيم التى وعد الله بها المتقين .

ودخل نابت وإخوته على أبيهم ملهوفين ، ومال نابت عليه فى حنان وقبله قبلة أودعها كل حبه ، وفتح إسماعيل عينيه وقال :

ـــ ادفنونى إلى جوار أمى .

وكان آخر عهده فى الدنيا صوت أبيه
إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربـ
العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريـ
مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربـ
منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك انت
العزيز الحكيم ﴾ .

تذييــل

ذكرت فى تذييل الجزء الأول أنى أعتمد فى كتابة هذه السيرة على الحقائق التاريخية ، وأنى أشير فى نهاية كل جزء إلى ما خالفت فيه المتواتر بين المؤرخين أو الإخباريين ، مع ذكر أسباب تفضيل رواية على رواية ، أو ترك ما هو متواتر واستنتاج ما يتسق مع منطق الحوادث ومقومات الشخصيات .

كان القرآن الكريم هو النبع الذى حاولت أن أستمد منه سيرة الخليل ودعوته التى كان يدعو إليها ، ثم التوراة فيما لا يتعارض مع النهج الإسلامى عند دراسة حياة الرسل والأنبياء . ولم آخذ بكثير مما جاء فى التوراة أو فى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول — ﷺ — أو بروايات المؤرخين والإخباريين التى اعتمدت كل الاعتماد على التوراة ، لما وجدت أن ما ورد بها يخالف أحاديث نبوية صحيحة ، أو يعارض بعضها بعضا ، أو لا يتفق مع ما كشفت عنه الحفريات الحديثة فى بلاد العراق واليمن وبلاد الشرق الأوسط ، وهذه كانت كل العالم فى تلك الأزمان .

وقد ترجمت التوراة إلى اللغة العربية فى القرن الثانى للهجرة ، فنهل منها الإخباريون والمؤرخون وملئوا التاريخ الإسلامى بالإسرائيليات ، ووضعوا أحاديث نبوية بحسن نية أو بسوء قصد لتطابق ما جاء فى التوراة . وكان عذرهم فى ذلك اعتقادهم أن ذلك الكتاب الذى ترجم إلى العربية منزل من السماء .

كان السامريون يؤمنون بالإصحاحات الخمسة الأولى فى التوراة ويقولون عما عداها إن هو إلا تاريخ لليهود ، فإن كانت التوراة نزلت على موسى فكيف تروى تاريخ اليهودية من بعده حتى قيام المسيح عليه السلام بدعوته ؟!

لم يؤمن السامريون إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى واعتقدوا أن الكهنة كتبوا بأيديهم ما عداها من التوراة ، ويروى الجزء الثالث من هذه السيرة ما طرأ على التوراة من تغيير ، أما المؤرخون والإخباريون المسلمون فقد أخذوا عن التوراة دون أن يحاولوا إظهار ما فيها من تضارب ، بل كانوا فى بعض الأحيان يرجحون رواية التوراة ويحاولون إيجاد تفسيرات لما يعارضها فى القرآن ، من ذلك أنه جاء فى القرآن الكريم : « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » وجاء فى التوراة أن اسم أبى إبراهيم تارح ، فراح الإخباريون والمفسرون يجتهدون فى إيجاد معنى لآزر حتى لا يكون اسما لأبيه وحتى لا يكون هناك تعارض بين التوراة والقرآن ، فقال بعضهم آزر اسم صنم ، وقال بعضهم إن معناها أعرج وبذلك يصبح تفسير « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر (أى يا أعرج) » أما الذين تحرجوا فى التأويل فقالوا : إبراهيم بن آزر وهو تارح ، وقال آخرون آزر عمه وقد ينسب الابن لعمه !

إن من التوراة ما كتب على أيام المملكة الإسرائيلية ، ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، ومن هنا جاء ما يلاحظ فيها من تعارض . ونسوق مثالا لذلك ما ورد فى تفسير اسم بئر سبع ، ففى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين سأل أبيمالك إبراهيم :

ـــ ما هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها ؟

قال الخليل :

ـــ إنك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون شهادة لى بحفر البئر .

لذلك دعى ذلك الموضع بئر سبع .

وفى الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان مما يلى :

« وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد إسحاق جاءوا وأخبروه عن البئر التى حفروها وقالوا له قد وجدنا ماء ، فدعاها شبعة ، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى اليوم » .

وما أكثر الروايات المتعارضة فى التوراة ، ولذلك لم آخذ ما جاء فيها على أنه تنزيل من الله ، فقد كتبها أحبار اليهود بعد أن انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون وبعد أن انقضى على عهد إبراهيم عليه السلام نحو أحد عشر قرنا . لذلك كنت أقيس كل رواية على القرآن أو روح القرآن أو المنطق والعقل أو ما كشفت عنه الأحافير . لم أفسر ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ بما فسره به المفسرون وما ذكره الإخباريون ، لأنهم اعتمدوا فى تفسيرهم على أساطير اليهود ، وسأذكر الأسطورة للتدليل عل ضحالة النبع الذى استقى منه المفسرون والإخباريون معلوماتهم .

« تزوج تارح من إيمتالى بنت كرناب فرزقا إبراهيم ، وكان مولده مرصودا فى الكواكب فاطلع عليه النمروذ واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات وإغداق العطايا والجوائز على أهليهن ليفرحوا بمولد البنات .

وأحس تارح أن امرأته حامل ، فلما أراد أن يتحقق ذلك صعد الجنين إلى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل . وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت إلى كهف ولدته فيه وتركته ثمة وهى تدعو ، فبقى ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث فى الكهف أقل من ذلك على روايات الأخرى ، وأرسل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان . وخرج من الكهف ليلا وهو فى الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هى الأرباب ، فلما أشرقت الشمس قال : كلا بل هذه هى الرب ، فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا ... فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . إنما الرب المعبود هو الذى يدبرها ويسيرها ويبديها ويخفيها .

وفى بعض الكتب أن أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوما حيث تركته فوجدت فى طريقها صبيا ناميا ...

على مثل هذه الأساطير الإسرائيلية اعتمد المفسرون والإخباريون المسلمون ، وقد يكون لهم بعض العذر فما كانت الأحافير قد كشفت النقاب بعد عن ذلك العصر القديم الذى مضى عليه ألف سنة قبل أن يكتب اليهود تاريخهم فى المملكة الإسرائيلية أو فى بابل فى أيام الأسر .

ظهر من الأحافير فى اليمن أن العرب كانوا يعبدون القمر (الموقاة) وكان الإله الأب ، والشمس (ذات حميم) وكانت الأم ، والزهراء (عشتر) وكان الابن .

وظهر من الأحافير فى العراق أن العرب الذين أسسوا مملكة بابل قد جعلوا إلـه قبيلتهم مردوخ وكانوا يرمزون إليه بالمشترى رب الأرباب ، وجعلوا القمر فى المرتبة الثانية بعد الكوكب ، والشمس فى المرتبة الثالثة

بعد القمر .

كانت عبادة الكوكب والقمر والشمس ديانات لها شعائر ومراسيم وكانت لها هياكل وأبراج ، ولم تكن المسألة أمر أم حملت فأوت إلى كهف وضعت فيه طفلها ومكث فيه لا يرى الشمس ، فلما جن الليل وخرج منه رأى كوكبا فقال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، بل كانت عبادة الكوكب والقمر والشمس ديانات فى بلاد ما بين النهرين ، وقد رأى إبراهيم هذه الديانات وفكر فيها ثم رفضها جميعا قبل الرسالة : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ ثم هداه الله إلى الدين القيم إلى عبادة الله الواحد القهار ولم تكن المسألة خروج طفل من كهف وتقليب وجهه فى السماء ثم إنكار ألوهية الكوكب والقمر والشمس وانتهاء الرسالة فى ليلة واحدة !

والمتواتر والمعروف أن هاجر مصرية وأنها جارية سارة ، أما أنها مصرية فقد ورد ذلك فى التوراة وجاء فى حديث شريف عن أبى ذر أن رسول الله — ﷺ — قال : إذا افتتحتم مصر ، أو أنكم مستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما . ورواه ابن إسحاق عن الزهرى وقال : قلت للزهرى : ما الرحم التى ذكر ؟ قال : كانت هاجر أم إسماعيل منهم .

وقال الإخباريون والمؤرخون العرب إن هاجر من الفرما ، وعذرهم فى ذلك أن ملك مصر أهدى هاجر إلى سارة فى أواريس ، فظنوا أن أواريس مسقط رأسها .

ذكرت أن هاجر من منف وأنها أميرة من أمراء الفراعنة ، ولم يكن ذلك وحى خيال فقد اعتمدت فى ذلك على ما كان بين عمرو بن العاص

لما ملك مصر والمقوقس عظيم القبط .

قال الطبرى : إن عمرو بن العاص لما ملك مصر أخبرهم بوصية النبى — ﷺ — بهم ، فقالوا هذا نسب لا يحفظ حقه إلا نبى لأنه نسب بعيد ، وذكروا له : إن هاجر كانت امرأة لملك من ملوكنا ، ووقعت بيننا وبين أهل عين شمس حروب كانت لهم فى بعضها دولة ، فقتلوا الملك وسبوها ومن هناك تسيرت إلى أبيكم إبراهيم .

وكان حمورابى الملك البابلى هو الذى رفع مردوخ فوق الآلهة جميعا وجعله رب الأرباب ، وكان يرمز لمردوخ بالكوكب ، وأكاد أجزم أن إبراهيم قام بدعوته فى ذلك العصر اعتمادا على ما جاء فى القرآن الكريم من تسلسل العبادة أيام خليل الرحمن ، فقد كان الكوكب فـوق الآلهة جميعا ، فالقمر فالشمس .

ويقرر العلماء المشتغلون بدراسة الكتاب المقدس أن تاريخ إبراهيم يقع حوالى عام ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وهو تاريخ قريب من عهد حمورابى .

ويذهب Emory Bogardus فى كتابه The Development of Social Thoughts إلى أن حمورابى هو أقدم حكام بابل المعروفين ، ويرجح أنه هو نفس إمرافيل المذكور فى العهد القديم وهو الذى حاربه إبراهيم .

وكانت مصر فى ذلك العصر فى حالة ضعف مكنت القبائل العربية التى نزلت شرق الدلتا للرعى من الوثوب على الحكم وتأسيس مملكة الهكسوس .

كانت المناوشات مستمرة بين الرعاة أو العمالقة الذين خرجوا من تهامة واتخذوا أواريس عاصمة لهم وأخضعوا الدلتا ، وبين الفراعنة الذين كانوا فى الجنوب ، ومن هنا رجحت أن تكون هاجر أميرة من أميرات

منف وقعت فى الأسر وحملت إلى أواريس ، ومن ثم وهبها ملك الهكسوس إلى سارة .

وجاء فى الإصحاح السادس من العهد القديم أن سارة لما لم تلد قالت لإبراهيم : « هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، فادخل إلى جاريتى لعلِّى أرزق منها بنين » وقال يوسفوس المؤرخ اليهودى إن سارة قدمت هاجر إلى إبراهيم لما أمر الله بذلك ، وقد أخذت بهذه الرواية .

وجاء فى الإصحاح الحادى والعشرين بعد أن وهب الله لسارة إسحاق : « ... ورأت ابن هاجر المصرية يمزح ... فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق ، فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم ... » .

وقد أخذ المفسرون والإخباريون المسلمون بهذه الرواية فى تفسير خروج هاجر وإسماعيل من الشأم إلى مكة ، ولكنى لم آخذبها لظهور ضعفها فبين مولد إسماعيل ومولد إسحاق ثلاث عشرة سنة ، وقد جاء فى صحيح البخارى عند الحديث عن ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم « ... وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا ما نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ... » ومن هذا يتضح أن إسماعيل خرج إلى مكة وهو رضيع ، ولم يكن يعرف بعد كيف يمزح أو يسخر من أخيه ، كما أن تصوير سارة بصورة المرأة الغيور من الزوجة الثانية لا يتفق مع جلال سارة ، كما أن زواج إبراهيم من هاجر لم يكن بدعا فقد كان زواج أكثر من زوجة هو النظام المألوف فى تلك الأيام ، تزوج ناحور أخو إبراهيم أكثر من زوجة ، وتزوج يعقوب راحيل وجوارى كثيرات ، ولم

يثر مفسرو الكتاب المقدس تلك الثورة المحمومة العارمة التى ثاروها على زواج إبراهيم هاجر .

خرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بناء على أمر الله وأسكنهما فى مكة لتتحقق إرادة الله لا استجابة لغيرة سارة ولا إطاعة لأوامرها . قالت هاجر لإبراهيم لما تركها وحيدة هى وولدها فى أرض لا زرع فيها ولا أنيس : آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قالت : فإذًا لا يضيعنا .

واستهوت فكرة غيرة سارة من هاجر الواردة فى التوراة من ولعوا بوضع أحاديث لا عقل لها نسبوها إلى النبى — ﷺ — فوضعوا أطول خبر عن إبراهيم نقله رواة الحديث :

« قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ — يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا . قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله . وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . فكان كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين عن طريق كذا ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جربا أو جربين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .. قال : وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم .

قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ : قالت ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم . وأعجبهم حتى شب .

فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا رزقا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بِشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه . قال فإذا جاء زوجك أقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ويقول غيِّر عتبة بابك . قال إسماعيل ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى . وغاب عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم فلم يجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا الرزق ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال اللهم بارك فى اللحم والماء ، قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم أحد ... » .

ولم آخذ بكل ما جاء فى هذا الحديث لأنه ظاهر الاختراع . فمن غير المعقول أن يأتى إبراهيم من الشأم إلى مكة ولا ينزل عن راحلته . وقد فسر المفسرون عدم نزوله بأن إبراهيم استأذن سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه ألا ينزل كأنما كان إبراهيم ألعوبة فى يد سارة . وإن كان قد أطاعها فى أول مرة حتى لا يثير غيرتها فلماذا لم ينزل فى المرة الثانية ما دامت هاجر التى تغار منها قد ماتت كما جاء فى الحديث الموضوع ؟

المشهور أن هاجر ماتت بعد سارة وأنها حضرت بناء الكعبة ، وأنها كانت على قيد الحياة لما ذهب إبراهيم إلى جبل ثبير بإسماعيل ليذبحه بعد النفرة من عرفات .

وجاء فى هذا الحديث أن إسماعيل تعلم العربية من العرب الذين نزلوا مع هاجر عند بئر زمزم، وذكر الإخباريون المسلمون أن إسماعيل كان عربيا وأن إبراهيم كان أعجميا ، وقد رفضت هذا الرأى فقد كان إبراهيم يتكلم العربية وإن لم تكن العربية التى نزل بها القرآن أو التى نتكلمها اليوم . كانت اللغة فى اليمن والعراق ومصر والحجاز لغة واحدة وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الأمم العربية فى هذه الأيام ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويؤيد هذا الرأى ما كشفت عنه الحفريات . يقول ألبرايت فى كتابه عن أحافير فلسطين : « تتقارب اللغات السامية (العربية) القديمة — عدا الأكادية — فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكن الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة فى هذه الأيام » .

ويلاحظ أن الكتاب الأوربيين يستخدمون كلمة « سامية » للدلالة على الأقوام العرب الذين كانوا يهاجرون من آن لآخر من الجزيرة العربية ويستقرون على حدود الأراضى المزروعة ، حتى إذا اشتد ساعدهم وثبوا على الملك كما حدث فى العراق وسورية ومصر .

واستعملت كلمة سامية للدلالة على لغات هؤلاء الأقوام العرب وأجناسهم . ويرجع استخدام كلمة سامية للدلالة على بعض اللغات ثم على بعض الأقوام إلى عام ١٧٨١ عندما استخدمها العالم الألمانى شلويتسر للتدليل على لغات الذين ينسبون إلى سام بن نوح ، الذين كانوا يعيشون فى بلاد العرب وبلاد النهرين وسورية وفلسطين ، ثم انتشرت بعد ذلك إلى الحبشة ومصر وشمال إفريقية وغيرها ، وكلها قديمها وحديثها متصلة بعضها ببعض ، بل ومشتقة من أصل عام واحد . وقد آن الأوان أن نستخدم كلمة عربية بدلا من سامية ليكون للكلمة حقيقة مدلولها .

ولم يأت فى التوراة ذكر لذهاب إبراهيم إلى الحجاز . سكتت المصادر اليهودية سكوتا متعمدا عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة . وإنه لمن الغريب أن يتجه إبراهيم إلى سورية وفلسطين ومصر وإلى الجنوب حتى قادش وجرار ولا يتجه إلى الجزيرة العربية . وبلاد العرب هى الجار الغربى للعراق وليس ثم حواجز طبيعية تعوق الاتصال غير البادية التى كانت القوافل تقطعها فى الغدو والرواح .

ولم تسكت المصادر اليهودية عن ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية ذلك السكوت المتعمد فحسب ، بل سكتت عن كل النهضات الدينية فى جزيرة العرب .

لم تذكر شيئا عن هود أو صالح لأنهما من أبناء العرب كأنما لم تكن عاد وثمود هنالك على مقربة من فلسطين . حدد بطليموس فى أطلسه موقع عاد وثمود ، وكشفت الحفريات عن مدائن صالح ، وعثر على بعض الخطوط الثمودية فى ثمود وفى الطائف . كانت عاد حقيقة واقعة ، وكانت ثمود حقيقة واقعة ، وكان ذهاب إبراهيم إلى مكة وإقامة القواعد من البيت حقيقة واقعة ، وإلا فمن الذى بنى الكعبة إن لم يكن إبراهيم ؟

كان كهان اليهود يحسون منافسة دينية من العرب فضلا عن المنافسة الدنيوية ، وكانوا ينفسون عليهم أن صار لهم بيت محرم منذ أيام إبراهيم بينا لم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس إلا فى أيام سليمان بن داود ، وكانوا يخشون خطر المنافسة فى النسب والمنافسة فى العقيدة فسكتوا ذلك السكوت المتعمد الذى يدل على الشىء الكثير !

كان إسماعيل ابنا لإبراهيم . ذلك واقع لا يمكن إنكاره أو الفرار منه ، لذلك تعمد كهان اليهود أن يخرجوا أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، فراحوا يخترعون أكذوبة أن بنى إسرائيل هم شعب الله المختار ويؤكدون ذلك فى كتابهم المقدس .

سكتت كتب العهد القديم عن علاقة إبراهيم بالكعبة ، ولو أن إبراهيم لم يبن بيت الله للناس ببكة لما كانت له رسالة ، فما ورد عنه فى العهد القديم لا يجعله من أصحاب الرسالات ولا من أولى العزم من الرسل . إنه رجل يتجول فى مصر وسورية ليست له دعوة محددة ، كل همه أن يحافظ على حياته وإن ضحى بشرفه . ففى الإصحاح الثانى عشر جاء : « ... وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته : إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه

امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك » .

وجاء فى الإصحاح العشرين : « ... وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى . فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة ، فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم وقال له ها أنت ميت ... » .

ومن أسف أنه قد جاء فى الكتاب المقدس أن ملك مصر وبخ إبراهيم ، وأن ملك جرار وبخه كذلك على فعلته الشنعاء . أو تكون هذه هى الرسالة ؟ أينسب مثل هذا الهوان إلى إبراهيم أبى الأنبياء ، ويسكت عن بناء بيت الله المحرم لأن ذلك البناء سيرفع من شأن أبناء عمومتهم ، أبناء إسماعيل ؟ وما حدث من إبراهيم حدث من إسحاق ، فقد جاء فى الإصحاح السادس والعشرين : « ... وسأله أهل المكان عن امرأته فقال : هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ... » .

ووضع المولعون بوضع الأحاديث النبوية حديثا تأييدا لما جاء فى العهد القديم : « لم يكذب إبراهيم النبى — ﷺ — قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله قوله : إنى سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا . وواحدة فى ذات سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى ... » .

وراح رواة الأحاديث يروونه ويفسرونه على مر الأيام ، وكذب واضع هذا الحديث وصدق إبراهيم ، إنه كان صديقا نبيا ، وما كان الله

ليتخذ من إنسان غير كامل خليلا .

ولم يكتف كهان اليهود إذ أحسوا من العرب منافسة دينية ومنافسة دنيوية بأن يحرموا أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، بل أرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحاق ، فقد جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له يا إبراهيم فقال هأنذا ، فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » .

وعلى الرغم من وضوح الاختراع فلم يكن إسحاق فى يوم ما وحيد إبراهيم ، وكانت التقاليد تقضى بتقديم الابن البكر قربانا لله ، وعلى الرغم من أن ذلك معترف به حتى فى التوراة إذ جاء فى الإصحاح الثانى والعشرين فى سفر الخروج : حرم على بنى إسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا إلى الله .

على الرغم من وضوح الاختراع فقد راح بعض الإخباريين والمفسرين الذين كانوا يؤمنون بأن التوراة التى ترجمت إلى العربية هى كتاب منزل من عند الله ، راحوا يضعون الأحاديث وينسبونها إلى النبى لتأكيد أن الذبيح إسحاق .

وكان من أثر ذلك أن صار هناك أحاديث نبوية تؤكد أن الذبيح إسماعيل ، وأحاديث أخرى تؤكد أنه إسحاق . وسأكتفى بإيراد حديث من كلا النوعين :

حدثنا أبو كريب قال : حدثنا زيد بن الحباب بن الحسن بن دينار عن على بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن

عبد المطلب عن — النبى ﷺ — حديث ذكر فيه : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال هو إسحاق .

هذا هو الحديث الأول وفيه أن الذبيح إسحاق . وإليك الحديث الثانى الذى يدل على أنه إسماعيل :

حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابى عن عبد الله بن العتبى عن ولد عتبة ابن أبى سفيان عن أبيه قال : حدثنى عبد الله بن سعيد عن الصنابحى قال : كنا عند معاوية بن أبى سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال : على الخبير سقطتم . كنا عند رسول الله — ﷺ — فجاءه رجل فقال : يا رسول الله عد على مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين ، فضحك رسول الله — ﷺ — فقيل له : وما الذبيحان يا رسول الله ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله لئن سهل الله أمرها له ليذبحن أحد ولده قال : فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا : افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل (ففداه بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل) ، وإسماعيل الثانى .

وقال الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير فى ترجمة إسماعيل : وهو الذبيح على الصحيح ومن قال إنه إسحاق فإنه تلقاه مما حرفه النقلة من بنى إسرائيل .

ليس من الغريب أن ينسب أحبار اليهود كل فضل إلى بنى إسرائيل ما داموا هم الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ، وليس من الغريب أن يدعوا أن كل العادات الحسنة نشأت فيهم وأنهم هم الذين نشروها على العالمين .

وقد أفاض اليهود فى الختان وزعموا أن ختانهم يختلف عن ختان الأمم قبلهم ، فالختان عندهم له دلالة دينية ، وقد اقتفى أثرهم كثير من

الإخباريين المسلمين الذين اغترفوا من كتبهم دون حذر ، وجعلوا للختان أهمية قد تدنو من أهمية الإيمان .

إن كان إبراهيم أول من ختن إسحاق وإسماعيل ثم اختتن ، فما كان إبراهيم من بنى إسرائيل وما كان يهوديا ، ولكن الختان عادة قديمة ، فقد قال هيرودوت إنه رأى قدماء المصريين يختتنون .

وقد جاء الدكتور إسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم فى عام ١٩٢٧ ، ليؤكد فضل بنى إسرائيل لا فى الختان فحسب ، بل ليوضح أن « ملة إبراهيم » لها علاقة وثيقة بالختان اليهودى .

يقول الدكتور إسرائيل : « لا شك أن عادة الختان لم تسر من اليهود إلى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ، ويستدل العالم ويلهوزن بوجود قبائل متوحشة حتى فى إفريقيا كانت تألف هذه العادة .

ولست أنكر هذا الرأى لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الأصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت شائعة عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء .

غير أن هناك اعتبارا آخر لم يمعن العلماء نظرهم فى فحصه ربما يرشدنا إلى اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان ، كان الاصطلاح « ملة إبراهيم حنيفا » شائعا عند العرب قبل ظهور الإسلام ، وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له .

لا أريد أن أعود إلى أقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ، ولكن أجتهد فى أن أصل إلى تفسير جديد لهذا الاصطلاح :

يعرف العضو التناسلي بعد ختانه فى العبرية باسم ملة ، كما أن له اسما قبل ختانه وهو غرلة .

وبما أن الختان من أصول الدين الإسرائيلى فقد عبر الناموس الدينى عن كل من اختتن أنه دخل فى ذمة إبراهيم الخليل وعهدهُ .

ومن هنا أطلق اليهود على من اختتن التعبير « ملة إبراهيم » وهذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عندما يعذره (يختنه) .

ولكن حيث إن الختان وحده لا يؤدى إلى الإيمان باليهودية لأن هناك شروطا أخرى لا بد من توفرها كإعلان الدخول فى الديانة التوحيدية الإسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه ، فقد أطلق اليهود على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف ، غير الصالح ، أى الختان غير الوافى بالشروط اليهودية ، وقد جاء فى لسان العرب : وكان فى الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف ... الفراء الحنيف من سنته الختان ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمى المستقيم بذلك ، كما سمى الغراب أعور وتحنَّف الرجل أى عمل الحنيفية ويقال اختتن ... » .

وخرج الدكتور إسرائيل من ذلك ببرهان قاطع على أن عادة الختان قد سرت إلى العرب من اليهود ، وأرى أن ما أورده الدكتور ليس ببرهان قاطع ولا غير قاطع ، إنه يحوى فى طياته معتقدات اليهود التى تسكت عن إبراهيم وذهابه إلى الحجاز ، فما دام إبراهيم هو الذى ختن إسحاق فهو الذى ختن إسماعيل وما كان إبراهيم يهوديا ، فإن كان للختان معنى دينى فقد أخذ العرب واليهود هذه العادة الدينية عن أبيهم إبراهيم . ولا يضيع هذه الحقيقة أن بنى إسرائيل سجلوا تاريخهم فى كتاب وأن العرب لم

يسجلوه أو أن ما سجلوه قد ضاع ، فإن فقد شهادة الميلاد ليس دليلا على أن صاحب الشهادة لم يولد ، وإن محاولة إرجاع المصطلحات العربية إلى أصلها العبرى فيه افتئات على اللغة العربية ، فقد كانت العربية هى الأصل فى أيام إبراهيم ، وكانت العبرية لهجة من لهجاتها ، وقد ذكر « نولدكه » أن كلمة حنيف من أصل عربى هو « تحنف » على وزن تبرر .

وقد وقفت طويلا عند الأخذ برواية من الروايات المختلفة التى وردت فى بناء الكعبة ، كانت هناك أساطير كثيرة تقرر أن الملائكة أول من بناها ، وأحاديث أخرى تروى كيف بناها آدم . وكان رأى العرب أن إبراهيم أول من بناها ، وكدت آخذ بهذا الرأى لولا أنى وقفت حائرا أمام ما جاء فى القرآن ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ إن إبراهيم يذكر البيت المحرم قبل أن يؤمر بإقامة القواعد من البيت .

قرأت تفسيرات كثيرة لهذه الآية ولكن قلبى لم ينشرح لها ، فعاودت البحث والتنقيب حتى اهتديت إلى رأى أنار لى سبيلى واطمأن إليه عقلى . وجدت أن الصابئة يوقرون الكعبة ويعتقدون أن إدريس عليه السلام بناها وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وأن للصابئة كتابا مقدسا يسمونه « كنزة » فرحت أبحث عن تاريخ إدريس .

ولد إدريس فى منف قبل نوح وقبل عصر الأسرات فى مصر وكان صديقا نبيا : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ .

وحدث إدريس قدماء المصريين عن الله الواحد وعن البعث بعد الموت وعن الثواب والعقاب والميزان ، وما جاء فى عقائد المصريين من

لمحات عن الله الواحد واعتقادهم فى البعث بعد الموت والحياة الآخرة .

وجمعت ما كتب عن إدريس فوجدت أنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر فى علم النجوم والحساب ، وأول من علم الناس الزراعة . وذكرنى ذلك بما كتب عن أزريس إلٰه المصريين ، فرجعت إلى المراجع الفرعونية فإذا بها كلها تذكر أن أزريس كان ملكا فى الأرض قبل عصر الأسرات ، وهو أول من علم الناس الكتابة ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من لبس الثياب ، وأول من علم الناس الحساب ، وأول من عرف مواسم الفيضان وبذر الحبوب .

كان إدريس من منف وكان أزريس من منف ، وقد قام أزريس بكل ما قام به إدريس ، وبدأت أقتنع أن أزريس إن هو إلا إدريس وقد نسجت حوله الأساطير .

وبقيت مسألة علاقة أزريس بإيزيس وحوريس . فعكفت على دراسة هذه العلاقة فوجدت أن حورس ورد من اليمن و لم ينجبه أزريس . وإنما الأسطورة التى نسجها الكهنة هى التى جعلته أبا لحور .

جاء فى كتاب « دراسات فى تاريخ الشرق القديم » للدكتور أحمد فخرى :

« ... ولكن من هو الإلٰه حورس ؟ وما أصله ؟ الجواب على ذلك أن هذا الإلٰه لم تكن له فى الأصل أية صلة بعبادة الشمس وأنه كان رمزا اتخذته إحدى القبائل لمعبود لها على هيئة الصقر وأنه جاء مع الفاتحين ، وفى نصوص الأهرام (وهى أقدم المراجع الدينية وأهمها ٢٥٠٠ — ٢٢٥٠ ق . م) يصفون هذا الإلٰه تارة بكلمة « أختى » وتارة بكلمة

« أبتى » و « أبت » معناها الشرق و « أخت » معناها أفق الشمس ، وكلا الكلمتين تشير إلى المشرق .

ورجعت إلى كتاب « فجر التاريخ » لبرستد فعرفت منه أن أزريس لم يكن له أية علاقة بعبادة الشمس ، وأن كهنته لما اشتد ساعدهم سلبوا صفات الآلهة الآخرين ومنحوها لـه وجعلـوه شريكـا لـرع « إلـٰـه الشمس » .

كانت وظيفة أزريس محاكمة الموتى ، قاضى الموت ، بعد أن صار إلـٰها وارتفع من الأرض إلى السماء ، وقد رفعت الأساطير إدريس إلى السماء تفسيرا لقول الله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » .

قد يقول قائل : إن كان إدريس هو أزريس وإن كان الصابئـون يعتقدون أن إدريس هو أول من بنى الكعبة ، فهل جاء فى التاريخ أو فى الأساطير أن أزريس ذهب إلى بلاد العرب ؟ وإن كان قد ذهب إليها فهل قدس القدماء المصريون هذا المكان ؟

ذكر المؤرخ ديودور الصقلى أن الإلـٰه أزريس أحد آلهة مصر ذهب إلى مدينة تدعى (Nisa) وهى من مدن العربية السعيدة ، فرأى فيها الكرمة لأول مرة ، فتعلم منها زراعتها وشرب النبيذ ، وأنه ذهب إلى الحبشة فأقام هناك سدودا لخزن المياه وتنظيم السقى والارتواء ثم ذهب إلى **بلاد العرب** ومنها إلى الهند . وذكر الزعم القائل بوجود تمثال لأزريس فى بلاد العرب .

وجاء فى كتاب مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة للأستاذين أدولف أرمان وهرمان راتكه: وقد كان المقصود من «الأرض المقدسة» فى الأصل الشرق فقط حيث كان يظهر الإلـٰه وهو رع كل يوم ، وكان هذا

التعبير يدل أيضا فى الحياة اليومية على الصحراء الجبلية بين النيل والبحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، **وكذلك على وجه التحقيق الجزء الشمالى والمتوسط من بلاد العرب** .

ومن كل هذا قوى الاعتقاد عندى أن إدريس من ولد فى منف وعلم المصريين الكتابة والزراعة وأول من بنى البيت المحرم هو أزريس ، إمام شهداء السلف كما قال هيرودوت ، ومن أصبح « دينوسيس » عند الإغريق .

فإذا ما نفضنا الأساطير التى نسجها الكهنة عن أزريس وجدنا أن إدريس وأزريس إن هما إلا شخص واحد ، وأرجو ألا يكون قد جانبنى التوفيق فى ذلك الاستقراء .

وقبل أن أختتم هذا التذييل أحب أن أدون ما طاف بذهنى عن الاستشراق والمستشرقين ، وعن أصحاب البعوث للكشف عن الآثار الذين يحاولون فك رموز لغات الشرق الأوسط بأبجدية لاتينية تقصر عن أن تحل محل كثير من حروف الأبجدية العربية كالضاد والقاف والحاء والخاء والعين .

لقد أدى هؤلاء المستشرقون وأصحاب البعوث للكشف عن الآثار أجل الخدمات للكشف عن تاريخ الشرق الأوسط أو على ما أطلق عليه برستد اسم « الهلال الخصيب » . وقد كان هدف أغلب هؤلاء العلماء إماطة اللثام عن وجه الحقيقة ، غير أن بعضهم كان صاحب هوى وكان يؤدى نفس الدور الذى لعبه أحبار اليهود وكهانهم أيام كانوا يدونون التاريخ الدينى لبنى إسرائيل ، فحاولوا أن يطمسوا كل ما قد يرفع النقاب عن مجد العرب أو اخترعوا مصطلحات أضفوا عليها صبغة علمية

ليجرفوا أنظار العرب بعيدا عن ماضيهم التليد .

كانت حضارة بابل عربية وحضارة العموريين عربيـة وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية ، وقـد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة ، ولكن بعض العلماء رأوا أن ينسبوها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا الأضواء على مجد أقوام نافسوا بنى إسرائيل منذ أيام خليل الرحمن إبراهيم ، فأطلق العالم الألمانى سلوبنسر فى عام ١٧٨١ على هذه الحضارات العربية اسم السامية نسبة إلى سام بن نوح ، وصادف ذلك هوى فى نفوس الآخرين فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية منذ ذلك التاريخ ، وتبعهم فى ذلك الكتاب العرب .

قلت إن الحروف الأبجدية اللاتينية تقصر عن أن تحل محل كثير من حروف الأبجدية العربية وأضيف إلى ذلك أن الأعلام العربية كثيرا ما يصيبها التحريف حتى لتكاد أن تبعد كثيرا عن أصلها ، ولنضرب مثلا بما هو واقع فى العصر الحديث ؛ يطلق ألبو على حلب وكايرو أو لكير على القاهرة أو نحو ذلك فى اللغات الأخرى غير الإنجليزية والفرنسية ، وإن من يقرأ اسم ابن سينا أو ابن رشد فى اللغات الأجنبية ليحسبهما من علماء الألمان أو الفرنسيين .

ومن الأسف أننا نتابع هؤلاء الأجانب فى تحريف أسماء الأعـلام العربية ، فإذا ما تكلمنا بالإنجليزية قلنا أهمِد بدلا من أحمد ومهمِد بدلا من محمد .

ولا شك أن بعض التحريف قد أصاب أسماء الأعلام العربية القديمة عندما فكت رموز تلك اللغات العربية بأحرف لاتينية ، وعلى سبيل المثال تتحدث بعض كتب التاريخ عن الأموريين وبعضها عن العموريين

حتى ليخال المرء أحيانا أن الأموريين شعب آخر غير العموريين ، وبعض الكتب تكتب اسم رب الأرباب فى بابل مردوخ ، وبعضها يكتبها مردوك .

وأعتقد أن وضع الحروف المتحركة فى الأبجدية اللاتينية مكان الفتحة والضمة والكسرة ثم ترجمة هذه الكلمات إلى اللغة العربيـة ووضع حروف المد مكان الحركات قد أفسد الاهتداء إلى أصل هذه الكلمات العربية ، وسأسوق على سبيل المثال بعض الكلمات العربية التى كانت مستعملة فى بابل وذكرتها فى الجزء الأول كما كتبها علماء الآثار العرب الذين نقلوا الكلمات عن الحروف اللاتينية التى استخدمت فى فك رموز الكتابة البابلية العربية : المسكينو .. العاميلو .. الحريماتو .. وإنى أتساءل لماذا لا يكون أصل هذه الكلمات : المسكين والعاملون والحريم وقد أفسدها وضع الحروف المتحركة فى الأبجدية اللاتينية مكان الحركات فى اللغة العربية ؟

وإنى لأرجو وقد أصبح عندنا علماء أجلاء متخصصون فى اللغات العربية القديمة أن يهجروا الترجمة والأخذ عن الأجانب الذين كان لهم فضل عظيم فى الكشف عن آثار بابل وفلسطين وسورية وجزيرة العرب وعن اللغات العربية التى كانت سائدة فى فجر التاريخ ، وأن يقوموا بفك الرموز البابلية والأشورية والثمودية والسريانية والأرامية والكنعانية بحروف عربية وحركات عربية ، وأعتقد أننا لو فعلنا ذلك فسنصل إلى كشف جليل يستحق ما يبذل فيه من جهد وعرق ، وأنا على ثقة أننا فاعلون فإننا قادمون على عهد عظيم للعرب والعروبة ، وسنصل إن شاء الله مجد الحاضر بمجد الماضى التليد .

المراجع

القرآن الكريم	
الكتاب المقدس	
صحيح البخارى	
السيرة النبوية	لابن هشام
تاريخ الطبرى	
تاريخ ابن خلدون	
البداية والنهاية	لابن كثير
أبو الأنبياء	عباس محمود العقاد
تاريخ العرب قبل الإسلام	الدكتور جواد على
قصص الأنبياء (العرائس)	
دراسات فى تاريخ الشرق القديم	للدكتور أحمد فخرى
فجر التاريخ	لهنرى برستد
جمهرة نسب قريش وأخبارها	للزبير بن بكار
مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة	أدولف أرمان وهرمان راتكة ــ ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال
تاريخ اليهود فى جزيرة العرب	الدكتور إسرائيل ولفنستون
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام	الحافظ أبى الطيب تقى الدين محمد ابن أحمد بن على الفاسى المكى المالكى
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	للسمهودى

محمد رسول الله والذين معه

فى ٢٠ جـزءا

١	ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	ـــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	ـــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	ـــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	ـــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦	ـــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	ـــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	ـــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	ـــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	ـــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	ـــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	ـــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	ـــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	ـــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	ـــ صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	ـــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	ـــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	ـــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	ـــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	ـــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٥٩٥٨ / ٧٨
الترقيم الدولى ٣ ـــ ٣٢٥ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

